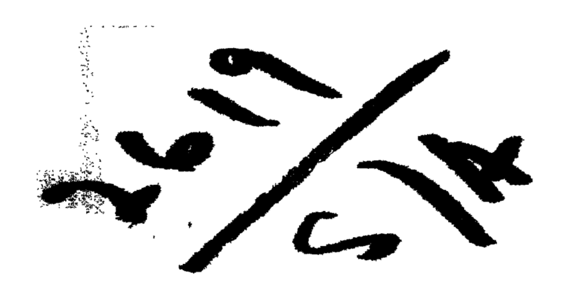
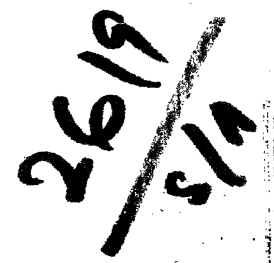


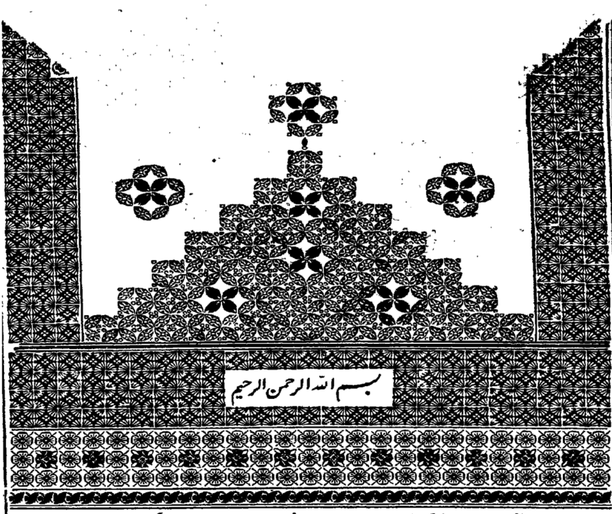
فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء للعلامة
الاديب والفهامة الاريب الشيخ
أحمد بن محمد بن عربشاه
الحنفي تغمده الله تعالى
برحمته ولطفه

الحنفي

م



١٣



(الحمد لله) الذى شهدت الكائنات بوجوده وشمل الموجودات عميم كرمه وجوده ونطقت
الجمادات بقدرته وأعربت العجماوات عن حكمته وتخاطبت الحيوانات بلطيف صنعته
وتناغت الاطيار بتوحيده وتلاغت وحوش القفار بتفريده كل باذل جهده وان من شئ
الا يسبح بحمده يلى المكان ومن فيه والزمان وما يحويه من نام وجامد ومشهود وشاهد
تشهد بانه اله واحد منزه عن الشريك والمعاند مقدس عن الزوجة والولد والوالد مبرأ عن
المعاند والمنادد مسبح باصناف المحامد (أحمده) حمدا تنطق به الشعور والجوارح واشكره
شكرا يصيد نعمه صيد المصيد بالجوارح (وأشهد) أن لا اله الا الله وحده لا شريك له رب
اودع أسرار ربوبيته فى بريته وأظهر أنوار صمديته فى جوانى بحره وبريته فبعض يعرب
بلسان قاله وبعض يعرب بلسان حاله وتسبحه السموات باطيطها والارض بغطيطها
والابحر بخريرها والاسد بزئيرها والحمام بهديرها والطير بتغريدها والرياح بهبوبها
والبهائم بهبيبها والهوام بكشيشها والقدور بنشيشها والخيل بضبحها والكلاب بنبحها
والاقلام بصريرها والنيران بزفيرها والرعود بحجيجها والبغال بشحيجها والانعام برغائها
والذباب بطنينها والقسى برنينها والنياق بحنينها كل قد علم صلاته وتسبيحه ولازم فى ذلك
غبوقه وصبوحه وعمروا بذلك أجسادهم وارواحهم ولكن لا تفقهون تسبيحهم (وأشهد)
أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى من صدقه تم سوله أفضل من بعث بالرسالة وسلمت عليه

الغزالة وكلمه الحجر وآمن به المدر وانشق له القمر ولبت دعوته الشجر واستجار به الجمل وشكا اليه شدة العمل وحن اليه الجذع ودر عليه يابس الضرع وسجت فى كفه الحصباء ونبع من بين أصابعه الماء وصدقه ضب البرية وخاطبته الشاة المصلية صلى الله عليه صلاة تنطق بالاخلاص وتسعى لقائلها بالخلاص وعلى آله اسود المعارك وأصحابه شموس المسالك وسلم تسليما وزاده شرفا وتعظيما (أما بعد) فان الله المقدس فى ذاته المنزه عن سمات النقص فى صفاته قد أودع فى كل ذرة من مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته ومن الحكم والعبر ما لا يدركه البصر ولا تكاد تهتدي اليه الفكر ولا يصل اليه فهم ذوى النظر ولكن بعض ذلك للبصر بالرصد ظاهر يدركه كل أحد قال الله تعالى وجل ثناؤه جلالا وفى الارض ايات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وقال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وقال عز من قائل فى كلامه الطائل ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون وقال الشاعر

فنى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

لكن لما كثرت هذه الآيات والحكم وانتشرت أزهار رياضها فى وهاد العقول والاكم وترادف ما فيها من العجائب والعبر وتكرر ورودها على رعايا السمع والبصر وعادتها النفوس ولم يكترث بوقوعها القلب الشموس ولم يستهجن من وجودها ولم يلتفت الى جنودها فكثر فى ذلك أقوال الحكماء وتكررت مقالات العلماء فلم تصغ الاسماع اليها ولا عولت الافكار عليها فقصد طائفة من الاذكياء وجماعة من حكماء العلماء ممن يعلم طرق المسالك ابراز شئ من ذلك على ألسنة الوحوش وسكان الجبال والعروش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الاطيار وحيتان البحار وسائر الهوام فيسندون اليها الكلام اقبل لسماعه الاسماع وترغب فى مطالعته الطباع لان الوحوش والبهائم والهوام والسوائم غير معتادة لشئ من الحكمة ولا يسند اليها أدب ولا فطنة بل ولا معرفة ولا تعريف ولا قول ولا فعل ولا تكليف لان طبعها الشماس والاذى والافتراس والافساد والنفور والعدوان والشرور والكسر والتفريق والنهش والتمزيق فاذا أسند اليها مكارم الاخلاق وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق وسلكت وهى مجبولة على الخيانة سبيل الوفاء ولازمت وهى مطبوعة على الكدورة طرق الصفاء أصغت الآذان الى استماع أخبارها ومالت الطباع الى استكشاف آثارها وتلقتها القلوب بالقبول والصدور بالانشراح والبصائر بالاستبصار والارواح بالارتياح لكونها أخبارا منسوجة على منوال عجيب وآثارا اسديت لحمتها فى صنع بديع غريب لاسيما الملوك والامراء وأرباب العدل والرؤساء والسادة والكبراء وأبناء الترفه والنعم وذوو المكارم والكرم اذا قرع سمعهم قول القائل صار البغل قاضيا والقرطائع الاعاصيا والقرد رئيس الممالك والثعلب وزير الذلك والدب مؤرخا أديبا والحمار بضماطيبا والكلب كريما والجمل نديما والغراب دليلا والعقاب خليلا والحدأة صاحبة الامانة والفأرة كاتبة الخزانة والحية راقية والبومة ساقية وضحك

النمر متواضعا وغدا الاسد لارشاد الذئب سامعا ورقص الغزال فى عرس القنفذ وغنى الجدى فطرب الجديد وتصادق القط والجرذان وصار السرحان راعى الضان وعانق الليث الحمل والذئب الجمل ورفع الباشق الحمامة على رقبته وحمل ارتاحت لذلك نفوسهم وزال عبوسهم وانشرحت خواطرهم وسرت سرائرهم وأصغت اليه أسماعهم ومالت اليه طباعهم وادى طيشهم الى أن طاب عيشهم ولكن أهل السعادة وأرباب السيادة ومن هو متصد لفصل الحكومات والذى رفعه الله الدرجات فانتصب لاغاثة الملهوفين وخلاص المظلومين من الظالمين والمتنبهون بتوفيق الله تعالى لدقائق الامور وحقائق ما تجرى به الدهور اذا تأملوا فى لطائف الحكم والفرائد التى أودعت فى هذه الكلم ثم تفكروا فى نكت العبر وصفات العدل والسير والاخلاق الحسنة والقضايا المستحسنة المسندة الى ما لا يعقل ولا يفهم وهم من أهل القول الذى يشرف به الانسان ويكرم يزدادون مع ذلك بصيرة ويسلكون بها الطرق المنيرة فتتوفر مسراتهم وتتضاعف لذاتهم وربما ادى بهم فكرهم وانتهى بهم فى أنفسهم أمرهم أن مثل هذه الحيوانات مع كونها عجماوات اذا اتصفت بهذه الصفة وهى غير مكلفة وصدر منها مثل هذه الامور الغريبة والقضايا الحسنة العجيبة فنحن أولى بذلك فيسلكون تلك المسالك وقد ضرب الله ذو الجلال فى كلامه العزيز الامثال فقال مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون وقال سبحانه بعد ذلك وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال سبحانه ما أعظم شانه يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب وقال تعالى ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وقال تعالى وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا وقال تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين اسند سبحانه وتعالى الافعال والاقوال الى الجمادات بعدما وجه الخطاب اليها وقال تعالى ألم تر ان الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم وكل ما جاء فى هذه الطريقة فانه بالنسبة اليه تعالى حقيقة لانه قادر على كل شئ وسواء عنده الميت والحى ولا فرق فى كمال قدرته بالنظر الى قدرته ومشيئته وتصوير كمال عظمته وهيبته بين الناطق والصامت والنامى والجامد والشاهد والغائب والآتى والذاهب كما لا فرق فى هذا الكمال بين الماضى والاستقبال وقال تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وقال فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض وقال تعالى قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقال فى الهدهد فقال احطت بما لم تحط به وقال الشاعر * ولو سكتوا اثنت عليك الحقائب * وقالت العرب فى أمثالها قال الجدار

للوتد لم تشقني قال سل من يدقني قل لمن ورائي يتركني ورائي وقالوا أكرم من الاسد ومن أشهر أمثالهم قالوا ان الارنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا الى الضب فقالت الارنب يا أبا الحسين قال سميعا دعوت قالت اتيناك لنختصم اليك قال عادلا حكما قالت اخرج الينا قال في بيته يؤتى الحكم قالت اني وجدت تمرة قال حلوة فكليها قالت فاختلسها مني الثعلب قال لنفسه بغى الخير قالت فلطمته قال بحقك أخذت قالت فلطمني قال حر انتصر لنفسه قالت فاقض بيننا قال قد قضيت فذهبت هذه الاقوال كلها أمثالا وقالوا تحككت العقرب بالافعى وقال الشاعر

قام الحمام الى البازي يهدده * واستصرخت باسود البر اضبعه

وهذا أمر مستفيض مشهور معروف بين الانام غير منكور والحصر في هذا المعنى يتعسر والاستقصاء يتعذر وانما الاوفق التمثيل والتنظير والاستدلال بالقليل على الكثير فيتفكر السامع تارة ويتفكر أخرى وينتقل في ذلك من الاخفى الى الاجلى ويتوصل بالتأمل في معانيه من الادنى الى الاعلى ومن جملة ما صنف في ذلك واشتهر فيما هنالك وفاق على نظائره بمخبره ومنظره وحاز فنون الفطنه كليله ودمنه والمتمثل بحكمة الطباع كتاب سلوان المطاع والمفحم بنظمه العجيب كل شاعر وأديب مجمز الضراغم الصادح والباغم وفي غير لسان العرب ممن يتعاطى فن الادب جماعة وضعوا أفاويقه وسلكوا من هذا النمط طريقه لكن تقادم عصرهم واشتهر أمرهم وتكرر ذكرهم وصارت مصنفاتهم مطروقه وعتاق نجائبها في ميدان التأمل عتيقه فقلدت من دهري قلاده وعملت بموجب لكل جديد لذه وسيرت فارس الافكار في ميدان هذا المضمار وقصدت من الفائدة ما قصدوه ومن العائدة في الدارين ما رصدوه وجمعت ما بلغني عن نقلة الاخبار وحملة الآثار ورواة الاسفار على لسان شيخ الطائف ومنبع المعارف وامام الطوائف وجمع العوارف ذي الفضل والاحسان أبي المحاسن حسان ووضعت هذا الكتاب نزهة لبني الآداب وعمدة لاولي الالباب من الملوك والنواب والامراء والحجاب وجعلته عشرة أبواب ومن الله استمد الصواب وأستغفره من الخطا في الجواب انه رحيم تواب كريم وهاب *(وسميته)* فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء شعر

فان يغض بحر علمي تهد منه على * در ينير عيون العقل في السدف
البسته من خلاعات النهى خلعا * وربما ازدان عقد الدر بالخزف
والفضل يحتاج في ترويج سلعته * الى الخرافة والمعقول للخرف
فاعبر الى البحر تجن الدر منه ولا * يلهيك عن دره أضحوكة الصدف

الباب الاول في ذكر ملك العرب الذي كان لوضع هذا الكتاب السبب
الباب الثاني في وصايا ملك العجم المتميز عن اقرانه بالفضل والحكم
الباب الثالث في حكم ملك الاتراك مع ختنه الزاهد شيخ النساك
الباب الرابع في مباحث عالم الانسان مع العفريت جان الجان
الباب الخامس في نوادر ملك السباع ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع
الباب السادس في نوادر التيس المشرقي والكلب الافرقي

(الباب الاول)

في ذكر ملك العرب الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب قال الشيخ أبو المحاسن بلغنى عن ذى فضل غير آسن انه كان فيما غبر من الزمان قبل من الاقيال غزير الافضال عزيز الامثال وارث المعارف حائز الفضائل واللطائف وافر السياده كامل السعاده ذو حكم مطاع وجند وأتباع وممالك واسعه ذات أطراف شاسعه تحت أوامر مملوك عقده ذو سطوات ونجده وله من الاولاد الذكور خمسة أنفار كل بالسيادة مذكور وبالعلم والحلم والحكم مشهور ومشكور متوشح للسلطنه متوطن من والده مكانا من الامكنه وكان أسعدهم عند أبيه وهو متميز على اخوته وذويه شمسى المنظر ايامى المخبر ذا فهم مصيب واسعه في فضله حسيب قد حصل أنواعا من العلوم وأدركها من طريق المنطوق والمفهوم وكان لهذا الفضل الجسيم يدعى بين الصغير والكبير الحكيم فلما دعا أباهم داعى الرحيل وعكم الى دار البقاء أجمال التحميل استوى على السرير أكبر أولاده وأطاعه اخوته ورؤس أمرائه واجناده وصار السعد يراقبه والملك لسان الحال يخاطبه شعر

نجوم سماء كلما انقض كوكب * بدا كوكب تأوى اليه كواكب

واستمر اخوته في خدمته مغتنمين أيادى طاعته رافلين في خلع محبته ومودته ومضى على ذلك برهه وهم في ارغد عيش ونزهه ثم انه حصل في خواطر الاخوه ما خطر في خواطر الالداء من الجفوه وقلوب الحساد من الضد والنبوه فداخلتهم النفاسه وطلبوا كأخيهم الرياسه فقلبوا لاخيهم ظهر المجن وأظهر كل ما أكن وقال فيه فما اجن واراد شق العصا وأن يشهر عنه انه عصى غير أن أخاهم الحكيم تفكر في هذا الامر الوخيم وأمعن فيه النظر وساورته الوساوس والفكر فانه وان كان أغزرهم ذكاء وأوفرهم وفاء فهو أصغرهم عمرا وأحقرهم قدرا لا طاقة له على الاستبداد ولا أن ينحاز الى أحد من ذوى العناد اذ الانحياز الى أحدهم ترجيح بلا مرجح وتصحيح لاحد التأويلين بلا مصحح فأداه اجتهاده الى الانخذال وتقليد مذهب الاعتزال والقول بوجوب رعاية الاصلح ومن أمكنه العزلة خصوصا في زمن الفتنة فقد أفلح فأخذ يفكر في تعاطى أسباب الخلاص وكيفية التفصى من عهدة هذا الاقتصاص واستنهض الفكرة الحائرة لتظفر به من سور هذه الدائرة وتأخذ به على جهة واحدة الى أن ينجلى غبار هذه المناكدة ثم اتبع الكتاب في مشاورة الاصحاب فاستشار ثقه من أهل الفقه وعرض عليه العزله وكيف يتمكن من هذه النعمة الجزله فقال له بعد أن استصوب ما به طريق التوصل الى الانفراد يا ذا الدرايه أن تستأذن في تأليف تصنيف وترصيف تأليف يشتمل على فنون من الحكمه

وأنواع من دقائق الادب والفطنه ولطائف التهذيب وأخلاق العباد ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد وتتوفر به مكارم الاخلاق والشيم وعوالى تهذيب النفس وطرائف الفضل والحكم فيظهر بذلك غزارة علمك ويشتهر بين الخاص والعام نباهة فضلك وجلك ولا يقف أحد فى طريقك ولا يقدر أحد أن يتصدى لتعويقك ويحصل بذلك فوائد جمه أدناها الخلاص من ورطة هذه الغمه الى أن ينجلى دجاها وتنجلى شمس الاستقامة وضحاها فاستقر رأى الحكيم حسيب على العمل بهذا الرأى المصيب ثم توكل على الله واعتمده وتوجه الى ما قصده ودخل غير مرتبك على الملك وقبل الارض ووقف فى مقام العرض وذكر ما عزم عليه وتوجه قصده اليه بعبارة رقيقه وألفاظ رشيقه فتأمل الملك فى خطابه وتوقف فى جوابه وكان للملك وزير ذو فضل غزير فى غاية الحماقه والمعرفة والظرافه ان لطف كان رافه وان كثف كان آفه بعيد الغور ان رفع أبلغ الى الثريا وان وضع أنزل الى الثور بينه وبين الحكيم من سالف العهد القديم عداوة مؤكده وشدة مؤبده وتحاسد الاكفاء على قل وعداوة النظراء بجرح لا يندمل فبلغه ما أنهى الحكيم الى مسامع الملك الكريم فتصدى للمعارضه وتهيأ للمعاكسه والمناقضه وأقبل يرفل فى ثوب المكر وقد شد دهاء الختل والختر حتى وقف فى مقامه واستطرد الى قضية الحكيم فى كلامه فأجرى الملك كلام أخيه واستشار الوزير فيه فاغتنم الفرصه وأراد القاءه فى غصه بايراد مثل قصد به ايذاءه وقصه ثم قال أما ما قصده الحكيم من العزله فهو رأى قويم وفكر مستقيم لان الاعداء اذا تفرقوا تشققوا ومتى قلوا ذلوا وقد قيل

وما بكثير ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير

واذا انقص من أعداء الملك واحد سيما مثل اللئيم حسيب الحكيم فهى نعمة طائله وسعادة واصله ودولة مستصحبه وكما قيل نعمة غير مترقبه ويتوصل من ذلك الى تشتيت أمرهم الحالك وتصارم أقوالهم وتخالف أحوالهم واضطراب رأيهم وأفعالهم وقد قيل

وتشتت الاعداء فى آرائهم * سبب لجمع خواطر الاحباب

وأما قصده وضع الكتاب فانه خطأ لا صواب وتعبيره بأن فيه فوائد وحكما واقوال العلماء والحكماء وأن يرفع به للعلم علما فانه مكر وخديعه من سوء السريرة وخبث الطبيعه يريد أن يستر جهله وأن يظهر على فضل الملك فضله ويشتغل بذلك الوسواس على قلوب الناس فتنصرف الوجوه اليه وتقبل الرعايا عليه ولكن يا مولانا الملك لا تمنع ذلك المنهمك وأجبه الى ما سأل وطالبه بما بذل وألزمه بالانفراد ودعه وما أراد فان عدم اجتماعه بالناس لنافيه أمن من الباس فيشتغل حينئذ بنفسه ويتقلب فى طرده وعكسه وأسأل مولانا السلطان ذا الايادى والاحسان قبل الاذن له وشروعه فى المسئله أن يجمع بينى وبينه لابين شينه وزينه وأظهر لمولانا السلطان زوره ومينه فيتحقق دسائسه وما بنى عليه وساوسه وادى اليه فكره ووصل اليه خداعه ومكره فعند ذلك يصدر أمره الشريف بما يقتضيه رأيه المنيف فاجابه الى سؤاله وأمر طائفة من رجاله فسيرهم الى الآفاق بمراسيم جمعها الاتفاق الى رؤساء مملكته وكبراء دولته فاستدعى العلماء وذوى الفضل والحكماء وأولى الآراء والصلحاء ومن يشار اليه

بالفضائل ويتسم بسمة من الفواضل وكل اديب أريب من بعيد أو قريب وقاطن وغريب وبين لهم مكانا يجتمعون اليه وزمانا لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون عليه فاجتمع القوم فى ذلك اليوم حسبما برز المرسوم فى المكان المعلوم وجلس الملك فى مجلس عام وحضره الخاص والعام واستدعى أخاه الحكيم وقابله بالاحترام والتكريم وأنواع الاحسان والتعظيم ثم قال أيها الاخ الكريم والفاضل الحكيم كان تقدم منك الالتماس بالاذن فى تصنيف كتاب ينفع الناس مشتمل على الفوائد وفنون الحكم والفرائد يكسب الثواب الجزيل ويخلد الذكر الجميل فاحببت أن يكون ذلك بحضرة العلماء ومجمع الاكابر والفضلاء واتفاق آراء الحكماء وأرباب الدولة والمناصب وذوى الوظائف والمراتب وأهل الحل والعقد المتصرفين فى الحكم والامثال والنقد ليأخذ كل منهم حظه ويشنف سمعه ويزين لفظه ولحظه فتتم الفائده وتشمل العائده ويتحقق كل سامع وقائل مالك من الفضائل والفواضل وتميز على أقرانك ورؤساء زمانك ويبلغ الاطراف وسائر الاكناف ما لديك للناس من اسعاف وما قصدت لهم من احسان وألطاف فيتوفر لك الدعاء ويكثر لك الشكر والثناء لعظم فضلك وحسن آدابك فى نقلك وقد أذنا لك فى الكلام وسلمنا اليد تصريفك فيه الزمام لعلمنا أنك فارس ميدانه وفى بيان معانيك بديع بيانه ولسان فصاحتك يدحرج كرة البلاغة كيف شاء بصولجانه فقل ما بدا لك أحسن الله حالك فنهض الحكيم من مكانه وحسر طرف لثامه وبادر الى الارض بالتثامه وقال حيث أذن مولانا السلطان وتصدق بالاذن فى حسن البيان فلا بد من اتمام الاحسان وذلك بالاصغاء وحسن الرعاية والارعاء فان حسن الاستماع هو طريق الانتفاع وهو الدرجة الثانية وهى مرتبة سامية فان حسن الاداء هى المرتبة الاولى وتليها أيها الملك المطاع مرتبة حسن الاستماع ثم تليها فى الزياده مرتبة الاستفاده والمرتبة الرابعة وهى الجامعة النافعة درجة العمل وبها الفضل اكمل وأما الغاية القصوى والدرجة العليا والمرتبة الفاخره فهى الاخلاص فى العمل وطلب الآخره واتباع رضا المولى بترك السمعة والريا ثم لحظ العلوم الوضيحة أن النصيحة من حيث هى نصيحه تمجها القلوب غلظا منها وتنفر النفس عنها لان النفس مائلة الى الفساد والنصيحة داعية الى الرشاد والنصيحة محض خير وبر والنفس مطبوعة على الاذى والشر فبينهما تنافر من أصل الخلقه وتباين من نفس الفطره والنفس تميل الى ما جبلت عليه والنصيحة تجذب الى ما تدعو اليه قال العزيز الجبار حكاية عن الكفار ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لاكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وانا أدعوكم الى العزيز الغفار فالسعيد من تأمل فى معانى الحكم وسلك السبيل الاقوم وتدبر فى عواقب الامور بالافتكار وتلقى الاشياء من طرف الاعتبار وقد قيل

اذا لم يعن قول النصيح بقول * فان معاريض الكلام فضول

ثم عش واسلم وتيقن واعلم يا مالك الزمان أن أفضل شئ حل فى وجود الانسان وأحسن جوهرة تزين بها عقد تركيبه العقل الداعى الى كيفية تهذيبه فى أساليبه وأفضل درة ترصع بها تاج العقل فى تزيينه وترتيبه الخلق الحسن الذى فضل الله به خير خلقه فى تعليمه وتأديبه وخاطب بذلك نبيه الكريم فقال وانك لعلى خلق عظيم وبالخلق الحسن ينال شرف الذكر فى الدارين

ولايضع الله الخلق الحسن الا فى من اصطفاه من الثقلين وأفضل جنس الانسان بعد الرسول
الرفيع الشان الملك الذى يحيي أحكام شريعته ويمشي على سنته وطريقته واذا كان الملك
حسن الخلق والفعال فهو فى الدرجة العليا من الكمال قال الرسول النجيب صاحب التاج
والقضيب محمد المصطفى الحبيب صلى الله عليه وسلم صلاة تمسك باذيالها الطيب ويفرغ
لنسمات قبولها الغصن الرطيب ألا أخبركم على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب
وروى أن ذلك السيد السديد الكامل المكمل الرشيد اتى برجل فكلمه فأرعد فقال هون
عليك فانى لست بملك ولا جبارا أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ومن جملة حسن
الخلق العدل والشفقة على الرعية والفضل واذا حسن خلق الملوك العليه صلحت بالضرورة
الرعيه طائعة أو كارهه وسعت فى ميدان الطاعة فارهه فان الناس على دين ملوكهم
وسالكون طرائق سلوكهم وارذل عادة الملوك الطيش والخفه وان يكون ميزان عقله خالى
الكفه وان عدم الثبات والوقار من عادة الاطفال والصغار والرجل الخفيف القليل الحيله
لا يقدر على تدبير الامور الجليله ولا باب بوجد له ولاطاقه للدخول فى الاشغال الشاقه
ولا يستطيع أن يتحمل ثقل الرياسه ويتعاطى الايالة والسياسه ولا قدرة له على فصل
الحكومات المشكله والقضايا العريضة المعضله ولا الوصول الى اثبات السيادة ولا الدخول
فى أبواب السعاده فان تدبير الممالك وسلوك هذه المسالك يحتاج الى رجل كالجبل
فى السكون والوقار أوان الثبات وكالبحر الهائج والسيل الهامر اوان الحركات واعلم
ياذا العلا والمالك المال والدما انه يجب على الملك الكبير اجتناب الاسراف والتبذير فانه
حافظ دماء الناس وأموالهم مراقب مصالحهم فى حالتى حالهم ومآلهم والمال الذى
فى خزائنه قد اجتمع من وجوه مكامنه ومن خراج مملكته ومن اعدائه ومعادنه انما هو
للرعيه ليذهب عنهم البليه ويصرفه فى مصالحهم وما يحدث من حوائجهم وجوائحهم
فهو فى يده امانه وصرفه فى غير وجهه خيانه فكما لا ينبغى أن يتصرف فى مال نفسه بالتبذير
كذلك لا يتصرف فى اموالهم بالاسراف والتقتير ومصداق هذا المقال قول ذى الجلال
جل كلاما وعز مقاما والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فينبغى
للملك بل يجب أن لا يستتر عن الرعية ولا يحتجب وان لا يبادر برسوم الا بعد تحقيق المعلوم
ولا يبرز مرسومه مالم يتحقق فيه معلومه وذلك بعد التأمل والتدبر وستر عورة القضية
والتفكر وهذا لان مرسوم السلطان على فم أبناء الزمان وهو بمنزلة القضاء النازل من
السماء واذا نزل القضاء وفتحت له ابواب السماء فلا يرد ولا يصد ولا يعوقه عن مضيه
عدد ولا عدد ولا حيلة فى منعه لاحد وامرا وفى الامر على زيد وعمرو كالسهم الخارج
من الوتر بل شبه القضاء والقدر تعجز عن ادراك سره قوى البشر فكما انه اذا انفذ سهم القضاء
والقدر لا يمنعه ترس حيلة ولا يصده درع حذر فكذلك امر السلطان لا يثبت لرده حيوان
ولا يمكن تلقيه الا بالامضاء والاذعان فاذا لم يتدبر قبل ابرازه فى عواقب مآله واعجازه ربما
ادى الى الندم والتأسف حيث زلت القدم ولا يفيد التلافى بعد التلاف ولا يرد السهم الى
القوس وقد خرق الشغاف وكما أن الملك سلطان الانام كذلك كلامه سلطان الكلام وكل

ما نسب اليه فهو سلطان جنسه فيجب عليه حفظ كلامه كحفظ نفسه *(وحسبك يا ملك
الزمان لطيفة الملك انوشروان) * فبرزت المراسيم الشريفه ببيان تلك اللطيفه فقال الحكيم
ذكر أهل السير ونقلة الاثر أن الملك انوشروان كان راكبا في السيران فجمح به فرسه
وقوي عليه نفسه فاستخف شانه وجبذ عنانه فهمزه ولكزه وضربه ونخزه فزاد جموحا
ومادجوحا فتجاذبا العنان فانقطع وكاد أنوشروان أن يقع فلاطف الفرس فاستكان
ونجا بعد أن كاد يدخل في خبر كان فلما وصل الى محل ولايته واستقر راجف قلبه من مخافته
دعا بسائس المركوب فلبى دعوته وهو مرعوب فلعنه وشتمه وأراد أن يقطع يده وقدمه
وقال تلجم هذه الداهيه بلجام سيوره واهيه فانقطعت في عيني وكاد الفحل يرميني ثم دعا
بالمقارع وبالجلاد ليقطع منه الاكارع فقال السائس المسكين أيها الملك المكين وصاحب
العدل والتمكين اسالك بالله الذي رفعك الى هذا المقام أن تسمع لي هذا الكلام فقال قل
ولا تطل قال كان هذا العنان يقول وكلامه فصل لا فضول ومقوله قريب من العقول
الملك أنوشروان سلطان الانس وفرسه سلطان هذا الجنس وقد تجاذبني قوة سلطانين فاين لي
طاقة هذا الثبات لهما ومن أين لا جرم ذهب مني الحيل فتفرقت بين سلطان للانس وملك الخيل
فأعجب أنوشروان من السائس هذا البيان فانعم عليه واطلقه ومن رق عقابه وعذابه اعتقه
وانما أوردت هذا البيان ليتحقق مولانا السلطان أن حركاته ملك الحركات وصفاته
سلطانة الصفات وكلامه ملك الكلام فلا يصرفه في كل مقام وليصنه بالتأمل قبل القول
وليحتط لبروزه ويحفظه بالصدق والطول واذا أمر بأمر فلا يرجع فيه بل يستمر على ما أمر
به لئلا يقال سفيه ثم اعلم يا ملك الرقاب أن كلا من الثواب والعقاب له حد معلوم ومقدار
مفهوم ينبغي للملك أن لا يتعدى لذلك حدا وعلى الملك أن يصغي للنصيحة عن مودة صحيحة
وقد جرب منه الصدق وعلم منه الاخلاص في النطق لاسيما اذا كان ذا عقل صحيح وود
صريح ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها فبرودة الخاطر وسلامة القلب حرقة
حرارتها فان الناصح المشفق كالطبيب الحاذق فان المريض الكئيب اذا شكا الى الطبيب
شدة ألمه من مرارته فه يصف له دواء مرا فيزيد حرارته حرا فلا يجد بدا من شربه وان
كان في الحال ينهض بكربه لعلمه بصدق الطبيب وانه في الرأي مصيب وما قصد بالدواء المر
زيادة الضر وانما قصد بالمه عود الحلاوة الى فمه ولا يستحقر النصيحة ان كانت صادقة صحيحه
ولا الناصح خصوصا الرجل الصالح فان سليمان وهو من أجل الانبياء الكرام عليهم الصلاة
والسلام وأحد من ملك الدنيا وحكم على الجن والانس والطير والوحش والهوام استشار
نملة حقيره فنجح في أمره وخالف وزيره آصف بن برخيا فابتلي بفقره وسلب من جميع
ما ملك وصار كما قيل أجير الصياد السمك ثم قال الحكيم حسيب أيها الملك الحسيب وانا لما
رأيت أمور المملكة قد اختلت ومباشري مصالح الرعية قلوبهم اعتلت ولعبوا بالثقيل
والخفيف واستطال القوي منهم على الضعيف ومدوا أيديهم الى الاموال بالباطل
واظهروا الحالي في حلية العاطل وخرجوا عن دائرة العدل واطرحوا أهل العلم والدين
والفضل وتولى المناصب غير أهلها ونزلت المراتب الى غير محلها وحرم المستحقون وأبطل

المحقون الى أن وقع الاختلال وعم الفساد والضلال وقويت أعضاد الظلمة على العباد وسائر القرى والبلاد وهذا لا يليق بشرف مولانا الملك ولا باصله ولا يجوز في شرع المروأة أن يكون الظلم طراز عدله اذ قدره العلى وأصله الزكى أعظم مقاما من ذلك ولا يحسن أن ينتشر الاصيت رأفته فى الممالك وعلى الخير مضى سلفه الكرام وانطوى على ما آثرهم صحائف الايام وقد قيل

فان الظلم من كل قبيح * واقبح ما يكون من النبيه

وقيل

ولم ارفى عيوب الناس شيأ * كنقص القادرين على التمام

ما وسعني الا الاغضاء الى العزلة والتعلق بذيل الانفراد والواحدة وما امكنني أن اعمل شيأ ولا أقطع دون العرض على الآراء الشريفة وامتثال ما تبرز مراسيمها المنيفة فقد قال الناصح فى بعض النصائح لا تخاطب الملوك فيما لم يسألوك ولا تقدم على ما لم يأمروك فلما أذن فى الكلام تحت هذا المقام فقلت قطرة من بحور وذوة من طور ورأيت ذلك واجبا على ونفعه عائدا الى وذكرت بعض ما وجب على سائر الناصحين ولزم ذكره جميع المسلمين من طريق واحدة ولزمني انا من طرق متعددة ادناها طريق المروة واعلاها بل اغلاها وثيق الاخوة التى هى اقوى الاسباب وأعظم الوصلات فى هذا الباب فان لحمة القرابة هى السبب الذى لا يقطعه سيف الحدثان والبنيان الذى لا يهدمه معول الزمان واساس الاخوة عنون الفتوة قال الله تعالى وعز جلاله وتقدس كماله سنشد عضدك بأخيك وقال القائل

أخاك أخاك ان من لا أخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح

(وناهيك بايذين الملك بقصة الولهى مع الضحاك) قال أخبرنا أيها الحكيم بذلك الحديث القديم قال الحكيم بلغنا عن التاريخ الباذخ الشماريخ أن الضحاك كان من احسن الناس سيرة واصفاهم سريرة قد فاق الناس فضلا وبلغ ذكره الآفاق عدلا فتزياله ابليس فى صورة الدهاء والتلبيس فزعم ذلك الطباخ انه طباخ وصار كل يوم يهيئ له من أطيب الاطعمه ولذيذ الاغذيه ما يعجز به غيره ولا يقدر أحد أن يسير بسيره ولم يأخذ على ذلك جرايه فبلغت مرتبته عنده النهايه واستمر على ذلك مدة مديده واياما عديده والناس تكره أن تخدم بغير أجرة خصوصا فى هذا الزمان رؤساء الاعيان فقال له الامام فى بعض الايام لقد أوجبت علينا يدا وشكرا وما سألتنا على ذلك أجرا فاقترح ما تختار أكافئك بامهار فقال تمنيت عليك ان أقبل بين كتفيك فأذن لى بذلك انه يقال قبل بدن الضحاك فأجابه لذلك وأجابه وحسر عن بدنه ثيابه وأدار ظهره اليه فقبل لوحى كتفيه ثم غاب عن عينه ولم يقف على أثره ولا عينه فبحجرد مالثمه ومس فمه جسمه أخذته حكة وشكة وموضع لثمه شكة ثم خرج من موضع فيه سلعة تلذعه شر لذعة وتلسعه احر لسعة ثم صارا حيتين أشبهتا كيتين فصار يستغيث ولا مغيث فطلب الاطباء فأعياهم هذا الداء ثم لم يقر له قرار ولم يأخذه سكون ولا اصطبار الا بدماغ الانسان دون سائر الحيوان فتذيد الفتك ولاجل الادمغة استعمل السفك فضجر الناس لهذا البأس وصاحوا وناحوا وغدوا مستغيثين وراحوا فوقع الاتفاق بعد الشقاق على الاقتراع لدفع النزاع فمن خرجت قرعته كسرت قرعته

وأخذ دماغه وحصل لغيره فراغه فما لجوابه الكيتين وغدوا به الحيتين فيبرد الالم ويخف السقم ففي بعض الادوار خرجت القرعة على ثلاثة أنفار فربطوا بالاغلال ودفعوا الى النكال ليجرى عليهم ماجرى على الامثال فبينما هم في الحبس بين طالع نحس وطرد وعكس وقف للضحاك امرأة وضيه واستغاثت به في هذه القضيه فادناها وسأل مادهاها فقالت ثلاثة أنفار من دار لاصبر لى عنهم ولاقرار وحاشى عدل السلطان أن يرضى بهذا العدوان ولدى كبدى وأخى عضدى وزوجى معتمدى وكل مسجون يسقى كاس المنون فرق لها الضحاك وقال لايعمهم الهلاك فاذهبى بامغاثة واختارى واحدا من الثلاثة وجهزها الى الحبس ليقع اختيارها على من يدفع اللبس فتصدت لها الزوج وتمنى الخلاص من ذلك البوح فتذكرت ما مضى من عيشها معه وانقضى واستحضرت طيب اللذات والاوقات المستلذات فاتت اليه ومالت عليه فتحركت الانفس الانسانية والشهوة الحيوانية فهمت بطلبه وتعلقت بسببه فوقع بصرها على ولدها فلذة كبدها فرأت صباحة خده ورشاقة قده فتذكرت طفوليته وصباه وتربيتها اياه وحمله وارضاعه وتناغيه واوضاعه فعطفت عليه جوارحها ومالت اليه جوانحها فقصدت أن تختاره وترجح أفكاره فلمحت أخاها باكيا مطرقا عانيا قد أيس من نفسه وتيقن الاقامة بحبسه لانه يعلم انها لاتترك زوجها وابنها ولاتختاره عليهما ولاتميل الا اليهما فافتكرت طويلا واستعملت الرأى الصائب دليلا ثم أداها الفكر الدقيق وارشدها التوفيق وقالت أختار اخى الشقيق فبلغ الضحاك ماكان من أمرها واختيارها الاخ بفكرها فدعاها وسألها عن سبب اختيارها أخاها وقال ان أتت بجواب صواب وهبتها اياهم مع زيادة الثواب وان لم تأت بفائدة قاطعة وعائدة فى الجواب نافعة كانت فى قتلهم الرابعة فقالت اعلم واسلم أنى ذكرت زوجى وطيب عشرته وأوقات معانقته ولذته وما مضى معه من حسن العيش وانقضى من خفة الاحلام والطيش فملت اليه وعولت فى الطلب عليه ثم أبصرت ابنى فتذكرت مقامه فى بطنى وما مضى لى عليه من عاطفه وشفقة عامة فى الايام السالفة فهمنى حبه القديم وشكله القويم فملت الى اختياره وخلاصه من بواره ثم لمحت أخى المتقدم عليهما فقست مقامه بالنظر اليهما فقلت انى امرأة مرغوبة قينة عاقلة مطلوبة ان راح زوجى فعنه بدل وان حصل الزوج وجد الولد وحصل فتهيأ الغرض ووجد عنهما العوض وأما الاخ الشقيق فاعنه عوض فى التحقيق لان أبوينا ماتا وفاتا وصارا تحت الارض رفاتا فهذا الذى أدى اليه افتكارى ووقع عليه اختيارى وأنشده لسان الحال فيما قال (شعر)

وكم ابصرت من حسن ولكن * عليك من الورى وقع اختيارى

قال فاستحسن الضحاك هذا الكلام ووهبها جماعتها مع زيادة الانعام (قال الحكيم) وانما أوردت هذا المثل لمولانا الملك الاجل وعرضته على الحضار ومسامع النظار ليعلم أن لى عن كل شئ بدلا وأما عن مولانا السلطان فلا كما قال من أجاد فى المقال

وقد تعوضت عن كل بمشبهه * فما وجدت لايام الصبا عوضا

وليس لى عوض الا فى بقاء ذاتك المحروسة ودوام حياتك العزيزة المأنوسة ثم انى اخاف

والعياذ بالله تعالى أن هذه الفتن التي قد أقبلت والحركات الداهية التي وجوه الخلاص منها قد اشكلت تستأصل شأفة اسلافنا الكرام وتقرض شرف اجدادنا الملوك العظام فاخترت العزلة لذلك فانها اسلم الطرق والمسالك (قال الملك) لقد صدقت اذ نطقت وتحريت الصواب في الخطاب وانا اتحقق حسن نيتك وخلوص طويتك وحسن وفائك ويمن آرائك فانك اخ شقيق وصدوق صديق ولكن تعلم ان هذا الوزير رجل خطير ورأيه مستنير وفضله غزير وهو من أصل كبير وله علينا حق كثير وأريد أن يقع ما عزمت عليه وفوضت فكرك المصيب اليه مع محاورته ومناظرته ومشاورته فان كلا منكما ناصح مشفق وحكيم مدقق وعالم محقق وفي مثل هذه الاشياء اذا اتفقت الآراء وطال النفس تكاشف نور القبس وسعد البخت وتمكن التخت وصح الحق ووضح الصدق لاسيما اذا كان الكلام بين عالمين والسؤال والجواب من فاضلين كاملين (قال الحكيم) ايها الملك العظيم اذا قام الانسان في صدد المعارضة وتصدى في البحث الى المعاكسة والمناقضة لاسيما ان كان من أهل الفصاحة واللسن وساعده في ذلك الادراك الحسن لايعجز أن يقابل الايجاب بالسلب والاستقامة بالقلب والعكس بالطرد والقبول بالرد ويكفي في جواب المتكلم اذا أورد مسئلة لا أسلم وقد قيل في الاقاويل لا تنفع الشفاعة باللجاج ولا النصيحة بالاحتجاج أما انا فقد بذلت جهدي وأديت في النصيحة ما عندي وكشفت عن مخدرات التحقيق استار السبك وكررت على محك التصديق آثار الحك فان وعيتم كلامي بسمع حي فقد تبين الرشد من الغي وان اعرضتم عن عين اليقين فلا اكراه في الدين فتصدى الوزير للكلام وحسر عن ثغر بيانه اللثام وبرز في ملابس الملاينة والخداع وسلك بخبث الطباع طرق الملاطفة والاصطناع ودس السم في الشهد ونزل من اليفاع الى الوهد وقال الحمد لله الكريم الذي من على مولانا الملك بهذا الاخ الحكيم الفاضل الحليم الكامل العليم الناظر في العواقب ذي الرأي المصيب والفكر الثاقب فلقد بالغ في النصيحة بعباراته الصحيحة واشاراته المليحة وكل شئ أبداه الى المسامع وانهاه هو الذي ترتضيه العقل ويرتضيه العدل ويقبله الطبع القويم اذ هو المنهج المستقيم يترتب عليه الذكر الجميل ويحصل به الثواب الجزيل لكن الذي تعرفه في حفظ الرياسة واقامة ناموس السياسة هو الذي عليه القوم في هذا اليوم وجرت عليه عادات الاكابر وانخرط في سلكه الاصاغر فان الزمان فسد والفضل فيه كسد وزاد فيه الحقد والحسد وتشرب المكر والاذى الروح والجسد وكل في الروغان ثعلب وفي العدوان اسد وصار هذا مقتضى الحال والمحمود من الخصال والمطلوب من الرجال والناس يدورون بزمانهم بقدر مكانهم وامكانهم وقد قيل الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم وبعض السياسات عند اهل الرياسات يقتضي العقوبة بالتغريم وأخذ المال بالترسيم ولولا عفو الملك عن المجرم ما طمع كل مؤذ ومجرم ومن الحماقة والبله معاقبة من لاذنب له فان وضع الاشياء في محلها وزمام الامور والمناصب في يد اهلها هو احد قوانين الشرع والسياسة ومقتضى العقل والكياسة والعدل والرياسة والعقل والفراسة والفضل والنفاسة وناهيك ايها الحكيم الفاضل قول القائل

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

وما قيل

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم

ومن مقالات الملك أتابك أردشير بن بابك رب اراقة دم تمنع من اراقة دم وفي أمثال العرب القتل أنفى للقتل وقيل

لعل عتبك محمود عواقبه * وربما صحت الاجساد بالعلل

وهذا كله مصداق قوله تعالى ولكم في القصاص حياة (وناهيك بإذا القدر الخطير قصة قابوس بن وشمكير) قال الحكيم للوزير اخبرني ايها الدستور الكبير بكيفية ما انت اليه مشير قال الوزير ذكر ان قابوس بن وشمكير ذا الاستدبير قبض عليه جماعة كانوا جبذوا ايديهم من الطاعة من اركان دولته وبقيان صولته ثم قيدوه وحبسوه وأقاموا ولده مقامه وأجلسوه ثم انهم لم يأمنوا غوائله وأفكاره الصائلة فتوامروا أن يسبكوه ويعمدوا الى دمه فيسفكوه فارسلوا اليه قاتلا فوثب اليه سائلا وقال له ما سبب قتلي وما نابهم من اجلي مع كثرة احساني اليهم وانسبال ذيل اكرامي وانعامي عليهم وتربيتي اياهم كالاولاد وقلذا الاكباد وصوني اياهم عمن آذاهم فقال كثرة اراقة الدماء هاجت عليك الغرماء واكثرت لك الخصماء لما تغيرت خواطرهم عليك خافوا وقبل أن تحيف عليهم خافوا فقال قابوس والله ما سبب هذا النكد والبوس واثارة هؤلاء الخصماء الاقلة اراقتي للدماء يعني لو أراق دماء القائمين عليه لما وصل هذا المكروه اليه فلما ابقى عليهم أفنوه وحين ترك اذاهم آذوه وانما أوردت هذا التنظير ليقف خاطرك الخطير أن امور الرياسة وقواعد السياسة كانت تقتضي السبك واحرى بالعفو والترك وأما الآن فذلك الحكم قد انتسخ والفساد في قلوب العباد رسخ وقد قيل

تطبى الضرورات في الامور الى * سلوك مالا يليق بالادب

ومزاج الزمان قد تغير والمعروف منه قد تنكر وقد أعرضوا عن طاعة السلطان واتبعوا مخادعة الشيطان وكل منهم قد شرخ وباض الشيطان في دماغه وفرخ وتصور بخيالاته الفاسدة ومحالاته الكاسدة انه بما يكيد يبلغ ما يريد وهيهات وشتان شعر

لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا كما قال الله تعالى يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى والبسه من خلع جبروته كمالا وجلالا وجعلهم بأموره قائمين وبعين عنايته ملحوظين وكما ان الرسل والانبياء والسادة الاعلام الاصفياء هم صفوة الله من خليقته ومختاره ممن خير بريته من غير كد ولا جهد ولا سعي منهم ولا جد مما ربطوا على النبوة والرسالة ولا رشوا على نيل هذه الكرامة والنبالة انما هو محض فضل من الله تعالى وعناياته والله أعلم حيث يجعل رسالاته كذلك الملوك والسلاطين والقائمون باقامة شعائر الدين هم ممن اختاره الله على خلقه وأجرى على يديه لهم بحار كرمه ورزقه والسلطان ظل الله في أرضه يجري بين عباده شريعته وفرضه قال من له الخلق والامر

اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر وقد أغفل أهل هذه الممالك عن السلوك فى هذه المسالك وعن درك هذه الحقائق وأعرضوا عن الدخول فى أحسن الطرائق وهى طريق المحاسنه والصفح والمكارمه وعدوا الكرم من أحسن الرياسه والعقل والكياسه والتحيل لاكل أموال الناس من الذكاء ومظالم العباد من خلال الصدق والصفاء وتملقهم للملوك والسلاطين من أسباب الوصول الى الاغراض مع تحسين الظواهر وفى البواطن أمراض فظواهرهم ظواهر الانس تشتمل على المودة والانس وما فيهم تحت الثياب الا كلاب وذئاب ولاجل هذا اسلطنا الله عليهم ومد يد بطشنا اليهم نعاملهم بالفراسه ونعمل بما تقتضيه الكياسه وتصوبه الآراء السلطانية من قواعد السياسه * قال الحكيم حسيب بعد ما ادرك ما فى هذا الكلام من تكرغير مصيب (اعلم ايها الوزير النافع الناصح والدستور الشفيق المصالح أن الرعية بمنزلة السرج والملك بمنزلة الشمس فى البرج واذا تلألأ على صفحات الاكوان وآثار فى وجه الزمان والمكان اشعة نور الشمس الوهاج فأى شعاع ووجود يبقى للسراج وان انوار قلوب الرعايا وما يحصل لها من اشراق ومزايا انما هى من فيض اشعة ملوكهم وأن الرعية تتبع الملوك فى سلوكهم فاذا صفت مرآة قلب السلطان اشرقت بالطاعة قلوب الرعايا والاعوان بل الزمان والمكان تابعان لما يضمره ويتويه السلطان وقد قيل اذا تغير السلطان تغير الزمان (وهل أتاك أيها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور) قال الوزير أخبرنا بالواقعة كيف كانت تلك الواقعة * قال الحكيم اخبرنى شيخ عليم بالفضل مشهور أن بهرام جور وكان ذا أيد عزم على الصيد فخرج فى عسكر جرار واستوى فى الصحارى والقفار وبينما هم قد تفرقوا فى المشاعر الا وقد حركت يد الشمال غربال المطر ثم تراكم من السحاب على وجه عروس السماء النقاب وانهل الغمام المدرار وصارت الدنيا جنات تجرى من تحتها الانهار وأقبلت سوابق السيول تجرى فى مضمارها الخيول فتشتت العساكر وتشوشت الخواطر فقصد بهرام جور كفرا من الكفور وطلب القرى من تلك القرى منفردا عن عسكره مخفيا من خبره فنزل بيت الرئيس وهو رجل خسيس فلم يقم من حقه بالواجب لانه لم يعلم ذلك الراكب فتشوش خاطره وتكدرت ضمائره وتغيرت عليهم نيته وان لم تتغير بشرته فلما اقبل الليل جاء الراعى وهو يدعو بالويل ويشكو كثرة المحن من قلة اللبن وذكر أن المواشى لم تدر ضرعا مع أن رعيتها كانت أحسن مرعى ولا وقف لذلك على سبب ولا درى كيف حال حالها وانقلب وكان للرئيس بنت تخجل الاقمار بخدها وتقصف الاغصان على قدها فلما سمعت كلام الراعى قالت والله انا أعرف السبب والداعى وهو أن السلطان الذى نيته حفظ أرطاننا تغيرت نيته علينا وتقدم ضميره بالسوء الينا فظهر النقص فى ماشيتنا وسيتعدى ذلك الى أنفسنا وحاشيتنا وقد قيل اذا هم الحاكم بالجور على الرعايا ادخل الله النقص فى اموالهم حتى الزروع والضروع قال أبوها فاذا كان الامر كذلك فلا مقام لنا فى هذه الممالك فالاولى ان نتحول عن هذا المكان الى مقام لا يضمر فيه سوأ رعيته السلطان ونستريح فى ظل حاكمه ونرعى فى مسارح مكارمه كل هذا وبهرام يصغى الى هذا الكلام فقالت البنت ان كان ولا بد من الانتقال

واقتعاد مطية الارتحال فما نصنع بهذه الاثقال والاوزار الثقال تقدم لهذا الضيف منه يحصل التخفيف عنها ويقع بذلك فائدتان احداهما حسن الضيف وثانيهما التخفيف فامتثل أبوها أمر بنته ونقل الى الضيف ماحواه بيته من طعام وشراب ونقل وكباب وبسط بساط النشاط وأخذ في دواعي الانبساط وانتقلا من المحاشمه الى المكالمة والمنادمه وعمل بموجب ماقيل

وما بقيت من اللذات الا * احاديث الكرام على المدام

فلما هجم جيش السكر وهزم جند العقل والفكر تذكر بهرام مجالسته ومؤانسته فيها ومحادثته ومافيها من مغازلة الغزلات وأصوات الاغاني والقيان فأبانت حشمة السلطنة عن مضمرها وتفوه بشئ يلوح بخبرها وشاقت نفسه الى معتادها فأعرب شطحها عن مرادها وقال للرئيس أيها النديم الكيس لو كان لنا من يطربنا بصوته ويبهجنا بصورته ولو أنها وصيفه أو ذو صورة لطيفه ولا نطلب زيادة عن النظر وحسن المفاكهة والسمر والمنادمة الى السحر لزالت وحشة الاغتراب ودهشة حدة الشراب فانه قيل الشراب بغير نغم غم وبغير دسم سم وان مذهبنا ما قيل

انا أذنون اصبت في زيارتكم * فانكم في محل السمع والبصر
لا يضمر السوء ان طال الجلوس به * عف الضمير ولكن فاسق النظر

فنهض الرئيس وترك مذهبه الخسيس واستعمل المروه وسلك سبيل الفتوه وأنشد يقول

وكل قيادة لاخ وخل * بلا جعل فتلك من المروءه

وأخطر البال ما نظمه الشاعر وقال

يا ناظم الشعر في مقام فتى * يقود فاسمع مقالة الظرفا
الف هذا بحروفه سجعت * همة هذا فالف الحرفا

ومن مذهب المجوس اباحة فرج العروس فدخل في بيته وذكر ما جرى بينه وبين ضيفه لابنته وقال أي ربيبة الحسن والاحسان أظن أن ضيفنا من أكابر الاعيان ومقره في حضرة السلطان وقد التمس مني ما يزيد سروره ويفيد حضوره حبوره ويلهيه بمفاكهته وحسن منادمته وما عندنا من يصلح لذلك أي مادة السرور سواك وأنا أعرف بعفتك ونزاهتك وحسن محاضرتك ومفاكهتك وصيانة ذاتك ورزانة عقلك وذكائك فان رأيت أن تمتعيه بالنظر الى جمالك وتفتنيه بغنجك ودلالك ولو بلحظه أو بلفظه ثم تعودي الى كاسك بين أهلك وناسك فقالت الامر منك واليك وما أريد أن أشق عليك وليس في ذلك عار ولا في خدمة الضيف واكرامه شنار فأجابت أباها وكان ذلك عن رضاها بل جل قصدها ومناها فأقبلت الى خدمة الضيف ولعبت معه من لحاظها وقدها بالرمح والسيف الى أن صادته بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وكان قد خرج للصيد فصيد وصار مع سلطانه لها من جملة العبيد ثم انه أنشد يقول

أرى ماء وبي عطش شديد * ولكن لا سبيل الى الورود

ثم قرر في ضميره انه اذا وصل الى سريره يطلب هذا الرئيس ويصاهره ويقطعه هذه القرية

ويعاشره

ويباشره ويجعل بنته خوئده ويسلم الى أبيها جنده فاستتم هذا الناظر الخطير حتى جاءهم الراعي المستجير وقال ان الغنم التي ما بضت بقطره ولا درت درّه قد امتلأت ضروعها القاحله فهاهي دارة حافله قد صارت كالسيول على السابله فلم يبق وعاء الا امتلأ وقد روى من الجيران الملأ وهاهي تشخب وتسيل وقاضت فأروت الحقير والجليل وأغنت الجيران وكانها غدران فقالت بنت الرئيس لله الحمد والتقديس الذي أصلح نية سلطاننا حتى استقررنا في أوطاننا وعاد علينا ما سلبناه ورجع الينا ما طلبناه فعجب بهرام جور من هذه الامور ولما أصبح الصباح وركب فرسه وراح استقر في ولايته الزاهره وأمضى ما كان نواه من المصاهره وأسبل عليه ذيل الانعام وزاده من الاكرام ما انتظم به أمره واستقام وانما أوردت هذا الخبر لتعلموا أن الزمان في الجيء والمر مطيع لما أضمر السلطان وما اظهر وما احلاه في أمر رعيته وما امر وقد قيل عدل السلطان خير من خصب الزمان واذا لم يكن الملك برعيته شفيقا ولا بارا ولا رفيقا ولم يتجاوز عن مسيئهم مثلو فالدعاء لهم مشغوفا بمحبتهم محسنا لمحسنهم فانما يحفظ ما منهم فالاولى بهم أن يهاجروا عن مملكته ويخرجوا عن اقليم ولايته قال رب العالمين لنبيه وحبيبه سيد المرسلين ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فينبغي للحاكم أن لا يؤاخذ أحدا بجريرة أحد أبدا قال الله جل ذكره ولا تزر وازرة وزر أخرى ولو طلب أحد بجريرة أحد ولحق البرىء بسبب المذنب عقوبة ونكد لفسدت المملكه وانتشرت المهلكه واضطربت الرعيه وانخرمت القواعد العليه ولو فعل ذلك المتقدم من الملوك اهلك الصعلوك وانسد الطريق المسلوك وانخرمت القاعدة على المالك والمملوك ولم يبق للتاجر شيء ولا على وجه الارض حي ويجب على من باشر عند الملوك أمرا من الامور أو حكما على الجمهور أن يكون في دينه متينا وعلى الناس أمينا سديد الفكر قويم النظر صدوق النطق ظاهر الصدق دائر مع الحق يقظان مراقب في خواتيم أمره والعواقب عادلا بين الاخصام شفيقا على الخاص والعام ثابتا في النوازل معدودا في البوازل مشغولا بتهذيب نفسه متذكرا يومه في غده وأمسه متميزا بالشمائل المرضية على أبناء جنسه واضعا الاشياء في محلها متفحصا بنفسه عن جاهلها وقلها مقيما كل أحد في مقام لا يتعداه ومنصب معلوم لا يتخطاه حتى تستقيم بذلك أمور المملكه وتصان من الوقوع في مهاوي التهلكة ويطمئن خاطر مخدومه ويركن اليه في منطوق قوله ومفهومه فيقبل قوله وفعله ويعرف فضله وفضله وكذلك يجب أن يكون الملك كريم الاعراق لطيف الاخلاق شريف الاعلاق وأن يكون في جميع أحواله متمسكا بذيل افضاله مراعيا سيرة أجداده من الملوك سالكا طريقة الملوك من حسن السلوك لان من لا يشيد أركان اسلافه ولا يقوى بنيان اشرافه يصيبه مثل ما أصاب الذيب مع الجدي المغني المصيب فسأل الملك من أخيه ان يذكر ذلك المثل ويبديه فقال بلغني يا ملك الارض انه كان في بعض الغياض لذئب وجار وأهل وجار فخرج يوما لطلب الصيد ونصب لذلك شباك الكيد وصار يجول ويصول ولا يقع على محصول فأثر فيه الجوع واللغوب وآذنت الشمس بالغروب فصادف بعض الرعيان يسوق قطيعين من الضان وفيهما بعض جديان فهم

عليها الشدة بالجوع بالهجوم ثم أدركه من خوف الراعي الوجوم لانه كان متيقظا وعلى ماشيته متحفظا فجعل يراقبه من بعيد والحرص والشره يزيد والراعي سائق والذئب عائق فتخلف جدي غبي غفل عنه الراعي الذكي فأدركه الذئب النشيط واقتطعه بأمل بسيط وبشر نفسه بالظفر وطار بالفرح واستبشر فلما رأى الجدي الذيب علم انه اصيب بيوم عصيب وظفر منه باوفر نصيب فتدارك نفسه بنفسه واستحضر حيلة جاشه وحدسه ومكره بما ضره في نفسه وعلم أنه لا ينجيه من هذه الورطة الوبيلة الا مغيث الخداع والحيلة وأذكر الخاطر ما قال الشاعر

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا * به الخطب الا وهو بالقصد يبصر

فتقدم بجاش صليب وقبل الارض بين يدي الذيب وقال محبك الراعي بجنابك داعي يسلم عليك وقد أرسلني اليك يشكر صداقتك وشفقتك وحشمتك ومرافقتك ويقول قد تركت بحسن آدابك عادة أجدادك وآبائك فلم تتعرض لمواشيه وحفظت بنظرك حواشيه وقد حصل لضعافها الشبع وأمنت بجوارك آمنة من الجوع والفزع وحصل لها الأمن من الجزع فالله يجعل جوارك وغياضك أحسن مجمع لان عجاف ماشيته شبعت ورويت واستنعشت وقويت فأراد مكافأتك وتطلب مصافاتك ومصادقتك فارسلني اليك لتأكلني وأوصاني أن اطربك بما اغني فاني حسن الصوت في الغناء وصوتي يزيد في شهوة الغذاء فان اقتضى رأيك الاسعد غنيتك غناء ينسي أبا اسحق ومعبد وهو شيء لم يظفر به آباؤك ولا اجدادك ولا ينال أعقابك وأولادك يقوى كرمك وشهوتك وقرمك ويطيب مأكلك ويسني مأملك وان صوتي للذيذ ألذ للجائع من جدي حنيذ بخبز سميذ وللعطشان من قدح نبيذ ورأيك أعلى وامتثالك اولى فقال الذئب لا باس قد أجبت سؤالك فغن ما بدا لك فرفع الجدي عقيرته ورأى في الصياح خيرته وملأ الدنيا عياطا واعقبه ضراطا وأنشد

وعصفور الهوى يهوى جراده * كما عشق الخروف أبا جعاده

فاهتز الذئب طربا وتمايل عجبا وعجبا وقال احسنت يا زين الغنم ولكن هذا الصوت من البم فارفع صوتك في الزير فقد أخجلت البلابل والرزازير وزدني يا مغني قولي

أقر هذا الزمان عيني * بالجمع بين المنى وبيني

ولكن يا سيدي المغني هذا من اوج الحسيني فاغتنم الجدي الفرصه وأزاح بعياطه الغصه وصرخ صرخة أخرى اذكره الطامة الكبرى ورفع الصوت كمن عاين الموت وخرج من دائرة الحجاز الى العراق وكاد يصل له من ذلك الانفتاق وقال

قفوا ثم انظروا حالي * أبو مذقة كالي

فسمعه الراعي يشدو فأقبل بالمطراق يعدو فلم يشعر الذئب الذاهل وهو لحسن السماع غافل الا والراعي بالعصا على قفاه نازل فرأى الغنيمة في انحاه وأخذ في طريق النجاه وترك الجدي وأفلت ونجا من سيف الموت المصلت وصعد الى تل ينلفت بعد اذ تفلت فألقى يا كل يديه ندامه ويخاطب نفسه بالملامه وقال ايها الغافل الذاهل والاحمق الجاهل متى كان على سماط السرحان الغناء والاوزان وأي جد لك فاني وأب مفسد جاني كان لا يأكل

الا بالاغانى وعلى صوت المثالث والمثانى فلولا انك ما عدلت عن طريقة آبائك ما فاتك لذيذ غذائك ولا امسيت جائعا تتلوى وبجمر فوات الفرصة تتكوى وبات يحرك ضرسه ونابه ويخاطب نفسه لما نابه ويقول

وعاجز الرأى مضياع لفرصته * حتى اذا فات امر عاتب القدرا

وانما أوردت هذا النظير لمولانا الملك والوزير ليعلم أن العدول عن طرائق الاصول ليس الاداعية الفضول ولا يساعده معقول ولا منقول وأموره ذميمة وعاقبته وخيمة وناهيك ماهو كالعلم ومن يشابه أبه فما ظلم ويؤخذ من مفهوم هذه الحكم أن من لم يشابه أبه فقد ظلم خصوصا الملوك والسلاطين الذين اختارهم رفعهم رب العالمين وذلك لئلا يدخل على قواعد المملكة من حركات الاختلال والاختلاف حركة ولله ياذا الاحسان ما قيل فى شان الملك انوشروان

لله در أنوشروان من رجل * ما كان اعرفه بالوغد والسفل

نهاهم أن يمسوا اعنده قلما * وأن يذل بنو الاحرار بالعمل

وكل هذا من عدم التدبر والتأمل فى العواقب والتذكر ومن ترك التأمل والافتكار أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار فقال الملك افدنا أيها المختار كيفية هذه الاخبار قال الحكيم كان فى جوار بستان مأوى لابن آوى وكان ذلك البستان كأنه قطعة من الجنان غفل عنها رضوان كثير الفواكه والرطب خصوصا التين والعنب وكان ابن آوى يدخل البستان من مجرى الماء ويأكل الثمار كيفما احب واختار وينصرف ذلك الخبيث ويأخذ فى الفساد ويعيث كأنه ذميم ترك الذمام أو لئيم من بنى اللئام فتضرر البستانى من اضرار ذلك الجانى وعجز عن صده ودفع كيده فراقب دخوله ليختله ويغوله الى أن رآه يوما دخل وفى البستان حصل ويأكل العنب اشتغل فبادر الى نقرة الماء فسدها وسد الطرق التى اعدها ودخل الى الباغى وحصل ذلك الطاغى وحصره وأوهنه وضربه الى ان اثخنه فذهبت قواه وشلت يداه ورجلاه فتصور أنه مات لما سكنت عنه الحركات فأسحطه بذنبه ورماه وعلى العظام الرفات ألقاه فاستمر لا يفيق ملقى على الطريق الى أن تراجعت اليه نفسه وقوى جاشه وحسه فتحرك وهو هشيم وتنفس وهو سقيم ثم تدحرج الى منزله وقد أحاط به سوء عمله الى ان صح فهمه وقوى جسمه فافتكر فيما جرى من الجار القديم عليه من العذاب الاليم فقال اذا كان جار العمر وقرين الدهر قصد دمارى ولم يرع لى حق جوارى لاجل قوت فضل عن أقواته وأثبت اجره فى ديوان حسناته وشد لحتفى على حلق مسد الطنب ولم يعمل بقوله تعالى والجار الجنب بل لو دمق فى بدنى أدنى رمق او اقل حركة لما تركه فلا خير لى فى جواره ولا قرب داره فان سلامة هذه المرة فما كل مرة تسلم الجرة والاليق بالحال الترحال وطلب الرزق بالتوكل والرفق والذى شق الاشداق تكفل لها بالارزاق وان الله الخلاق لم يعذب بقطع الرزق ثم انه افتكر فى جهة السفر وأين يكون المستقر وكان لابيه النميم ذئب وهو صاحب قديم ساكن فى بعض الغياض المجاورة للدوح والرياض فتوجه اليه وترامى عليه وتوسل بصحابة أبيه لديه وقال صداقة فى الآباء

قرابة فى الابناء وذكر له حاله وماجرى له وأن جاره خانه ولم يرع حقه ومكانه فقصد أن يكون تحت ظله نازلا فى محله ليفوز بمجالسته ويحظى بمؤانسته ويقضى باقى عمره فى خدمته ولا يفارق وفاءه حتى يحصل فى حضرته فتلقاه بالقبول والاقبال والفضل والافضال والبشر والبشاشه واليسر والهشاشه وبسط له فراشه وأزال قبضه وانكماشه ودهشته واستيحاشه وألبسه رياشه وتذكر والده وجدد معاهده واسدى اليه من احسانه ماانساه ذكر أوطانه خصوصا جوار جاره وبستانه وأنشد بديها

فأهلا بمحبوب قديم وداده * وسهلا بمن قد كان والده أبى

تحكم على مالى وروحى ومسكنى * وأهلى وأولادى وجاهى ومنصبى

ولم يكن عند الذئب مايطعمه ضيفه ويشبع جوفه فاستعد للكياد وعزم على الاصطياد فقال ابن آوى أين تريد وتتركنى وأنا وحيد فقال انت خوفك فأريد أن أشبع جوفك ومن المعلوم أن عدم الضيافة لوم فقال لاتتعب فانا أذهب فلى صاحب حمار كأنه تيس مستعار يمضى الى قولى ويعتمد على قوتى وحولى فانى اخدعه والى دارك اشيعه فاوثقه بحبالك وافعل معه مابدالك فصيره لنا طعاما فانه يكفينا أياما فاستصوب الذئب رأى ذلك المريب وتوجه ذلك الغدار ليأتيه بالحمار وصعد تلا ينظره ويرتقب مايكون خبره ولما توجه ابن آوى لطلب الزبون انتهى فى سيره الى طاحون واذا بحمار قد أوثقوه حبلا وأوسعوه ذلا وعلى ظهره حمل قد قصم ظهره وأدمى دبره فطرحوا حمله واطلقوا حله وتركوه يسعى وفى المرج يرعى فتقدم ابن آوى اليه وسلم سلام معرفة عليه وأظهر له المحبة والوداد وسأله عن أهله والاولاد فقال له أى أهل وولد وأنا فى هذا البوس والنكد مابين حمل ثقيل وجوع طويل وركوب وسخر ومصائب أخر هذا يركب وهذا يضرب وهذا يسحب وهذا يحمل حمله وهذا ينخس بالمسله وهذا يحبس على الجوع والذله وهذا يقود بحبله وهذا يرتد بنقله وهذا يجود ولكن بكلام ثقيل فكأنى فى مشاقى كما قيل

ولا يقيم على ضيم يراد به * الا الاذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

فتفجع ابن آوى وتوجع وحوق واسترجع والتهب واضطرم وأظهر التحرق لما رآه من الالم وأخذ يلومه على صحابة بنى آدم والمصابرة على مايجنيه الى الندم من ايذائهم وجفائهم وتحمل بلائهم وعدم وفائهم وقال له حتام هذا الذل والتطوق بهذا الغل وتحمل أنواع الهوان من البعض والكل والام هذا العطش والجوع وعدم القرار والهجوع وأرض الله واسعة الفضاء شاسعة الارجاء وحتام تذوب من اللغوب تحت هذا الحمل الثقيل والجور العريض الطويل فقال لو وجدت ملجأ او مسرح أو مدخلا أو مطرح أو مغارات او منجع لوليت اليه وانا اجمح وتخلصت من هذا البلاء العظيم والشقاء الجسيم ولو رأيت احدا شفيقا او مصافيا صديقا يهدى الى الخلاص طريقا لاستغنيت بآرائه ولاستشفيت لدائى بدوائه قال ابن آوى يالكه انى اعرف بالقرب اجمه ازهارها فائحه وانوارها لائحه وأنهارها بالصفا غادية ورائحه غياضها نضره ورياضها خضره وربا ها حصينه وذراها

أمينه وأناساكن فيها آمن فى ضواحيها ونواحيها فان اقتضى رأيك ذهبت بك اليها لتقف عليها فان أعجبتك سكنتها ووقيت النوائب وأمنتها فانها بمعزل عن السباع الجواسر والضباع الكواسر والجوارح النواسر لا يطرقها انسان ولا يدخلها حيوان وسترى منى خير جار وحسن الجوار وستحمد عاقبة مقالى وما تراه من افعالى وتخلص من جفاء بنى آدم وتبقى فى نعيم منعم وتعيش معنا فى عيش رغيد وعمر هنى سعيد وتحصل المؤانسه ويمن المعاشرة والمجالسه وأما أنا فلا أجد رفيقا مثلك واليس لى الى صديق غيرك مسلك فلما سمع الحمار هذا الحوار رغب فى الخلاص من الاقتناص والبلاء الذى هو فيه والشقاء الذى يؤلمه ويؤذيه فسلم قياده الى ابن آوى وقال اسرع بنا الى ما ذكرت من ماوى لئلا يرانا رصد أو يشعر بنا أحد ثم انطلقا فى السير وأشبها فى سيرهما الطير فتقدم الحمار سابقا وأعيا ابن آوى لاحقا فخدع وغالط وخلط وبالط ونادى الحمار الى " ان كنت تعبت فاركب على " فقال الحمار بل أنت اركب ولا تتعب فطفر ابن آوى على الحمار وسار لا يقر له قرار وابن آوى يهديه الطريق وهو فى نهيق وشهيق فلما قربا من الاجمه فتح عينه ذلك الاكمه ورفع آذانه وبصره فرأى الذئب قاعدا منتظره فعرف أن تلك مكيده نصبها ابن آوى ليصيده فقال (تأتى الخطوب وأنت عنها نائم) ثم استحضر عقله المفقود واستعمل عقله الموجود وعرف انه غفل عن نفسه وقد سعى برجليه الى رمسه وانتقل من المرض الذى هرب منه الى نكسه ومن خوله وذله الى تعسه ونكسه فتردد متفكرا وأقام متحيرا متحيرا فقال له ابن آوى مالك اسرع فقد أحسن الله مآلك وأمن فكرك وانعش بالك وجعل الى عاقبة الخير مآلك لئلا يدركنا أحد او يلحقنا ضرر ونكد فقال الحمار يا أخى شاهدت قدود أغصان رشقه ونشقت روائح ريحان عبقه وسمعت خرير الانهار وأصوات البلابل والهزار فندمت حيث لم أقطع علائقى وأودع جارى ومرافقى وأبت مالى من المتعلقات وأجىء وما وراءى التفات وانا الآن ولجت هذه الغيضه ورعيت مروج هذه الروضه ورأيت ما فيها من المنتزهات ألهتنى عما لى من تعلقات فتضيع اذ ذاك مصلحتى ونذهب عند جيرانى ودائعى وذخيرتى ولا أقدر على مفارقة هذا المقام النزه ومجاورة مثلك أيها الجار الفكه وقد عزمت على الرجوع لاصحب مالى من مال وأثاث مجموع وأجىء وقلبى مطمئن وخاطرى عن الالتفات مستكن قال ابن آوى اترك مالك ولا تؤخر أوقات السرور وساعات الفراغ والحبور وما خلفته فهو لك وتلافيه أمر مستدرك ولا بأس أن تدخل هذا المكان وتدور فى هذا البستان وتتعاهده ولو مره وتشاهده ولو نظره ثم تعود وتفعل ما تريد وبالجملة فتأخير أوقات السرور غير محمود ولا مشكور فقال الحمار الامر كذلك وقاك الله شر المهالك ولكن اقوى الدواعى فى هذا القضيه والحامل على الرجوع وان كان بليه وصيبة من ابى كانت عندى خفيه كنت أعمل بها وأمشى فى دربها ولا افارقها فى نومى ولا يقظتى وكنت جعلتها حرزا اعلقه فى رقبتى واذا لم تكن معى فى مسيرى ومضجعى لا يقر لى قرار ولا يأخذنى اصطبار ويعتريني شبه الاوهام وأرى خيالات فاسدة فى المنام وتغلب على دماغى فنون السوداء ولا أجد منها دواء لذلك الداء وفيها وصايا نفيسه لروح العقل بمنزلة الاعضاء الرئيسه فاذا

حصلت على تلك الوصية المعينه فقضية ماسواها هينه ثم ألوى راجعا لا سامعا الا ابن آوى ولا طائعا فافتكر ابن آوى انه اذا ترك الحمار وحده فوته قصده وخيب الله كده وابطل حيله وجهده فرأى لنفسه المنفعه أن يرجع معه فرعا يخجع سعيه ويسلب من الحمار وعيه فقال يا أخي شوقتني بهذا القضيه الى الاطلاع على تلك الوصيه لاستفيد منها وآخذ حظي من الفضل عنها فلا بد من مصاحبتك والذهاب معك ومرافقتك فقال الحمار لا دافع ولا مشاقق ولا مانع أن تكون لي مرافق فقال ابن آوى فهل في حفظك منها شئ فان كان فألقه الي لنتذاكر في الطريق ولا يؤثر فينا التعب والضيق فقال نصيحة واحده هي بصدق شاهده وهي كلمة مجمله فوائدها فيها مجمله وهي ان ابي قال لي ايالك أن تفارق هذه الوصيه فان فارقتها وقعت في بليه وسأخبرك بسائرها في المسير اذا تذكرت أيها البصير ثم سار قليلا وأفكر طويلا وقال وهذه أخرى ستهاذ كرى وارتضاها فكرى وهي اذا وقعت في شده ورمت للخلاص منها عده فتصور اصعب منها يحصل لك التقصي عنها وتهن عليك وتعدد ها نعمة أسديت اليك فتشتغل بشكرها وتستأنس بذكرها فقال ابن آوى أحسنت يا حمار وهذا مقام الاخيار والصالحين الابرار ثم سار يسيرة راثمه وقال والله هذه نصيحة ثالثه فقال قل واسلم وطل فقال لا تحسب أن الصديق الجاهل خير من العدو العاقل فان علم العدو العاقل خير لك من جهل الصديق الجاهل فقال ابن آوى ما أحلى كلامك واعلى في اللطف مقامك وأنزه منادمتك وأفكه مكالمتك بالله شنف المسامع فان لك بقلبي وجوارحي سامع فقال مهلا حتى اتذكرها وأتصورها كما ينبغي وأتفكرها وانتهى امر ابن آوى على تعسه وساقه القضاء الى رمسه فوصل الى الضيعه وقد وقع ابن آوى في ضيعه فألح على الحمار فقال أخبرني فما بقي لي اصطبار فقال قال لي أبي بكلام فصيح عربي لا تجعل مقامك ومقيلك بمكان يكون فيه ابن آوى دليلك والذئب فيه جارك وخليلك وان جعلت لك في مثل هذا المكان ساحه فما ترى يكون لك فيه من الراحه وان أردت أن تخلص من هذا المكان فانصب الآذان وارفع ذكر الله بالاذان فانه ينجيك من الضيق ثم رفع عقيرته بالنهيق فسمعه معارفه من الكلاب فسارت اليه مستبشرة بحسن الاياب وسارعت اليه واجتمعت حواليه فما شعر ابن آوى الا وهو متورط في البلوى فطفر للهرب فادركه من الكلاب الطلب فاحتوشته واتموشته واختطفته واقتطفته ووزعته ومزعته وحرشته وقرشته فلم تبق منه عينا ولا أثرا وذهب دمه في تدبيره هدرا وانما اوردت هذا المثال وعرضته على الرأي العال ليعلم أن الاغترار بالكلام محال والاصغاء الى الحكايات والقول البطال من غير تنقل من ألفاظها الى معانيها وتأمل في مآل مقاصدها وخاويها والاعتماد على القضايا المزخرفه والركون الى الامور المستخفه لا يفيد سوى الندم وزلة القدم والاصل في الولايات والمناصب التفكر في الخواتيم والتأمل في العواقب والانغماس في ذلك سوى اضاعة العمر والمصير الى المهالك وقلت شعرا

وأسعد من يكسى الولاية من اذا * نضا ثوبها يكسى الثناء المطرزا

فلما انتهى الكلام الى هذا المقام ورأى الوزير برأيه المنير ما في هذه الفصول من الفضل

دون الفضول اعترف للملك حسيب بالفضل الحسيب والرأى المصيب وحسن النصيحة والبيان وصحة الدليل والبرهان فأذعن للحق وأناب الى الصدق وقال لقد أتيت النصيحة من بابها واوصلتها الى طلابها وكل كلام قررته وبيان حررته انما هو شكر أحرزته وطريق سداد بينتها وسبيل رشاد أوضحتها وباب صواب فتحته وميزان احسان ارجحته وعلى كل عاقل ومستمع وناقل أن يقتدى بهذه النصائح ويوصلها الى السائح والسابح ويغتنم فوائدها وعوائدها وموائدها ويعمل بموجبها ولا يخرج عن مذهبها ثم ان الملك لما أصغى الى هذا الفصل وفهم ما تضمنه من حكمة وفضل أفرغ على أخيه واهله وذويه لباس الانعام ووفاه بمزيد الاكرام وقال لقد دققت أيها الاخ الشقيق فى تدقيق النصح بالتحقيق وحللت المشكل وبلوت الطريق وأديت حق الفتوه وواجب المروأة وشرائط الاخوه والآن قد حكمناك فى ولايتنا وولينا على حكامنا وقضاتنا وبسطنا يدك فى الاقاليم واطلقنا لسانك فى التعليم فتحكم فى الرؤس والاطراف واحكم فى الآفاق والاكناف واشرع فيما أنت بصدده ولا تتقيد بالمخالف ولده وكن منشرح الصدر قرير العين مبسوط اليدين مبارك الطلعة حسن السيره صبيح الوجه طيب القلب والسريره طويل العضد والساعد ممدوحا عند الغائب والشاهد خلى البال هنى الحال فانك من بطن كريم وفخذ على الطاعة مستقيم وفى الفضائل ذو قدم وصدق وفى الصناعة ذو صنع وحذق فلا تتوان فيما عزمت عليه وقصدت اليه من النصائح الملوكيه والفصول العلمية والعمليه وأتحفنا بتلك الحكم السنيه والخصال البهيه والشمائل المرضيه فانه لذة الاشباح وغذاء الارواح والطراز المضىء على خلع المسا والصباح فنهض الحكيم من مجلسه وقبل ثغر الارض بثغر جبينه وفمه وامتثل المراسيم الشريفه واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفه وترتيبها بالعبارات اللطيفه واستطرد فى تأليف هذه الحكم من حكايات ملك العرب الى وصايا ملك العجم والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله على كرمه الاتم واحسانه الاعم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(الباب الثانى)
(فى وصايا ملك العجم المتميز على اقرانه بالفضل والحكم)

وقال الراوى حسان معدن الظرافة والاحسان فتوجه الحكيم حسيب الاديب الاريب الى ايراد الاخبار عن الهداة الاخيار فحكى أن ملكا من ملوك الامصار وسلاطين العجم يدعى شهريار كان من العجم وكان فى الحكم والجود واللطف والكرم أمة من الامم ملكه عظيم وفضله جسيم ولايته فى أحسن اقليم حسن السياسه وافر الكياسه ثناؤه عاطر وعطاؤه ماطر ووابل الحشمة من سحائب هيبته قاطر وله من الاولاد وفلذ الاكباد ستة رجال الى المجد والكرم عجال وكل له فى الفضل والافضال أوسع مجال مشهور بالزعامة مخبور بالشهامة كنفه سخى وكنفه اريحى ذو شجاعة باسله وبراعة كامله وحشمة وافره وهيبة زاجره وهمة ابحرها بالمكارم زاخره مع رفق ولين للصعلوك المسكين وصلابة فى الدين وكان الاكبر

سنامنهم متميزا في هذه الشيم عنهم وأحطرطيبا واوفر نصيبا فكانه في شأنه قيل

هذا الذي دانت الدنيا لطلعته * والدين والملك والايام والامم

فلما دنت شمس عمر أبيهم للافول وقارب غصن عيشه الذبول وعزم فراش الاجل على طي بساط حياته واورد بريد القضاء منشور تسليمه الى متولي وفاته أحضر بنيه واكابر ذويه وقال اعلموا يابني اني استوفيت نصيبي من الدنيا وارتقيت من لذاتها الى الدرجة العليا وذقت حلوها ومرها وعاينت سرها وقرها وعرفت خيرها وشرها ومع ارتقائي فيها الى المنازل الفاخره عملت بمقتضى وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة فتزودت بما اوصلت اليه اليد وما أخرت عمل اليوم الى الغد ولم تلهني الغفله ولا ارخاء المهله عن الاستحضار لساعة الرحله بل لم أزل للرحيل مستوفزا وللتحول والانتقال متجهزا وأنا اليوم عنكم راحل وسفينة عمري ارست بالساحل وهذا سفر لا رجعة فيه ولا عودة لمسافركم اليكم تثنيه وهذا امر محتوم وقدر معلوم وقضاء قدره في الازل رب لا يزال ولم يزل سلطان ملكه لا يبيد وكل الملوك تحت امره عبيد لا راد لما قضاه ولا مانع لما امضاه ولا هاد لما بناه ولا صاد لما سواه حكم بالموت على مخلوقاته وساقه لا باب قوة في رده ولا طاقة وقد خفف من وجدي أن لي مثلكم بجدي وانكم خلفي ومحمو سلفي وفيكم من يقوم مقامي ولا يمحو أيامي ولا يدرس آثاري ولا يطفئ نار أنواري وها أنا أعهد اليكم واستخلف الله عليكم وان كنتم الى الوصية غير محتاجين ولكن الذكرى تنفع المؤمنين واعلموا أن أزكى زهر تتنور به بصائر العقل في رياض العبودية ورد الشكر وازكى عطر تتعطر به مجامر العقل في غياض الحرية ورد الفكر وأن الشكر قيد النعم وسبب لازدياد الفضل والكرم قال الله تعالى وجل جلاله لئن شكرتم لازيدنكم وقد قيل من شكر القليل استحق الجزيل وأن الفكر يعلي المقامات ويعطي الكرامات واحملوا الاذى تأمنوا ولا تهنوا النائبة ولا تحزنوا ولا تظنوا الجود والكرم في التبذير والبخل والتقتير من جملة التدبير فقد نصب للاعلام أعلاما من قال عزمقاما وكلاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال جل مخبرا وخبيرا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا واسمعوا الاقوال الافعال فلا خير في قول ليس بفعال ولا تشوهوا محاسن شيبكم بزخاوف الكذب فان الصدق أول ما ينبغي واعظم ما يجب ووسخ كلمة واحده بالكذب ناطقه لا ينقيه ألف كلمة صادقه ومن تعود الكذب في نطقه لا يعتقد على صدقه وداروا الاعدا مداوة الاوداء يزد صديقكم ويكثر فريقكم ويجل ودودكم ويقل عدوكم وحسودكم وعليكم بملازمة الاخيار واياكم وصحبة الاشرار ولا تطلبوا الرغبة في صحبة الاشرار سبيلا ولا تقيموا على ذلك أبدا دليلا فمن غالط نفسه في مجالسة الاشرار وطلب وفاء من جبل على طبيعة الغدار فقد أرجع نفسه باقوى كيه واصابه ما أصاب الفلاح مع الحيه فسأل الاولاد والدهم المالوك عن كيفية ذلك فقال ذكران واحدا من الاكياس طلب العزلة عن الناس ولازم انقطاعه وانقطع عن الجمعة والجماعة واشتغل لاقامة اوده بالزراعة وانعزل في ذيل جبل وصاحب حية كانت تأنس

اليه بكلامه وتأكل من فضلات طعامه فترقت بينهما المعاهدة الى ان بلغت الى المعاقده بأن تكون صادقه خالية عن المماذقة ولاتكون كصحبة ابناء الزمان تكرع من الغدر في غدران ولامشوبة بنفاق ولامدخولة برياء وشقاق وان تنعقد بينهما المودة والاخاء في حالتي الشدة والرخاء فراعى هذا امدة وكل حافظ عهده مراع صحبته ووده وكان الرجل اذا عنت له قضية عرضها على الحية واستشارها وأخذ اخبارها ويخرج هي اليه وتترامى على رجليه ففي بعض الايام وعام من الاعوام وقع برد شديد وثلج وجليد فرأى الحية وقد سقطت قواها وجمدت أعضاها ووقعت في شر حال و برد ووبال فحملته الشفقة والصداقه والعهد الذى أحكم وثاقه على أن آواها وحلها في مخلاة حماره وأدناها ووضع المخلاة في رأس البهيم وتوجه لضرورة ذلك القهيم فحست الحية بنفس أبي زياد وتحرك عرق العدوان القديم وعاد وفعل خبثها خاصيته المالوفه ولعب بها سميته المعروفه متبعا حديثه حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن اليها فعضت الحية شفة الحمار الرقيقه عضة محب لاقى في خلوة عشيقه و بردمكانه من حرها وهربت الحية الى جحرها وانما أوردت هذا المثال لتعلموا ياذوى الافضال أن من صحب الاشرار ورغب في مودة الفجار لايأمن العثار ولايسلم من الانكاد والبوار وقد قيل ان صحبة الاخيار كجرة النضار بطيئة الانكسار سريعة الانجبار وصحبة الاشرار كجرة الفخار سريعة الانكسار بطيئة الانجبار وبالجملة فما في صحبة الناس فائده ولافي مخالطة الناس كبير عائده وقد قيل

ولم ترمن بني الدنيا سلاما * فان تره فأبلغه سلامي

وينبغي أن تكون غيبتكم وحضوركم وأحوالكم واموركم واجتماعكم وفراقكم وصلحكم وشقاقكم في حالتي السراء والضراء والبؤس والرخاء على وتيرة واحده وهي الخالية عن الاغراض الفاسده اعنى اذا رضيتم فبالحق واذا غضبتم فللحق واذا توجهتم فللحق ولاتبطروا في حالة النعم ولاتضجروا في حالة النقم وعلى كل حال فلايقع بينكم اختلال وذلك بتفرق الكلمة واختلافها وتصادمها وعدم ائتلافها فانه قيل

ان الذليل الذى ليست له عضد * مثل الوحيد بلامال ولاعدد

وقيل أيضا

كونوا جميعا يابنيّ اذا اعترى * خطب ولاتتفرقوا آحادا

تأبى القداح اذا اجتمعن تكسرا * واذا افترقن تكسرت افرادا

ولاتثقوا بأحد من الكبار والصغار الابعد الاختبار في الشدة والضعف والرفق والعنف والبؤس والرخاء والخوف والرجاء ولاتقدموا على قديم الاصحاب أحدا ولاعلى الموثوق بهم من لاجربتموه أبدا وقد قيل في المثل المشهور الفحس المعروف خير من الجيد المنكور وقيل أيضا خير الاشياء جديدها وخير الاصحاب قديمها وأسسوا قواعد آخرا كم في دنياكم واغتنموا السعادة الباقيه من الدار الفانيه وعاملوا تجدوا وازرعوا تحصدوا وتذكروا من أول يومكم أحوال عزكم ومن أوائل عمركم أواخر دهركم ومن ليلة الهلال سرار شهركم فكل من له صدق قدم يتفكر وهو موجود حالة العدم ومن زمان شبابه حالة الهرم كما فعل

التاجر المراقب وما آل اليه في العواقب فقبل الارض الاولاد وقالوا مولانا السلطان اعظم من افاد لو تصدق على عبيده الطائعه ببيان تلك الواقعه قال الملك ذكر الحكماء وذوو الفضل من العلماء أنه كان في بعض الامصار تاجر من أعيان التجار ذومال جزيل وجاه عريض طويل ونعمة وافره وحشم وخدم متكاثره من جملتهم غلام مخايل السعادة من جبينه لائحه وروائح النجابة من أذيال شمائله فائحه قد أفنى عمره في خدمة مولاه ولم يقصر لحظة في طلب رضاه فقال له سيده في بعض الايام لك على حق يا غلام وأنا أريد مكافاتك وأطلب موافاتك فتوجه هذه المره في هذه السفره فهما ربحت فهو لك بعد أن اعتقك من قيد رق أشغالك ثم أوثق مركبا وفسح له في السير شرقا ومغربا ووصاه بأشياء امتثل مرسومها والتزم منطوقها ومفهومها فقال له مولاه سأرفعك على اضرابك واغنيك عن أمثالك واصحابك وأجعلك كأكبر من في الدنيا ولجميع رفقتك بمنزلة المولى ثم أخذ في تعبية البضائع وأوسق مركبه المتاجر والمنافع وسلمه الى الهواء والماء بعد أن توكل على رب السماء فسار بعض ايام وهو في أهنى مرام واطيب عيش ومقام الماء رائق والهواء موافق والنكد مفارق والسرور مرافق حتى كأنه نوح وخضره الملاح وموسى وفتاه حافظا الالواح وبينهما السفينه من نسف العواصف امينه تجاري السهم والطير وتباري الدهم في السير فاذا بالرياح هاجت والامواج ماجت وأشباح البحر تصادمت واطواد الامواج على الغرقاء تلاطمت فعجز ذلك الملاح والحافظ ونشر مذهب ابنه أبو الجاحظ وترك سمة الوقار والسكينه ورقم نقش الحروف في ألواح السفينه فشاهدوا من ذلك الهواء الاهوال وغدا قاع البحر كالجبال وصار ذلك الغراب بمن فيه من الاصحاب كأحوال الدنيا بين صعود وهبوط وقيام وسقوط طورا يستأمنون الافلاك ويناجون الاملاك وينهون أخبار ظلمات صاحب الحوت الى السماك وطورا يهبطون الغور وينظرون قرن الثور ويعاينون قوامسه من تحت الزور فلم يزالوا عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى يتناشدون

وفلك ركبناه والبحر ذو * هواء فثار وحار ومارا
فطورا علونا السماء وطورا * رمتنا اراضيه منها انحدارا

وآخر الامر نسفت السفينة الرياح وألقى كاتب الحاصب الى كل حرف من حروف الجبال لوحا من الالواح وأوعز الله سهلها وخرقها فاغرقها وأهلها وذهب البحر بما والها واوار واحها وتعلق الغلام بلوح من ألواحها واستقر تقذفه الامواج وتصدم به أثباج البحر الهياج الى ان وصل الى ساحل فخرج وهو كثيب ناحل وصعد الى جزيره فوا كهها غزيره وصفها عجيب ليس بها داع ولا مجيب فجعل يمشي في جنباتها الى أن اداه التوفيق الى فم طريق فسار في تلك الجاده وهداية الله له ماده فانتهى به المسير الى أن تراءى له سواد كبير وبلغ مملكة عظيمة وولاية جسيمه ورأى على بعد مدينة مسورة حصينه فعمد الى ذلك البلد وتوجه نحوها وقصد فاستقبله طائفة من الرعال نساء ورجال يتبعهم جنود مجنده وطوائف محشده مع طبول تضرب وفوارس تلعب وزمور تزعق وألسنة بالثناء تنطق حتى اذا وصلوا اليه

تراموا عليه وأكبوا بين يديه يقبلون يديه ورجليه مستبشرين برؤيته متبركين بطلعته ثم ألبسوه الخلع السنيه وقدموا له فرسا عليه كنبوش ذهب وسرج مغرق ووضعوا له التاج على المفرق ومشوا في الخدمة بين يديه والجنائب في الموكب تجر لديه ينادون حاشاك والدك سلطان الناس قادم عليك حتى وصلوا الى المدينه ودخلوا قلعتها الحصينه ففرشوا شقق الحرير ونثروا النثار الكثير وأجلسوه على السرير وأطلقوا مجامر الند والعبير ووقف في خدمته الصغير والكبير والمأمور والامير والدستور والوزير وأنشدوه

قدمت قدوم البدر بيت سعوده ﴿ وأمرك فينا صاعد كصعوده

(وقالوا) اعلم يا مولانا أنك صرت لنا سلطانا ونحن كلنا عبيدك وتابع مرادك ومريدك فافعل ما تختار وتحكم في الكبار منا والصغار وأمر مالك من مرسوم فامتثاله علينا محتوم وما منا الا له مقام معلوم فجعل يتفكر في أمره ومبداه ويتأمل ما صار اليه ويتدبر في منتهاه فقال ان هذا الامر لابد له من سبب ولابد له من آخر ومنقلب فانه لم يصدر في عالم الكون سدى وان لهذا اليوم من غير شك غدا وان الصانع القديم القادر الحكيم السميع العليم البصير العلي المريد الكريم لم يقدر هذه الافعال على سبيل الاهمال ولم يحدث حدثا لعبا ولا عبثا وجعل يلازم هذه الافكار آناء الليل وأطراف النهار وهو مع ذلك قائم بشكر النعمه ملازم باب مولاه بالطاعة والخدمه واضع الاشياء في محلها والمناصب في يد أهلها متلفت الى أحوال الرعيه عامل بينهم بالعدل والسويه متعهد أمور الكبار والصغار بانواع الاحسان وأصناف المسار مؤسس قواعد المملكة والسلطنه على أركان العقل والعدل مهما امكنه متفحص عن مصالح المملكه سالك مع كل من أرباب الوظائف ما يقتضي مسلكه ثم وقع اختياره من بين أولئك الجماعه على شاب جليل البراعه له في سوق الفضل والوفاء أوفر بضاعه متصف بانواع الكمال متحل بزينة الادب والجمال فاتخذه وزيرا وفي أموره ناصحا ومشيرا فجعل يلاطفه ويرضيه ويكرمه ويدنيه ويفيض عليه من ملابس الانعام وخلع الافضال والاكرام ما ملأ به حبة قلبه واستصفى خالص وده لبه وسكن في سويدائه وتمكن به من ضمير أحشائه الى أن اختلى به وتلطف في خطابه واستنصحه في جوابه وسأله عن أمر امرته وموجب رفعته وسلطنته من غير معرفة الرفاق ولا أهلية ولا استحقاق ولا هو من بيت الملك ولا في بحر السلطنة له فلك ولا معه مال ولا خيل يهديها ولا رجال ولا معرفة يدل بها ولا شجاعة وفضيلة يهتدي بتهذيبها فقال ذلك الشاب في الجواب اعلم أيها الملك الاعظم أن هذه البلده وعساكر اقليمها وجنده قد اخترعوا أمرا واصطلحوا على عادة أخرى سألوا الرحمن أن يقيض لهم في كل اوان شخصا من جنس الانسان يكون عليهم ذا سلطان فأجابهم الى ذلك فسلكوا في أمرهم هذه المسالك وذلك أنهم في اليوم الذي قدمت عليهم يرسل الله تعالى رجلا من عالم الغيب اليهم فيستقبلونه كما استقبلوك ويسلكون معه طريقة الملوك من غير نقص ولا زياده وقد صارت هذه لهم عاده فيستمر عليهم سنه في هذه المرتبة الحسنه فاذا انقضى الاجل المعدود وجاء ذلك اليوم الموعود عمدوا الى ذلك السلطان وقد صار فيهم ذا امكان ومكان وعلقة ونشب واخاء ونسب وثبتت له أوتاد وصار له أهل

واولاد ويجروه برجله من التخت وسلبوه ثوب العزة والرخت وألبسوه ثوب الذل والنكال وأوثقوه بالسلاسل والاغلال وجعله الاهل والاقارب وأتوا به الى بحر قريب فوضعوه في قارب وسلموه الى موكلين ليوصلوه الى ذلك الجانب فيوصلونه الى ذلك البر وهو قفر أغبر ليس به أنيس ولا رفيق ولا جليس ولا صديق ولا زاد ولا ماء ولا نشو ولا نماء ولا مغيث ولا معين ولا قريب ولا قرين ولا قدرة ولا امكان على الوصول الى العمران ولا ظل ولا ظليل ولا الى الخلاص سبيل ولا الى طريق النجاة دليل فيستمر هناك عريانا وحيدا فريدا طريدا الى ان يهلك عطشا وجوعا لا يملك اقامة ولا يستطيع رجوعا ثم يستأنف أهل هذه البلاد مالهم من فعل معتاد فيخرجون بالاهبة الكاملة الى تلك الطريق السابلة فيقيض الله تعالى لهم رجلا فيفعلوا معه مثل ما فعلوا مع غيره قولا وعملا وهذا دأبهم ودينهم وقد ظهر لك ظاهرهم وباطنهم فقال ذلك الغلام الاملح لذلك الوزير المصلح فهل اطلع أحد عن تقدم على عاقبة هذا المأتم قال قد عرف ذلك وتحقق أنه عن قريب هالك ولكن غرور السلطنة يلهيه وسرور التحكم والتسلط يطغيه وحضور اللذة الحاصلة لسوء العاقبة ينسيه ولا يفيق من غفلته ويستيقظ من رقدته الا وعامه قد مضى والاجل المضروب قد انقضى وقد احاطت به نوازل البلاء وهجم عليه بوازل القضاء فيستغيث ولا مغيث وينادي الخلاص ولات حين مناص فلما سمع الغلام هذا الكلام أطرق مفكرا وبقي متحيرا وعلم أنه لابد للايام أن تمضي وهذا الاجل المضروب ينقضي وأنه ان لم يتدارك أمره ويتلاف خيره وشره ويتدبر حاله ومصيره ومآله هلك هلاك الابد ولم يشعر به أحد فأخذ يفكر في هذا الخلاص والتفصي من شرك الاقتناص ثم قال للوزير الناصح الخبير أيها الرفيق الشفيق والنصوح الصديق جزاك الله خيرا وكفاك ضيما وضيرا اني قد فكرت في شيء ينفع نفسي ويحييها ويدفع شر هذه البلية التي وقعت فيها وأريد معاونتك وأطلب مساعدتك فاني رأيتك في الفضل مميزا بين اقرانك فائقا في محاسن الشيم على أصحابك واخوانك فقال افعل يا ذا الزعامه وحبا لك وكرامه قال اعلم ايها الصاحب الاعظم أن الرجوع الى هذا المكان الذي كنت فيه خارج عن الامكان والاقامة في هذا الملك المعهود انما هي الى اجل معدود ووقت محدود وانقضاؤه على البتات وما كل هو آت آت وكيفية الخروج قد عرفته وطريقها تقررت ووصفت ولهذا قيل يا ذا الفضل الجزيل دخلنا مضطرين وأقمنا متحيرين وخرجنا كارهين ولم يتجه خلاص من هذا المقنص الا طريق واحد وسبيل غير متباعد وهو أن تأخذ طائفة من البنائين وجماعة من المهندسين والنجارين وتذهب بهم أيها الوزير الى مكان اليه نصير فتأمرهم أن يبنوا هناك مدينة ويشيدوا فيها اماكن مكينه ومخازن وحواصل ويملأها من الزاد المتواصل من الماء وكل الطيبه والاطعمة والاشربة اللذيذة المستعذبه ولا تغفل عن الارسال ولا تفتر الامهال والاهمال في الظهيرة والاسحار والغدو والآصال اذ أوقاتنا محدوده وأنفاسنا معدوده وساعة تمضي منها غير مردوده واذا فات شيء من ذلك الوقت فلا نعوض عنه الا الخيبة والمقت فننقل هناك ما يكفينا على حسب طاقتنا ومقدار

قدرتنا واستطاعتنا فاذا تزودنا منها لم نرحل عنها بحيث اذا انقلنا من هذه الديار وطرحنا
فى تلك المهامه والقفار وجفانا الاصحاب وتخلى الاخلاء عنا والاحباب وأنكرنا المعارف
والاوداء واحتوشتنا فى تلك البيداء فنون الداء نجد مانستعين به على اقامة الاود مدة
اقامتنا فى ذلك البلد فأجاب بالسمع والطاعه واختار من المعمارية جماعه وأحضر المراكب
وقطع البحر الى ذلك الجانب وجعل الملك يمدهم بالآلات والادوات على عدد الانفاس
ومدى الساعات الى أن أنهى المعمارية العماره وأكملوا حواصل الملك وداره وأجروا
فيها الانهار وغرسوا فيها الاشجار فصارت تأوى اليها الطيور بالليل والنهار ويترنم فيها
البلابل والهزار بانواع التسبيح والاذكار وغدت من أحسن الامصار وبنوا حواليها الضياع
والقرى وزرعوا منها الوهاد والثرى ثم أرسل اليها ما كان عنده من الخزائن ونفائس
الجواهر والمعادن وأرسل من ظريف التحف اليها ومن حاجاته المعول عليها بحيث لو أقام
بها سنين قامت بكفايته وفضلت خزائنها عن حاجته وأكثر من ارسال ما يلزم من الادوات
والاشربة والمطعومات وجهز الخدم والحشم وصنوف الاستعدادات من النعم فلما
انقضت مدة ملكه ودنت أوقات هلكه الا ونفسه الى مدينته تاقت وروحه الى مشاهدتها
اشتاقت وهو مستوفز للرحيل ورابض للنهوض والتحويل فلما تكامل له فى الملك العام
لم يشعر الا وقد أحاط به الخاص والعام ممن كان يفديه بروحه من خادمه وذوى نصحه ومن
كان سامعا لكلمته من أعيان خدمه وحشمته وقد تجرد واجتذبه من السرير ونزع
ماعليه من لباس الحرير ومشوا على عادتهم القديمة وسلبوه الحشمة الجسيمه ومملكته
العظيمه وزالت الحشمه والكلمة والحرمه وشدوا وثاقه وذهبوا به الى الحراقه ووضعوه
وقد ربطوه فى المركب الذى هيؤه وأوصلوه الى ذلك البر من البحر فلما وصل اليه
الا وقد اقبلت خدمه عليه وتمثلت طوائف الحشم والناس لديه ودقت البشائر لقدمه وحل
فى سروره المقيم ونعمه واستقر فى أتم سرور واستقر فى أوفر حبور ثم قال الملك للاولاد
وفلذ الاكباد وانما أوردت هذا المقال على سبيل المثال فاصغوا الى حسن التنظير حتى
أبين لكم النظير وعوا ما أقول بآذان القبول وتأملوا رموز المعانى من هذه الالفاظ التى
تجلت المثانى ثم تفكروا وتبصروا وبعد التذكر والتبصر تدبروا أما ذلك العام المعهود
فانه الولد فى أول الوجود وأما المركب الذى أودعه فهو بطن امه الذى استودعه وانكسار
السفينه هو انشقاق المشيمه والجزيرة التى خرج اليها فهى الدنيا التى دخل عليها والناس
الذين استقبلوه فاقاربه وذووه وأهلوه يربونه بالملاطفة والعلال ويعاملونه بالاكرام
والافضال وذلك الشاب الذى هو وزيره فهو عقله ومن ايمانه نوره والسنة المضروبة اجله
المحتوم وعمره المعدود المعلوم ونزوله عن سريره عبارة عن آخرته ومصيره وخروجه من
الدنيا بالاكراه وشروعه فى دخوله الى اخراه والبحر الثانى الذى طرح فيه هو أحوال
مايعاينه عند الموت ويعانيه والبر القفر اللحد والقبر فالسعيد يتفكر فى كيفية اموره
وأحواله ومبدا امره ومآله ثم يتدبر فى قل هذا وجله ويستعد لما خلق من أجله ويتحقق ان
الاقامة فى الدنيا يسيره وهى بالنسبة الى الاقامة بدار البقاء قصيره وانه اذا جاء وقته المحتم

لايتأخر عنه ساعة ولا يتقدم فيأخذ في الازدياد ويتهيأ ما أمكن ليوم المعاد ويعد نفسه كالمسافر الذي اتى بعض الحاضر فلا يقيم اكثر من يوم وقد رحل عن القوم كما قيل

الا انما الدنيا كمنزل راكب * أناخ عشياً وهو بالصبح راحل

الى سفر طويل زاده قليل قفاره يابسة وطرقه دامسه لا انيس فيه ولا رفيق ولا مصاحب ولا صديق ولا دليل ولا خليل ولا مغيث ولا مقيل ولا ماء ولا معين ولا صاحب ولا معين فيهيئ لهذا السفر بقدر الامكان ما قدر من الزاد والما والمركب والكلا ونور الطريق والمسافر والرفيق والخادم والانيس والمنادم والجليس ويمهد المضجع للمبيت والمقيل ويهيئ الموضع في النزول والرحيل وبالجملة لايترك من أفعال الخير شيأ الافعله ولا يجهلا الافضله ولا متأخرا الاقدمه ولا تعاملا في مبايعة الا اسلفه وأسله وليعلم أن كل ذلك محتاج اليه ومصروف لديه اذا نقل الى دار البقاء وأقبل عليه فاذا جاء وقت الرحيل ونادى منادي الانتقال والتحويل وجد ما كان عمله حاضرا وكل ما قدمه الى رياض الخير زها ناضرا كما قال ذو الجلال واخبر به الصادق في الوعد والمقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون معنى ان لا تخافوا لا خوف عليكم فيما هو أمامكم ولا تحزنوا ما خلفتم وراءكم فاذا دخل في قبره وجده روضة من رياض الجنة يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وأما الشقي الغافل الغبي الذي أهمل أمره ونسي الله وذكره وأهمل ما خلق لاجله وتاه في بيداء الضلال وسبله فقد اغتر بهذه اللذة اليسيره في تلك المدة القصيره واستمر في سكرات في ميدان العصيان من خمرة الطغيان وتردى لباس الردى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فانهدمت عماراتهم وما ربحت تجارتهم حتى اذا جاءه الوقت المعلوم ونزل به الاجل المحتوم ونظر امامه وتراءت له الاعلام فأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم نزل من دار الغرور الى دار الشرور فندم ولا ينفعه الندم وقد زلت به القدم فخاب ما ربا وقال يا ليتني كنت ترابا فانظروا يا أولادي وعدتي وعتادي حال الفريقين وتأملوا ما للطائفتين فقد بذلت في النصيحة جهدي واستخلف الله عليكم من بعدي فقال اكبر ولده وهو لسلك محاسنهم واسطة عقدهم جزى الله مولانا عن شفقته خيرا وأولاه على حسن النصيحة أجرا وذخرا فلقد أحسنت فاويا بن واهر حكمك وشنفت أسماعنا بجواهر كلمك ولكن اخوتي وان كانوا من أولي العلم وأرباب النباهه والحلم والعقل الغزير والفضل الجم الكثير والرأي المصيب المنير غير أن حدة الشباب عليهم غالبه ودواعي النفس بشهواتها مطالبه لاسيما ان حصلوا على ملك عريض وكرعوا من ألبانه المحض والمخيض فان اتفق مع ذلك موافق منافق أو صاحب مارق أو صديق خدوع أو مباطن مكار هلوع أضلهم عن سواء السبيل وصار الى طريق المخالفة أوضح دليل فتحول صفاتنا عداوه وتتبدل فيها بالمرارة الحلاوه فينتزع الرخاء ويتزعزع الاخاء ويبغي بعضنا على بعض وتعود الاخوة على موضوعها بالنقض ويتولد من ذلك الفتن ويظهر من العداوة ما بطن فالرأي عندي أنه مادام زمام التصرف في يد الامكان يتصرف مولانا السلطان على مقدار جهده في مصلحة

عبده بحيث لا اكون مضغة للماضغ ومشغلة لكل قلب فارغ ولا يسلني لاسباب الحوادث ومخاليب الدهر الكوارث فانه بذلك يكفيني من نوائب الزمان مايدهيني والعياذ بالله المنان من مفارقة مولانا السلطان جعلني الله تعالى فداءه ولا أراني فيه يوما اساءه فليأخذ بيدي من هذه الورطه وليرحني من شر هذه الخطه فانه قد قيل من لا يقيل المستقيل ولا يغيث المستغيث ولا يتقيد بمعنى هذا الحديث ولا يدفع غصة هذه القصه و يفوت عند الامكان الفرصه يصيبه من حوادث الزمان ما أصاب بعض الجرذان الذي لم يخلص الغزاله الواقعة في شرك الحباله (قال السلطان) قل لي كيف كانت قصته وما كانت قضيته فقال ذكر أن بعض الصيادين المحتالين الكيادين نصب حباله ليصيد غزاله فعلق بها مهاة من المها وطلبت مجالا واضطربت يمينا وشمالا فوقعت عينها على جرذ من الجرذان عتيد يتفرج عليها من بعيد فنادته بلسان ذلق وأثنت عليه بلسان طلق وقالت يافارس ميدان المروه والنجدة والفتوه والموصوف بالشطارة والقوه هذا وقت الكرم وأوان استعمال مكارم الشيم وفعل المعروف واعانة الملهوف وصرف الهمه الى كشف الغمه نعم وان كانت طرائق الصداقة بيننا معدومه ونقوش التنافر على صحف خواطر ناهر قومه ونقود المعرفة والاخاء في جنب التباين غير مبذوله ومرآة التوافق فيما بيننا غير مصقولة لكن في الشدائد يعرف الاخاء والاخوان كثيرون في الرخاء كما قيل

دعوى الاخاء على الرخاء كثيرة * بل في الشدائد تعرف الاخوان

وقد قصدتك في الخلاص وقرض شرك الاقتناص ونجاتي من سكين القناص فاقرض هذه الشبكة باسنانك الحداد وافتح بيني وبينك باب الوداد فاني أصلح للتصديقا وأنا اكون لك عتيقا وأعرف لك الجميله فأصير عبدا لك الى الممات وأدركني قبل الوفاة والفوات ومع هذا يا ذا الجاه لا يكن عملك الا لله فقد قيل

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف بين الله والناس

فقهقه الجرذ وقهقر ولعب بابطه وتسخر وتمرغ يمينا وشمالا وتقصف طربا ودلالا وسخر بالغزالة وكلامها وبادر الى عذلها وملامها وتبرد بحرارتها وتحلى بمرارتها وقال شهوتك الرديه وحرص نفسك الشقيه رمياك في هذه البليه وتحركت حميتة الذميمة وطبيعته اللئيمة وأضرط بها وورق وطفر وصفق وقال عصب الرأس الصحيح من الخبل الصريح والتعرض لموارد الفناء من دلائل البلاهة والعناء ولو تعرضت لشبكة الصياد حكمت على عقلي بالفساد وحاشى فكري المصيبه ورأيي النجيح النجيب أن اجلب لنفسي مرضا وأصيرها سهما للصياد وغرضا ولو فعلت ذلك لتصديت للمهالك وتصدى لي الصياد فعادا في وترصد لي وآذاني وحفر بالمعول وكرى وأوقد النيران في جحري فسلبني قراري ورنقني ومساري واقل الاقسام أن يجليني عن دياري ان خلصت من الموت بسلام ولا استطيع بعدها المقام وقد قيل لا تسأل غير طريقك ولا تصاحب سوى رفيقك وأما أنا فالى بصداقتك حاجه فدعي عنك الطمع واللجاجه ثم هز عطفيه ونظر الى كتفيه وتبختر في مشيته وتمايل في غشيته وولى في تيهه وكبره يريد الدخول في جحره وقد ترك الظبي آيسا في حبائل فكره

وضره وحبائل شدائده وشره فقيض الله له سدّ أمه خطفته ونبأت به في الهواء تياه وأما
الظبي فلما ايس من الجرذ واعانته توجه الى الرحمن بكليته وقطع آماله عن كل أحد ورفع
ضرورته الى الواحد الصمد وأخلص نيته الصادقة وقطع من الخلائق علائقه ثم جاء
الصياد فأوثقه وقصد به البلد فصادفه شخص فاشتراه منه وأعتقه * ولم أورد هذه اللطيفة
الى المسامع الشريفة الا لاعلم أن التواني عن فك العاني واغاثة الملهوف أمر مخوف
لا يرغب فيه ذو عقل وباغاثة الملهوف وأخذ يد الجار ورد النقل ولا بد من تأمل اعقاب
القضايا قبل نزولها وطلب طريقة رفعها قبل حلولها والخلاص من ورطتها قبل بغتتها
وأسأل من صدقات مولانا الذي بالاحسان اولانا الارشاد الى عمل طريقة لطيفة نظيفة
نقية خفية تكون عدتي في شدتي مبقية للود بيني وبين اخوتي * قال الملك نعم ما قلت
وحيث في ميدان الصواب جلت فاعلم أن في مملكتي ملوكا كبراء وأساطين امراء ورجالا
وجنودا وأبطالا وأسودا انا انشأتهم ولنصرة مملكتي اعددتهم كل منهم ذو وفاء ومودة وصفاء
وباطنه خال من المكر والجفاء يقومون معك بأدنى اشاره ويحفظون جانبك من النهب
والغاره وخصوصا فلان أمير ممالك خراسان فانه أفصحهم خطابا وأمنعهم جنابا وأوسعهم
في العقل رحابا وأشدهم محبة وأقربهم مودة وقربة وأوفاهم عهدا وأصفاهم ودا سيجدك
في حال اضطرارك اليه فلا يكون اعتمادك بعد الله الا عليه مع أني سأعلمهم بجمعهم
وآمرهم بايصال نفعهم وأؤكد عليهم في ذلك فلا يخطر شيء من التشكي بالك فقبل ولده الارض
ووقف في مقام العرض وقال ايها الملك المجاب ان محبة غالب الاصحاب وصداقة أكثر
الاحباب ومن يدعي خلوص المودة ويبذل ظاهرا في ذلك جهده انما هي لاغراض وناشئة
عن اعراض وأمراض فاذا حصل ذلك الغرض وزال العرض والمرض بردت عن المحبة
قلوبهم وفرغت من نقد المودة جيوبهم وظهر بالجفاء وعدم الوفاء عيوبهم ومن جملة ذلك
الحسد الذي لم يخل منه جسد على نيل مرتبة او البلوغ الى منقبة وتمني زوال نعمة المحسود
وعدم الرضا بقضاء المعبود فاذا لم يحصل المراد تبدل القرب بالبعاد والمحبة بالبغضة
والصحة بالمرضة (كما جرى لنديم) الملك الظاهر مع صديقه المسافر * قال الملك لولده أخبرني
كيفية ذلك وما تولد من قضية حسده قال الولد أخبرني المملوك انه كان عند بعض الملوك
جماعة من العلماء وطائفة كثيرة من الندماء كل منهم لطيف المحاوره نظيف المعاشره
خفيف المكاثره ظريف الحركه كثير البركه وبينهم شخص قد ساواهم بهذه الصفات
وفاتهم في علو الدرجات اظرفهم لهجة والطفهم بهجة وأشرفهم نهجة عذب المكالمه
حلو المنادمه تقبل الفصاحة ثغر ألفاظه في خطابه ويتهلل محيا البلاغة لاشراق جواهر
جوابه اسمه رشيق وهو لكل عشيق وللملك أكرم نديم وأقدم خديم وصديق قديم يقبل
عليه ويميل دون الكل اليه ففي بعض الايام قدم على الرشيق بعض الاعجام وكان من بغداد
من ذوي الفسق منهم والفساد رجل من الشطار عيار مكار خوان غدار مستحق الرجم
ليس في السماء له نجم غير أنه متظاهر بجميل الخصال وأنه خدم أهل الفضل والافضال فعلق
بطبعه من شمائلهم وتلبس ظاهرا بفضائلهم فتلقاه الرشيق بما يقتضيه كرمه ويليق وبالغ

فى اكرامه وتقدم فى احترامه وأكرم نزله وأفاض عليه نعما جزله ومال اليه بكليته ويجعله من خواص جماعته فصار كل يوم يبدى فضلا ويفتح بابا من الكلام وفصلا الى أن غلب على ذلك الزنديق حسد النديم المسمى برشيق لكونه من خواص الحضرة السلطانيه وقصاص الخدمة الملكيه وكبير الندماء وخطير القدماء فالتمس من النديم ذلك الوغد الذميم أن يوصله الى الحضرة الشريفه ويسبل عليه ظلال نعمه الوريفه فأفكر الرشيق الفكر الدقيق فى عقبى هذه القضيه ومايحدث منها من البليه فانه قد كان أدرك من ذلك الشيطان سوء أفعاله من أقواله ووخيم عزماته من شمائل حركاته وشؤم سكناته وتحقق ذلك من عذبات لسانه وفلتاته وكل شئ تزرعه يقلعك الا ابن آدم اذا زرعته يقلعك ومن اكرم ذا حسد ورأى من أمره عكسه فلا يلومن الا نفسه فسار يسوف به ويدافعه ويمانعه ويصانعه ويدارى الوقت خوفا من المقت الى أن أيس منه وقطع الرجاء عنه فالتهب قيظ غضبه واشتعل شواظ لهبه فرأى ان يرود هذه الغصه الا بكتابة قصه يعرضها ذلك المنهمك على آراء الملك يضع فيها الشدة حسده من الرشيق ويفت من عضده ويفترى ذلك المجترى عليه ماهو عنه برى فراقب الفرصه وكتب القصه يذكر له مساوى فيها ومن جملة مساويها أن بجسد الرشيق من الداء العتيق ما أعجز الاطباء وأعيا الحكماء الالباء وان ذلك الداء يعدى وفعل الازام يتعدى فيردى وان كثيرا من الناس الاخيار من اطلع على دائه ومعضل بلائه يتحاشون صحبته ويجتنبون قربه ومؤاكلته وان هذه نصيحة عرضها وعلى نفسه فرضها اذ القيام بأدائها واجب عليه وانهاؤها الى المسامع الشريفة مندوب اليه فلما وقف الملك على مضمون ما أنهاه ذلك الخبيث فيما ادعاه تذكر ما قاله لبيد للنعمان عن وزيره العبسى فيما مضى من الزمان وهو

نحن بنو أم البنين الاربعه * ونحن خير عامر من صعصعه

اليك جاوزنا بلادا مسبعه * نخبر عن هذا خبيرا فاسمعه

مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه * ان استه من برص ملمعه

وانه يدخل فيها اصبعه * يدخلها حتى يوارى أشجعه

* كأنما يطلب شيأ ضيعه *

فاشمأزت من الرشيق نفسه وزوى فى رياض مصاحبته غرسه فأمر الحجاب والبوابين أن يكونوا الدخوله على الملك آبين فلما ان جاء الرشيق وقصد الدخول بجأش وثيق منعوه من الدخول فرجع خائبا خاسرا وبقى حائرا بائرا ولم يشك أن هذا الضرب سهم غريب لانه لم يعلم السبب فقضى من الزمان العجب فشرع يتفحص عن سبب البعاد ويتردد بين أغوار وأنجاد ويذهب رائد فكره كل مذهب ويعزم على توابعه ليقفه على موانع المطلب الى ان وقف على السبب المضرم وعلم انه الاحسان الى ذلك المجرم وظهر له ذلك البحر البر من قوله الاحسان الى اللئيم سلف فى الشر فاجتمع بجماعة من أصحابه وطائفة من خلص أحبابه وعرض عليهم قصته واستدفع بآرائهم غصته ثم تعرى من لباسه عند الخواص من أنامه لينظروا الى جسده وباسه فرأوا بدنا كسبائك الفضه وأطرافا ناعمة غضه وأعضاء

تضمنها من الطهور قوائمها مسلمة لاشية فيها فأجمعوا على سلامتها وذكروا للملك محاسنها بملاسها وشهدوا بخصن صفاتها وروتق بهائها وأنها سليمة عن الادواء بريئة من كل داء وكانه في شأنه قيل

وأعجب ما شاهدت في وصفه وقد * نزعنا غلالات وثوب حياء
ألا لو نورد في ترقرق مائه * وصورة روح في مثال هواء

وانما لشدة الحسد عاب ذلك الجسد فقال الملك صدقتم وبالحق نطقتم ولكن كيف وقد قيل

قد قيل ذلك ان صدقا وان كذبا * فما احتيالك في شيء وقد قيلا

ثم قال الملك لجماعته المنتظمين في سلك طاعته الذي يدور في معاوي ويبرز به مرسومي أن لا يدخل الرشيق علي ولا يصوب نظره الي فاني اذا نظرته تذكرت ما قيل واستحضرته فتشمئز النفس والخاطر ويتكدر الباطن والظاهر ويتشوش صفو العيش الناضر ثم أمر له بمال جزيل واقطاع عظيم جليل ومنعه من المثول بين يديه والدخول عليه (وانما أوردت هذه الحكاية المتضمنة لهذه النكايه لضبط العلوم الشريفه والآراء المنيفه أن بعض المدعين للصداقه واحكامها باحكام الوثاقه لا يعتمد على دعواهم ولا يركن الى مضمون فحواهم فربما تكون صداقتهم من هذا القبيل فتؤدي الى داء ثقيل وغم عريض طويل فلا يمكن علاجه ولا يسلك منهاجه وأعظم ما في ذلك ما يؤدي الى المهالك وهو عداوة الاقرباء من الابناء والآباء وذوي نصائح الاخاء فان ذلك غل قمل وجرح لا يندمل ومرض لا يبرا ويفضي بصاحبه الى توسد الثرى وان عداوة الاجانب اسهل من مخاشنة القرائب وان القرائب انما يرجون لدفع الداء فاذا كانوا هم الاعداء فقد أعضل الداء (ومن شواهدها) أيها الملك الفاضل ما جرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل الخائن القاتل فقال الملك الكبير أظهرنا على صورة ذلك أيها الخبير (قال) ذكر أهل التاريخ أيها العالي الشماريخ أنه كان في ممالك بابل ملك عظيم فاضل كريم الشمائل عدله مذكور وفضله مشهور همته عاليه وبحور مكارمه بعقود فواضله حاليه وافواه مسالكه كثغور الغواني بشنب العدل والامان زاهيه وله ولد صاحب حسن وجمال وفضل وافضال وملاحة ودلال وصباحة وكمال غير أنه صغير السن لم تقربه التجاريب ولم يبل احوال الاباعد والاقاريب لا مارس الانام ولا قاسى الايام ولا سبر العدو والصديق ولا خبر الطريق والرحيق ولا فرق بين الموافق والمنافق والمصادم والمصادق والمصارم والملاصق فلما دنت وفاة أبيه جمع الخصاء وذويه وأراد أن يعهد الى ولده ويرقيه الى سنده ومستنده ثم دبر في أموره وأحواله وتفكر في مصيره ومآله وخشي أنه ربما أخل بشيء من القواعد فابعد الادنى وأدنى الاباعد أو وضع شيأ في غير محله أو ولى منصبا غير أهله وذلك لعدم تدبر أو فساد تصور أو نشوز رفيق أو فقد مرشد وشفيق أو لغرض فاسد من كاشح أو حاسد فيختل نظامه ويعوج قوامه ويفسد أمره فيضوع زيده وعمره وكان للملك أخ بل انه فخ يدعى القه ويظهر انه ثقته ولا خنو وشفقته فعهد اليه واعتمد عليه وسلمه ولده

وجعله وصيه ومستنده وأجلسه مكانه وأشهد عليه من رؤساء المملكة أركانه أنه اذا توشح
لبه بالولايه وآنس منه رشده بالرعية والرعايه يجلسه على السرير ويسلمه الكبير من
جنده والصغير ويكون هو له أحسن وزير وأمين مشير ونظام ملكه ورأس فلكه
وعضد ساعده وساعد ساعده وأتابك عساكره وعماد الامره وأوامره فان نفس ولده
في سن جهلها تكون عونا من أعوان رعونة الصبا في حزنها وسهلها ويؤدى اليه ملكه
بمقتضى قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها فقبل أخوه ذلك منه بقبول
حسن وتكفل له انه بأسوء حواج الملك على وجه مستحسن وأظهر الود والترفق والتملق
والترقرق والتلهف والتأرق والتأسف والتحرق وبكى وتأوه وشكا وتذلل وتمسكن
حتى تمكن فلما قضى الملك نحبه وأجاب ربه صعد على السرير وتمكن من الجليل والحقير
ونشر بث اضلاعه وعمرت جنب الحكومة والتسلط فى دور طمعه رباعه وابن أخيه فى
كفالته والملك فى ايالته واستقر الصغير تحت نظره لا يفارقه فى سفره ولا حضره يكتسب
كل يوم فضايل السعاده ويطرح من حركاته شمائل السياده ويظهر على اعطافه الملوكية
يوما فيوما آثار الحسنى وزياده الى ان ارتفع قدرا وصار فى الكمال هلالا وبدرا فشم عمه
من رياض همته عرف الطلب وقوى فى ذلك ما كان تقدم من سبب وعرف انه لابد له فى
ذلك من تسمير يجمه فلو منعه لقام كل الخلق باستهجانه وتقبيحه فحصل عقوده وتقل جنوده
ويحصل من عسكره بنوده وأخفى صوته وسيفه وينقض من حبل عمره مريرته فلا
يحصل من الملك الاعلى الهلك فاعمل الكيد وخرج الى الصيد فتفرقت العساكر
وانفرد الملك الماكر ومعه ابن أخيه فاختلى به فى تيه فوثب عليه وفجعه بكريمتيه وألقاه
فى البريه الى مخالب المنيه وتركه وحيدا أعمى لا يجد دليلا ولا يهتدى سبيلا ولا
يعرف مقرا ولا مقيلا ثم اجتمع بعسكره ظانا انه فاز بظفره مخبرا بوفاته وتعمية خبره
ففرغ باله وأصلح رجاله واطمأن خاطره واستقرت أموره واستقامت حبوره فلما هجم جيش
الليل أقبلت السباع من الوادى كأنها السيل وقصدت الوحوش والهوام مالها من مأوى
ومقام وعوت الذئاب وزأرت الاسود وهمرت النمور والقسور والفهود فساورت ابن الملك
الهموم وأورثته أصناف الغموم واحتوشته المخاوف والوجوم فلجأ الى جناب الحى
القيوم جناب لا يخيب قاصده ولا يصدر الا بنيل الامل وارده وصار يحس بيديه
ويصغى الى الحيوان بأذنيه ويمشى الى كل جانب ويهوى بيديه الى الاطراف والجوانب
ويتعلق بحبال الهواء كالغريق الغاطس فى الماء فوقعت يده على شجره فعلق فيها بديه وظفره
وصعد عليها وأوى اليها وتوجه بقلبه الى خالقه وموجده ورازقه وقطع عما سواه
أسباب علائقه واشتغل بالذكر والتسبيح وفوض أمره الى الله تعالى بلمل فسيح واستمر
فى هذا الويل برهة من الليل وكانت طائفة من الجان المهره كل ليلة تأوى الى هذه الشجره
فيتذاكرون ما جرى فى العالم وما صدر فى عالم الكون والفساد من أعمال بنى آدم ويقصون
أفراحهم ويتعاطون اتراحهم فلما اجتمعوا تلك الليله ذكر كل قوله وما جرى من الحوادث
ومن المفرحات والكربات وما وقع من العجائب واتفق من واقعات الغرائب فقال

واحد من القوم ومن أعجب ما وقع اليوم من الامر الكريه ما فعله ملك بابل بابن أخيه وذكر لهم القضيه وما تضمنته من بليه وجعل يتأرق ويتحرق ويتبرم ويتضرم ويحرق الارم ويتعجب من عدم وفاء بني آدم فقال رئيس الجان وهذا غير بديع من طبع الانسان فانه مجبول على الغدر مطبوع على الدهاء والمكر ألم تسمع قول قائلهم في وصف فضائلهم وقبيح شمائلهم مما انخرط في سلك الفضل بدون منع ولا عجز اذا كان الغدر طباعا فالثقة بكل أحد عجز ثم قال الرئيس اعلم يا نفيس أني اعلم ما يزيل هذا الالم ويطفئ هذا الضرم ويشفي هذا السقم وهو أن هذه الشجرة العجيبه لها خاصية عجيبه اسمها شجرة النور وفضلها في ذلك مشهور اذا أخذ من عصارة ورقها ووضعه الاعمى على حدقها انجلى عماها بقدرة رب براها وخالقها فسواها ورد اليها بصرها وزاد نظرها ثم ان الخرابة الفلانيه فيها جحر حية بذيه وهي تابعة لملك بابل الفاعل هذا الفعل السافل وحياته متعلقة بحياتها وموته موقوف على مماتها لان طالعه على طالعها وطبعه اللئيم مطبوع على طابعها فبمجرد ما تموت الحية يموت وينقل من درج الملك الى درج الملكوت كل ذلك وابن الملك يسمع هذا القول فلجأ الى ذي القوة والحول حتى من عليه بعد شديد العقاب بهذا الطول وجعل ينادي ويبتهل ويقول متى يبين الصبح بهل وينشد

ألا أيها الليل الطويل الا انجلي * بصبح وما الاصباح منك بامثل

فلما أصبح الصباح ونادى مؤذن السعد حي على الفلاح تيمم ابن الملك وصلى وحمد الله على النهار اذ تجلى ورض بين حجرين من ورق الشجره واكتحل بمائه فرد الله عليه بصره ثم وجه ذهابه الى تلك الخرابه ورصد خروج تلك الحية اللاطئه وضربها ضربة غير خاطئه فأحاط بها نازل الهلاك وفي الحال خر الملك ميتا على سرير الملك وبينما العزاء عليه قائم واذا بصاحب السرير عليهم قادم وقد قصد ملك أبيه وتمكن من ملكه وذويه وتصرف فيه كما شاء وألبسه خلعة الملك من يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء (وانما أوردت هذا التمثيل) خوفا أن يكون صاحب مولانا الملك الجليل الذي بخراسان من هذا القبيل فتبدل المحبة بالبغض وترجع على موضوعها بالنقض ثم ان بعض الاصحاب والاخوان يفعل ما يفعله من الخير والاحسان على سبيل المكافاه لا على طريق المروأة والمصافاه فاذا كافأ بالاحسان عاد الى ما كان عليه من العدوان فأسأل الحضرة الشريفه والمراحم المنيفه ذات الفضل المشهور والاحسان المأثور التأمل في عواقب هذه الامور لئلا يصيبنا ما أصاب المسافر (ضيف الحداد المنافر) من العفريت الملقى في الحافر قال أخبرني أيها الولد النجيب عن ذلك الامر العجيب وقاك الله شر الوجيب قال بلغني من رواة الاخبار أن شخصا من الاخيار لازم الاسفار وقطع القفار فجاب مشارق الارض ومغاربها وبلغ اكنافها وجوانبها وشاهد عجائبها وغرائبها وقاسى حر الزمان وقره وذاق حلوه ومره وعانى خيره وشره فأداه بعض المسير الى بلد كبير فرأى في بعض نواحيه وطرف من بعض ضواحيه طائفة من الصبيان قد اجتمعوا في مكان فوصل اليهم ذلك الفقير فوجدهم واقفين على حفير يرمون فيه بالاحجار وهم يستغيثون بالستار من العدو

المكار والخبيث الغدار والحسود القديم والكافر الذميم والشيطان الرجيم فسألهم ما هذه المعضلة فقالوا عفريت وقع في هذه البئر المعطلة وهو عدو قديم نريد أن نقتله فقال افسحوا حتى أنظر اليه وأساعدكم عليه ففسحوا عن ذلك الطوى فنظر في قعر الركي فرأى في جانب منها عفريتا مستزويا وقد هشموه وكسروه وحطموه وكاد يهلك مما رجموه فعندما نظر اليه رق له وعطف عليه وقال أفضل المعروف اغاثة الملهوف وان لم يكن بيننا سابقة صداقة ولا وشيجة محبة ولا علاقة بل عداوتنا جبلية وضغائننا أزلية لكن فعل الخير لا يبور ولله عاقبة الامور واذا قصد الانسان فعل الخير فلا عليه ان فعله مع أهله أو الغير وقد قيل للتمثيل أيها الانسان قد عداك الذم افعل الخير وألقه في أليم ثم منع عنه الكبير والصغير وساعده على الخروج من البير واستنقذه من أيديهم وأطلقه فكان كمن اشتراه وأعتقه فلما رأى العفريت هذا الاحسان من ذلك الانسان من غير سابقة ولا عرفان قبل يده ورجله وشكر له هذه الفعلة وقال اني عاجز عن مكافأتك يا انسان في هذا الاوان وأنا اسمي فلان فان وقعت في ضيق أو ضللت في طريق فنادني باسمي أحضر اليك بجسمي وأنفعك في ضيقك وأرشدك الى طريقك وأكافئك أيها اللوذعي بما فعلته معي ثم ودع كل صاحبه وخالف في السير جانبه فوصل السياح الى بلد من البلاد له فيها صديق حداد فنزل عنده فأكرمه ورحب به وخدمه وكان لتلك البلدة عادة حسنة انهم في يوم معين في كل سنة يقربون من يقدم عليهم فيه ولا يسألون أخامل هو أم نبيه فان لم يقدم عليهم غريب في ذلك اليوم اقترع فيما بينهم القوم فمن خرجت قرعته صبوه وكسروا قرعته وقربوه فوافق ذلك اليوم قدوم السائح ولم يدروا من غاد ورائح ولا شعر به أحد من أهل تلك البلد فأخذوا في القرعة بالاجتهاد فطرقت القرعة قرعة الحداد فقبضوا عليه وعزموا على تقريبه فقال عندي غريب لم يكن أحد يدري به فلم يدر السائح الا وقد أحاطت به الشوائح فهجموا عليه وربطوا عنقه ويديه ثم صبوه وحبسوه وفي أضيق مكان أجلسوه وأشهروا النداء انه حصل للحداد الفداء فعلم السائح القضيه وتحقق أنه تورط في بليه فذكر اسم العفريت وقد علقه الهم علوق النار بالكبريت فحضر لساعته ووقته فرأى السائح في هوله ومقته واطلع على جملة الشان فقال لا تخش يا ذا الاحسان اعلم أن أمير هذه البلد له ولد هو واحد أبويه واني الآن أصرعه بين يديه ثم أنادي في النادي ان رمتم شفاء هذا العليل فهو بيد عاء ذلك الرجل الجليل السيد الصالح الزاهد السائح ضيف الحداد الذي بسببه حصلت هذه الانكاد فأطلقوه والتمسوا دعاءه فان فيه لعليلكم شفاءه ولا تطلبوا من غيره دواءه فاذا طلبوك وأعزوك وأرغبوك وأكرموك واحترموك فادع بما يرفع نكدهم فاني اذ ذاك أترك ولدهم فاذا رأوا منك هذه الكرامه بالغوا وسلوك الزعامه وخيروك بين الرحيل والاقامه وأقل ما يفعل معك السلامه ثم ذهب الى ابن الملك وخبطه وحل في أعضائه وربطه فضبط الصبي وتخبل وتكسل وتخبل وكادت روحه تخرج ويدرج مع من يدرج فاشتغلوا بشأنهم عن أمر قربانهم فطلبوا الاطباء فأعياهم علاج هذا الداء ولم يقدروا على علاجه وتعديل مزاجه وتقويم

اعوجاجه واشتغلت الخواطر وتنكد البادي والحاضر فعند ذلك نادى العفريت من ذلك البيت يسمعون كلامه ولا ينظرون مقامه ان زوال هذا العارض ومنع هذا الداء المعارض عند رجل قدوه مستجاب الدعوه رجل صالح زاهد سائح عالم عامل كامل فاضل هو بركة البلاد والعباد مادة الصلاح وقاطع الفساد وهو ضيف الحداد الذي فرط منكم في حقه سوء الادب فادركوه بالطلب وأسرعوا نحوه والتمسوا منه دعوه والاولاد كم هالك عفوه وبادروا باللحوق لئلا يخرج السم من الفوق فان سم هذا المصاب بسبب ذلك أصاب فركب الملك بنفسه وسارع الى باب حبسه ودخل عليه وأكب على رجليه وطلب دعاه ورام لولده شفاه فتوضأ وصلى وأعرض عنهم وتولى وتوجه ودعا فحصل للولد الشفا ونهض في الحال كانما نشط من عقال ثم ان العفريت الجائع أتى الرجل السائح وقال لا تحسب أني اذا كافيتك صادقتك أو صافيتك كيف وعداوتنا قديمة مغروزه وغروس التباغض في حدائق ذوات ناس مركوزه أنا من نار وأنت من تراب شيمتك الترابية وشيمتي الاحراق والخراب ومتى استقام أعوج مع قوام أو وجد بين المتباينين التئام وانما كان هذا الوفاء لئلا ينسب الى الجفاء ونحن على الكدر دون الصفاء وعلى ما مضى عليه من العداوات وان لم يصر بيننا معرفة ولا كان ثم طار شعلة لهب وترك السائح وذهب (ثم قال ابن الملك) ومن أنواع المحبة والصداقه وما يتأكد فيها من العلاقة نوع عجيب تتوفر فيه الرغبه ينشأ من فرط الشهوه ويركب من صاحبه على الصهوه وتميل اليه النفس والطبيعه ولكن تكون استحالته سريعه فيزول بأدنى سبب ويشبه شواظ اللهب يتلهب ساعة وقد ذهب وربما ادى الى الهلاك والعطب كما فعل بالبطة الثعلب حيث كانت محبتها غير صادقه ومودتها بالشهوة مماذقه وشتان ما بين المحبة الخالصة والمحبة المنافقه لا جرم ادت الى عكسها وازهاق نفسها قال الملك أخبرني أيها الخبير كيف هو هذا النظير قال ابن الملك ذكر ان زوجا من البط كان له مأوى على شط جار بين رياض ومروج وغياض ازاهيرها عطره ورياحينها نضره وقريب من وكرا البطتين مأوى لابي الحصين فحصل لذلك الثعلب المرض المسمى بداء الثعلب فسقط وبره وتمعط صوفه وشعره وذاب جسمه وتهرى بدنه وقارب التلف والتحاقه بمن سلف وصار كما قيل

أصبح في أمراضه يعذب * كأنه قد بال عليها الثعلب

فلما أنحله السقم واضناه قالت له سحفاه لما زاد به المرض واشتد دواء دائك كبد البط فان أكلت كبد بطه نجوت من هذا البلاء البته فقال ومن لي بهذا الدواء اذ ليس لي حراك والبط في الهواء فشفاء هذا الداء العضال من باب التعليق بالمحال وكأن الشاعر يعنيني اذ دمع أنيني ورأى سكوني تحت احمال شجوني بقوله

فقال قم قلت رجلي لا تطاوعني * فقال خذ قلت كفي لا تواتيني

ثم استنهض همته واستخفى بهمته وصمم عزيمته واستعمل فكره واستوى مكره وقال لنفسه لا ينجيك من هذه الانكال الا التشبث بذيل المحال لعل الله واهب العطيه يظفرني بهذه الامنيه ثم توجه وهو يتنحط الى صوب البط وصار يتلطى في جنبات الشط الى

أن لاح له بعد الاين أنثى ذات البطتين فمضى الى أن قاربها ثم واثبها فما ساعدته القوه فهوى فى هوته فما وسعه الا أن خالط وأظهر الموده وخالط وعبرت عيناه وبالط وأرى من نفسه ان تلك الوثبه انما هى من داعية المحبه ونهضة الاشتياق الى الاحبه ثم بادر وقال مرحبا بالجارة الصالحه ومن نعوتها بمسك العفة فائحه وأخلاقها غادية بيشر الخير رائحه الخفرة الجيبه الحبيبة النجيبه حياك الله من قرينة رضيه جميلة الاوصاف بهيه فما أكثر احسانك وفضائلك وأوفر امتنانك وفواضلك لقد عممت باحسانك جميع معارفك وجيرانك وأطعت زوجك وحلالك وتحقق كل أحد لحسن الشيم خلالك ومازال يتفق عليها من حواصل هذه الخزعبلات ويضم اردان عقلها من معادن هذه التمويهات حتى سكنت بعض السكون وركنت اليه أدنى ركون ثم أخذ فى الايناس وتمهيد قواعد الاساس حتى اطمأنت واستمكنت واستكنت ثم قال انا لله ولا حول ولا قوة الا بالله ترين ما رأى فيك زوجك من الخلل ولاح له من عيب حتى فعل ما فعل قالت وما فعل ذلك البعل قال لولا ان الغيبة ردية والنميمة مشؤمه ونقل المجالس القبيحه وان كانت وقائعها صحيحه أمر مذموم وهذا معلوم لكنت أفصحت وأشبعت القول وصححت ولكن الصبر على الضرائر فعل الحرائر والورد لا يخلو عن شوك ولا الشباب عن نوع نوك فلما سمعت هذه الهفوه جعلتها المحبة الممزوجة بالشهوه ان الحت عليه وسألت ايضاح ما لديه وأقسمت عليه بحق الجوار الا ما أطلعها على هذه الاسرار فقال لولا ان الجوار ذمه لما فهت بكلمه خصوصا وقد ألحت بالقسم وتشفعت بالجوار والذمم وأيضا لولا وفور الشفقه وعظم المحبة والمقه واعتمادى عليك انك ثقه وان صدرك مخزن الاسرار وانك ست الاحرار ما أطلعتك على شئ مما كان وصار اعلمى ان زوجك المشتط قد خطب بنت ملك البط وله فى هذه المكيده مدة مديده آخرها اليوم كان قد أرسل الى القوم الماشية والخطابه أن يهيؤا اسبابه فلما سمعت هذا الكلام ساورها من الغيرة الضرام ولم تشك فى انه صادق وذهلت عن التبين فى خبر الفاسق وبجميع الاخبار عن الازواج يتوقف فيه النساء الا خبر الزواج ثم انها تماسكت وأرت تجلدا وتمالكت وقالت احل الله له من الازواج ما طاب له لا حيلة الا الانقياد وترك المراد وموافقة السنة والجماعه والدخول تحت الامر بالسمع والطاعه وماذا يفيد التدله والعبره ان الحلال يجدع أنف الغيره قال والامر كما ذكرت وما أحسن ما افتكرت وصبرت وما يمكن الطعن فى الحلال ولكن هذا دليل الملال وكل من ادعى هواك وتخلل فى طريق سواك ولو بحلال من سواك فلا شك أنه قلاك وبعدها الهجر والجفاء سلاك وليس هذا ساعة وتمضى ولا حادثة تقع ثم تنقضى انما هو أمر دائم ونزاع أبد الدهر قائم وانا ما أخشى الا عليك بما يصل من النكد اليك فان حقك ثابت على وضررك عائد الى فانك جارة قديمه معروفة بحسن الشيمه لم ار منك الا الاحسان وعدم التعرض الى ايذاء الجيران وكل منا قد اعتاد بالآخر وباهى بصحبته وجواره وفاخر وأخاف ان يتجدد لى فى الجوار من يتصدى لى بالاضرار ويؤذى ولا يعرف حق الجار لا يعرفنى ولا اعرفه ولا ينصفنى ولا انصفه فيتكدر لى الوقت ولا اخلو من نكد

ومقت لا سيما وانا ضعيف مبتلى نحيف فلا يستقيم الحال ولا اقدر على الارتحال ولا ازال يسد دالمضارب ويقتل منها فى الذروة والغارب حتى أثر فيها سمه ونفذ فى سويدائها من مكره سهمه فاسترشدته الى وجه الحيله فى هذه النازلة الوبيله فقال الرأى السديد والفكر الرشيد أنه اذا أوصل قوله بفعله وأتبع فى اداء فرضه بنفله واختار غيرك عليك طلاقه وألف زوج لديك وأرض الله واسعه وهو المعتدى فى المقاطعه وأنا أكون السفير فى زوج يخجل البدر المنير يعمر دارك ويعرف مقدارك ويخدم كلبك وحمارك ويملأ وكرك خيرا وبطنك طيرا ودارك شعيرا وبرا مع كونه وافر الحشمه مسموع الكلمه قد جمع بين طرفى الاصالة والحرمه فقالت هذا الذى تقول أمر معقول والى الآن ما وقع وعلى تقدير ان يقع ان حصل الشقاق والنفاق وترجح الانذال المستجدة على الكرام العتاق فيكون بيننا هذا الاتفاق وان وقعت بيننا المعادله ولم يحصل فى حقى منه مساهله ولا للضرة على مفاضله كيف أشاققه وعلى فعل مباح أضايقه فضلا عن أنى أفارقه وكيف أخرب دارى وأضر بجى وجارى وأشمت بى الاعداء ويحتاط بى من كل جهة البلاء ولكن الرأى المحمود عندى يا ودود الصبر فى كل حال على الدهر الكدود وتجرع الغصص لئلا يشمت الحسود كما قيل فى التمثيل ما بى دخول جهنم ولكن بى شماتة اليهود فلما رأى الخبيث انه لم يفده هذا الحديث ولم تتم له الحيله وأفكاره الوبيله قال اقول الحق الذى حصحص ولا عنه محيد ولا مخلص ان زوجك قد نقل اليه انك اخترت غيره عليه وانك عاشقه وصحبتك له مخادعة وماذقه وثبت ذلك لديه وعقد اعتقاده عليه وعزمه على الزواج انما هو تعلل واحتياج لفتح باب الشر وتعاطى اسباب النكد والضر وقد ثبت عندى ان ذلك الافاك الاثيم السفاك يريد ان يجرعك كاس الهلاك فتيقظى لنفسك وتداركى غدك فى امسك قبل حلولك فى رمسك واسقيه قبل عكسك وأنا منذ سمعت هذه الاخبار لم يقر لى قرار وذلك لوفور الشفقة وحسن الجوار وقد زدت ضعفا على ضعفى وكدت لهذا الغم أسقى كاس حتفى وأنت يا غرض الحاسد تعلمين ان ليس لى غرض فاسد وهذا بديهى التصور لا يحتاج الى تدبر ولا تفكر ولقد غرت عليك والامر فى هذا كله منك واليك فتكدر خاطرها وتشوشت ضمائرها وضاقت بها الحيل وتاه منها العلم والعمل ومن يسمع يخل وصالت افكارها وجالت وبدر منها ان قالت والله لو أمكننى لقتلته ولو وجدت فرصة لاغتلته واسترحت من نكد الدهر المغير وهذا العيش الوحش المكدر فالتقط الثعلب هذه الكلمة من فيها وعلم ان سهم ختله نفذ فيها لان عقود المحبة انحلت وصورة المودة القديمة زالت واضمحلت وتلاشت الصداقة بالكليه وانمحت شهوتها بادنى جزئيه فقال لا تهتمى لذلك يا ضرة هند فعندى عقار من عقاقير الهند أحلى فى المذاق من ساعة التلاق وامضى من السيف فى حكم الفراق اسمها كسير الموت وتدبير الفوت وسم ساعه وتفريق الجماعه لو اكل منه ذرة أو شم منه نشره لقتل فى الحال وفرق الاوصال من غير امهال فان اقتضى رأيك الاسد ان تخلصى من هذا النكد ناولتك منه شذره تكفيك ذرة منه امره فان شئت اطعمته وان شئت اشممته ولولا انك عزيزة على لم افه لك من هذه الامور بشى ولقد

فضلتك على روحي فاكتمي هذا السر ولا تبوحي فحملت منه جملته وعرفت قدرته وفضيلته وطلبت منه الدوا لتذهب به عن قلبها الجوى وتقتل زوجها المسكين وتسلم من نكده وتستكين وزالت تلك المحبة القديمه ونسيت الصحبة والصداقة القويمه ووعدها الثعلب أن يأتيها بالعقار وفارقها على هذا القرار ثم انها انتظرته ليفي بوعدها واحترق صبرها من نار سمها وقدها وتقاعد الثعلب عنها ينتظر ما يتأتى منها فحملها مشير الوجد اليه وساقها الاجل المحتوم الى ان قدمت عليه فدخلت وكره وقبلت يده وصدره فتمكن منها ذلك الغادر ومزقها كما يريد فصارت كالامس الغابر (وانما أوردت هذا التمثيل) لئلا يكون أصحاب مولانا السلطان من هذا القبيل فيكون المعتمد عليهم والمستند اليهم كالنائم على تيار الانهار والمؤسس بنيانه على شفا جرف هار قال الملك معاذ الله يا ولدي وقرة عيني وكبدي أن يكون صاحبي ومعتمدي من هذا النمط وشبيها بالعفريت والثعلب والبط بل كل من أصحابي وسائر اوليائي وأحبائي ما منهم الا الصديق المهذب والرفيق المؤدب والشفيق المدرب والعتيق المجرب وقد جربته في المودة والاخاء والشدة والرخاء والمروأة والسخاء (كما جرى ذلك للتاجر) المجرب صديقه في الشدة والارتضاء قال الولد نعم مولانا الامام بتقرير هذا الكلام قال الملك بلغني أن بعض التجار الاكرمين الاخيار والكرماء الابرار كان له مال جزيل وولد صالح جليل سعيد الطالع سديد المطالع عالي الهمه متوالي الحشمه ميمون الحركات جميل الصفات حسن الصوره مشكور السيره طاهر السريره وكان أبوه قد تخيل فيه مخايل السعاده وتفرس فيه آثار النجابة والاجاده فكان لا يصبر عن تأديبه وارشاده الى سبيل الخير وتهذيبه وتربيته بمكارم الاخلاق وترتيبه فقال له يا بني ان الانسان يحتاج الى كل شيء وأعظم ما يحتاج اليه ويعول في التحصيل عليه الصاحب الصافي والصديق المصافي والرفيق المساعد في وقت الشدائد فان المال ميال والذهب ذاهب والفضه منفضه والملبوس بوس والمأكل متأكل والخيل خيال والقواضل شواغل والدهر قاصي والعصر عاصي والاقارب عقارب والوالد معاند والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال خبال والدنيا وما عليها لا يركن اليها وما ثم الا رفيق ذو وفاء مجبول على الصدق والصفاء ان غبت ذكرك وان حضرت شكرك مأمون على نفسك ومالك وأهلك وعيالك في حالك ومآلك ان غاب صانك وان حضر زانك فهو أفضل موجود يقتنى وأحسن مودود يصطفى فان ظفرت به فتشبث بسببه ثم قال له يا بني قد أقمت في الحضر وانقضى لك فيه ما ذقت مما حلا ومر فلا بأس ان تحيط علما باحوال السفر فان السفر محك الرجال ومجلبة الاموال ومكسبة التجارب ومرآة العجائب والغرائب فاعزم على بركة الله تعالى وتوكل عليه واصحب معك فيه ما تحتاج اليه ثم أفاض عليه المال وأضاف اليه صالحي الرجال وحين ودعه ووصاه واستودعه قال يا بني لا تجعل دابك وطلبك واكتسابك الا استجلاب الصاحب النافع دون سائر المنافع فانه اوفر بضاعه وأربح تجاره وليس على الصديق الصدوق أبدا خساره واجعله في سفرك نصب عينك واشتره بنفسك ومالك ونقدك ودينك وقد قيل

أخاك أخاك ان من لا اخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح

والمراد به الصديق واعلم ان الاخ الصابى ربما يضرك وأما الصديق الصالح فانه أبدا يسرك والصاحب الشفيق خير من الاخ الشقيق وقد قيل رب أخ لم تلده أمك فقبل الشاب وصية أبيه ثم توجه فى حشمه وذويه بقصد جميل ومال جزيل فمكث غير بعيد ثم عاد وهو سعيد فقال له أبوه حييت وحييت ما أسرع ما جيت قل لى أين ذهبت وماذا اكتسبت فقال يا أبت امتثلت مرسومك الكريم واكتسبت بالمال كل ولى حميم وقد جئت بهم زمرا وعدتهم خمسون نفرا كل منهم صديق صادق ورفيق موافق فى الفضل بارع والى الخير مسارع وفى الرخاء صادق الاخاء وفى الشده اوفى عده قال أبوه يا بنى كيف تصفهم بهذه الصفه وتعرفهم بهذه المعرفه ولم تجربهم فى قضيه ولا واقعة صعبة أو رخية وقد قيل

لا تمدحن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب

وقد قيل ايضا

اذا رمت ان تصفى لنفسك صاحبا * فمن قبل ان تصفى له الود أغضبه

فان كان فى وقت التغاضب راضيا * والا فقد جربته فتجنبه

وقيل ايضا

الناس أكيس من ان يمدحوا رجلا * مالم يروا عنده آثار احسان

واعلم يا ذا اللطائف أنى خائف ان يكون أصحابك واصدقاؤك وأحبابك مثل أصحاب الرئيس المدبر الخامل النفيس الذين دعوه فى روض وفره وتركوه فى قفر فقره قال ابنه يا أبت كيف ورد ذلك وثبت قال التاجر ذكر رواة الاخبار أنه كان فى بعض الامصار رجل رئيس كبير نفيس له أموال وافره وجهات متكاثره وأماكن عامره وضياع ومزدرعات وبساتين واقطاعات وعقار له ارتفاعات فكان ولده يمد يده الى كل معصية ومفسده ويجترئ ذلك السفيه على كل ما يلوح له من جهات أبيه والتف عليه جماعه من عبيد البطن والجماعه كانهم طير قولى ان رأى خيرا تدلى وان رأى شرا تعلى وتمد بالاسراف فى التبذير والاتلاف وصار أبوه ينصحه ويردعه عن جوعه ويكبحه وقال له يا بنى استعمل الانفاق فى الاتفاق واستخلص من الرفاق ذوى الاشفاق واعلم أن هذا المال هو لك متحو ولتصرفك فيه منتظر وانما أنا لك خازن والله تعالى مجاز على فعالى من مساو ومحاسن وتيقن أن المال هو عزك فى الدنيا وزادك الى الاخرى وان له وجوها ومصارف وعوارف ومغارف فاذا صرف فى غير محله ودفع الى غير أهله كان اثما ووبالا وفى الآخرة عذابا ونكالا واحق الناس المستحق لنزول الباس من اكتسب المال حلالا وبذره فى الفساد يمينا وشمالا وادخر به اثما وخبالا فصرفه الى من لا يحمده وعليه حسابه وتكده وأنت اذا صرفت مالك ووزعته وفى غير مواضعه زرعته وانفقته على من لا يعرف فضيلتك ولا يحمل جميلتك ولا يشكر صنعك ولا يقصد نفعك ولا يجلب لك خيرا ولا يكشف عنك ضيرا خرجت من عز الدنيا وفوت زاد الاخرى وهؤلاء الذين قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين غرة صحبتهم الندامه وعاقبة أمرهم الخيبة والملامه والبعد عنهم غنيمة وسلامه

واذا

واذا كان الامر كذلك فاياك ياولدى ثم اياك من صحبة هؤلاء الاحداث والتلوث بقربهم فانهم اخباث واحتفظ بصون مالك ولا تنفقه الا على نفسك وعيالك وفيما يبقى ماء وجهك فى سالك وما لك ولازال أبوه قابض عنانه بقدر طاقته وامكانه يذكره هذه الوصيه بكرة وعشيه حتى أدركته المنيه وخلف ذلك المال العريض لذلك الولد المريض فبدده كما كان الى كل مفسده ونسى يومه وغده وشرح فى مناهج اللهو وقرر بحديث من كتاب فقه الزهو باب الانجاس وسجود السهو واجتمع عليه قرناء السوء وحضروا وخلا له ولهم الجو فباضوا فى الفساد وصفروا وغابوا عن الرشاد وما حضروا وصاروا يعظمونه ويكرمونه ويحترمونه فاذا كذب صدقوه واذا ضرط سمتوه وشمتوه واذا نهق طربوا واذا اخطأ صوبوا واذا قعد قاموا واذا قام ناموا يفدونه بالمهج والارواح ويلازمون خدمته فى المساء والصباح وكان له أم مدبره عاقلة مفكره فقالت له يابنى لا تكن صبى وتذكر وصايا أبيك واياك ومن يليك وتأمل ما لديك واحفظ مالك وما عليك ودبر معاشك وصن ماء وجهك ورياشك واعلم ان أصحابك وعشراءك وأحبابك وندماءك ورفقاءك واخصاءك واصدقاءك كلهم عبيد البطن ولو رقأت بذى شيق او حصن لا خير عندهم ولا مير وجميعهم كسير وعوير فاياك اياك وصحبة من لا يتولاك لا تركن الى صداقتهم ولا تعتمد على موافقتهم فانهم فى الرخاء يأكلونك وفى البلاء يتركونك والى مخالب القضاء يسلمونك رأس مال محبتهم ما فى يديك وأساس بنيان مودتهم ما يرونه من النعماء عليك فان قل والعياذ بالله قلوا وخلوك فى عقد النوائب مربوطا وانحلوا واقل الاقسام يا فذا الاصل السام ان تجرب أصحابك وتختبر من يلازم بابك ويقبل بشفاه المودة أعتابك فى شىء نابك اعجز عن حله نابك من حوادث القضاء أو فى حالة من أحوال الغضب والرضاء او السعة والضيق او التكذيب والتصديق فمن وجدته ناصحا صادقا او مطاوعا مصادقا وفى كل الاحوال موافقا وفى الرخاء والشدة مرافقا يوثق به فى الغيبة والحضور وحالتى السرور والشرور يؤدى الامانه ويجتنب الخيانه ويغار على دينك وعرضك ويساعدك على اداء سنتك وفرضك فاركن اليه واعتمد فى أمورك عليه ومن وجدته منافقا وفى اخلاصه مماذقا ينسج شقة الوداد بوجهين ويتكلم كناقض المداد بلسانين فلا تقربه ولا تصحبه فان بعده غنيمه والخلاص منه نعمة جسيمه وانظر بعين الثبات ما فى هذه الابيات من حسن الصفات فمن كان بها متصفا فتمسك باذياله فانه من أهل الصفا وهى هذه

وقد قيل قول المرء يكشف عقله * ويبدى خباياه وما كان يكتم

فهذا كلامى مظهر ما اكنه * وا كثر هذا الخلق عن عيبهم عموا

فمن شيمتى انى مطيع لصاحبى * واصلح عن خصمى وان كنت أخصم

وأرضى لنفسى دون ما هو حقها * وألزمها الفعـــــل ما ليس يلزم

اذا قال أصغى للمقال وانى * لاعلم منه بالمقال وأفهم

ولم اشك من خل لئلا يملنى * ومن لى بخل لا يمل ويسأم

وأقطع فى بحثى وان كنت غالبا * واسكت حتى قيل ذا ليس يعلم

لابق وداد الناس لى لا اضيعه * ومن لايدارى الناس يرمى ويرغم
وفى كل ذا تقوى الاله شعائرى * ولابد من لا يتق الله يندم
ولانقص فى عقلى وأسباب نعمتى * وأنى وانى بالكمال مكرم
ولى همة يسموالى الاوج قدرها * ولكن خول المرء للدين أسلم
ووجه اعتقادى مثل عرضى ابيض * ودينى متين واعتقادى مقوم
وحسبى من دنياى قوت وخرقة * يبلغنى آثار من قد تقدموا
فهذى غريزات لدى وانى * لادعوالى هذى الخصال وأعزم

فاثر هذا الكلام فيه وتأمل ماتضمنته فحاويه ثم اراد أن يجرب ملازميه ومن يروحه ويسده بقديه فقال يوما من الايام وقد اجتمعوا على منادمة المدام اتفق أمر عجيب وشأن غريب وهو أنه كان عندنا هاون فى زاوية مخزون زنته ربع قنطار أتى البارحة عليه الفار فقرضه وأكله وعمه بالاكل وشمله فلم يدرك من ذلك النحاس فى مكانه الا ما فضل من برادة أضراسه وأسنانه فترشفت ثغور آذانهم منطقه واستحلى كؤسها كل منهم وصدقه وقالوا هذا وقع بغير شك لان الهاون كان فيه ودك والفار استانه باضعه واضراسه بلبن حوافيش بغداد قاطعه (فلما رأى) انهم وافقوه وصوبوا كلامه وصدقوه ازدادت فيهم محبته وقويت اليهم رغبته حيث رقعوا ارتبه وستروا فى جيب مكنونهم عيبه وحققوا محاله وصدقوا مقاله فاسرع الى أمه مسرورا وأفرحا محبورا منشرحا وقال ياأماه انظرى كلام أصحابى واخبرى مقام أحبابى ذكرت لهم كلاما باطلا ومن حلية الصدق والامكان عاطلا فحققوه بلا مريه وأثبتوا حقيقته من غير فريه وصاغوا له من جواهر التوجيه ابهى حليه وذكر ماجرى لهم وله من الجنون والخباط والوله فقالت له أمه ياولدى ومهجة كبدى هذا أمر يضحك منه الجاهل ويبكى على حالك الحالك منه العاقل كما قيل

أمور تضحك السفهاء منها * ويخشى من عواقبها اللبيب

اعلم أيها الذاهل الغافل انك لست من أصحابك على طائل وهؤلاء اعداء فى صورة اوداء وهم فى التمثيل كما قيل

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

وتيقن ان هؤلاء فى النعمة خداعون وفى النقمة لذاعون وأنت شاب غرير وباعقاب الامور لست ببصير لامارست الخلق ولافرقت بين الصادق من ذوى الملق لاخبرتهم ولا سبرتهم ولادخلت مداخلهم ولا ميزت خارجهم وداخلهم ان الصديق الصادق والرفيق الفائق من بصرك عيوبك وغفرلك بعد نصيحتك ذنوبك واطلعك على حقائق الاشيا ونبهك على ماخفى من أمور الدنيا وارشدك الى مايزينك ويصلح به دنياك ودينك وابكاك اذا نصحك لامن اضحكك وفضحك وأما الذى يداس ويلبس ويوسوس ويهوس ويروج الباطل ويحلى العاطل فذاك ليس بصديق على التحقيق وانما هو عدو فلا يكن لك معه قرار ولاهدو فلم يلتفت الشاب الى هذا الخطاب حيث كان مصادما لغرضه غير شاف لعلته ومرضه وقال صدق من نطق وفاه بالكلام الحق من قال افشاء السر الى النساء فعل

الاحمق ثم تركها ترغو واستمر هو مع اقرانه يلهو وداوم على تلك الحال حتى اذا دنت لنفادها الاموال وبيع الرخيص والغال فما استفاق من سكرته واستيقظ من رقدته الا والاموال قد ذهبت والديون قد ركبت وهو ينشد والى مذهبه يرشد

اين ذهبوا في ملامى اينما ذهبوا * في الحمر لا فضة تبقى ولا ذهب

الى ان ذهبت السكره وجاءت الفكره ونفقت البيضاء والصفراء في الحمراء والخضراء وأصبح ملقى على الارض السوداء وتعس من فوق الغبراء وافلس من تحت الزرقاء وتراجع عنه الاصحاب وعاداه الاصدقاء والاحباب ورجعوا عنه بعدما سئموا امنه وصار ناديه يناديه كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وصارت محبتهم له كلفا ورؤيتهم اياه تعسفا فاتفق له في بعض الايام ان قال في أثناء الكلام لذلك الجمع بعينه الذين كانوا أجمعوا على صدق مينه الفار الغدار أكل لنا في الدار البارحة رغيفا كاملا فاتى على أكله شاملا فما ابقى منه لبابه ولا غادر من غدير وجوده صبابه فتنادوا للحال بالمحال والكذب في الاقوال الفار الضعيف كيف يأكل كل الرغيف وهو عاجز نحيف وتناولوه بالطعن وتناوشوه بأسنة السب واللعن وزيفوا أقواله وسفهوا أفعاله (وانما ذكرت) هذا الكلام يا ابن غلام وأحسن من البدر التمام لتعلم ان أكثر من يدعى صدق الصحابه من ذوى المعارف والقرابه انما دعواه كذابه كسحاب صيف لا يديم انسكابه وان الشخص مع الناس الاوغاد والا كياس بمنزلة كوز الفقاع ان رأوا فيه حلاوة الانتفاع استحلوه وبالايدى رفعوه وقبلوه ورشفوه واذا امصوا محصوله وفرغوه رموه وتركوه وتحت الاقدام طرحوه (ثم قال التاجر) لولده راحة روحه وجسده وان كان من صحبتهم وفى سفرك اكتسبتهم مثل هؤلاء الاصحاب فاياك ان تفتح لهم الباب وترفع بينك وبينهم الحجاب (فقال الولد) معاذ الله الواحد الاحد يا أبت عندى ثبت انهم بدور كرام وصدور عظام يقومون لقيامى وينصتون لكلامى ويجيبون ندائى ويؤمنون على دعائى وهم اخلاء فى السراء والضراء (فقال أبوه) اعلم يا ابنى وقرة عينى انى عمرت سبعين سنه وعاينت من الامور الخشنة والحسنه وبلوت الاصحاب وتلوت الاعداء والاحباب ورأيت الدنيا وأهلها وقلبت وعرها وسهلها ولم اترك من جنس بنى آدم فى اكناف الآفاق واطراف العالم من أمم العرب والعجم نوعا لم أخبره وصنفا لم أسبره فلم يصف لى على التحقيق غير صديق ونصف صديق فانت يا بنى العزيز الغالى كيف قدرت بالتوالى فى هذه المدة اليسيره على جمع هذه الطائفة الكثيره (وها انا) يا امام أريك مصداق هذا الكلام وأطلعك من بين الاصحاب على مالهم من مقام (ثم عمد) الى شاة فذبحها وبدمها فى ثياب طرحها ثم دمجها وفى كفن ادرجها وقال لابنه قم يا ذا الارتقاء أرنى هؤلاء الاصدقاء واحدا بعد واحد لتحقق غيب غيبهم بالشاهد وتعرف طرائقهم وتتبين حقائقهم ثم وضع الشاة فى عدل واخفى كل هذا الفعل وحمل العدل على ظهر غلام وخرج ليلا والناس نيام وقصد أحد الاصحاب وطرق عليه الباب فخرج مسرعا اليه وتراءى متواضعا بين يديه وأظهر البشر والسرور والابتهاج والحبور وبالغ

في الاحتشام والاكرام والاحترام وشكر مساعي الاقدام ثم بادروا الى دعوته للدخول وتعاطي الجياح ماله من سؤل ومأمول فقال له الشاب يازين الاصحاب وعين الاحباب دع الكلام لضيق المقام فقد دهتني دهيه وعرتني بليه وأعظم بها من قضيه ويالها من رزيه فقال ماهي وقيت الدواهي فقال كان بيني وبين واحد من أهل الشقاوه خصومة قديمة وأسباب عداوه اسمه معروف وذكره موصوف لشخص مفقود لم يكن له حقيقة في الوجود وهو من أكابر الزمان واحد الرؤساء والاعيان فتلاقينا في خلوه وتداعينا مابيننا من جفوه وتنابشنا الاسباب وتناوشنا باللعن والسباب وتناولنا في الشقاق شق الاعراق وتأذت القلوب من الاغراض بالامراض وتنقلنا من المكالمه الى المشاتمه ومن المواصمه للملاكمه وترقينا من الكفاح الى الجراح فثارت النفس المشؤومه الى ايقاع حركة ذميمه فضربته بخرجته وقتيلا طرحته ولم يشعر بنا أحد من اهل البادية والبلد وندمت غاية الندم وأني يفيد وقد زلت القدم وجرى قلم القضاء بما حكم ثم أفكرت بمن استعين على هذا الامر اللعين وادرت في خاطري كل مساعد ومعين فلم يمل القلب الا اليك ولا استقر الخاطر في ركونه الا عليك وقد قصدت جنابك ويممت بابك اذ انت أعز مخدوم والسر عندك مكتوم وها هو مقتولا اتيتك به محمولا فاحفر لهذه الجثة حفيره وأخفني عندك أياما يسيره الى ان تطفأ هذه النائرة وتسكن الفتنة الثائرة وهذا وقت المروه وزمان الفتوه والقيام بحق الصداقة والاخوه فلما سمع الصاحب اللبق هذا الكلام القلق تضجر وتضرر وتنكد وتضور وقال يا أخي بيتي عتيق مع انه بحر مضيق لايسع أولادي ولا زادي وعتادي واذا ضاق عن الاحياء فكيف بالاموات وهذه بليه من أوحش البليات وأظنها لاتخفى على الناس ويدركها أولو الفراسة الاغبياء فضلا عن الاكياس لان قضاياكم قبل اليوم مشهوره وبلغني ان عداوتكم قديمة مذكوره وفي التواريخ وصدور الكتب مسطوره ولكم واقعات ونوازل وله أيتام كانهم الزغب الحواصل وأما انا فلا يمكنني الدخول فيها ولا تعاطيها بوجه من الوجوه ولا تلافيها فاكفني شر ضيرها واندبني الى غيرها وانى أكتم سرها فلا تخف من جهتي شرها فألح عليه فما أفاد ورده غير ظافر بما أراد فلما أيس منه تركه وانتقل عنه ودار على سائر أصحابه وذكر لهم مثل الاول وخطابه فكان جواب الجميع مثل جوابه الى ان أتى على الجميع واستوفى شريفهم والوضيع ورأى ماهم عليه من طبع بديع كأنهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع فعاد الى دار أبيه ورجع الى صحة بيان التنبيه فقال له بدر الفلك أحققت صدق ماقلت لك وتبينت ماهية أصدقائك وحقيقة أوليائك وانهم نقش حيطان ورقش غيطان وغمام بلا مطر واكمام بلا زهر واجام بلا غر (ثم قال) قم يازين الاحباب أريك ماقلت لك من حقيقة الاصحاب ثم دخلا الطريق وقصدا نصف الصديق وطرقا الباب فخرج وتلقاهما بالترحاب فقال له ذلك المقال وقصدا بمعونته الخلاص من ذلك العقال فقال حبا وكرامه حالتما بمنزل السلامه انا بكم نشيط وأجلكم لي بسيط غير اني اعلمكم ان منزلي غير فسيح حتى أدفن فيه هذ الذبيح وليس لي مخباة ولامخدع ولا اسكن في مطاويه ولا مصنع

واخاف ان أمر كم لايختفى وبهذا المقدار فى أمر كم لا كتفى ويدى لا تملك غيره وقد وقعت بهذا السبب فى حيرة وبالجملة والتفصيل انا أكفيكما شرهذا القتيل فقالا لانقنع بذلك ولكن سدعنا المسالك فقال توجها حيث شئتما فلا انا سمعت ولا انتما قلتما فتوجها الى الصديق الكامل وذكرا له الامر الحامل وقصدا بة لاقيه كرمه الشامل (فقال لهما) أوشئ غيرذلك ،وقا كاالله شر المهالك فقالا لا الادفن هذا المقتول واخفاء هذا الامر المهول وان نكون تحت أذيالك الساتره حتى تسكن هذه الفتنة الثائره فان أهله يطلبونا فان وجدونا يسلبونا ولا يرضون الا بالدمار وخراب الديار ولا يقنعون بالمال والعقار وهذه قضية عظيمه وداهية جسيمه فان كنت تنهض باطفائها وحل أعبائها وتسعى فى اخفائها فقد قصدناك ودون الاصحاب أردناك فان عجزت عن سدها فلا عتب عليك فى ردها ولا تتكلف فوق طاقتك ولا تتجشم لاجلنا غير استطاعتك (فقال) سبحان الله واسوأتاه هذا يوم المروأة والوفاء وتذكر وسائل اخوان الصفاء فلكم الفضل اذ قصدتمونى والجملة التامة حيث أردتمونى أما والله لو كان ألف قتيل لواريته وكل ما كان من امر غيره باريته وداريته لا يسمع ابدا خبره ولا ترى عينه ولا اثره (واما انتما) فافديكما بروحى وأولادى وطريفى وتلادى وعندى ديار انزه من جنان الابرار وافيح من كل دار فادخلوها بسلام آمنين فانها تشرح كل قلب حزين ولو اقمتم بها سنين ماشعر بكم احد من العالمين فيها ارغب نديم وأقرب خديم وأحسن جليس واعين انيس فلن تملوا مقامها ولا تعدموا اكرامها فانتم عند من لا يمل أبدا نزيله ولكم فى ذلك الفضل والجميله (قال التاجر) شكر الله سعيك وحفظ على أصحابك مودتك ورعيك (ثم) ودعه وانصرف وقد عرف الولد من حقيقة الامر ما عرف (ثم) قال لولده يابنى واعز عندى من كل شئ ان اتخذت الصديق فليكن صديقك على هذا الطريق والا فالانفراد أحسن والعزلة أوفق ان امكن كما قيل

فاقحبى كل الملاح كالا * هكذا هكذا والا فلا لا

ولقد أرشد من انشد حيث قال هذا المقال

ما فى زمانك من ترجو مودته * ولا صديق اذا جار الزمان وفى
فعش فريدا ولا تركن الى احد * انى نصحتك فيما قد جرى وكفى

(ثم ان الملك) قال لاولاده ياذوى الافضال ان غالب اصحابى من الامراء والرؤساء الكبراء خصوصا فلان أمير ممالك خراسان هم من هذا القبيل وانا عودتهم هذا الجميل فكونوا فى الحقيقة متمسكين باسباب هذه الطريقه (فلما) أكمل وصيته اولاده هيأ لسفره عتاده وذكر الله وزاده ثم ودعهم من دار الشرور وانتقل الى دار الحبور والسرور وقد عهد الى أكبر اولاده واستودعهم الله وهو القاهر فوق عباده من لا تضيع الودائع لديه ولا يخيب من توكل عليه فسمعوا الوصية واطاعوا وتعلقوا باذيال اهدابها فاضاعوا واستمروا تحت امر أخيهم كما كانوا فى حياة ابيهم كأن أباهم ما مات ولم يقع بينهم شتات فدام لهم السرور وانحسمت عنهم مواد الشرور وأشرقت بهم ممالكهم وأملاكهم ودارت

بالسعود أفلاكهم ثم ان الحكيم حسيب انتقل من كلامه العجيب بعد فراغه من حكم ملك الاعجام الى فوائد ملك الاتراك الهمام فشنف المسامع وشرف كل راء وسامع وشرع فى القال والقيل وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿الباب الثالث﴾

فى حكم ملك الاتراك مع ختنه الزاهد شيخ النساك قال الشيخ أبو المحاسن حسان صاحب الحسن والمحاسن والاحسان ثم نهض الحكيم حسيب الاديب الاريب ووقف فى مقام حده وقبل موطئ أخيه بشفاه خده وقال لقد بلغنى أيها السلطان ان فى قديم الزمان كان فى الترك ملك يسمى خاقان من الملوك العادلين والسلاطين الفاضلين برسم العدل معروف وبقصم الجور موصوف كسرا الاكاسره وقصر الاقاصره وبحر الجبابره وثغر ثم الدعار النبالة الفاغره ملك بلاد الختن والخطا واستولى على ممالك المغل والحنا وأطاع اوامره الترك والتتار واستسلم لرأيه سكان الدست والقفار وكان يأجوج من جملة خدمه ومأجوج من بعض عبيده وحشمه كانه وارث لذريه يافث قوى فى أخذ الملك من ممالك الصين وأخذ الى اطراف الشمال باليمين ولم يكن له من البنين والبنات مع كثرة السرارى والزوجات سوى بنت واحده لطلعتها الاقمار شاهده

شمس ولا كالشمس عند زوالها * بدر ولا كالبدر فى نقصانه

بل بهرت الشمس جمالا والبدر كمالا وفاقت ملاح الدنيا شمائل وخصالا وهى عزيزة فى قلب أبيها كريمة على خواصها وذويها فصارت ملوك الاطراف يخطبونها ومن أبيها يطلبونها فكان أبوها يفوض الامر اليها ويعتمد فى تزويجها عليها وهى لا ترغب فى طالب ولا تصغى لخطبة خاطب الى ان عنست وخطابها أيست وكان أبوها كاذكرذا فطنة بالغه وهيبة دامغه تخشى حوادث الزمان واختلى بها فى مكان وقال اعلى يا معدن اللطائف ان البنت فى منزل أبيها كالماء الواقف ان مكث يأسن وان لم يستعمل انتن ولا أقول ذلك ملالا ولا عجزا ولا استثقالا بل لا بد للمرأة من زوج يليها فيسترها ويضمها ونعم الختن القبر واحلى من البنت الصبر فان رأيت الرغبة فى الزواج طلبت لك كفوا من الازواج وكان ذلك استرلعرضك وأدنى لاقامة سنتك وفرضك وافرغ لخاطر أبيك واشرح لخدمك وذويك فقالت أحسن الله الرحمن الى مولانا الخاقان وكفاه كل جان من الانس والجان ان البنين من جملة النعم والبنات من اعداد النقم ونعم الدنيا عليها الحساب ونقمها سبب الاجر والثواب قال رب الارباب فيما أنزله من الخطاب فى محكم الكتاب المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا وقد جاء فى بعض التفاسير ان الباقيات الصالحات هى البنات فمولانا الملك يعد وجودى نقمة عليه من معبودى واسأل الصدقات الملوكيه والمراحم الوالديه ان لا يعجل فى أمر تزويجى وان لا يبادر كيفما اتفق الى تزويجى فان التأمل فى ذلك أولى وثناء فى الدنيا وثواب فى الاخرى

وذلك لان الكفاءة فى الزواج معتبره وقد قرر ذلك الفقهاء البرره وان لم يكن الزوج للمرأة
كفوا فزواجها به يقع سخريه وهزوا ولا يفيد سوى الغرامه والفضيحة والندامه فقال
الملك لا ازوجك الا بكفؤ كريم يكون لك ادنى خديم وفى الناس أعلى مقام عظيم قالت
يامولانا الملك وقاك الله شر المهمك لا تحمل اعتراضى على الاساءه وانما أسأل عن كيفية
الكفاءه فان كانت بالملك والمال فان ذلك فى معرض الزوال وان كانت بانشاب الانساب
فان ذلك خطأ الاصواب قال منزل الكتاب العزيز الوهاب فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب
وقال من لا يجوز عليه كذبه من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وانما الفقهاء حكموا بالظاهر والله
يتولى السرائر ونحن فى قيد الانقياد ولا يسعنا الا ما أمر به الشرع وأراد وأما أنا فكفوى
الكريم انما هو الكامل الحليم الفاضل الرحيم قال الملك بارك الله فى رأيك وعقلك أنا لا
أزوجك الا بملك مثلك أو ابن ملك مثل أبيك يرعاك ويكرم خدمك وذويك يعدل بالسويه
ويحكم على سائر الرعيه قالت أيها الملك الكبير صاحب التاج والسرير أنا ما أعرف الملك
الامن يعرف بملك الحكم على نفسه فى سيره ويكون متحكما متمكنا من الحكم على غيره فيحق أن يقال
فى ملكه ذى الجلال خلد الله سلطانه وشيد أركان ملكه وبنيانه قال الملك ومن هو ذاك بارك
الله فيك وهد الذات أما الحاكم على نفسه فهو المالك لزمام جوارحه وحسه قد جعل خزائن
القلب والسمع معدنا لجواهر العقل والشرع فهما اقتضاه العقل امضاه وعمل بمقتضاه وما
ارتضاه الشرع وقضاه كان فيه انقياده ورضاه قد تحلى بعقود مكارم الاخلاق ولو كان فى
أسمال أخلاق وشغل نفسه بتهذيبها واجتهد فى خلاصها من شرك عيوبها واهتم بعيوبه عن
بعيده وقريبه وبغيضه وحبيبه فذلك الحاكم على نفسه المميز على أبناء جنسه وأما حكمه على
غيره فهو أن يكون فى سلوكه وسيره منعزلا عن الناس فى زوايا الياس لا يسأل عن أحوالهم
وعيوبهم ولا ينظر الى ما تحت أيديهم وجيوبهم مالكا لزمام العزله متنعما بهذه النعمة الجزله
قد اتخذ التقوى والقناعه أحسن حرفة وأربح بضاعه قد سلم الناس من يده ولسانه لا يدرى
بشانهم ولا يدرون بشانه فذلك الحاكم على غيره الفائز من ملك الدارين بخيره فهو
الذى خلد ملكه وسلطانه واتضح للعالمين برهانه فان وجد بهذه الصفات موافق فانه لى
كفؤ مكافى وانه كالبدر جلى لى تقى الصدر لله ولى فاذا انعم الزمان بمثل هذا منالا فنعم نعم
والا فلا لا فجعل الملك الخلق يتطلب مثل هذا الخلق وأرسل القصاد الى أطراف البلاد
يسألون سكان الاكناف وقطان الاطراف عن موصوف بهذه الاوصاف واستمروا على
ذلك مده كل باذل جهده حتى ارشدوا بعد زمان أن المكان الفلانى فيه فلان رجل اعرض
عن العرض فلم يكن له فى الدنيا غرض وهو بحسن الصفات موصوف وفى كرخ العبادة
والاجتهاد معروف جامع لهذه الصفات لين له الى الدنيا وأهلها التفات مشغول
باكتساب الآخره وطلب نعمتها الفاخره وهو من نسل الملوك وقد ترك وراءهم السلوك
وسلك فى العلم والعمل السبيل الاقوم حتى كانه محمد بن الحسين أو ابراهيم بن أدهم ولشدة
ماهو لنفسه مجاهد سماه الناس الملك الزاهد فأجمع الخاقان على مصاهرته وجعل التقرب
اليه قربة لآخرته فأخبر ابنته به وكان جل مطلوبها ومطلوبه وعقد بينهما النكاح

وحصل الفلاح والصلاح فوافق شن طبقه وصار لعين غرامها كالحدقه ومضى على ذلك برهه وهما فى طيب عيش ونزهه فاشتاق الخاقان فى بعض الازمان الى رؤية ابنته وسروره بهجته فقام اليها بقصد زيارتها لينظر حالها وما عليها ومالها فوجدها فى عيش هنى وأمر سنى فسألها عن احوال زوجها الزاهد وكيف صبرها على حالها الجاهد فأثنت خيرا وكفت ضررا وضيرا وقالت جميع ما يبرزه ويأتيه على حسب ما اريده وارتضيه وارتفاعات أحوالنا بسعادة مولانا فى دفاتر الامن منضبطه وعقود حياتنا بيمن صدقاته فى صدور الرفاهية غير منفرطه غير ان بيتنا واحد وبسبب ذلك يتضرر هذا العابد فيه نبيت وفيه نقيل وبجوانبه مالنا من خفيف وثقيل وقوت ونقود وخادم ومولود فلا يتفرغ من الغوغاء للعباده لانها تستدعى عزلة العابد وانفراده وتخليه لمناجاة معبوده ليظفر من حلاوة الطاعة بمقصوده فأسال مولانا الخاقان ذا الفضل والاحسان بيتا يتخلى فيه للعباده ومكانا يضع فيه خرثى البيت وعتاده فقال حبا وكرامه وقربى وسلامه (ثم اجتمع) الملك بصهره الذى به فاخر وذكر له انه اعطاه بيتا آخر أحدهما يكون لخلوته ومبيته والآخر يضع فيه ما يحتاجه من عتاده وقوته (فقال) الزاهد ايها الملك الماجد فعلت ذلك لتقسم خاطرى وتوزع فكرى وضمائرى ولا طاقة لى أن اتعلق بمكانين وما جعل الله لرجل من قلبين وانما الزاهد من همه فى الدنيا واحد فانه على عدد التعلقات يتوزع القلب الشتات واذا تعددت الاماكن يحتاج كل منها الى ساكن أو حافظ أو ضابط أو حارس او رابط وأنا لا اعتماد لى بحفظ نفسى أيها الولى فكيف يكون لى اقتدار على حفظ الاغيار واذا انقسمت أفكارى وفسد بالى فكيف أقدر على صلاح حالى وأنى يصلح مع فسادى امور معاشى ومعادى ثم انى اذا وزعت نفسى فقد نبهت راقد حرصى والحرص افعى قاتل واسد صائل يقتلنى بسمه بل بمجرد شمه فقال الملك الكبير لا تهتم لذلك أيها الزاهد النظير فان لى اماكن عديده وقصورا مشيده وحواصل مصونه وخزائن مكنونه الكل تحت تصرفك واختيارك لا منازع لك فيه ولا مشارك فاجعل لكل جنس من قماشك وأثاثك ورياشك وما يقوم باودك ومعاشك مكانا على حده وناحية حفظ منفرده واتخذ لنفسك مقاما خاصا بك لا عاما وأنا أقيم على كل مكان حارسا ان شئت راجلا وان شئت فارسا فعندما تحتاج الى شئ أتاك هنا ميسرا من غير كد ولا عى وتفرغ أنت لعبادتك واشتغالك بامور آخرتك قال الزاهد أيها الملك الجاهد الاغترار بالقصور من جملة القصور والاعتماد على الحصون من دواعى الجنون واذا ورد من الملك الغفور طالب على يد القبور فماذا تجدى الدور والقصور وماذا تنفع الحصون أو يدفع كل مكان مصون واذا آذن بالحلول ذلك الخطب المهول تردّ النفس لو كانت القصور الممهده والبروج المشيده اذل من أفحوص قطاه وأقل من عش بزاه وقد قيل

قميص من القطن أو حلة * وشربة ماء قراح وقوت
ينال بها المرء ما يبتغى * وهذا كثير على من يموت

واعلم أيها الخاقان أن النفس لها خادمان مطيعان مجيبان ولما تأمر به سميعان وهما

الشهوة والحرص الشديد الدعوة أمّا الشهوة فرائد الاكل الكثير والشرب وامّا الحرص فعايد الرعونة والعجب وقد قيل

فهذا يقود الى طبعه * وهذا يسوق الى ربعه

فهما البلاء ونهارا وسرّا وجهارا يزيّنان لها ما طبعا عليه ويجذبانها الى ما جبلا اليه ويتقاضيا نها حقهما ويطالبانها صحقهما ولابدّ للمخدوم من اقامة اودخادمه واسترضاء انيسه ومنادمه وقد قال من اتقن المقال

ان اللبيب أنا اللبيب هو الذى * مع تيهه يحنو على عشاقه
وكذا الرئيس وأنت اكبر جنسه * من فاض فى الخدام من ارزاقه
يرجو ان حضروا له بنواله * يغتم ان غابوا على اشواقه
مع ان حشمته وفائض علمه * ترقى بكل منتهى استحقاقه

ولكن رضاهذين الخادمين غاية لاتدرك وفقد مقصوديهما نهاية مهلكة المسالك وقد قال سيد الانام عليه الصلاة والسلام يوما وهو بين الاصحاب كالشمس ليس دونها حجاب والبدر لايحجبه حجاب لايملأ جوف ابن آدم الا التراب والحرص مهلك والشهوة قاتله وكل منهما فى الدمار والبوار علة كامله وناهيك باذخر الحق وغياثه أخبار اللصوص الثلاثه فطلب الملك من الزاهد ايضاح هذا الشاهد فقال ذكر أهل الوراثه أن لصوصا ثلاثه كانوا على سبيل الاشتراك متعاطين أسباب الجرم والهلاك واستمروا على ذلك مدّه حتى استولوا من الاموال على عدّه ففى بعض الليال ظفروا بجملة من الاموال ودخلوا الى مكان داثر خال بنية الاقتسام وكانوا محتاجين الى الطعام فوجدوا فى ذلك المكان الداثر صندوقا مملوأ من الجواهر ففرحوا وانشرحوا وتصوّر لاولئك الخاسرين انهم ربحوا فقالوا ان اشتغلنا بقسمة هذا المجموع كلبنا وأهلكنا كلب الجوع فالاولى طلب الطعام قبل الاقتسام ولو بأدنى التمام وبيسير التقام ثم ارسلوا مع أحدهم الى المدينة ورقهم ليأتيهم بما يسد رمقهم فلما انفصل عن مكانهما وغاب عن اعينهما تحركت نفسه الخبيثه بشهوة اججت ثائرته وقوّاها الحرص المشؤم لشدة الشره اللوم ودعاه داعى الفساد الى الاستيلاء على المال بالانفراد فعزم على قتلهما فوضع فى الطعام سمّا لقتلهما وأما هما فعلى قتله عزما واستعدا لذلك بعدما جزما ليصير المال بينهما نصفين ويصيرا فى ذلك كالاخوين الالفين ويكون ذلك كأنه وراثه لان شرّ الرفقاء ثلاثه ولم يدعهما الى ذلك غير داعى الشهوه وا كذلك داعى الحرص وأبخس بها من دعوه فلما فصل ذلك بالاكل بادرا اليه بالقتل ثم بعدما قتلاه عمدا الى الطعام فأكلاه فبردا فى الحال وتركا ذلك المال ولحقا بصاحبهما التالف وسيبا التليد المال والطارف وانما اوردت هذه الموعظه لانها على احوال الدهر موقظه وان كان مولانا الخاقان فى اموره يقظان لكن قد قال رب العالمين وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين واعلم يامولانا الخاقان كفاك الله مكايد الشيطان وأنجح مقاصدك على ممر الزمان أن الدرجة العليه والمرتبة السنيه لاتنال بقوة ولاعزمه ولاشجاعة ولاهمة وانما هى عناية ربانيه وأسرار رحمانية لاقوام سبقت لهم من الله الحسنى وزياده وانتظموا فى سلك اهل

السعادة فهم أهل الفضل والسياده أسبغ الله عليهم سواطع الأنوار وقطعهم عن قواطع الأشرار فهم السادة الأخيار والقادة الأبرار قاموا بأداء ما وجب عليهم وتركوا ما خلفهم واستبشروا بما لديهم فأنوارهم ساطعه وأسرارهم لجميع الأوهام قاطعه تركوا زخارف هذه الدار وأرادوا دار القرار وجوار الملك الغفار فهم الهداة الى الله الدالون على الله لا يعتريهم كدر الأوهام ولا يشتغلون عن خدمة خالقهم مدى الأيام هم العباد المكرمون العباد المقربون قال الله تعالى وهو أصدق القائلين في كتابه المكنون الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون واعلم أن أعدى عدوك بين جنبيك وهي نفسك التي قط ما ركنت اليك فاعص هواها ولا تعطها مناها فان في اتباعها الندم عاجلا والحسرة آجلا لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع ولا تظن أنها اذا أعطيت مناها شكرت أو اذا ذكرتها من برأها ذكرت بل متى آمنتها كفرت أو آنستها نفرت أو أرخيت عنها بطرت وأشرت وان نالت مطلبا أو تناولت مأربا انتقلت عنه وطلبت أعلى منه فليس لها دواء الا القمع عن دواعي الهوى كما قيل

النفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

وكما قيل أيضا

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان أهملت تاقت والا تسلت

وكما قيل أيضا

قنع النفس بالقليل والا * طلبت منك فوق ما يرضيها

واياك وطول الأمل فانه مفسدة للعلم والعمل قال الحكماء وعقلاء العلماء الأمل شبكة الشيطان وموجب الحرمان فاجهد ما دام لك على النفس ملكة أن تخلص نفسك من هذه الشبكة ولا تهتم للأقوات فكل ما قدم ما فيه فوات وكل ما هو آت آت وكل ما رقمه القلم في القدم وأثبته قضاء الله تعالى عليك وأنت في العدم سواء كان خيرا أم شرا نفعا أم ضرا فأنت ملاقيه وعلى كل حال مواقيه فاقطع دواعي الطمع عن لا يضر ولا ينفع لاعن ان شاء ضر وان شاء نفع ولا تجتمع الاعتلال في الحاجات والجمع ولا تتعب بجوع وعري وا كتساء وشبع فقد قيل اذا شبعت فلا تهتم للجوع فكم من شبعان مات قبل أن يجوع واذا اكتسيت فلا تهتم للعريه فكم من مكتس مات وثيابه جديدة مطويه واعلم أن طبع الدنيا بالخالقه كأنها على الخالقة مخالفه فاذا ضعمت عنها يدك اليك أقبلت عليك وجاءت تهوى تحت قدميك واذا طلبتها هربت منك وكلما ارتبطت اليها انحلت عنك وقد قيل أيها الملك الجليل

مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه مستعجلا * واذا وليت عنه تبعك

ثم اعلم أيها الخاقان انك وان كنت ذا التصرف والسلطان وأن هذه الخلائق رعيتك نافذة فيها بمراسيمها مشيتك الا انك في الحقيقة واحد منهم لا تزيد بشيء في الذات والصفات عنهم ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خالق الأولين والآخرين رفعك عليهم وتقدم بأمره أن يطيعوك اليهم فقال من له الخلق والأمر أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول

الرسول وأولى الامر فهم قد أذعنوا لك واطاعوك فراعهم كما هم مراعوك واطلب لهم اسنى المراعى وأبهاها وأوردهم أعذب المشارب وأصفاها فان الملك الذى سلمهم اليك سوف يتقدم بالسؤال عنهم اليك وقد قال من أنت خليفته على امته كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فكن لهم كما تريد أن يكونوا لك ودن لهم كما تحب أن يدينوا لك واعلم أيها الملك الودود أن هذه النقود ان لم تصرف فى مصارفها وترفل فى وجوه الطاعة فى مطارفها فانه اجدر يضرم فى نار جهنم كما قال من يقول للشئ كن فيكون يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون فاسمع أيها الملك الصالح نصيحة مشفق ناصح ولا تغتر بالدنيا وزهرتها ولا تنظر الى حلاوتها وخضرتها واياك والميل الى نزهتها ونضرتها فانك ان ملت اليها اسرتك او جبرتها على الركون اليها كسرتك وحسبك من كلام الرب الغفور ومن بيده مقاليد الامور ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور قال الراوى لهذه الحكم والفتاوى فلما وعى ما قال الختن هذه النصائح الصادقة من الختن أمر بها فسطرت ثم نشرت وشهرت وعلى المنابر قرئت وعلى رؤس الاشهاد ذكرت وابلغها ابنته وقرر لها مقدار زوجها وحكمته وميله عن الدنيا ورغبته فقالت هذا الذى كنت اردته وعلى مسامع مولانا الخاقان سردته ثم انها أقبلت على طاعة ربها وبعلها واصلاح أحوالها فى قولها وفعلها وقضيا عمرهما فى انواع العباده واكتسبا بطاعتهما فى الدارين الحسنى وزيادة ثم اقتدى بهما الملك وعسكره حتى انتشر فى آفاق المملكة بالعدل والصلاح خبره الى أن اندرج الى رحمة الله تعالى ذلك الرعيل وبقى ذكره مخلدا على صفحات الايام جيلا بعد جيل وقد قيل فى ذلك من أحسن القيل

كانوا شموسا تضىء الدهر طلعتهم * وفى طريق المعالى يقتدى بهم
غابت فلولا سناهم كالبدور أضا * من بعدهم تاه أهل الفضل فى ظلم

هكذا يكون طالب السعادة الابديه والكرامة السرمديه اذا ملكه الله زمام الرعيه يحسن سيره فى الدنيا ويتيقظ لتحصيل السعادة الكبرى ويشتغل بما يرضى عنه المولى وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (تمت بحمد الله تعالى) نوادر ملوك العرب والعجم والاتراك ويلى ذلك مباحث زاهد الانس العالم مع شيطان الجن الاثم الافاك ونسأل الله المسؤل أن يحقق لنا من كرمه واحسانه المأمول ويعصمنا بفضله من عثرات الفضول والصلاة والسلام على أعظم نبى واكرم رسول وعلى آله وأصحابه واكرم بالصديق والفاروق وذى النورين وزوج البتول واخوانه من الانبياء والمرسلين صلاة وسلاما يشملان العفو عنا والقبول ويمنّ بالكرم والفضل على قطوعنا بالوصول آمين والحمد لله رب العالمين

(الباب الرابع)

فى مباحث عالم الانسان مع العفريت جان الجان قال الشيخ أبو المحاسن من ماء بنابيع علمه فى مجارى بدن الفضل غير آسن فلما انهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب حكاية ماطرزه

عما نصحه وساك وفصله شباط تقديره على قامة المجد من خلع حكم العرب والعجم والاتراك شكره
اخوه القيل على هذا القيل وافاض عليه من نيل نواله بحر النيل وأدرك من ذلك الاعوذج
علو عله وسمو محله وجميل حكمه وجليل حكمه ثم قال يا استاذ بلغني أن ببغداد خرج
منها خارج من نار من مارج وهبط الى مدارك الخزي عن المعارج واصل ذلك المشوم
من عفريت خلق من نار السموم وان شخص ذلك الشيطان جبل من سخام الدخان فلهذا
ركب وجهه السواد وتركب سائر جسده من الرماد فهو جني ذميم وشيطان رجيم
وقد شرع ذلك الخناس في الافساد والوسواس وتعاطى ايذاء أكابر الناس وانه في هذه
الايام نزل الى بلاد الشام فلم يوافقه ذلك المقام لانه مهاجر الانبياء الكرام وهذا مجبول على
سجايا اللئام وطباع أهل الفساد والاجرام فأقام فيها بالاضطرار والاضطرام مدة أشهر
وعدة اعوام وأخذ في الاضلال والتضليل فأضل خلقا كثيرا عن سواء السبيل وتستر ذلك
الجان بحجاب الانتساب الى جنس الانسان والبس بشق العصا ثوب العصيان فكمن كمون
الشوك تحت ورق الورد والريحان واختفى في حي الشقاق والنفاق بشقائق النعمان والحق
انه من نسل العفاريت وكان عند الجن مقيله والمبيت ومن ألبانهم له غذاء وتربيت فقال له
الملك هديت ووقيت فان يكن عندك من ذلك شئ فشنف من جواهر حكمه أذني فانك
حكيم الجن والانس وكريم النوع والجنس قال الحكيم نعم أيها الملك العظيم انا جهينة
الاخبار ومزينة الاخيار وحكم الحكم ولي في البيان اعلى علم أما هذا الشخص المذكور فانه
بالفسق والفساد مشهور ورق شره في البلاد منشور وكتاب عناده بين العباد مسطور
وبيت حسده لنعم الله تعالى على خلص اوليائه بالفجور معمور وله صفات تعيسه وأخلاق
خسيسه تأنف مردة الشياطين منها وتستنكف العفاريت عنها وكم له من دواهي شرها
غير متناهي لايفي بذكرها هذا الخطاب ولايسع سردها هذا الكتاب بل ولايقوم بذلك دفتر
ولاحساب ولكن البعرة تدل على البعير فقس من هذا القدر الكثير على اليسير وقد كان أراد
نشر الفساد ببلاد العراق وبغداد فعاكسه القدر وأحاد فنفي من تلك البلاد فوصل ارم
ذات العماد وتعاطى أسباب ماهو عليه من الزندقة والالحاد فأثار أصناف الفتن وأنواع
العناد وابتدع من الشر والبدع مايخرج عن حصر التعداد وهو على ماهو عليه من
المنا كدة والمجاحده وقصده الاعوج من تعديل أقوال الرافضة والملاحده وسيوضع لذلك
مصنف متسع على حده ولقد بلغني أيها الملك الهمام انه حصل له في ذلك المقام مع عالم من
علمائها الاعلام قضايا كبته على خيشومه وأظهر بها ذلك العالم دسائس خبثه وشومه
مثل ما اتفق لعالم الانسان مع شيطان العفاريت وجان الجان في غابر الدهر وماضي الزمان
فقال القيل العظيم أخبرنا بذلك أيها الحسيب الكريم فقال ذكر أن في الازمان الغابره
كانت صنوف الجن للانس ظاهره تتراءى باشكال مختلفه وتتزيا بامثال غير مؤتلفه وتظهر
لهم الخيالات العجيبه والصور المموهة الغريبه فتضلهم ضلالا مبينا وتأتيهم من بين أيديهم
ومن خلفهم وشمالا ويمينا وتخاطبهم مشافهه وتواتيهم مواجهه ففي بعض الايام ظهر
ببلاد الشام مهبط الوحي ومهاجر الانبياء الكرام ومحط رحال الرجال من أهل الفضل

والافضال

والافضال رجل من العباد وأفراد الزهاد فاق الاقران بالصلاح وساد أهل الزمان بالورع
والفلاح وحاز طرفي العلم والعمل فكمل كثيرا منهم بعدما كمل واستمر يدعو الخلق الى
خالقهم ويحثهم في الانابة والتوكل على رازقهم ويرضونه ويرضيهم في الطاعه واتباع
السنة والجماعه ويقبح الدنيا في أعينهم ويحذرهم غدراتها في مكمنها عند مأمنهم وكان لنفسه
المباركة نقوش في النفوس يجذبها الى ما يريد جذب الحديد المغناطيس ففي مدة يسيره تبعه
طوائف كثيره وانتشر صيته الى الآفاق وصفا للعباد وقت الطاعة وراق وضربت اليه
أكباد الابل وامتلأت به الدنيا من العلم والعمل واضطرب أمر المرده والشياطين العنده
وتعطلت أسواق الفسوق ونزع عرق المعاصي من العروق وتحملت العفاريت
وتنكست أعلام الجن المصاليت وضل سبيل الضلال كل مارد خريت وبطلت زخارفهم
وتمويهاتهم وعطلت وساوسهم وتشويهاتهم وأهانهم الناس وكسد الوسواس وفسد
فعل الخناس فلما ضل سعيهم وكاد يقع نعيهم اجتمع العفاريت العتاه والشياطين الطغاه
والمردة العصاه الى ابليسهم العنيد وهو شيطان مريد صورته من أقبح الصور له أظلاف
كأظلاف البقر ووجه كالتمساح وشكل كالزماح وخرطوم طويل ورأس كالفيل
وعيون مشققة بالطول وأنياب كأنياب الغول وشعر كالشيهم وجلد كالارقم وهو يلهث
كالكلاب ومن ورائه عدة ذئاب فشكوا اليه حالهم واطالوا في الشكوى قالهم وقالوا
ياشيخ التلبيس وابن عم ابليس لقد عمرت المدارس وبطلت منها الوساوس وتعمرت
المساجد بكل راكع وساجد وقائم وقاعد وقارئ وجاهد فطرد كل شيطان مارد وتمشى
سنن الحلال فوقف منا الاحتيال وأمر بالمعروف فوقعنا على الامر المخوف وكثرت الحجاج
فتقطعت منا الاوداج وأديت الزكوات والحقوق فطردنا كل عقوق وقام الحق فنام
الفسق وعبد الله في المغارات والكهوف واستدعلينا السبيل فعلى من نطوف ولم يبق
لنا على بني آدم سلطه وصرنا في بحارهم أقل من نقطه وعند جهرهم بأذكارهم أذل من
ضرطه لاوساوسنا تؤثر في أفكارهم ولامجالسنا تعطل من أذكارهم ولاتخيلاتنا تتراءى
لابصار أسرارهم فان استمر الحال على هذا المنوال لايبقى لنا في الدنيا مقام ولا بين الجن
والانس كلام (فلما وعى) العفريت فحوى هذه الشكوى وتأمل ما في مطاويها من نازلة
احاطت بهم وبلوى اشتعلت نيران غضبه وتأججت شواظات لهبه ثم قال أمهلوني اتلوى
واتركوني اتلوم واتروى وافتكر في هذه البليه واكشفها عن جليه فان الامور لاتنتج
لمعانيها مالم يتأمل من فراغها في جوانبها ونواحيها وتحقيق المسائل انما يوجد من محكميها
وحاكميها (وكان) هذا العفريت العاتي المارد الغير الموافق تحت يده وأمره من مقتبسي
تلبيسه ومكره والشياطين المرده واغوال العفاريت العنده طوائف شتى وامم لاتحصى
وممن فاقهم في المكر والمراء أربعة اشخاص كبراء وزراء كل منهم في الشيطنة والموالسه
ومعرفة طرق الوسوسه كأبي علي بن سينا في علم الهندسه غاية لاتدرك ونهاية لاتستدرك
فاجتمع هذا الغول بوزرائه ورؤساء اشياعه وكبرائه ثم قال لهم أفتوني في أمري وساعدوني
على فكري وسكري ووجه الخطاب لكبيرهم الذي علمهم السحر المشار اليه في الدهاء والمكر

وقال له ما رأيك فى هذه القضيه والمواقف الرديه والداهية الدهيه فقال الوزير يامولانا الامير وصاحب المكر والتدبير ان العقلاء وذوى التجارب من الحكماء تفرسوا بأمر قاطع من الوقائع القواطع فقالوا شيأ ان لا بقاء لهما الروح فى الجسد والسعد فى الطالع وهذا هو الصواب ولكل اجل كتاب ومادام الاجل باقيا والسعد راقيا ومادام السلامة ساقيا وحافظ العوارض واقيا لا ينفع الجد ولا يدفع الجد ولا يرفع الجهد ما أثبت السعد فاذا تم الاجل وبطل من السعد العمل انتكس السعد وانقلب وفارقت الروح بلا سبب واذا كان كذلك فهذا الرجل الناسك سعده عال وطالعه فى اقبال فكل سهم مكر فوقناه الى نحو حياته يعود علينا وكل رمح فكر صوبناه الى شاكلة بقائه يرجع الينا فالرأى عندى أن نتربص حتى تدور به الدوائر ولا نهتم باحتيال محتال ولا مكر ماكر الى أن تنقضى مدته ويسقط من سعد طالعه قوته فعند ذلك يفيد سعينا ولا يضيع كدنا (فقال) العفريت للوزير الثانى يا أفضل جانى أنت ماذا تقول وكيف تشير أن نصول فى ميدان هذا الامر ونجول فقال رأى مولانا الوزير سديد وكل ما أشار به فهو أمر جيد ولكن كيف يهمل أمر العدو ويركن مع وجوده الى قرار وهدو واذا كان طالعه فى قوة فاهماله يزيد فى قوته والتهاون فى أمره مساعدة فى معاونته ومعاونة فى مساعدته وهذا من علامات العجز والانكسار ومن أقوى الادلة فى الانحطاط والصغار وان رب الارباب وضع عالم الكون والفساد على الاسباب فلا بد من تعاطيها فى هذا الباب وبذل المجهود فى معاملات الاعداء والاحباب ولم يقتصر الشارع على التقدير والطالع اذ فيه حسم مادة الشرائع والتعرض لابطال حكم الصانع فعندى أن تبذل الجهد فى حسم مادتهم وتعاطى كسر شوكتهم وبذل الجهد والجد بما أصل اليه اليد وثبات الاقدام فى اثبات الاقدام كما قال الشاعر وهو سلم الخاسر فى نبت الجاسر

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

وهذا الشاعر المسمى أخذه من أخينا بشار الاعمى من لناو بوجوده انس وهو شيطان الانس حيث يقول ذات الغول

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فاعزموا على هدم ما يبنون وصدم ما يعنون والاخذ فى تمزيق جلدتهم وتفريق كلمتهم اذ لا اطلاع لنا على مساعدة الطالع ولا حد لبقاء الاجل فضلا عن أن نقول هذا الدتجامع أ ومانع وهذا الرأى عندى أولى ورأيك يا رئيس التلبيس أعلى ودونك يا غول هذا القول

اذا كانت الاعداء علا فانهم * اذا لم تطأهم أصبحوا مثل ثعبان

ومن هذا المقال يا أبا الاغوال

واللص ليس له دليل ساتر * نحو الذى يبغى كنوم الحارس

(والاصل) فى هذا كله حسم مادتهم وردم جادتهم وذلك باهلاك مرشدهم وافساد زاهدهم فان قدرنا على اهلاكه وتمزيق حبائله وأشراكه تشتت شملهم وتبتت حبلهم وقلهم (فقال) العفريت للوزير الثالث وكان أخص عابث قل لى ايها الوزير ما سنح لك من التدبير فى

هذا الامر المبير والخطب الخطير وماذا ترى فيه وتشير فقال لاشك أن الطباع تميل الى ما تسمعه ومايلقى الى النفس لابد أن يؤثر موقعه وما أشار به ودبره الوزيران وهما المشيران فهو لايخلو عن فوائد بل هو متصل بعقود الفرائد وانى لاعلم انه أثر فى الخواطر كما يؤثر فى الرياض السحب المواطر وبالجملة فالكلام تأثير فى النفس كما تظهر آثاره فى الحس ولهذا ترى رقيق الشعر يفعل مالا يفعله دقيق السحر وجليل العباره فيه من الاثاره مايشجع الجبان وينشط الكسلان ويسخى البخيل ويغنى الذليل ويسحر الارواح ويسخر الاشباح ويعطف القلوب ويؤلف بين المحب والمحبوب ويصير العدو صديقا ويغلظ الاحرار رقيقا وتأمل بانبيه ماقيل فى البديه

حديث اذا تادت دهرى به انثنى * وكف عن الايدا وعاد الى الاخا

اذكره أخلاق مالكه الذى * تعلم منه العلم والحلم والسخا

أنال به مالا ينال بقوة * وارواح أشباح أتت بعد شخا

وهذه قضيه تحتاج الى اعمال الروية واعمان النظر وتدقيق الفكر وعندى الرأى السعيد السديد والفكر الجيد المجيد أن التعرض الى هذا الرجل الدين الداعى الى طريق الحق المبين ليس بمحمود ولاطالع قاصده بمسعود فانه على الحق متشبث بأذيال الصدق ومن قصد مصادمة الحق اصطدم وفى مهاوى الهلاك تردم وقد كان فى بنى اسرائيل رجل من اهل التجيل عاملا بالتوراة والانجيل مشغولا بالعباده باذلا فى اقامة الحق اجتهاده يتعرض له جماعه من اهل الفسق والخلاعه فتعاطوا اهلاكه وجعلوا به تسا كه فقتلوه بغير حق فغار له الدين ورق فاخبرنى من لايتهم بكذبه انه قتل سبعمائة ألف نفس بسببه فذهب بسبب ذلك الصالح من بنى اسرائيل الصالح بالطالح ومن كان مع الحق هاديا الى الصدق فان الله تعالى معه ومن كان الله معه منعه وحرسه وماضيعه ومن تصدى اضياع ماحفظ الله وعزم على ابتذال من اعزه مولاه وكلاه فقد قصد خراب عمره وعمارته وباع رأس مال تجارته وربح بخسارته وجنى بيده على نفسه وحفر بيد تدبيره مهواة رمسه واسمع بانيع العون ماجرى لمؤمن آل فرعون حيث كان على السداد داعيا الى سبيل الرشاد وقصد اهلاكه اهل الفساد فقال وأفوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد فغلبوا هنالك وانكسروا ووقاه الله سيئات مامكروا وأيضا لو قتلنا هذا الرجل وكان على ايدينا له حام الاجل فلاشك انه يقوم مقامه من يلم عظامه ويرم زمامه ويحيى بعده ايامه فيقيم شعاره ويكتب ماقدم وآثاره فان تلامذته كثيرة وطوائف جماعاته غزيرة فينتظم امرهم بعده الامر ولايضرم لنامن كيدنا الجمر واذا علموا أن ذلك منا واشتهر ذلك الكيد عنا أخذوا منا حذرهم وصوبوا الينا عداوتهم ومكرهم ثم عملوا على استئصالنا واستعدوا لقتالنا لانا اهلكنا معتقدهم وهدمنا عمادهم ومعقدهم ولايمكننا بعد ذلك طلب المسالمة والسلامه وتستمر العداوة بيننا وبينهم الى يوم القيامه مع ان عداوة ناقديه وبالجملة نعاقبة من عادى اولياء الله وخيمه اذا تقرر هذا القول وثبت بطريق المعقول فاعلم ايها الغول والشيطان المهول أن الرأى الصواب فى هذا المصاب أن تبادر الى هذا الرجل وجماعته

بافساد طباعهم وطاعته وحيث لا يتيسر لنا المواجهه ولا الخطاب والمشافهه ولا الاضلال فى الظاهر بصورة المتجاهر فنزين لهم حب الدنيا وشهواتها والميل الى زينتها ولذاتها والركون اليها والاعتماد عليها ونلقى اليهم طول الامل وبعد الاجل فنثبطهم بذلك عن العمل وندعوهم الى التهاون والكسل ثم بعد ذلك نجلو خدود عرائس الحرص على ابصار أفكارهم وقدود موائس الشح وحب المال على اعين خيالاتهم ويصائر أسرارهم فاذا ذاقت ألسنة عقولهم حب الدنيا وتمكنت فى ادمغة سويداتهم الرغبة فى الآباء والابنا سلبوا حلاوة الطاعه وتفرقت منهم الجماعه وزاغوا عن الطريق الاقوم وراغوا عن السبيل الامم فنتوصل اذ ذاك منهم الى مقاصدنا ونوقعهم كيفما اخترنا فى مصايد مراصدنا لانهم هبطوا من سماء المنازعة الى الارض واهلكوا بايديهم انفسهم اذ بغى بعضهم على بعض فتحاسدوا وتحاشدوا وتدابروا وتفاخروا وتكالبوا وتضاربوا وتواثبوا وتجانبوا وتناهبوا وتسالبوا وتلاسبوا وتقابلوا وتقاتلوا وتفرقوا وتمزقوا وتحرقوا وتمرقوا وانحاز كل منهم الى ناحيه وأعجب كل برأيه فلا تعرف منهم الفرقة الناجيه اذ تفرقت اهواؤهم وتصادمت آراؤهم وجذبتهم اغراضهم الى الانحناء وجليتهم امراضهم مع الاهواء ومال كل منهم الى صوب وأيس منهم الى الصواب الاوب وتعدد الخلق الذمر ولبس كل لصاحبه جلد النمر ثم بعد ذلك زلوا وازلوا وضلوا وأضلوا فتمكنا فيهم كما نريد وتصرفنا فيهم تصرف السادات فى العبيد وسلطنا عليهم دواعى الغضب والشره ولعبنا بشيوخهم لعب الصبيان بالكره فنصوب لهم أقوالهم ونزخرف لهم أفعالهم كما قال من خلقهم وأحوالهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ولا نقصد بذلك الا كبراءهم وفضلاءهم وعلماءهم وزهادهم ورؤساءهم وحكامهم وحكماءهم ولا نفتر عن مكايدتهم ولا نميل عن مكايدتهم ونجرى فى عروقهم ونسكن فى فروقهم ونحركهم فى رعودهم وبروقهم فان تحركوا الى خير سكناهم وان سكنوا عن شر حركناهم وان عزموا على الآخرة صددناهم وان جزموا الى مواطن بر رددناهم وان أموا مفسدة قدناهم او هموا الى معصية سقناهم ولا بد لهذا العمل الكثير من تأثير ولا بد ق جد فى المسير أن يصير (وبالجملة) فنبذل فى كل ساعة جهدنا وجدنا ولا غضاضة فى ذلك علينا لانه صنعة ابينا وجدنا وقد اخبر بذلك جدنا اللعين لما خالف رب العالمين كما أخبر فى الكتاب المبين فى قوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين فاذا رآهم الناس وقع بينهم البأس حصل لهم منهم اليأس وترابعوا عنهم وهربوا منهم وفسد اعتقادهم فيهم بل قتلوهم بايديهم فاذا ظهر فسوقهم وكسد سوقهم فان شئنا اوقفنا حالهم وان رمنا الى الهلاك نسوقهم وأوثق ما يتوصل به اليهم من الاسباب هى حالة الانفراد والاعجاب وحالة الاجتماع للكذاب فان الاعجاب يهوى فى النار والكذب يخرب الديار وناهيك (قضية التاجر مع عبده الكذاب الفاجر) فسأل شيخ الجن عن بليغ ذلك القن فقال ورد فى الخبر عن شخص معتبر قال كان بمكان تاجر ذو مال وزوجة ذات جمال كل يهوى صاحبه ويرعى جانبه ويفديه بروحه ويترشف رضابه فى غبوقه وصبوحه كأنهما زوج حمام وفى بذمام ففى بعض الايام قال احدهما لرفيقه وهو يرشف من كاس عقيقه شهد رضابه بخمرة ريقه لو كان لنا عبيد يتعاطى ما لنا من حاجة

ويخلصنا من حيلة عمرو وزيد فذهب التاجر الى سوق الرقيق فوجد مع النخاس عبدا اذاقد
رشيق ينادي عليه أبيعه بكذا على مافيه من اذى فقال وما عيبه قال كذبه لا على الدوام
وانما هو مرة في كل عام فقال عيب هين وشين لين فاشتراه وأتى به الى داره وارتضاه فاستمر
في خدمة حسنه حتى اتى عليه سنه ونسي سيده عيبه وامن ريبه وجرب بالامانة يده
وبالطهارة جيبه فلما مضى عليه عام كان سيده في الحمام فاتى البيت في بعض الحوائج في
صورة الجمل الهائج شاهقا ناشرا صائحا ثائرا صارخا واويلاه واسيداه وامولاه فسئل
مالك لا احسن الله حالك ولا انعش بالك فقال رمح البغل بسيدي فاتم الك أن تم الك وسلم
الروح لخالقها وقال لوارثه تسلم مالك فأقيم العزاء والسخام وتركهم واتى للحمام وهو
يبكي وينوح ويصرخ ويصيح فسأله مولاه مادهاه فقال وقع البيت على كل من أويت
ولم يبق في الدار نافخ نار فهلك الكبير والصغير ونهب مافيها من جليل وحقير فخرج وهو
يستغيث من حديث ذلك الخبيث فوجد أهل البيت سالمين ورآوه من الناجين فعزم على
خياطه فذكرله ماسلف من اشتراطه ثم انه استقام ونسي هذا الكلام ومضى عليه عام
فاستأنف ذلك الخبيث أمره العبيث وقال لامرأة مولاه باهتناه ان كنت نائمة فاستيقظي
وخذي حذرك وتيقظي واعلمي أن نية صاحبك أن يلقي حبلك على غاربك لانه قد عشق
عليك ونبذ حبل حالك اليك وتعلق قلبه ببنت رجل كبير ولا ينبئك مثل خبير وقد حلق علي
نصيحتك الشفقة وما اسديت الي من احسان وصدقة فبادري قبل حلول البأس ونزول
الفأس في الرأس فاثرفيها هذا الحديث فاستشارت ما تفعله ذلك الخبيث فقال لوظفرت بشيء
من شعره لكفيتك مؤنة مكره وفكره فان لي صاحبا منجما واستاذا معلما يرقي الشعور
ويجعلها في البخور واذا وجد الى خيشومه مساغه ودخل البخور دماغه صار عبد الك على
الدوام وحظيت عنده بالمراد والمرام وارتقيت الى اعلى مقام ولكن ينبغي أن يكون من شعر
لحيته النابت على ترقوته قالت وأنى أصل الى ذالك وقالت الله شر اذالك فقال اذانام
وغرق في المنام فاحلقي منه بموسى لتكفى الضرر والبوسى وأنا آتيك بموسى يحلق الشعور
فافعلي ذلك من غير أن يكون له شعور فاتفقا على ذلك الاتفاق وأتاها بموسى حلاق ثم
توجه الى مولاه وقد أضمرله مادهاه وقال أشعرت ياذا الفضائل أن زوجتك البديعة
الشمائل تغير خاطرها عليك وتقدمت بالاساءة اليك ولولا أنك شفيق علي وعزيز ومكرم
لدي ما أنبأتك من أخبارها بشيء فاني أريد أن يكون ما أنهيته اليك مكتوما الى أن يصير
عندك محققا معلوما وقد أرسل اليها من يخطبها واما لها عنك بما يرغبها واتفق معها انها تقتلك
وتستريح وتصبح في فراشك وأنت ذبيح وذلك يقوم بديتك وقد أرسل اليها من الجواهر
والاموال أضعاف قيمتك فان أردت مصداق هذا الكلام فتناقل عندها في المنام ليزول
الشك باليقين وتحقق أني من الصادقين فأثر هذا الكلام فيه وخاف من مكر النساء
ودواهيه فلما أقبل العشاء وأحضروا العشاء تناول من ذلك الطعام ونهض الى الفراش
لينام وأظهر بين النوم انه غرق في النوم وغمض عينيه واغط وسال لعابه وغط فنهضت
الزوجة اليه وقحت الموسى ودخلت عليه ومدت يدها الى لحيته ووضعتها على ترقوته ففتح

عينيه فرأى آلة الموت متوجهة اليه فما تمالك أن وثب عليها وجثم اليها وخرج زمام تفكره
عن يد تأمله وتدبره وخطف الموسى من كفها وسقاها كاس حتفها فلما رأى فوران الدم
ادركه لاحق الندم وقد تبدل الوجود بالعدم ووقع القال والقيل واشهرام القتيل وعلق
فى شرك الاقتناص وعومل فى صاحبه بالقصاص (وانما أوردت) هذا الكلام لتعلم انما
هلك الانام وأوقعهم فى شرك الآثام والكفر والفسوق والحرام مثل الكذب فى الكلام
وهولنا أوثق زمام ويجذبهم الى ماقصدناه من المرام احكم خطام وأعظم خزام (فاستحسن)
العفريت هذا الرأى واستصوبه وأعجبه ماتضمنه من معان واستغربه (ثم قال) رأيت
يا أصحاب من الرأى الصواب أن أجتمع بهذا العالم الزاهد العامل العابد فى محافل غاصه
واسأله عن مسائل عامة وخاصه وعن اسرار دقيقه اطالبه فيها بمجازها والحقيقه وانا اعرف
انه يفحم عن جوابى ويلجم عند أول خطابى فاذا عجز عن جواب المسائل فى تلك الجموع
والمحافل تحقق الحاضرون جهله فنبذوه من اول وهله واعترفوا لنا بالفضل الوافر والعلم
الغزير المتكاثر فصاروا لنا اوداء والفضل ماشهدت به الاعداء ورجعوا عن اعتقاده
ونفضوا ايديهم من محبته ووداده ورغبوا وسعوا فى دماره وخراب دياره فيكفونا أمره
ويريحون عنا شره واقل الاقسام أن جماعة ذلك الامام اذا رأوا مالنا فى الفضل من مجاره
وعلموا أن رأس مال امامهم الخساره التهوا بالسهو وسهوا باللهو وانفضوا عنه وتركوه
وهذا ان لم يكونوا سفكوه وسكبوه كما فعل صاحب البستان بالمزرعه من الغدر والتخبيذ
مع غرمائه الاربعه فسأل الوزرا عن غدير ذلك الغدر كيف جرى (قال العفريت) كان من
تكريت رجل مسكين ينظر البساتين ففى بعض السنين قدم قرية منين وسكن فى بستان
كانه قطعة من الجنان فاكهة ونخل ورمان ففى بعض الاعوام أقبلت الفواكه بالانعام
ونثرت للثمار ملابس الاشجار من الاذيال والاكمام فالجأت الضرورة ذلك الانسان أن
خرج من البستان ثم رجع فى الحال فرأى فيه أربعة رجال احدهم جندى والآخر
شريف والثالث فقيه والرابع تاجر ظريف قد اكلوا وسقوا وناموا واتفقوا وتصرفوا
فى ذلك تصرف الملاك وأفسدوا افسادا فاحشا خادشا ومارشا وناوشاونا كشا فاضر ذلك
بحاله ورأى العجز فى أفعاله اذ هو وحيد وهم أربعة وكل عتيد فسارع الى التأخيذ وعزم
على التخبيذ فابتدأ بالترحيب والبشاشه والاكرام والهشاشه وأحضر لهم من أطايب
الفاكهه وطايبهم بالمفاكهة وساع بالممازحه ومازح بالمسامحه الى ان اطمأنوا
واستكانوا واستكنوا ودخلوا فى اللعب ولاعبوه بما يجب فقال فى أثناء الكلام أيها
السادة الكرام لقد حزتم أطراف المعارف والطرف فاى شئ تعانون من الحرف فقال
احدهم انا جندى وقال الآخر وأنا رسول الله جدى وقال الثالث أنا فقيه وقال الرابع
انا تاجر نبيه فقال والله لست بنبيه ولكن تاجر سفيه وقبيح الشكل كريه أما الجندى فانه
مالك رقابنا وحارس حجابنا يحفظنا بصولته ويصون أنفسنا وأموالنا واولادنا بسيف دولته
ويجعل نفسه لنا وقايه وينكى فى اعدائنا أشد نكايه فلو مد يده الى كل منا ورزقه فهو
بعض استحقاقه ودون حقه وأما الشريف فان جده هدانا ومن النار أنجانا وقد ملكنا

كرامة وحبا لقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقد تشرف به اليوم مكانى وحلت به البركة على وعلى بستانى وأما سيدنا العالم فهو مرشد العالم وهو سراج ديننا الهادى الى يقيننا فاذا شرفونا باقدامهم ورضوا أن نكون من خدامهم فلهم الفضل علينا والمنة الواصلة الينا وأما أنت يارابعهم وشرحان تابعهم بأى طريق تدخل الى بستانى وتتناول سفرجلى ورمانى هل بايعتنى بمسامحه وتركت لى المرابحه أولك على دين اوعاملتنى نسيئة دون عين الله على جيله وهل بينى وبينك وسيله تقتضى تناول مالى والهجوم على ملكى ومنالى ثم مديده اليه فلم يعترض من رفقائه أحد عليه لانه أرضاهم بالكلام واعتذر عما يتطرق اليه من ملام فاوثقه وثاقا محكما وتركه مغرما (ثم مكث) ساعه وهو على الخلاعة مع الجماعه وغامز الجندى والشريف على الفقيه الظريف فقال يا أيها العالم الفقيه والفاضل النبيه أنت مفتى المسلمين وعالم منهاج الدين على فتوالك مدار الاسلام وكلمتك الفارقة بين الحلال والحرام بفتوالك تستباح الدماء والفروج فمن افتاك بالدخول فى هذا والخروج افتنى يا عالم الزمان محمد بن ادريس افتاك بهذا أم النعمان ام أحمد بن حنبل أم مالك فسح لك بذلك أما سمعت قول معز العلماء ومجلها ومذل الجهلاء ومجهلها يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها واذا ارتكب مثلك هذا المحظور وتعاطى العلماء والمفتون أقبح الامور فلا عتب على الاجناد والاشراف ولا على الجهلاء الاجلاف ثم مديده الى جلابيبه وأوثقه بتلابيبه فاحكمه وثاقا وأحكمه رباطا فاستنجد بصاحبيه الى جانبيه فما انجداه ولا رفداه (ثم جلس) يلاهى الجندى الساهى وغامزه على الشريف ذى النسب الظريف ثم قال ايها السيد الاصيل الحسيب الجيد الحسيب لا تعتب على كلامى ولا تستثقل ملامى أما الامير فانه رجل كبير ذو قدر خطير له الجلالة التامه والفضيلة اللازمه وأنت يا ذا النسب الطاهر والاصل الباهر والفضل الزاهر سلفك الطيب اذن لك فى الدخول الى ما لا يحل لك ام جدك الرسول افتاك باستباحة الاموال ام زوج البتول انباك أن اموالنا لآل البيت حلال واذا كنت يا طاهر الاسلاف لا تتبع سنة آبائك الاشراف من الزهد والعفاف فلا عتب على الاوباش والاطراف ثم وثب اليه وكتف يديه ولم يعطف الجندى عليه ولم يبق الا الجندى وهو وحيد فانتصف منه البستانى كما يريد وأوثقه رباطا وزاد لنفسه احتياطا ثم اوجعهم ضربا واشبعهم لعنا وسبا وجمع عليهم الجيران واستعان بالخلاوذة واصحاب الديوان وحملهم برباطهم وعلتهم تحت آباطهم الى باب الوالى واخذ منهم ثمن ما اخذوه من رخيص وغالى (وانما اوردت) ماجرى لتعلوا أيها الوزرا أن التفنيد بين الاعداء بالتأخيذ أمر من السهام فى تنفيذ الاحكام واحكام التفنيذ (وهذا) قبل تعاطى اسباب البلسه وفتح ابواب الوسوسه فانه يقال فى الامثال عقدة تحل باللسان لا يؤخر حلها الى الاسنان ونعم ما ارشد من انشد

فكم عقدة اغنى اللسان بحلها * تراخت وقد أعيت نواجذ اسنان

(ثم قال العفريت) للوزير الرابع ماترى فى هذا الامر الواقع فقال حيث تردد الامر بين آراء

مختلفه وأقوال متفاوتة غير مؤتلفه وأقيم على كل قيل برهان ودليل فتعدد النقل وتبلد العقل وعميت وجوه الترجيح ودرست طرق التصحيح فلا يمكن القول بأحدها ولا الميل الى مفردها فان ذلك ترجيح بلا مرجح وتصحيح بلا مصحح فربما يتصور الشئ خيرا وتكون عقباه شرا ويتوهم شرا فتظهر قصاراه خيرا (وقد قال) منزل الفرقان على أشرف جنس الانسان وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم وكم من قضية يتصورها الفكر صوابا ويذهل عما تتضمنه من خطا مآبا وكذلك النفس تتصور شيأ بصفة وهو بالعكس ولذلك شاهد من وقائع الحس فليس على ذلك معول وشاهده قضية الضيف مع ولده الاحول (فقال العفريت) وكيف ذلك أيها النطريت قال الوزير أخبرني شخص فاضل انه كان رجل كامل كريم الشمائل محبوب الخصائل مرغوب الفضائل غزير الثراء يحب الفقراء عذب الموارد مترصد للصادر والوارد لا يسأل الضيف من أين ولا كيف وهو كما قيل للضيف والسيف ورحلة الرجال في الشتاء والصيف فنزل في بعض الايام ضيف من أصحابه الكرام فزاد في اكرامه وأحضر ما طاب من طعامه فلما رفع السماط ووضع للبسط بساط قال لضيفه الصديق عندنا قارورة من الشراب العتيق كنت ادخرته لنزالك واعددته لمثالك وما عندي سواها فان رأيت أحضرناها وتعاطينا الراح لطلب الانشراح فانها مادة الافراح كما قيل

وما بقيت من اللذات الا * احاديث الكرام على المدام

فسمع الضيف مقاله وتحمل جيلته ودعاله وأجاب سؤاله فاشار الضيف المفضل الى ولده الاحول وقال اذهب الى المقصوره فان هناك قاروره واياك أن تنكسر فان صدع الزجاج لا يجبر وما يناضيرها ولكن ماعندنا غيرها فتوجه الى ذلك المكان فتراءى له قارورتان فرجع من وقته ونادى ابيه أيها الاب المفيد هناك قارورتان فأيهما تريد فخجل من ضيفه وغضب لئلا ينسب الى اللؤم والكذب فقال لابنه يا ابن البظرا اكسر احداهما وهات الاخرى فأخذ العصا وعبر وضرب احدما كان تراءى للبصر فلم يكن غير وعاء واحد وقد انكسر فخرج الى أبيه وهو من الفكر في تيه وقال امتثلت ما أمرت وأخذت العصا وضربت فانكسرت احدى القارورتين ولا أدري الاخرى ذهبت الى أين فقال يا بني ان الخطا منك واليك والخطأ في ذلك كان من نظر عينيك (وانما أوردت) هذا المقول لتعلم أيها الغول المهول ان أقوى طرق العلم العين واذا حصل في ادراكها الخلل والشين تراءى الصدق بصورة المين والشئ الواحد بشكل اثنين وهذا أمر محسوس لاتنكره النفوس فكيف ترى تكون عين الفكر المصون وهي بأنواع الحجب محجوبه وبتخيلات الوهم وقضاياه مشوبه ومرآتها غاهي المعاني دون المحسوسة المشاهدة المباني (فعلى هذا) ينبغي التأمل في عقبى هذه الحوادث والتدبر في قصارى هذه الامور الكوارث ثم الاخذ في تعاطيها والشروع في اسباب تلافيها انما يكون بعد امعان الانظار وانعام التدبر والافكار (ثم اعلم) أيها الرئيس الداهي النفيس شيخ المكر والتلبيس والبلاسة والتدليس أن الله القديم القادر الحكيم لم يخلق في الموجودات

ولم يوجد في المخلوقات اعز جوهرا من الانسان فانه فضله على جنسي الملك والجان واختصه بدقيق النظر وعميق الفكر وسرعة الادراك فهو مع عدم الحراك يحكم وهو ساكن على ما تحت الثرى وفوق الافلاك وشغله بعوائده وعوده بفوائده ولطف به في مصادره وموارده فهو ارحم به من والدته المشفقة ووالده ووكل بحفظه الكرام الكاتبين وملائكته المقربين ورباه في حجر نعمته على موائد لطفه وكرمه ورحمته كالبي الوالدة الشفيقه والظئر الرقيقة الرفيقه وألهمهم العلم الغزير والقدرة على النظر والرأى والتدبير وأطلعهم على غامض الاسرار ودقائق الافكار وان علمنا بالنسبة الى علمهم وخلائق القياس الى ثباتهم وحلمهم كنسبة علم الفلاح المغتر الى علم الطبيب المعبر بحسن النظر قال العفريت أخبرني بذلك ياشيخ المصاليت قال الوزير أخبرني شيخ كبير انه رأى في نومه فلاح كانه خرج من بطنه مفتاح فلما أصبح الصباح جاء الى رجل من أهل الصلاح يعبر المنامات وكان ذا كرامات فقص عليه رؤياه وطلب منه تعبير ما رآه فقال له يارئيس هذا منام نفيس لا اذكر ما فيه من تعبير الا بدينار كبير فحصل له بشاره فناوله دينارا فقال يولد لك ولد ذكر يكون سببا للفتوح والظفر وكان له زوجة حامل بقي لها أيام قلائل فولدت ابن غلام بعد ثلاثة أيام فاستبشر الفلاح بالظفر والنجاح ثم بعد مدة حصل للفلاح شدة من مرض آلمه وأصاب قدمه فجاء الى معبر المنام وشكا اليه الآلام وقال ألمي في قدمي ضاعف همي وأضعف همي فقال له الطبيب لا بأس ياحبيب هذا داء هين وعلاجه بين أعطني دينارا ثانيا أصف لك دواء شافيا فاعطاه ما اشتهى واستوصفه الدوا فقال ضمده بمحة بيض كثيرة الابزار وضع عليه عسلا مسخنا على النار ففعل ذلك فبرئت قدمه وزال بالكلية ألمه ففكر الفلاح في فعل المعبر الطبيب وقوله المصيب وأمره العجيب فانه بادنى عبارة عبر المنام وبادنى اشارة ازال الآلام فرأى الراحه في ترك الفلاحه والاشتغال بعلم الطب والتعبير فانه أمر هين يسير وبادنى أمر حقير يحصل المال الكثير فباع آلات الزراعه وعزم على تعاطي ما في الطب والتعبير من صناعه وجمع كتبا ودفاتر وكراريس مخرمة مناثر ووسع أكمامه ووضع على رأسه عمامة كغمامه وجمع عقاقير وأوراق وبسط بسطه في بعض الاسواق وأشار على لسان مخبر ان المكان الفلاني فيه طبيب معبر وهو استاذ الزمان وعلامة الاوان وتلامذته في الطب حكماء اليونان وفي التعبير ابن سيرين وكرمان وتصدر كابي زيد وساسان عاملا بما قاله شيخ البيان وهو

الطب اهون علم يستفاد فطر * بين الانام به طير الزنابير
واجمع لذا الذكر اوريسا منثرة * وجملة من حشيش من عقاقير
وضع على الرأس بقيار اتدوره * كقبة النسر في وزن القناطير
واجمع معاجين من رب تخلطها * واسحق سفوفا واكحال العواوير
وسم ما شئت من أسماء مغربة * كالسند والهند والسرحان خنفور
وقل من الهند جا هذا ومن عدن * هذا وهذا اتى من ملك فغفور
وذا من البحر بحر الصين معدنه * وذا من البربر المدعو ببربور

فان رأيت بالاستسقاء ذا ورم * فقل تورّم من لسع الزنابير
ان اقشعرّ فقل برد عراه وان * يحم قل حرّه وهج التنانير
وان أتاك مريض لا تحقق وأشر * بما ترى من دواء دونه البورى
فان يعش قل دوائي كان منعشه * وان يمت قل أتاه حكم مقدور
كذلك الرمل والتنجيم خذه على * هذا المثال وخض في علم تعبير
فان اصبت فقل علمي ومعرفتي * وفي التخالف قل ضد المقادير
وان رأيت فقيها فر منه ولا * تنطق بخطئك في فسق وتكفير
وأنت تحتاج في هذا وذلك الى * ذوق ومعرفة مع حسن تدبير

فاتفق أن زمام خليفة الانام رأى في المنام شيأ هاله وغير حاله فحصل له في رأسه صداع وفي فؤاده أوجاع فسمع بهذا الربع الجديد وانه استاذ مفيد فارسل اليه وعرض ما رآه عليه فقال هذا منام يدل على خير وانعام وبقاء ذكر الزمام على الدهر والاعوام ولكن لا اعبر هذه الاحلام الا بدينار تام فناوله دينارا وأظهر لذلك استبشارا فقال له يولد لك غلام بعد ثلاثة أيام فضحك الزمام من هذا الكلام وقال يا امام أنا رئيس الخدام طواشي بلاشي لا زوجة ولا سرّيه ولا آلة ولا شهيه فمن اين لي هذه السعاده ولا فرحت بحسن الحسنى فاني تحصل هذه الزياده فلا تسخر مني وكف كلامك عني وأخبرني بتعبير هذا المنام ودع عنك الملام فقال حقا أقول وأنا جرّبت هذا المقول وقد عبرت لك هذا التعبير ولا ينبئك مثل خبير فقال الزمام يا أخي دع هذا المقال فان وجود الولد مني محال وأنا رجل بي وجع ومابقي في متجع فقال وماذا تشكو وألمك في أي مكان هو فقال في فؤادي أوجاع وفي رأسي صداع فقال يا ابن من فاخر اعطني دينارا آخر أصف لك ايسر دواء يحصل لك منه العافية والشفاء فدفع اليه الدينار وطلب منه دواء الدوار ومابفؤاده من الم اورثه الوهج والضرم فقال يا أبا الفيض ضمد رجليك بمحة بيض مضافا اليها عسل مشتار وليكن ذلك مسخنا بالنار فاستشاط الطواشي غضبا وفار كالنار شواظا ولهبا وعرف انه جاهل وعن طرق العلم غافل فأدبه التأديب البالغ وردّه الى ما كان عليه من منادمة السالغ واستمر على كلاحته بعد رجوعه الى فلاحته وانما أوردت هذا المثال يا غول الاغوال لتعلم اننا اذا اشتغلنا بمناظرتهم اشتغلنا في محاورتهم لانه في دقيق الاسرار وعميق الافكار وتحقيق الانظار لا يقاوم أحد جنس الانسان فكيف يستطيع الجان معارضة من ايده الله تعالى برفيع المعاني وبديع البيان فاذا قابلناهم في المباحث بالمعارضه تعود مسئلتنا علينا بالمناقضه فلما رأى العفريت خور ذلك الصفريت وانه نكل عن المقاومه ونكص عن المصادمه خاف أن تكون آراء الوزراء تبعا لرأيه في عدم لقائه وظنهم مستحسنين لدهائه مستصوبين لآرائه فأرخى عنان الكلام ليقف على ما عندهم من مرام وكان عزمه المباحثه والمعابثه والمباعثه والتصدي للاقدام والقاء المسائل بحضرة الخاص والعام لكن مشى معه امام الوزراء ليرى ما هم عليه من الآراء (فقال للوزير) نعم ما قلت ايها الوزير والرأي ما اشرت من الرأي والتدبير فان الله تعالى خلقنا من النار وطبعها

الاهلاك والدمار واحراق كل رطب ويابس وبارد وحار والظلم والخسار والافناء والجهل والبوار وطلب الرفعة وعدم القرار والافساد فما تجده من غير فرق بين نفاع وضرار وخلقهم من تراب واليه الاياب وطبعه الحلم والسكون والترابية والركون والعلم والعدل والاحسان والفضل ومع هذا فلو خرجوا عن مادة ما جبلوا عليه وتلبسوا بغير ما ندبوا اليه ولو أدنى الخروج وراعوا ما للمدارج من مروج لتحكمنا فيهم كما نختار وللعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصغار ونحن اذا خرجنا عن دائرة طبعنا وتخالفت اوصاف اصلنا وفرعنا وتقلنا الى دائرة الخير عن جادة الشر اقدام صنعنا لا يقع لنا منهم صيد ولا يؤثر لنا فيهم سيف كيد فاذا عجزنا عن الايذاء فى الظاهر لم يبق الا الاغواء من باطن الضمائر والتعلق باسباب ما نتصل اليه من الحيل البواطن والظواهر فقد قال الحكماء واهل التجارب ومن ابتلى من مكايد الدهر بالنوائب ومنى من ذلك بالعجائب والغرائب اذا تصدى الانسان وقصد غريمه وعجز عن مقاومته فى الحكومة والخصومه فعليه بهدم ذلك الجبل بخناطيس الخداع ومعاويل الحيل ويستعين فى ذلك باهل الضده وذوى البطش الشديد والشده فيتوصل بهم الى حسم ذلك الداء ولو كانوا اعداء عيرا أوداء فتسليط بعض الاعداء على بعض من اعين سنة بل من أحسن فرض ولقد أحسن من قال

تفرقت غنمي يوما فقلت لها * يارب سلط عليها الذئب والضبعا

ولا يوجد فى هذا الباب بجمع شمل الاعداء أوثق من تفريق الاحباب ومصداقه قوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا وما قويت اعضاد الاسلام الا باجتماع كلمة الانصار والالتئام ولهذا قصد من نافقوا لما ترافق الانصار وتوافقوا أن يتشاققوا ويتفارقوا فأنزل عليهم واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وهذا الفن يحتاج الى فكر عميق ومكر دقيق وعقل كبير وفعل كثير ومصيب رأى وتدبير وسلوك فى طريق اصطناع كما فعلت الفارة من الخداع فقال الوزير نعم مولانا الباقعه بتحقيق هذه الواقعه فقال سمعت أن بعض التجار كان له بستان فى دار والى جانبه حاصل فيه الغل المتواصل وفى ذلك الحاصل وكر اشاطر من شطار الفار له عدة منافذ والى الجهات طرق وما تخذ أحدها الى جهة البستان والبستان كأنه جنة رضوان فكانت الفاره ذات الشطارة والمهاره تأخذ من الغلات واطايب الطعامات ما يكفيها غداء وعشاء صيفا وشتاء وفى وقت المصيف تخرج من ذلك المنزل اللطيف الى جهة البستان فتمشى بين الغدران وتسترق الى أعلى الاغصان وتمرغ فى المروج والرياض وتتبختر فى ظلال الدوح والغياض ثم تعود الى وكرها وتأرز الى جحرها وكان عيشها هنيا وامرها رضيا ومضى على ذلك دهرها وانقضى فى ارغد عيش عمرها ففى بعض الاحيان خرجت على العادة للتنزه فى البستان فربسكنها افعوان فرأى مكانا مكينا وسكنا حصينا بالاطعمة محفوفا وبطيب الاغذية مكنوفا فدخله واستوطنه وترك ما سواه من الامكنه فلما رجعت الفارة الى مكانها المألوف وجدت به العدو الظالم العسوف فاحاط بها من الامر المخوف ما يحصل من الذئب اذا عاق الخروف فاسرعت الى امها وشكت اليها نوائب غمها وما دهمها من نوازل همها فقالت أمها الا شك انك ظلمت أحدا أو وضعت على

ماليس لك يدا أو تعديت الحدود أو عاملت مغرما بالصدود فجوزيت باخراجك من وطنك وابعادك عن مقرك وسكنك ومن ظلم ضعيفا عاجزا سلط الله عليه قويا الاكزا وقد رأيت يا أنسى فى حديث قدسى اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى فلا تطيلى الكلام ولا تتصورى أنك ترجعين الى مالك من مقام ولا طاقة لك على مقاومة الثعبان فدعى تعب الخاطر واطلبى لك مأوى غير هذا المكان فتوجهت الى ملك الفار والجرذان وشكت ما بها من ذلك الشيطان وقالت أنا فى خدمتك ومعدودة من رعيتك عمرى على ذلك مضى وزمانى فى اخلاص العبودية انقضى وأبى كان فى خدمة أبيك وجدى عبد جدك وذويك لم نزل فى رق الطاعه متمسكين بحبل سنة الولاء مع الجماعه كل ذلك لامر يدهم أو نازلة تقدم فنستدفع ذلك الخطب بخطابكم ونستكفى هول ذلك النازل بجنابكم والآن لقد وقعت حادثه بالالباب عابثه وبالافكار عائثه وللارواح كارثه وذلك أنى خرجت من مسكنى اطلب قوتى ثم رجعت الى مبيتى فوجدت ظالما قد استحوذ عليه وغاصبا قد دخل اليه وهو ثعبان مالى به يدان وقد ترامبت على جنابك أستدفع هذا البلاء بك فقال ملك الفار يا سائبة الاشفار من ترك ماله سائبا فقد جعله ذاهبا وقال ذو والاعتبار وأولو الابصار ينبغى بل يجب على الدزدار وحافظ القلعة والحصار أن تكون رجله ذات عرج وانكسار لئلا يكون ديّار وجوده خارج الدار وأنت أيتها الفاره فرطت فى أمرك والمفرط أولى بالخساره وقد خاب منك المسعى لانهم قالوا أظلم من أفعى ومن ظلم الافعوان انه لا يكد نفسه فى حفر مكان وتهيئة مبان ومغان ولكنه حيث وجد مسكنا اتخذه لنفسه مقاما ووطنا وهذا قد عرف مكانك النزه وهو جبار شره فلا يزايله ولا يقايله ومن أين يلتق مثل هذا المأوى وفى المثل عرف الكلب بيت العميا فالاولى أن ترتادى لك موضعا فتتخذيه مقاما ومرتعا فقالت الفاره وقد تأثرت لهذه العباره يا أيها السلطان وملك الفار والجرذان فما فائدة خدمتى وانقيادأبى وطاعة جدى الكبير الابى واذا كنتم فى الدنيا لا تنفعونا وفى الآخرة لا تشفعون لنا ولا تدفعون فى الاولى صدمات الدواهى والبلا ولا تحمون الاوداء عن مواطئ اقدام الاعداء ولا تدفعون فى الاخرى نوائب الطامة الكبرى ولا تحلونا بعالكم من الاستيلا غرف الدرجات العلا فأى فائدة لكم علينا ونعمة منكم تسدى الينا وهل أنتم الا كما قيل فى الاقاويل

اذا لم يكن لى منك عز ولا غنى * ولا عند ما يفنى الى الدهر موئل

فكل التفات لى اليك تكرم * وكل سلام لى عليك تفضل

فقال ملك الفار يا قليلة الاستبصار العديمة العقل والافتكار اذا اجتهدنا فى ردك الى مكانك وكنا على الثعبان بجندك وأعوانك فهل تشكين يا مسكينة و بنت مسكين فى أن الافعى تتوجه الى سلطانها وتخبره بشانها وانها أخرجت من مكانها وتستنصر باعوانه وتنتصر على سلطاننا بقوة سلطانه وتستجيش وتستغيث وتغرى علينا ذلك الخبيث كما فعل الرافضى العادى العلقمى البغدادى حين دعا التتار العظام لخراب مدينة السلام ومن بعده النميم نايذ الامام وقصد ماردين ديار الشام ولا طاقة لنا بعساكر الحيات ونحن فى أعيانهم كعساكر

الاموات فتذهب الاموال والارواح وتتعب القلوب والاشباح ومع هذا الامر المعلوم حصول القصد والظفر موهوم فبالله اتركيني واذهبي وأطلبي لك مسكناً غيره ولا تتعبي فقالت هذا منزلي القديم وميراثي عن سلفي الكريم وأين أذهب وفيمن أرغب ان لم تغثني هلكت واندهلت وانسلبت فقال لا تطيلي القول فلا قوة لنا ولا حول فلما أيست الفارة المكارة الغداره تركت سلطانها وذهبت وسلكت طريقها وانقلبت وأنشدت فأرشدت

ابعين مفتقر اليك نظرتني * فخفرتني وقذفتني من حالق

لست الملوم انا الملوم لانني * انزلت آمالي بغير الخالق

ثم غاصت في بحر الفكر وتشبثت باذيال المكر واستعرضت على مرآة أفكارها وجوه الحيل واستورت من زناد آرائها شرر النظر في الجدل وأخذت تطوف في اكناف البستان فعثرت في طوافها على ذلك الافعوان نائماً تحت وردة متطوقاً في اهنى رقدة فرقت غصناً من الاغصان فلاح لها الباغبان قد سقى البستان وهو تعبان متكئاً في الرياض على مسكبة ريحان فاغتنمت الفرصة ونزلت اليه وقربت منه ودارت حواليه ثم وثبت على وجهه وكان نائماً فانتفض مرعوباً قائماً فذهبت واختفت وبذا القدر اكتفت فرجع ونام وغرق في المنام فدخلت في قميصه ورقصت فاستيقظ متحيراً منزعجاً فرآها فهربت ونكصت ثم عادت واتكا بعدما غضب واشتكى فوثبت على وجهه وأدخلت ذنبها في أنفه فنهض مستيقظاً مجداً فرآها واقفة لا تتعدى فقصدها فهربت ثم رجع فآبت وأتت فنام في مسنده فقربت منه وعضته في يده فأنكته وآلمته وأوجعته بما ضرمته فطفر من مرقده وأخذ غصناً بيده وقصدها وقد ذاق نكدها فهربت غير بعيد فرأى وجهها من بعيد فتبعها فمشت ثم وقفت وارتعشت تطمعه في صيدها وهو غافل عن كيدها فتبعها وهي قائمة حتى انتهت به الى الحية الراقدة فعندما رأى الثعبان نسي أفعال بنت الجرذان فقتل تلك الافعى ولم يخب للفارة مسعى (وانما أوردت هذه الحكاية) لتقفوا منها على طريق الحكاية وليعلم الضعيف اذا كان له أعداء كيف يوقعهم في مصايد الردى واذا استعمل اللبيب العقل المصيب والفكر النجيب وساعده في ذلك قضاء وقدر نال ما امل وأمن ما حذر وافلح أمره وأنجح فكره وهذا اذا كان الضعيف مظلوما والقوي ظالما غشوما كما أنتم عليه مما توجهتم اليه من معاداة شيخ الشام المستحق للتبجيل والاكرام والتعظيم والاحترام فانه على الحق وأنتم ظالمون وقاصد الصدق وأنتم كاذبون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون فهذا أمر مشكل وداء معضل فأنى تصح ابدانكم وقلوبكم مرضى ومن يحبكم وأنتم محسوبون من البغضا وكيف تفقهون وأنتم على الباطل وفي أي ذوق يحلى ما منكم من عاطل وأنا أخاف أي اجلاف أن تسفر هذه القضايا بعد ارتكاب البلايا وتحمل المشاق والتعب باقتحام موارد الهلاك والنصب عما هو أشد وأنكى وأمر لعينكم وأبكى كما أصاب (مضيف العراق) من زوجته زبيدة ذات النطاق حين بدا منها الزنبور على حافة التنور فقال الوزير للعفريت اذ دنا هذا الصوت باذا الصيت قال نزل في بعض الرستاق من بلاد العراق فقير نحيف على مسكين ضعيف وكان بعض أيام الخريف

والبرد الشديد يقطع الحديد فبعدما طحنوا وتعشوا سجروا النار ليتدفوا فبقي كل من الحضور يتدفا على جانب التنور فقعد الضيف مقابل زوجة المضيف فظهر من تحت نطاقها وجه ذلك الحر الظريف ولاح من تحت السجيف كانه قرص أو رغيف أو قند عسلي لطيف أو خند جندي تيف أو القمر شق نصفين أو بدر لاح من تحت ذيل حنين فلما أحس بحرارة النار وظهر على وجهه الاحمرار صار يتلظ ويتحلى ولسانه من الحر والدفء تدلى فأبصره الضيف وهو يتثاءب فتمطى قائم رمحه وشخوه قام وتصاوب وقد قيل في الاقاويل عضوان متعاونان وهما اليدان وعضوان مختلفان وهما الرجلان وعضوان متتابعان وهما العينان وعضوان متصاحبان وهما اليد والفم وعضوان متباغضان وهما الاست والانف وعضوان متوافقان وهما العين والاير وكان الضيف يسارقه النظر ويترشف شفاهه بلسان الفكر ويود في مطالعة جبينه لو أتبع العين بالاثر وجعل يتغنى ويترنم ويهيم بما يتكلم

ليس في العاشقين اقنع مني * انا أرضى بنظرة من بعيد

فتنبه امام هواه الهاجد وجعل يقوم ويقع وهو راكع ساجد ويسلم على محرابه أحسن التحيات ويتشهد رافعا اصبعه بالسلام والصلوات ثم غلبته الحيرة فاخذ يجلد عميره فنظر صاحب البيت فرأى الضيف غارقا في ذيت وذيت مشغولا بكيت وكيت متأملا معنى هذا البيت

وعند الملتقى انكشف المغطى * تثاءب كسها ايري تمطى

فاراد أن ينبه ربة البيدار على هذا العثار لتستر حالها وتغطي مالها بطريقة لا يؤديه اليها ولا يقف ضيقها عليها فقيده الى سفود وحوله النار ذات الوقود فعلق من النار به في الطرف وما شعر بذلك أحد وما عرف ثم لعب ساعة بذلك العود وأوصل في خفية طرفه الى ذلك الشق المعهود لتتيقظ فتحفظ فشوطها واحرها واحرق رأس السفود بظرها فالتاعت وانضبطت واحترقت واختبطت وتحركت بزعجة فضرطت فزادت فضيحة العين فضيحة الانف والاذن ولم يحصل من تلك الحركة الا الخجالة والغبن (وانما أوردت هذه الحكايات) لتتأملوا في الغايات والنهايات فان من لا يراقب ما يأتي في العواقب ما الدهر له بصاحب وهذا الرجل الصالح القيم الراجح مافاق اقرانه وساد أصحابه واخوانه الا بشيء تقدم به عليهم وتحقق موجب تقدمه لديهم وذلك درجات العلم والعمل فبذلك ساد الرجل وكل وقال منزل الآيات وخالق البريات يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقد برع في أنواع العلوم واطلع على حقيقتها من طريقي المنطوق والمفهوم وأنتم عن طريقه غافلون وعن حقيقة ماهو عليه ذاهلون واعلموا أن طريقه واحدة وهي الحق وطرقكم متعدده وكلها فسق وأتباعه على اتباعه متفالقون وأنتم في طرائقكم القدد متخالفون فقد قال الله تعالى في محكم تنزيله وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وقال بعض أهل الفضل وكلامه في بيان الحق فصل ماناظرت ذا فنون الا غلبته وما ناظرني ذو فن الا غلبني وانما أخشى ان ناظرت هذا الرجل الكامل الفاضل أن لا أحصل منه على طائل ويظهر فضله قصوري فينهدم بنيان قصوري فقال الوزراء بعد أن اتفقت

الآراء كلمة واحده متفقة متناصده ثم ما رأى مولانا الرئيس صاحب التدليس واسناد التلبيس وانجب اولاد ابليس ونحن ايضا باقعه نخشى عاقبة هذه الواقعه ولقد جرى مثل هذا المجرى بين بزرجمهر ومخدومه كسرى فى قضية فاق فيها الوزير مخدومه الكبير فسأل العفريت وزراءه عن بيان ذلك الشان كيف كان فقالوا يا مغنا ايها الخناس الملق الوسواس فى صدور الناس ان بزرجمهر الوزير كان ذا علم غزير ورأى وتدبير وبديهة جواب تفحم الكد والتفكير وكان حكيم زمانه وعليم اوانه وممن فاق فى الفضل والحكم سائر اترابه واقرانه وكان مقربا عند مخدومه يزيد فى كل وقت فى تكريمه وتعظيمه وتوقيره وتفخيمه ويصغى الى نصائحه ويعد قربه من اعظم مناجحه ويصبر على كلامه الصادع ووعظه القارع ونصحه القادع لما فيه من الفوائد والمنافع والحكم والبدائع وقد قيل من احبك تحمل منك ومن ابغضك اغوالك فكان الوزير يبادر قبل سائر الخدم فى وظائف الخدم ويجعل من الليل والظلم حتى كأنه يوافق النجم او يسابقه فى الرجم ومع ذلك كل يوم يجد مخدومه راقدا فى النوم فيقرعه بالغذله ويتقم عليه هذه الفعله ويعلن بالندا وينادى فى الملا فيقول افق يا محجوب وتيقظ حتى تظفر بالمطلوب فمن بكر نجح ومن غلس المطلوب افلح ومن تخلف فى النوم سبقه الى المنزل القوم وفاته المطلوب ولا يدرك المحبوب واترك لذة الكرى فعند الصباح يحمد القوم السرى وكان كسرى يجد لهذا الكلام انواعا من الآلام لانه كان يطيل السهر الى وقت السحر عاكفا على المدام وسماع الانغام ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان واحياء الليل عمرثان فاذا نام واستراح امتد نومه الى الصباح فلا يوقظه الا عياط الوزير وصراخ ذلك الصائح النذير فلما طال عليه المطال وغلب عليه من ذلك الملال ارصد للوزير فى الطريق من منعه عن التبكير بالتعويق فتصدى له الرصد واعروا رأسه والجسد واخذوا قماشه وسلبوا رياشه فرجع الى بيته مكرها ولبس ثيابا غيرها فابطأ فى ذلك اليوم وتخلف فى الخدمة عن القوم ولم يجئ الا وقد استيقظ كسرى من النوم وهو جالس فى صدر الايوان وحواليه مباشروا الديوان وسائر الوزراء والاركان وعامة الجند والاعوان كل فى مقامه ضابط زمامه فادى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ووقف فى مكانه مع جماعته فقال كسرى ما دعا مولانا الوزير فى هذا اليوم المنير الى التخلف والتأخير وترك التبكير وانشاده بالتبكير قول الشاعر الكبير

بكرا صاحبى قبل الهجير * ان ذاك النجاح فى التبكير

فقال ان الحرامى عارضنى أمامى وقصدنى فى ظلامى فأخذ قماشى وسلبنى قماشى ورياشى فرجعت الى كناسى وجددت زينتى ولباسى فهذا سبب تأخيرى وعدم تبكيرى وموجب تخلفى عن وعظى وتذكيرى فقال كسرى ما افادك التذكير الا الغرامة فى التبكير ولولاه ما سلب القماش ولا ذهب الرياش ولا قام الحرامى بالمعاش فاين الفلاح فى القيام قبل الصباح فقال بزرجمهر فى الحال وقد أصاب فى الجواب ليس ذلك كذلك يا امامى وانما بكر قبلى الحرامى ولم أبا كرانا بالنسبة اليه فرجع فائدة تبكيره منى عليه فعجب كسرى من خطابه وسرعة بديهته فى جوابه (وانما أوردت هذا القول) بين يدى امامنا الغول وشيخ المردة

المهول ليعلم ان كسرى وان كان عالما وفاضلا وحاكما اذعن لكلام وزيره واتبع رأى مشيره وأنصف من نفسه اذ أدرك الوزير بفهمه ما لم يدركه هو بحسه فاسترسل معهم العفريت فيما هم عليه والتخلف عما ندبهم اليه وقال فبأى الحبائل نصيدهم وبماذا نكيدهم فقال أحد الوزراء بالنساء فانهن زمارة المحن وطبل الفتن والطبل لا يضرب تحت الكساء هن اعظم وسائلنا وأحكم أوهاقنا وحبائلنا وناهيك ما قاله العزيز العليم الذى جبلهن على غير تقويم وفطرهن على الكيدات كيدكن عظيم وجعل كيدنا بالنسبة الى كيدهن ضعيفا فقال ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال سيد السادات ورئيس الرؤساء ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء وقال الولى ومن قدره الرفيع على

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وقال من أجاد فى المقال وشنف المسامع بالاقوال حيث قال

وما حز أعناق الرجال سوى النسا * وأى بلاء جاء لسن له أهلا
فكم نار شر أحرقت كبد الورى * ولم يك الا مكرهن لها أصلا

وانهن أشراك الاشراك وأوهاق الازهاق وأسواق الفساق ومصايد المصائب ومراصد النوائب وحسبك يا ذا الدها ما وهى ذلك الحكيم حين سها واذعن لزوجة الرئيس اذ نبهته على ما عنـدها فسأل العفريت عن تلك الحالة وبيان ما فيها من المقالة فقال ذكر أن حكيما من العلماء وعالما من الحكماء أولع بضبط مكر النساء وشرع فى تدوينه صباحا ومساء وصار يجول البلدان ويطالع لذلك كل ديوان ويكتب ما يكون وما كان ويحرر من ذلك الاوزان بالمكيال والميزان فنزل فى بعض الآناء على حى من الاحياء فصادف ذلك التعريس بنت الرئيس فتلقته امرأة ظريفه ذات شمائل لطيفه وحركات رشيقة خفيفه وقابلته بالترحاب وفتحت للدخول الباب فأقبل عليها وترامى لديها فانزلته فى صدر البيت وأخذت معه فى كيت وكيت كأنها معرفة قديمه وصديقة كريمه وكان زوجها غائبا قد قصد جانبا فشرعت فى نزل الضيف لئلا تنسب الى بخل وحيف فأخذ يطالع فى ديوانه ويسرح سوائم طرفه فى طرف بستانه يشغـل أوقاته ويتفكر ما فاته ليتعاطى اثباته فقالت له ضرة الريم ما هـذا الكتاب العظيم أيها الفاضل الحكيم فقال شئ صنعته وكتاب ألفته وهو فى الغربة أنيسى وفى الوحدة جليسى فقالت يا ذا الحكم والحلم ما فيه من فنون العلم فقال سر مصون وأمر مخزون ودر مكنون لا يجوز ابداؤه ولا يحل افشاؤه فقالت يا ذا الشكل الظريف والوصف اللطيف والعلم المنيف هذا التعريف لا يليق بالتصنيف فان فائدة التصنيف الاشتهار وثمرة العلم الانتشار ودونك ما قاله الكئيب فى مخاطبة الحبيب

أذقنى من رضابك يا حبيبى * فما للشهد دون الذوق لذه

وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا فقال الامر كذلك يا زين الامور ولكن هذا عيصان عن ربات الخدور فقالت ان الله الجليل الذات الجميل الصفات ذكر المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات وما منع نساء الانصار الخيرات الاطهار أن يسألن المصطفى المختار عليه أفضل الصلاة والسلام على غسل المرأة

في الاحتلام ولأن يلجن معه المخاضه في السؤال عن الحائض والمستحاضه تجمع في ميدان الامتناع واصر على الممانعة والدفاع وقال يا حصان هذا سرّ يصان لاسيما عمن في دينه وعقله نقصان فأغراها هذا المقال على الالحاح في السؤال وزادت في اللجاج ومارت في الاحتجاج وترامت لديه وأقسمت بدلالة الدال عليه فقال هذا علم لم أسبق اليه جمعت فيه مكر النساء ومن أجاد منهن ومن أساء ومن تعاطت لطائف الحيل وخفي الفعل وخفيف العمل ومن دعت بدعاها حتى بلغت مناها ومن وقعت في الشدائد فاحتالت بدقيق فكرها لتلك المكايد وتخلصت من شرك المصايد فلما سمعت ما قال ووعت ضحكت وجهها واغربت تقهقها وتمايلت تمايل القضيب وقالت سر غريب وأمر عجيب وضيعة عمر حاصل فيه الاتعب طائل وشغل سر وبال في جميع أمر محال لقد ركبت المشاق وكلفت نفسك ما لا يطاق ونسفت الرمل بالكربال وغرفت البحر بالغربال ووزنت الطور بالمثقال وتحملت الدر بالاثقال فارجع عن هذا الغلط ولا ترم ذلك الشطط فان مكر ربات الخدور لا يدخل ضبطه بسفر تحت مقدور فقال لها أنت غبيه وعن هذا الكلام غنيه وان كنت فاضلة ذكيه انا قد بلغت في ذلك الغايه وأحطت به بداية ونهايه ووقفت على مجمله ومفصله فلم يشذ عني شيء من آخره واوله فسألت وما تكلمت وغالطت وما بالطت وسارت وما مارت وفوضت اليه هذا التحقيق وسلكت معه غير هذا الطريق حتى كان هذا الكلام في هذا المقام شيأ فريا ونسيا منسيا ثم نزلت من برج المنازله واخذت تلك الغزالة في المغازله وانتهى بها المقال الى هذا السؤال فقالت ايها اللبيب الماهر ما معنى قول الشاعر

يهددني بالرمح ظبي مهفهف * لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحا واحدا لاتقيته * ولكنه رمح وثان وثالث

فالرمح الواحد قامته والرمح الثاني ما حوته راحته وقل لي يا أبا الحرث ما هو الرمح الثالث فقال ذلك النبيه قيل ما يظهر من تثنيه فان هز لين اعطافه وسرعة انعطافه تراه العينان كانه رمحان وقيل ما يظهر من ذلك المهفهف عند هزه الرمح المثقف فانه يتراءى للعين الشكل الواحد اثنين ولهذا نظير في اليوم المطير وأحسن مثال عند رشق النبال وفي تدوير المحجن وفتل الصولجان عند سرعة الدوران وقيل كان معه رمحان فعدده واحد وهما اثنان وعندي يا دمية القصر انه ليس المراد الحصر وانما المراد التكثير يا ضرة البدر المنير لان عطفه كلما انهز هزه حصل في صدر المتيم وخزه ورمح قامته يثني ويتقصف فتارة يميل وأخرى يتثقف والطعن العشاق يخطر ويتهفهف فالمتيم لا يبرح من قده في طعنات كالم يزل من سهام جفنه في حزات ووخزات وهو من المجاز المرسل اذ المراد الطعن من ذلك الاسل وكان قصده أن يسرد الاعداد الى غايه و يبلغ بها الى ما لا نهايه فيقول ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع فلم تسع القافية يا من هي بوصلها شافيه ورضابها عافيه ونظير هذا يا حرة ان تستغفر لهم سبعين مرة وليس المراد الحصر يا رقيقة الخصر ويا عين العين في السبعين حتى لو زاد على هذا العدد لغفر لهم الواحد الصمد بل المراد أنه لا يغفر لهم ولو زاد فقالت يا صاحب البيان وربه انما عنيت بالرمح الواحد زبه فأفصحت له بالكلام عما لها

من مرام كأنها ثالثة بنات همام تخبلت عين الرجل واستحت لما أفصحت عن مقصودها وأوضحت فقالت حبيت وحييت لا تسخ واصنع ما شئت فحركت بهذا الكلام العابث من الشيخ الحكيم الرمح الثالث فذا الهايد الفاجر العائث وذهب ابداك الرجل الحازم وراودها مراودة العازم الجازم وصارت تلك اللاعبه بين الاطماع والمناعه تثنى وتتقصف فتارة تتشقق وأخرى تتخسف وبيناهما في المجاذبه والمداعبة والمطايبه وهي تنزو وتلين وتصعب وتستكين اذ تراءى لها زوجها من بعيد فقالت جاء زوجي وهو عنيف عنيد فسلب القرار وطلب الفرار ووقع ذلك الحكيم النبيه في فتنة فيها الحليم سفيه ودهمه ماهو أهم مما هو فيه من دواهي العشق ودواعيه ونسي العشق والعشيق وطلب الخلاص من المضيق وأظهر صورة حاله ما عناه الشاعر في قاله

سألت مجربا طبا عليما * خبيرا بالوقائع مستعاذا
وقلت الشهد أحلى أم رضاب * أم التيك الذى للروح حاذى
فقال وحق ربي النفس أولى * اذا جاء الجزا هذا وهذا

واشتغل الحكيم بنفسه وخاف حلول رمسه وكان في طرف البيت صندوق مقفل عليه ستر مسبل ففتحت له الصندوق ورعت له باخفائه عن زوجها الحقوق وأمرته بولوجه ليكفي من زوجها شر خروجه فشكر لها صنعها وامتثل وانسل الى ذلك اللحد الضيق ودخل فأقفلت عليه أغلاقه وأحكمت وثاقه ثم تلقت زوجها بالترحاب ودخلت معه في الاطعمة من كل باب وقدمت له ما اكل وانسدحت له فركب وركل ثم قالت اخبرك يا حبيب بوقوع أمر غريب وحادث بديع عجيب وهو أنه قدم حكيم فاضل حليم عالم عظيم فأكرمت نزله وبوأت منزله وكان معه كتاب فيه العجب العجاب فسألته عما حوى فقال مكر النساء فقلت له هذا شئ لا يحصى ولا يحصر ولا يجمعه ديوان ولا دفتر فلم يسلم الى ولم يعول على وذكر أنه أنهاه ولم يدع من مكر النساء شيئا الا أودعه اياه فما وسعني الا انني غازلته وداعبته وهازلته فطمع من اني محاورتي في حسن مزاورتي وطلب مني ذلك العقوق ما هو أعز من بيض الانوق وبينا نحن في العيش الرغيد واذا بك أقبلت من بعيد كل ذلك والحكيم يسمع قولها وما تخبر به بعلها فلما سمع الزوج هذا الكلام اضطرب وزمجر واصطخب وقال وأين هذا الفاسق الفاجر المنافق والله لاذيقنه كاس التلف ولالحقنه بمن سلف فلم يبق في الحكيم مفصل الا ارتجف فقالت ها هو في الصندوق مختنق فخذ ثارك منه واشتفي فنهض وصاح هات المفتاح فعلم الحكيم أن عمره ذهب وراح وكان سبق من زمان بين الزوجين عقد رهان انه من فتح منهما الصندوق غلب وأقام لصاحبه ما طلب فلما ذكرت له حكاية الحكيم تذكر عقد الرهن القديم وذهل لشدة الغيره ووفور الحيره وتوجه الى الصندوق فبمجرد ما فتح القفل المغلوق صاحت عليه غلبتك يا معشوق فأد ما ثبت لي عليك من الحقوق فتذكر عقد المراهنه ولم يشك أن كلامها كان مداهنه فضحك بعد ما كان عبس وألقى المفتاح من يده وجلس ولعنها ومكرها ولعبها وفكرها ثم اصطلحا وانشرحا وزادا نشاطا ومرحا ثم خرج في ضروراته وتوجه الى حاجاته فأقبلت تلك العروس الى

الحكيم المحبوس وأفرجته من الاعتقال وذكرت له هذه المناقلة والانتقال وقالت أيها الحكيم العظيم هل كتبت هذه المناقلة في كتابك الكريم فقال لا والله الرحمن الرحيم واني قد سلمت اليك وتبت الى الله على يديك (وانما اوردت هذا المثال) لاعرض على شيخ السعالى وامام الاغوال ان النساء في هذه الحركه اعظم متشبث واقوى شبكه وهن اسباب اللبء من الرجال اضعاف فتنة المسيح الدجال خلقهن اعوج وخلقهن اهوج وراى بهن غير سديد والرجال لهن اذل عبيد وان كن ناقصات عقل ودين فهن الكاملات فى سلب العقل المتين والفكر الرزين وأذهب للب الرجل الحازم والعقل السديد الجازم وهل اخرج آدم من جنة المأوى الاقصة صدمته من قبل حوا وما قتل هابيل قابيل الا بفتنة الزوجة كما قيل وكذلك قصة من أوتى الآيات فانسلخ منها وقد عرف كل ذلك ابداء وانها وغالب من عصى الله واساء انما كان سبب كفره واخزائه النساء فلا تعترضوا على هذا الراى المتين ولا تتعرضوا لهذا الرجل فانه على الحق المبين ولا تقصدوا المعارضته وسؤاله فربما يكون مجالكم أضيق من مجاله وانا لا نقدر على مناقشته ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثته فقال سائر الوزراء هذا الرأى اصوب الآراء فانا الى الآن ما بارزناهم بالمخاشنه وانما كنا نأتيهم بالمخادعة والمحاسنه فنزين لهم الباطل ونحلى لهم العاطل ونشوه وجه الحق ونسود طلعة الصدق الى ان ظهر هذا الرجل ونحن على ذلك فوقف في طريقنا واراهم الدرب السالك وعلا شانه ووضح برهانه ونحن على ما نحن عليه من الاغواء والقائهم فى مهاوى الاهواء والحرب بيننا وبينهم سجال فلو كاشفناهم بسوء الفعال انكشف لهم زيف نقدنا وبطل ما كنا نسوله بجهدنا فاذا ظهر الحق من الباطل وتميز الحالى من العاطل اخذوا حذرهم وضبطوا أمرهم وداروا بالعداوه ومروا بالملوحة بعد الحلاوه ثم ظفرنا بهم موهوم ونصرنا عليهم غير معلوم فالظفر الا بالندامه ونرضى اذ ذاك بغنيمة السلامه ويستمر هذا العار علينا الى يوم القيامه وقد قيل

لا تسع فى الامر حتى تستعد له * سعى بلا عدة قوس بلا وتر

فعند ذلك استشاط العفريت غضبا وطار شرر الهذا الاشتعال والهبا وقال لقد عظمتم من شان الانسان وأوهنتم بل أهنتم جانب اخوانكم الجان وضيعتم حقوق الاخوان وأبطلتم حكاية السعالى والغيلان ونسيتم فتن جدكم الاعلى الباقية على ممر الزمان ونحن أدق حيله وأجل جماعة وقبيله وأوسع ذكرا وأسرع مكرا وأقدم وجودا وأعظم جنودا وأغزر علما وادرا كا وفهما ولا أرى لكم همة صادقه ولا عزيمة موافقه وأنا ما قلت لكم ما تقدم من القول الا لاخبر ما فى فرائض عقلكم من الرد والعول فلا أقوالكم سديده ولا أفعالكم رشيده ولقد حل بكم الصغار وسطا بكم من الانس الصغار وأما أنا فلا بد لى من المباحثه والمناقشة والمنايثه والالقاء للمسائل والابحاث فى الرسائل من غير وسايط ولا وسائل ليهلك من هلك عن بينه ويحيا من حى عن بينه فاعلموا ذلك وتحققوه ثم أمعنوا النظر فيه ودققوه وهذا هو الرأى الذى صممت عليه فليتوجه كل منكم بقلبه وقالبه اليه ويقل فى ذلك غثه وسمينه ويلق هجان قوله وهجينه ولا يدخر شيأ من آرائه فلا بد لى من القائه واعلموا أن

الوادي الزراري الذي هو الى جهة تيار لو اتفقت الآراء على صرف جريانه الى جهة أخرى وأن يبتدع عن هذه الجهة المجرى فانهم لو قصدوا ذلك من أسفل الوادي لسخر منهم الحاضر والبادي ولا يتهيأ اقاعلهما تمناه حتى يسد طريق الماء من أعلاه وأنتم ان قصدتم معالي الامور واهلاك رؤس الجمهور ثم تعمدتم الاراذل وتبدلتم الاكابر بالاوغاد والاسافل فانكم اذا اغمار وقد ضيعتم في غير حاصل الاعمار وقد قيل

اذا كنت لابد مستتربا * فمن أعظم التل فاستترب

وما اللجين كالرصاص والجروح قصاص ولا يكافأ الربيس الابالربيس ولا يقابل النفيس بالخسيس وأي فخر للملوك اذا نازلوا السوقة والصعلوك وقد قيل

ألم تر أن السيف يزرى بقدره * اذا قلت هذا السيف أمضى من العصا

وما اكتفى صناديد قريش يوم بدر بدون أكفائهم في النسب والقدر وماذا تفيد بلستكم وتجدي شيطنتكم ووسوستكم وأنتم أولو الزعاره وذوو الشطارة والدعاره اذا قهرتم من الانس وعلا كم أضعف جنس وهم اقصر أعمارا ونحن أطول أطوارا لم نزل نصادم الجبال ونقتحم الاهوال ونظهر كما شئنا في باب الخيال ومن قبل جدنا اللعين جادل رب العالمين فقال في حق جدهم أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين وقال لاغوينهم أجمعين وقال ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين وهم يموتون وهو من المنظرين وعلى كل حال نحن أقوى منهم وأجرا واعرف بطريق الخبث والمكر وادرى وبالجملة الحكم على الشئ فرع عن تصوره والشخص لا يحكم على شئ الابعد تصوره وتقرره وهذا الانسان الى الآن لا سبرناه ولا خبرناه ولا عرفناه ولا عرّفناه فكيف تقطعون له بالغلبه وتفضلون علينا مصيره ومنقلبه وان لم تفصحوا بالعباره فقد دللتم على ذلك بالاشاره وكنيتم عنه بالتلميح والكناية أبلغ من التصريح هذا ونحن كم قد اضللنا من حكيم وأذللنا من عليم وأفسدنا من عقائد وعقدنا من فوائد ونصبنا لهم من مصايد وأرصدنا عليهم من مراصد وأبطلنا من طاعات وعطلنا من خيرات واخللنا من صلوات واحبطنا من زكوات ومنعنا من حجات وصدقات وضيعنا من ميراث ونفقات واسقطنا من اعمال صالحات وكم لنا في الشر من سوق ومن سوق الى فسوق والقاء في حرام وتسربل بعظائم وآثام وكم لنا من احكام احكام على القضاة والحكام يستحلون بها السحت والحرام ويأكلون بها اموال الايتام ويستبيحون بها الدماء والفروج وكم دخلنا فيهم فأخرجنا منهم الاسلام اخفى خروج وكم لنا فيهم من مصائب لمصائب وحواصب مناصب وكتائب نوائب وعجائب نواهب وغرائب نوادب نسلبهم بهاديتهم ونمنعهم اعتقادهم الحق ويقينهم وكم لنا في سكونهم الى الطاعات من حركات وفي ركونهم الى الخيرات من سقطات وكم لهم الى الطاعات من همم فبردتها وسنابلا نحصل منها في أثنائهم الضرم وفي وجود خيرهم العدم وفي صحة ايمانهم السقم وفي شباب صدقهم الهرم وفي سكون امانهم الضربان والالم وفي دائرة حلالهم الحرام والحرم وكم وكم وكم وكم ونحن الآن على ما كنا عليه وهو الذي طبعنا عليه وندبنا اليه دأبنا اعن الحق

اضلالهم وعن الصراط المستقيم ازلالهم والى الباطل دلالتهم وادلالهم تزين لملوكهم
الاجتراء ولاكبرائهم الافتراء ولرؤسائهم الازدراء ولعلمائهم المراء ولزهادهم الرياء
ولتجارهم الربا ولامرائهم سفك الدما ولنسائهم السلاطة والزنا ولخواصهم الغيبة والنميمه
ولعوامهم الخوض في كل جريمه وللمشايخ قول الزور ولنسائهم الوقاحة والفجور وهذا
دأبنا ودأبهم ولم تزل أوهاقنا ورقابهم فان قلنا نصل بهم هذا الواصل فان هذا تحصيل
الحاصل وان قلنا نستأنف عملا جديدا فانا لم نترك في ذلك ما يبقى مزيدا وقد بلغنا في ذلك كله
الغايه وها نحن ملابسون منه ما ليس وراءه نهايه ولم يبق الا المقابله في المقاتله والمباشره
بالمكاثره والمفاتحه في المقابحه والمكالحه في المناكحه فلما سمع الوزراء هذا الكلام
عرفوا أن أسباب دولتهم آذنت بانصرام غير أنهم لم يقدروا على المخالفه فاوسعهم الا
المطاوعة والمؤالفه لئلا ينسبهم الى غرض فيصيبهم منه عرض أو مرض فحسنوا له رأي
المصادمه ومباحثة العالم والمقاومه واتفقت الآراء أن يرسلوا للعالم اولا وانتخبوا من
يصلح أن يكون مرسلا فحمله العفريت في الرساله ما تتضمنه من الحماسة والبساله حسبما
براه رأيه التعيس وفكره المدبر الخسيس وكان في شياطينه المرده وغيلانه العتاة العنده
عفريت من الجن مارد مسن اسمه مصن بن مصن قد أضل عقائد وأزل قواعد وأشرب
بغض بني آدام وغمس طائفة منهم في نار جهنم بعدما غطسهم من المعاصي في يم لا يمنعه
وجوم عن الهجوم ولا يخاف الرجوم من النجوم طالما أطال البوائق في المغارب والمشارق
وأضرم نيران الافساد بين الخلائق وملأ ما بين الخافقين من مواقع الصواعق وفوح شائنة
الوساوس وفساء الظربان في المجالس وانقض للشر والفتن على كل قائم وجالس فكم له
توفيق بين الحرامين وتفريق بين الحلالين وسفك دماء بين الاخوين والقاء البغضة بين المحبين
والعداوة بين الالفين والعربدة بين السكارى والحروب بين المسلمين والنصارى وبالجملة
فقد أوتي من الوسوسة والتلبيس صنوفا كثيرة فاق بها على ذرية ابليس فاشتد به العفريت
الملم الى هذا الامر المهم وامهلاه الى أن انسلخ اهاب الضوء ثم طارا في عنان الجو حتى وصلا
الى سفح الجبل متعبد ذلك العالم البطل الذي ملأ الدنيا بالعلم والعمل ثم كمن العفريت
في مغاره وأرسل رسوله بالبشاره يقول أبلغ عالم الانس صاحب الكرامات والانس
ومقرب حظيرة القدس عن شيخ العفاريت الطغاة المصاليت اني من قديم الزمان وبعيد
الحدثان اضللت كثيرا من الناس بالمكر والخداع والوسواس وفي أمثالي نزلت قل أعوذ
برب الناس وابن عمي هو الوسواس الخناس وكان من جنس بني آدم كذا كذا ألف
عالم خدامي ومعي وجندي وتبعي منهم رؤس الزهاد وعلماء العباد وعلى محبتي مضوا
وباتباع أوامري قضوا فانا فتنة العالم وأعدى أعداء بني آدم الشيطان الرجيم وابليس
الذميم اسم ذاتي ووصف صفاتي انا مقتدى الشياطين ورأس العفاريت المتمردين
ومحل غضب رب العالمين خلقت من مارج من نار وطبعت على القاء البوار والدمار رجوم
النجوم انما اعدت لاجلي وعتاة الغواة لا تصل رؤسها الى مواطئ رجلي الا من خطف
الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب آية منعتي وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم طراز خلعتي

أأسجد لمن خلقت طينا مقام مقالى لاحتنكن ذريته الا قليلا لانحيال جدالى لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا منشورى القديم بعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الاغرورا وامرسومى الكريم الشياطين تستمد من زواجر مكرى والاعور اللعين يقتبس من ضمائر فكرى لم تتم قضية فى الزمان الغابر الاولى الشركة فيها ولا حدثت محنة لنبى ولا ولى الاوانا متعاطيها جدتى ابليس نهض بجدى التعيس والى نحو آدم هوى فعصى ربه فغوى وأنا قضيت بالتسويل حتى قتل قابيل هابيل وحللت بقوم نوح عن النصوح وارشدت المجوس الى عبادة النار ووضعت الناوس وأضللت عادا وثمود وشدادا ونمرود وبعثت على عبادة الاصنام فى البيت الحرام وعلى كيفية القاء ابراهيم فى نار الجحيم وهديت قوم لوط الى الخوض فى اللواط ومحافر القلوط وسولت لاولاد يعقوب وحاولت فى قضية أيوب وتصديت لام اسمعيل وعارضت ابيها وهو مع الخليل وأنسيت يوشع قصة الحوت وساعدت على صاحب الحوت وجلست بالعصيان على تخت سليمان وحضرت وقعة طالوت وساعدت عليه جالوت وأنا كنت العون لهامان وفرعون وبحسن ضبطى قتل موسى القبطى وانا فتنت داود واغويت قارون واليهود وسلطتهم على الوالدة والمولود ودللت على نشر زكريا وذبح يحيى وجرأت على قتل الانبياء والاولياء وتوصلت بتزيين الوسواس لقاتلى الذين يأمرون بالقسط من الناس ودعوت الى عبادة العجل قوم موسى وساعدت فى التفريق والاضلال بين امة عيسى وكم أغويت من رهبان بما زخرفت من ملبان وقد بلغنى من جميع مسترقى السمع وطن على اذنى . ووعاه خاطرى ووقر فى ذهنى وانا اشارف الخصوم واسارق النجوم واسابق الرجوم ان لى اسماء تذكر فى السماء منها الغليظ الرقبه وشيخ نجد وازب العقبه والمقيم فى الدست البيضه والغوى على نقض عهد بنى قريظه والمحرض على أحد وبدر من الصناديد كل جليل القدر والمشهور فى احد بالنداء والملق العرب بالردة الى الردى وانا المتسبب فى قتل عمر وعثمان واهلاك على أمير الشجعان والغوى فى وقعتى الجمل وصفين والملق الفتن بين جنود المسلمين وانشرى سرى الى يزيد وفاض للحجاج والوليد وبى تكثر البدع بين الجماعات والجمع ويظهر من الفتن مابطن ويغلب من التتار وأهل البوار والخسار أنواع الشرور والجدال الى حين يظهر الدجال وتستمر الى هذه الامور الى يوم البعث والنشور وبالجملة والتفصيل انا شيخ التكفير والتضليل وتلك صنعتى من الابتداء وحرفتى الى الانتهاء ثم انك نبعت فى هذا الزمان وظهرت فى هذا المكان تريد أن تهدم ما بنيته وتعوج باصلاحك ما بفسادى سويته وترد كلامى وتعاكسنى فى مرامى وأنا كنت فى قديم الزمان من قبل أن توجد أنت فى هذا المكان ناديت بين بنيه وشهرت فى ذويه قولى

كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وقامروا * وهيا اسرقوا سرا وخوضوا الدماجهرا
ولا تتركوا شيأ من الفسق مهملا * مصيركم عندى الى الجنة الحمرا.

وكانوا قد سمعوا وأجابوا وأطاعوا وأنابوا وشملى بهم منتظم وأمرى بتفريق كلمتهم ملتئم واسهم مرامى المشومه نافذة فى المشارق والمغارب وسيوف مناشرى المسمومه قاطعة

فى الاعاجم والاعارب كم لى فى الاطراف والآفاق والاكناف من قاض ونائب ومانع من الخير حاجب وأمير وصاحب ووزير وكاتب ومشير وحاسب وجليس ونديم وتابع وخديم وناظر وعامل وناقص وكامل وكم لى من جانبى منوط بتفريق قلوبهم وجمع سويدائها الى بابى وكم لى فى المدارس ذووسواس وفى الجوامع والبيع والصوامع من مذكر وواعظ وامام وحافظ ومقرئ وعابد وشيخ وزاهد وكم لى فى الزوايا من خبايا وفى أصحاب الروايات من درايات وفقيه فى النادى فاق الحاضر والبادى يعلم لى فى الشيطنة أولادى وفى البلاد فدفدى وأجنادى وأماسائر الفساق فى الآفاق وسكان الاسواق وقطان الجبال والرستاق وجبال الصحارى والارواق فكلهم لى عشاق والى دينى مشتاق وسل عن أرباب الحانات وسكان الخانات وبالجملة غالب الطوائف وأرباب الوظائف على باب خدمتى واقف وعلى طاعة مراسيمى لبلا ونهارا عاكف مناى مناهم ورضاى رضاهم وان خالف بعض سرّى نجواهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وأنت الآن جئت برايتك وسالوسك وطامتك وناموسك تبددعنى عساكرى وتشرّد من بنى الانس عشائرى وتشتت جموعى وتخلى من الفسق والفساد ربوعى من غير أن تشاورنى ولا تخبرنى ولا تحاورنى ولا تبحث معى ولا تناظرنى وها أنا قد جئت اليك ونزلت كالقضاء المبرم عليك أريد أن اناظرك فى أنواع من العلوم وأسألك عن حقائقها من طريق المنطوق والمفهوم بحضرة من الجن والانس وسائر نوع الحيوان والجنس فيظهر اذ ذاك جهلك فينبذك قومك وأهلك ويتركك معتقدوك ويتراجع عنك مريدوك وأفسد بين العالم صيتك وأتلفه فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه فلما وصل رسول العفريت الكافر الصفريت الى الشيخ العابد والعالم الزاهد الجاهد المجاهد فعندما وقع نظر الشيخ عليه ووصلت سهام لحظاته اليه كاد أن يذوب كالملح وأن لا يقوم الفساد للصلح فبهت الذى كفر وأخذته الدهشة والخوز وغلب عليه الانبهار وكاد يحترق من الانوار واستولى عليه الرجيف وسقط من الوجيف لماأبدى ولاأعاد ولاقام للصلاح ذلك الفساد فقال له الشيخ مالك وماحالك وغيرحالك ومامو جب دخولك على وأنت غير منسوب الى فقال كف عنى أنوارك واطوعنى أسرارك حتى أقول فانى رسول لما لى طاقة برؤيتك ولا سواغ وما على الرسول الا البلاغ فقال رسول أى لعين وشيطان لعين فقال انا رسول محبك العفريت المشقوق الحوافر الواسع المناخر المسلوب المفاخر أبى السعالى الكافر المعالى قد أقبل اليك فى جمع كثير وعدد من الجن غزير ومعه رؤس العفاريت والعتاة المصاليت والطغاة المقاليت وقد حملنى اليك رساله تتضمن من الخبث شماعة وبساله ان شئت اديتها وان أبيت رديتها فقال قل ماتريد وأبلغ ماسمعت عن ذلك العنيد واوجز ماتقول ولعن الله المرسل والرسول فأبلغ الرسالة واداها وأسال فى اوديتها موذاها فقال الزاهد وكان بالاحوال خبيرا واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا والله مالكم شبه فى هذا الكيد الا الحمار فى الوحل والحمام فى شبكة الصيد قل لمرسلك أرى قدمك أراق دمك وهواك اهواك وافعالك افعى لك وسوالك

اسوالك وخيالك اخيلك فاولى لك أولى لك ولعن الله اولى لك لاشك أن الله تعالى اراد دماركم وأن يمحوا آثاركم ويخلى دياركم فتستريح البلاد من فسادكم والعباد من عنادكم أما انا فأذل الخلق واحقر الداعين الى الحق ولكن بعون الله وقدرته والهامه وقوته لى من العلم والفضل ما أجيبه ويقتله من خوفه به وجيبه وسيظهر فى الجمع على رؤس الاشهاد عويله ونحيبه وسيبين الله فى سنن الخلق فروضه ويكشف صحيح الحق ومريضه واذا ادعى بدعاوى طويلة عريضة فان الله تعالى قتل نمرود العاتى ببعوضه يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون أما سمع ذلك الملعون وعلم الشقى المغبون انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون فمتى أراد يحضر ويسير نفسه وخصمه ويخبر ويصحب معه من يريد من كل جنى عنيد وشيطان مريد فان الحق يحق فيبطل الباطل ويتميز فى حلبة السباق الحالى من العاطل فرد هذا الجواب الرسول وكشف عن حقيقة المقول ثم ان العفريت المخذول سأل الرسول عن أوضاع الشيخ الزاهد وأحواله فى المساجد والمشاهد وماشاهده من أموره وحكاياته وحركاته وسكناته وأخلاقه ومعاملاته وكيفية هيئته وصورته وماشاع عنه فى قومه من سيرته فقال رأيت رجلا سعيد الحركات كامل البركات صورته جميلة وأوصافه نبيلة وهيئته جليلة بدنه نحيل وفضله عريض طويل وكلامه الصادع فى أمثالنا نقيل قاطع فقذف الله فى قلبه الفزع وأخذته نوافض الرعب والهلع فقال أما والله ان هذه الاوصاف لصحبة الاعراق والاعراف وستطرحنا وراء جبل قاف وانها لسمة الصلاح وعلامة الفوز والنجاح وانهم لهم المنصورون وحزب الله الغالبون ولقد ندمت على مراسلته وكان الاولى سلوك طريق مجاملته ولكن الشروع ملزم ولا بد أن أتم ماعليه اعزم فواعده الى وقت معلوم ثم انه حضر وأحضر معه من جنده كل جنى ظلوم وعفريت غشوم ومتمرد مشوم ومخلوق من قبل من نار السموم واجتمع من بنى آدم عند الشيخ تلامذته وأصحابه الصالحون وجماعته وكانوا الجم الغفير والجمع الغزير واشترطوا بعدما خبطوا واختبطوا وحلوا وارتبطوا انه ان أجاب الشيخ سؤالات العفريت وسرى فى نارهم سريان النار فى الكبريت لايظهر بعد ذلك اليوم لبنى آدم أحد من أولئك القوم بل يكونون عن الابصار مختفين وتحت الارض فى الخرائب والخرائب كزنادقة بغداد مستخفين وان عجز الشيخ عن جواب سؤاله يهلكه العفريت مع خيله ورجاله ثم شرع العفريت فى الرسائل والقاء المسائل فقال العالم على كم قسم بالعرض والجسم وهل للعالم موجد وهل هو واحد أو متعدد فقال الزاهد الامام العالم على ثلاثة أقسام * الاول مفردات العناصر كالتراب والماء والنار والهواء وتسمى الاستقصات واصول الكائنات والمركبات من هذه الاجزاء المفردة لاتستقر على حالة واحدة ولاتخلو من حركة وانتقال ودأبها التغير من حال الى حال * الثانى الاجرام العلوية كالسموات وكواكبها المضيئة وهى متحركة بالبروج ولحركتها دائرة مالها من مركزها خروج فهى متحركة من بعض الجهات ساكنة كالفصوص فى المرصعات وتوصف فى حركتها بالصعود والهبوط والارتفاع والسقوط

والرجوع والاقبال واستقامة الحال والاحتراق والانصراف والانحطاط الى الحيضض والاشراف ويحكم عليها بالافتراق والاقتران والتربيع والتثليث والتسديس فى السيران والمقابلة فى الرجعة وبطء السير والسرعة وينسب اليها ما يحدث فى العالم السفلى من جزئى الوقائع والكلى ومن نحوسة وسعادة ونقص وزيادة وخير وشر ونفع وضر وتأثر وتأثير وقليل وكثير وانحراف واعتدال وحدوث وزوال وصحة وسقم وسكون وألم ووجود وعدم فبعض من لم يعرف الطريقة يسند هذه الاشياء على الحقيقة وذلك لقصور فهمه وقلة العقل كقول الجاهل انبت الربيع البقل وبعض من لم يكن له ادراك يزعم أن هذا اشراك ولا يسند هذه الحوادث اليها ولا يعول فى ذلك أبداً عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ولا يسلم فى ذلك الى طريقة المجاز والمحققون من العلماء والراسخون فى العلم من حكماء الفقهاء يسندون هذه الحوادث والتأثير الى قدرة اللطيف الخبير الصانع القدير الفاعل المختار الذى يخلق ما يشاء ويختار فاذا نسبوا هذه الافعال الى غير ذى الجلال فانما يجعلونها فى ذلك الباب كالآلات والاسباب كتأثير الخبز فى الاشباع والنار فى الاحراق والايجاع وكفعل الماء فى الارواء والدواء فى الادواء وانما ذلك كله بتقدير صانعها وما أودعه فيها من خواص بدائعها وصفات ودائعها كخاصية الاسهال المودعة فى السقمونيا وخواص التصبير وغيره الكامنة فى الموميا والاسكار فى الخمر والاحراق فى الجمر وقد رأينا القوة النامية عقيب الامطار الهامية والشمس حامية تهيج وتنمو وتموج وتزكو وهذا الصنيع البديع اذا حلت الشمس فى برج الحمل وقت الربيع واذا انتقلت الى برج الاسد احترق ذلك الجسد وعند نقلها الى الميزان ينقلب هذا الزمان وكذا اذا تحولت الغزالة الى برج الجدى فكأنه بلغ الى محل الهدى فتموت اذ ذاك قوة الزمان ويضعف لذلك غالب الحيوان وهذا كله مشاهد محسوس لا يمكن أن تنكره النفوس خواص وضعها خالق الكون يستفاد بعضها من الطعم والريح واللون وبعضها لا يدرك ما أودع فيه الا بارشاد خالقه ومنشيه هكذا جرت سنة العزيز الوهاب أن الاحكام والوقائع تناط بالاسباب وقد يتخلف منها الاثر عن المؤثر ليعلم من ذلك وجود القاهر المدبر وانها مقهورة تحت الامر ومقسورة قسر العقل مع الخمر ولولا ذلك من سر جسيم لما تخلفت النار عن احراق ابراهيم ولما ولدت مريم عيسى ولا أغرق البحر القبط وأنجى بنى اسرائيل وموسى وكم من آكل وهو جيعان وشارب وهو عطشان ومتدثر يتدفأ بالنار وهو بردان والفلك الاعظم محيط بهذه الاجرام ونسبتها اليه كنقطة للبحر الطام متأثرة بتأثيره دائرة بتدويره يتصرف فيها على حسب ما شاء باريها ومصرفه فيها ومنشيها فاطر السموات والارض جامع الخلائق ليوم العرض وكما هى محاطة بالدائرة الفوقانية كذلك هى محيطة بالكرة التحتانية * القسم الثالث العقول والنفوس الملكية وهى أشرف من الاجرام العلوية ومقام هذه العقول فى مقام عزيز الوصول يسمى اعلى عليين وجواهرها لا توصف بتحريك ولا تسكين ولا بهذه البساطة والتركيب وأمرها بديع وشأنها عجيب وأما العرض فالا يقوم بذاته وهو فى العالم كالالوان والطعوم واصواته والروائح والقدر وارادته وأما الجسم فما تركب من جوهرين فاكثر وما قام بنفسه

يسمى الجوهر *(وأما الموجد للعالم)* فهو واحد لايتفق وأحد لايتجزا ولولم يكن للعالم
صانع لكان العالم أضيع ضائع وهل رأيت مصنوعا بلا صانع وسقفا مرفوعا بلا رافع
وهل نفى الصانع الا مكابره وما يجحده الا النفوس الكافره فقال العفريت فما الدليل على
وجود الصانع العقل والنقل أم أحدهما متبوع والآخر تابع فقال العالم الزاهد قد
أطبقت العقلاء واجمعت الحكماء أن العقل دليل على وجود الصانع وبه الدلالة والشرع
له تابع وكما هو الدليل على وجود الذات كذلك هو الدليل المستقل على اثبات الصفات وهي
صفات الكمال ونعوت الجلال فقال العفريت فما الدليل على وحدانيته فقال الزاهد كل من
العقل والشرع كاف في دلالته قال العفريت فما المراد من عالم الكون والفساد فقال العالم
معرفة امور المبدا والمعاد قال العفريت فما أفضل العقل أم النقل فقال العالم كل منهما
حجة الله قد أسندها من عباده من يراه وذلك ان الله لما أرشدنا الى الدين القويم وثبت أقدام
توحيدنا على الصراط المستقيم نبهنا الى أن المقصود من الدخول في دائرة الوجود معرفة
موجدنا المعبود كما قال من يقول للشئ كن فيكون وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
ما أريد منهم من رزق وما اريد أن يطعمون ثم طلب مراضيه بما تبرزيه أوامره وتقتضيه
وذلك هو الرشاد باذا المكر والعناد الى المعارف الالهية وما به نظام المعاش ونجاة المعاد وليس
لنا دليل في العلم والتعريف سوى طريقتين مرشدتين الى التوقيف على أمور المبدا والمعاد
وما بينهما في دار التكليف احداهما ما جبلنا عليه وما اكتسبناه من العقل وثانيتهما ما بلغنا
من الاخبار الصحيحة والنقل فالعقل لايدخل في اثبات المعارف الالهية ولا في هذا الباب
المقدم من الامور المعاشية والمعادية وهو حجة الله القاطعة البالغه واصل براهينه الساطعة
الدامغه وبواسطته استعبد عباده الكمله والى من خصه به أرسل رسله ثم العقل جوز ارسال
الرسل ولا يرد ما تقوى به لتوضيح السبل والنقل لا يأتي بما يناقض العقل وانما يرد بما يزكي
قضاياه ويستقل مراتب أحكامه أحسن صقل ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس
ما حصل للكتاب من معاضدة السنة والاجماع والقياس ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول
لاشبه فرعا يجد ماله من أصول اذا أقبلت مواكب الاوامر الالهية على لسان الرسول
خضعت جماجم العقول منقادة بزمام الانقياد والقبول سامعة لما يرد منها مطيعة لما يصدر
عنها فتارة يظهر للعقل ما للاوامر الشرعية من الحكم كالعلم على علم وتارة يعجز عن الاطلاع
على ما تضمنته الاحكام النقلية من الحكم فاذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل في حكمته
ادراك آثره واكده واستمسك به في تصرفاته أقوى استمساك وان لم يكن له في ادراكه مدخل
نادى بلسان العجز والتسليم سبحان من لا يسئل عما يفعل والحاصل أن سلطان العقول
في ممالك خليفة الشرع وولاية معزول ومن جملة ما ورد على لسان السمع على لسان عدول
صاحب الشرع الصادق في المقال مما ليس للعقل فيه مجال أحوال المعاد ومبدؤها
ما يطرأ على العباد في حد هذا الكون من الفساد فقال العفريت أخبرني باذا الانسان مخلوق
مماذا وما الآدميه والنفس الانسانيه وهل هي واحده او متعدده وما لها الى أين
بعد وقوع البين فقال العالم الانسان مخلوق بالصفه من هذه العناصر الاربعه التي مر

ذكرها

ذكرها وتبين أمرها التراب والماء والنار والهواء فاذا تمازجت واعتدلت اذاترا وجت
حصل لها من التركيب امزجة ثمانية لا على الترتيب والآدمية عبارة عن القوة المميزة بين
الحسن والقبيح والفاسد والصحيح والحق والباطل والحالي والعاطل والخير والشر
والنفع والضر والمميزة لهذه الاشياء الفارقه يقال لها النفس الناطقه وهي ثلاثة أنواع
بالخارج الطباع أحدها الروح الطبيعية القائمة بالكبد وهي من الاغذية تستمد الثانية
الروح الحيوانية ومقامها القلب أي كاب وللابدان منها حرالك واستمدادها من حركات
الافلاك الثالثة الروح النفسانية ومقامها في الدماغ ومنها الحركات الذهنيه والقوة
النامة القويه تطلب غذاءها من الروح الطبيعيه والقوة المميزة تطلب ما يسعدها في
الدارين من الروح النفسانيه ويعدها في المقامين عن الاسباب الشقية واستمدادها
وقوتها من الاجرام العلويه وأعلى مقامات هذه النفس الحكمه والحكمة أوفى منحة
وأوفر نعمه وقد قال تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا
وما يذكر الا اولوا الالباب ومصير هذه الارواح الى عالم الغيب لاجل الثواب والعقاب
وقيل حقيقة نفس الانسان أيها المارد الشيطان لطيفة روحانيه ودقيقة ربانيه
لها تعلق رباني بقلبه وقالبه الجسماني وهي المدركة العالمه العارفة الفاهمه بها يتكلم
الانسان وتبصر العينان وتسمع الاذنان وتبطش اليدان وتمشي الرجلان وهي المخاطبة
والمعاتبه والمثابة والمعاقبه والمطلوبة والطالبه ويطلق عليها لفظ القلب تارة ولفظ الروح
أخرى ويقال لها النفس مرة ولفظ العقل ايضا وابن آدم هو المخصوص بهذه الكرامات
وبهذه النفس دون سائر الحيوانات وان كان يطلق على الجميع ان لها نفسا بالاشتراك
لكن هذه النفس الناطقه والنطق هو الادراك واختلف أيضا وتحيرت الالباب في صنع
رب الارباب وتاهت الافكار والفطن في كيفية تعلقها بالبدن ولا يحصل لاحد على هذا
وقف الا بطريق الولاية والكشف وهذه النفس لما كثرت صفاتها وتضادت نعوتها
تخالفت اوصافها وازداد في صفاتها اختلافها حتى قسموها فقالوا أنواعها ثلاثة ناطقة
وشهوانيه وغضبية رضيه فالناطقة مسكنها الدماغ ولها فيه مساغ والكبد مسكن
الشهوانيه والقلب مسكن الغضبية الرضيه فأية نفس غلبت أختيها جذبت أحوالهما
وصفاتهما اليها وهذه يا أتمس زويعه كالعناصر الاربعه فانها اذا فسد مزاجها وعدل
عن الاعتدال ازدواجها عسر علاجها واستحال الى المطلوب الطالب وعجز عن المعالجة
الطابب ففسد البنيان وانهدمت الاركان وقيل هما روح ونفس بغير لبس وهما ضدان
بل ندان لا يجتمعان ولا يرتفعان وطبع النفس يا لئيم طبعك طبع الشيطان الرجيم
كالنار في جوهرها وخاصة عنصرها تنسب اليها الصفات الذميمه والخلال غير المستقيمه
كالجهل والغضب والحدة والصخب واللؤم والسفه والطيش والشره والحمية والشهوه
والقسوة والجفوه والحسد واللجاج والحقد والاحتجاج والحرص والبخل والتواني
والكسل والحمق والخيانه والفجور وعدم الامانه والترفع والرياء والمخاصمة والمراء
وسائر الاخلاق الذميمه والاوصاف المشؤمة اللومه والملكات الخبيثة الرديه والحركات

الشيطانيه فهى كالنار فى احراقها وحدتها واستشاطتها وشدتها ودخانها ولهيبها
واهلاكها وتعذيبها واقدامها فى اعدامها وا كل ما تجده وما تصل اليه تفسده وطابع
العلو والغليان والغلو وطبع الروح يا أخص مجروح طبع الماء فى النشو والنماء
ينسب اليه كل خلق كريم وطبع سليم صافى الجوهر ما لامسه تظهر شيمته الحياء والعلم
والصدق والحلم والتفويض والتوكل والتسليم والتحمل والاحتمال والاناة والصبر
والموافاة والتودد والاسداء والسكون والاعطاء والركون والبذل والرضا والافضال
والحياء والعدل والتواضع والعفه وعدم الترفع والخفه والسلاسة والسهولة وسرعة
الانقياد واللين والوداد والرقة والصفاء والكرم وعدم الجفاء الى سائر الاخلاق
المحموده والاوصاف المطلوبة المودوده وايهما قويت غلبت وجذبت الاخرى اليها
وسلبت وسيرتها على طبعها واستخدمتها على دربها فكم من شيطان يرى فى صورة
انسان ومن انسان غلبت عليه اخلاق الجان ومن جان فى صورة انسان ونظير هذا
الروح والبدن يدركه ذوو العقل والفطن فان الروح من عالم نورانى لطيف سماوى
والبدن من عالم ظلمانى كثيف ارضى فايهما غلب على صاحبه جذبه الى مركزه فى جانبه
قال الله تعالى وعز كمالا وجل جلالا يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين
كفروا وقال جل علينا ورفعناه مكانا عليا وقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض
فالانبياء عليهم السلام صارت أجسادهم أرواحا والكفار بمثلك صارت أنفسهم ظلمانية
أشباحا وقيل يا زوبعه الانفس أربعه امارة وهى أنفس مثلك الكفار الطغاه ولوامة وهى
أنفس العصاه وملهمة وهى أنفس المخلصين ومطمئنة وهى أنفس الانبياء والمقربين والحق
يا بياحده ماهى الانفس واحده لكن لما تجلت فى ملابس الصفات وتكثرت لها الاخلاق
والسمات نوعوها وبمقتضى التنويع فرعوها تنزيلا للتنويع بالصفات منزلة التنويع
فى الذات فيقال كانت نفس هذا شيطانيه فتاب فصارت رحمانيه وكانت نفس ذا أبيه
فصارت دنيه قال ومن براها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من
زكاها وقد خاب من دساها قال العفريت أخبرنى أيها الباصر كيف تركيب هذه
العناصر فقال الزاهد بحسب الخفة واللطافه والثقل والكثافه ولما كان عنصر التراب
أثقل كان اركد من غيره وأنزل ومن فوقه عنصر الماء وفوق الماء عنصر الهواء ومن فوق
هذه الثلاثة عناصر عنصر النار وهو بها محيط دائر وكذلك كل عنصر محيط بما تحته
وقد حققت هذا وعلمته قال العفريت أخبرنى عن أقرب الاشياء اليك قال العالم الاجل
أقرب الاشياء الاجل قال أخبرنى عن أبعد الاشياء عنك قال العالم الاكبر ما لم يقسم ولم
يقدر قال أخبرنى عن الشئ الممكن عوده قال الدولة ان زالت وتغيرت واستحالت يمكن ردها
ولا يستحيل عودها قال اخبرنى عن الشئ المستحيل عوده قال الشباب بغير شك ولا ارتياب
قال أخبرنى عما لا يمكن بالا كتساب ولا ينال الا بتوفيق الوهاب قال العقل الغريزى فانه
وهبى عزيزى قال أخبرنى عما لا يمكن ضبطه ولا ينضبط ربطه قال الدهر اذا ولى والسعد
اذا تجلى قال أخبرنى ياذا الجد عن الهزل الذى يراد به الجد قال ابراز حكم الامثال والآيات

على لسان الحيوانات والجمادات قال أخبرني عما لا يمكن الاحاطة به ولا الوقوف على معرفة كنهه قال عظمة صانع الكائنات وخالق الموجودات تعالى ان يحاط به علما وتقدس أن تدرك عظمته معرفة ووهما ولهذا قال سيد المرسلين وحبيب رب العالمين لا احصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك وقال سبحانك ما عرفناك حق معرفتك وهذا مصداق قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره فلما طالت المقاوله وانتهت الى هذا الكلام المجادله أقبل الليل وحل بالعفريت وجنده الويل واصدع الجاس وقام العفريت وهو مبلس وتواعدوا الى الصباح عند قول حي على الفلاح أن تجتمع الوجوه الصباح لرد جواب الشياطين القباح فتفرقوا وقد أحاط بالعفريت الوهم ونفذ في احشائه من سهام الذل أقطع سهم وبات لا يقر له قرار ولا يأخذه اصطبار وساوره الافتكار وناوره الهم والدمار والغم والبوار

الى ان أضاء الصبح كالحق مقبلا * وولى ظلام الليل كالجهل مدبرا

فاجتمع من كان بالامس حاضرا ومن سمع بحضورهم ولم يكن ناظرا من جموع الانس والجن وطوائف الجن والجن وأخذ كل مقامه وابتدأ العفريت كلامه وقال ما منبع الصفات الحميده والشمائل السعيده المار ذكرها القار أمرها وهي يا هذا نتيجة ماذا فقال العالم المحقق العامل المدقق هي ثمرة العقل القويم الهادي الى الصراط المستقيم ويكفي العقل الشريف انه مناط التكليف له الله يخاطب وبه يثيب ويعاقب وبه يأخذ وبه يعطي وتابعه يصيب ولا يخطى وكلما كان العقل أتم كانت محاسن الاخلاق أعم وكلما كان رأي العاقل أصوب كان في اقتناء مكارم الاخلاق ارغب قال العفريت فهل هو نوع متحد أو طريقه متعدد قال الشيخ العقل نوعان وحكمه واحد لا يختلف فيه اثنان أحدهما العقل الغريزي اللطيف وهو مناط التكليف يحدثه الرحمن ويتدرج الى بلوغ الانسان فيكمل اما بالسن او الاحتلام ويجري عليه اذ ذاك قلم الاحكام ويدخل في حيز المخاطبين من ذوي الاحلام ويترتب عليه الحساب والعقاب من الحلال والحرام والثاني يحصل بالاكتساب والتجربة في كل باب ولهذا يقال ان الشيوخ أكمل عقلا من الشباب وقيل من بيضت الحوادث سواد لمته واخلقت التجارب لباس جدته وارضعه الدهر من وقائع الايام اخلاف ذريته واراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف اقداره واقضيته كان جديرا برزانة العقل ورياسته فهو في قومه بمنزلة النبي في أمته قال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل وقال

ألم تر أن العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

قال العفريت ما فائدة العقل قال العالم فائدته الارشاد في بيداء الجهالة الى جادة الرشاد والاعانة في الشدائد والوقوع في مصايد المكايد وحصول الخلاص من شرك الاقتناص واجابة الاغاثة عند الاستعانة والاستغاثه ومد المعونه اذا انكسرت من الجبل السفينه في بحر الملامه والاخلاص الى بر السلامه والاغناء من كنز السعاده والصبر عند استيلاء نوائب الفقر قال فمن العاقل في العالم ومن يطلق عليه هذا الاسم من بني آدم قال العالم

العاقل من يحتمل اذا ضيم ومن هو فى الغضب حليم فاذا أعطى شكر واذا منع صبر ويعفو اذا قدر ويستعين بأمور الدنيا ولا يغفل عن أمور الاخرى قال العفريت ما الفائدة فى حب الدنيا والرغبة الى ما فيها من الاشيا ولاى معنى غلب الحرص والهوى والرغبة فيها على اهلها وبنيها قال العالم لاجل قيام العالم وانتظامه على المنهج الاقوم وبقائه المطلوب الى الاجل المضروب الذى قدره موجده القديم الذى أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم ولا بد من ان تتم كلمته وتنفذ مشيئته ولولا الحرص والامل لبطل العلم والعمل فانهما لحجاب الغفلة يغشيان أعين البصائر ويغطيان طرق الاستدلال والضمائر فلذلك ذهلت العقول عن التأمل فى العواقب واشتغلت بالتهائها عما يجب عليها ان تراقب ولولا طول الامل لما رجى العمل ولما انتظم أمر المعاش ولا اهتم لادخار قوت ورياش ولا افتكر صاحب اليوم فى احوال غد ولا ارتفعت المعاملات وما دابن أحد أحدا ولا زرع زارع ولا غرس غارس ولا بنى بان ولا اخضر يابس ولا تقرض اذ ذاك نظم العالم وبانقراضه تنقرض أمور بنى آدم قال العفريت اخبرنى عن اصل الانسان ومم جوهره وجوهر الملك والجان قال الشيخ أما جوهر الملك فمن العقل المحض براه رب السموات والارض ولذلك لا يصدر من الملائكة الا الشيم المباركة من الطاعات لمولاهم والانقياد لاوامر من انشاهم وامتثال ما أمر من أمر مرسوم وما منا الا له مقام معلوم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأما جوهر الجان وأصل ذلك فأخس شيطان فمن الاخلاق الذميمة والصفات المشؤمة فلهذا لا يوجد منكم الا المكر والبلسة والشيطنة والوسوسة وأخس بصفاتكم من صفة ولم يكن بينكم وبين الحق معرفة فانتم بالاخس بغيض والخسيس نهيض مع الملائكة فى طرفى نقيض وأما جوهر الانسان فما اشتملت عليه صفتا الملك والجان فمن غلب عقله شهوته ألبس من مكارم الشيم خلعته واضمحلت ظلمات نفسه فى انوار الطاعة وتجلت صفاة ذاته من سنن الابرار فى جماعة وخط رسم اسمه اقلام الكرام الكاتبين كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون فهو وان كان بجسمانه مع الانس له حضور وأنس لكن بسره فى عالم الملكوت حضرة القدس فهو بصفاته المباركة أشرف من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله واستولت على قلبه حجب الغفلة فانغمس فى بحر الشهوات واستحوذ تم أنتم عليه بذميم الصفات واشقاه القدر السابق ولم يعقكم عن التصرف فيه عائق فهو بالنهار ساه وبالليل لاه استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون فهو أخسر من ارذل الحيوانات وادنى من ادنى الجمادات فقد خاب مآبا وتعس انقلابا ويقول يوم القيامة ياليتنى كنت ترابا (قال الراوى) فلما انتهى الكلام الى هذا المقام امسك العفريت عنانه وأخرس الله لسانه وظهر فضل الزاهد وعلمه ووفور حكمه وحكمه وفهمه وانه أصاب فيما أجاب ولزم العفريت ومن معه من الجن والعفاريت وطوائف المردة والشياطين والعفدة المتمردين وذوى الابلاس والوسواس الخناس ما شرطوه على أنفسهم من التخفى وعدم الظهور والتفرق فى الخرائب والكفور فتفرقوا واختفوا ومصلين وبحد عن انتفوا وسكنوا الخرائب والحمامات والحانات والخانات

فلم يظهروا بعد ذلك للانس وحصل منهم بذلك للانس الانس واستراحوا من مشاهدة طلعتهم القبيحه واستمرت الى يوم القيامة من تلك القبائح مستريحه وهذا آخر الباب والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(الباب الخامس)

فى نوادر ملك السباع ونديمه امير الثعالب وكبير الضباع قال الشيخ أبو المحاسن المرتوى من بحار الحكمة بماء غير آسن فلما انهى الحكيم هذا الباب العظيم عن عالم الانس والشيطان الرجيم تنبه الملك لغزارة حكمه فافرغ عليه خلع احسانه وكرمه وغمسه فى غدير فضله ونعمه ثم أمر أن يقوى الطباع ويذكر نوادر الوحوش والسباع لتنبسط النفس وترتاض وتحلى بعقود عقيد هذا الاحماض فقبل أرض العبودية شفاه الادب وانتهض لاداء ما عليه من المراسم وجب وقال كان فى بعض الغياض أسد رباض عظيم الصوله كريم السريرة والسيره وافى الحشمه عالى الهمه كثير الاسماء والالقاب عزيز الاصحاب كبير بين الامراء والحجاب والوزراء والنواب يدعى فى جوانب مملكته واطراف ولايته بحيدرة وبيهس وضيغم والدوكس والغضب والضرغام والعنبس والطيثار والهندس والغضنفر والهرماس والغضبان وأبى العباس الى سائر الاسما والالقاب والكنى وكثرة الاسما تدل على شرف المسمى وهو مطاع فى ممالكه وولاياته واقاليمه مترشف ثغور الامتثال بشفاه أمثلته ومراسيمه وكان له من خواص الندماء وكبراء الجلساء نديمان كندمانى جذيمه بالزمان حضرته وبجانب حريمه أحدهما ثعلب يدعى أبا نوفل والآخر ضبع يسمى أخا نهشل طبعهما ظريف وشكلهما لطيف ومحاضرتهما مرغوبه وصحبتهما مطلوبه وكان فى خدمته دب هو وزيره ومعتمده ومشيره كافل أمور مملكته ومدبر مصالح رعيته والملك مفوض أمور الرعية اليه ومعتمد لما يعلم من كفايته عليه ومشغول ليلا ونهارا بمعاشرة نديميه فاتسع خيال الوزير واخذ فى مجال التفكير الى النديمين لكونهما ناصحين قديمين ربما يصدر منهما عند الملك ما يحط منزلته ويفسد ان الحسد الذى لم يخل منه جسد صولته واستحوذ عليه هذا الخيال واتسع فى ميدانه المجال فكان خائفا على وظيفته ومنصبه مترقبا منهما ما يكون عزله بسببه فنشأ من ذلك فى خاطره جساوه أورثته قساوة وجذبته الى عداوه ووقر فى قلبه ذلك وتأكد وطال عليه من الدهر الامد فكان يترقب لهما الفرص ليوقعهما من الغصص فى قفص ويسابقهما قبل انتيابه ويتغدى بهما قبل أن يتعشيا به ويقول لابد من تنظيف الطريق قبل حصول التعويق وقد أحسن من قال وأتقن فى المقال

ومن لم يزح عن دربه الشوك قبل أن * يطاه فلا يعتب اذا شاك رجله

وأقل الاقسام أن يبعدهما عن حضرة الملك الهمام فاتفق ان فى بعض الاسحار تجاذب الملك ونديماه اطراف الاسمار فاثر فيهم السهر لطيب السحر فى ضوء القمر وحلاوة ما جنوا منه من ثمر غافلين عما قيل

متى ما اصادف من أحب بخلوة * اصرح بما ارجوه من متكتم
يقول فاصغي أو أبت فينثني * ليسمع قولى كالمشوق المتيم
اسامره لا أن امل حديثه * وآمره كل الامور سوى نم

فأخذت الملك عيناه فاستند الى متكاه فانحل من طرفه وكاه فلم تمالك أبو نوفل ان ضحك لما غنت زمارة الملك فتنبه من ضحكه وتعجب من جرائه وفتكه ثم استمر متناوما لينظر مايصدر منهما فابتدره أخو نهشل وزجره فقال ويلك ماذا رأيت وأى عجب سمعت ووعيت حتى ترتبك فى الضحك اماقرأت وفهمت وسمعت وعلمت أن الضحك بلا سبب من قلة الادب وان الحشم وسائر الخدم ومن نادم الملوك وجالسهم يحترم أمورهم ويعظم مجالسهم سواء غابوا أوحضروا ناموا أوسهروا قاموا أوقعدوا استيقظوا او رقدوا وقد قيل رفع قلم الحساب والضبط والعتاب عن الصبى والمجنون والعاشق والمفتون وكذلك السكران والنائم لاسيما السهران وعذر النائم يامسكين أعظم من عذر الباقين فان النوم أخو الموت وفيه ماليس فى غيره من الفوت وقد قال صاحب الشرع الذى زكا منه الاصل والفرع حفظه الله بجنود الصلاة والسلام وحرسه يعتذر عن النائم العين وكاء السه وقال ذو الصدق والتصديق رفع قلم التكليف عن النائم حتى يفيق وانما اعتبر الشرع احوال النيام وساواهم باليقظى صونا لبعض الاحكام فى نحو من خمس وعشرين مسئلة ضبطها من الفقهاء الكملة ولقد طالعت فى كتاب الاخلاق ان الله الكريم الخلاق حيث جعل جنسا من الامم فى طبائع وصفات متساوى القدم فلا يعتب أحد أحدا ولا يزدريه ولا ينقم عليه عيبا هو فيه وعلى الخصوص اذا صدر من الملوك شئ يعاب فلا يحمل ذلك منهم الا على الفضل والصواب وكما كان فى غير الملوك معتبه فانه اذا صدر من الملوك يعد منقبه ويجب على من يجالس الملوك وكان له فى خدمتهم سلوك واختص بمحاضرتهم واستعد لمناظرتهم أن لا يبصر منهم الا المحاسن ولا يعبر عنهم الا بالاحاسن وقد قيل من جالس الملوك بغير أدب حبسه فانه خاطر بروحه وعرض للبلاء نفسه وقال الله الاعظم فى كتابه المحكم لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم كما أمرت ولهذا قال عليه السلام شيبتنى هود وأخواتها وماساد العجم والعرب الا بسلوك طريق الادب وقال عليه الصلاة والسلام أدبنى ربى فأحسن تأديبى فقال المغفل أبو نوفل اذا طهر القلب من الخيانه وعاملت اليد بالامانه وتنقى العرض من العيوب وكان اللسان غير كذوب وزكت النفس بالحلم وعريت عن الجهل بلباس العلم يصلح لها أن تسخر بكل أحد وتفخر على أكبر من يكون ولو أنه الاسد وانا اذا طار بهذه الصفات طيرى فلا على اذا ضحكت على غيرى فقال أخو نهشل لا تقل ذلك لا واستعذ بالله من الجهل والخيلا واعلم ياذا المكرامات أن الجاهل يعرف بثلاث علامات احداها يامحبوب أن يرى نفسه عارية عن العيوب الثانية يارفيق الخير أن يرى نفسه أعلم من الغير الثالثة ان يرى انه انتهى فى فنون العلم والنهى وبلغ أعلى المراتب وهذا أكبر المعايب وقالت الحكماء اذا رأيت نفسك عارية عن العيوب وتصديت لتتبع عثرات الناس بالغيوب وفتشت عن عيوبهم الجيوب فأنت حينئذ غارق

في بحر العيوب وبالذي أنت طالبه مطلوب وانظر ياذا السكينه ماذا قاله الامام مالك رضي الله عنه حبر المدينه لكن جل مطلوبك حرصك على تفقد عيوبك وقم بذلك على نفسك وذاتك مقام حسادك ورقبائك وعداتك وقال ذو هدى وما قال سدى

لكل فتى خرج من العيب مثلي * على كتفه منه ومن أهل دهره
فعين عيوب الناس نصب عيونه * وعين عيوب النفس من خلف ظهره

فقال أبو نوفل صدقت ونصحت اذ نطقت فجزاك الله عني خيرا ووقاك شرا وضيرا ولكن يا أخي وقعت هفوه على سبيل السهوه وحصلت زله على غفله واللفظ عن غير نظر كالسهم اذا رمى عن الوتر لا يمكن رده ولا وقوفه وصده كما قيل

القول كاللبن المحلوب ليس له * رد وكيف يرد الحالب اللبنا

ولكن الذنب والاجترا اذا لم يشتهرا لا يتوجه عليهما العتاب ولا يستحق مرتكبهما العقاب اذا استغفر وأناب وانا وان وقع مني الخطا آمن بحمد الله من شر الجزا ومن المؤاخذة بالجريمه وان كانت عاقبتها وخيمه لانها بينك وبيني وانت بمنزلة روحي وعيني ورفيقي وصاحبي ومراعي حقي وجانبي فسري عندك مصون وأمري عن الاشاعة مخزون وقد قال الحكماء ذوو التجارب لا تودع السر الا عند صاحب صدوق صديق ومحب شفيق وأنت هو ذاك الموثوق فاطرحه من سويداء قلبك في أسفل الصندوق فان استقر عندك ساكنا صرت من وبال أمره آمنا ولا يبعد ذلك من شفقتك وسابق صداقتك ووفائك بالمروه وقيامك بحقوق الاخوه وأسأل احسانك ان تجيب لصاحبك القديم مرجوه قال أخو ثمثيل اعجب لابي نوفل كيف يغفل أما سمعت يا عاقل قول القائل من علامات الجاهل ان يقرض ماله باللطف ثم يتقاضاه بالفظاظة والعنف وأن يودع سره وخفاياه وامره عند من يحتاج ان يتضرع اليه ويقسم في اخفائه واكتمامه عليه ثم يحلفه ان لا يبديه ولا يذكره لاحد ولا ينهيه وقد قالت الحكماء لا تودع أحدا سرا فان فعلت فانك السر لان كتمانه قيدهم وعناه وابداه كبدهلاك وبلاء وقد قيل

وكل سر جاوز الاثنين شاع * وكل علم ليس في القرطاس ضاع

لم يقصد بالاثنين الا الشفتين وقال الشاعر

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر أضيق

وقال أيضا

لا تودعن ولا الجماد سريرة * فمن الجمادة ما يسر وينطق
واذا المحك أضاع سر أخ له * وهو الجماد فمن به يستوثق

وقال أيضا

صن السر عن كل مستخبر * وحاذر فما الحزم الا الحذر
أسيرك سرك ان صنته * وأنت أسير له ان ظهر

وكل ما تحرك به اللسان انتشر في الكون والمكان وناهيك يا ناصر قضية الحرامي مع الطاهر قال أبو نوفل كيف تلك يا أخا ثمثيل قال بلغني ان رجلا من الحراميه واللصوص

الكراريه كانت نفسه ذات الخيانه تحرضه على الدخول من حواصل الملك الى الخزانه وانها الرؤية الخزانة مشتاقه ولمعانقة فاسق التصوم عشاقه وكان جاهدا فى ان يعطيها من مناها ما يرضيها ولكن كانت نجوم الحراس بالرصد ولرجوم ذلك الشيطان كل بعد وكتم ذلك السر عن الاخوان ومضى عليه برهة من الزمان وهو يكابدا كتمانه ويخاف من السوء ختامه والمقدر كائن والكائن حائن الى ان طفح عليه ما قصد وغلا خمر سره فى قلبه وقذف بالزبد فطلب صاحبا يتلقط به اليه ويعتمد فى اكتتام سره عليه واختلا فى حجرته فقرصه برغوث فى حضرته فدعاه اليه وافشى سره معتمدا عليه وقال فى خاطره عند افشاء سرائره لا لهذا لسان يقدر على البيان وعلى تقدير ان لو كان فهو مثل ولدى تربى من دم كبدى ولحم جسدى واطلع على عورتى فلا يقصد عثرتى ولا يكشف سرى ولا يهتك سترى ثم ادنى فاه حتى وافاه وقال يا أباطاهر وكاتم السر فى السرائر انى عزمت كالمنهمك على الدخول الى خزائن الملك لاستصفيها وآخذ ما فيها فاكتم هذا السر عنى وامصص ما شئت من الدم منى ثم طرحه فى سراويله واستقر فى نيته على أباطيله ثم قصد فى بعض الليالى ما كان يخلو به على التوالى وبرصده فى المكامن من الدخول الى الخزائن فلاحت له فرصة فانتهزها واستعمل دقائق صنعه وابرزها وانتقل من ذلك الى المبيت واطىء تحت سرير الملك كالعفريت والملك نائم فوق السرير على فراش الحرير معانق الظبى الغرير وخرزة التاج عند رأسه تقد كانها سراج متقد فقصد اللص أخذها واقتطاعها وفلذها فامهل القوم الى ان استغرقوا فى النوم وبينما هو متفكر فى مآبه اذ خرج البرغوت من ثيابه ودخل الى جسد السلطان وقص عليه بلسان القرص كل ما كان من شأن اللص فنهض الملك من مرقده فرأى نقطة على جسده فطلب النور لينظر الامور فرأى برغوثا طار ونزل تحت السرير فقصوا أثره فى المسير فوجدوا الحرامى الكسير فربطوه كالاسير ووقع فى الامر العسير بالامر اليسير فصار كما قيل

مشى برجليه عمدا نحو مصرعه * ليقضى الله أمرا كان مفعولا

وانما اوردت هذا المثل لتعلم يا أبانوفل أن سر الفؤاد لا يؤمن عليه الجماد فضلا عن متحرك من حيوان ونعوذ بالله ان كان من جنس الانسان وقد قيل للحيطان آذان ومن امثال العجم الاوباش للديوانا كواش فلما انقضى هذا الكلام وكان الاسد قد استوفاه على التمام وقد أثار فى أحشائه لهيبا نهض من مرقده ممتلئا غضبا واستحال وتحرك وامر بأبى نوفل فقبضوا عليه ووضعوا الغل فى رقبته والسلاسل فى يديه ورجليه وأمر الى السجن برفعه بعد التشكيل به وصفعه فتشوش خاطر صديقه وجليسه ورفيقه ثم انفض المجلس النظيم ودخل الملك الى الحريم فتوجه أخوينشل الى السجن المقفل ولام صاحبه أبانوفل وزاد فى التعنيف وقال أيها الاخ الظريف ألم تعلم ان الشخص اذا تكلم يضبط كلامه عليه ويعود محصول ما يلفظ اليه وقد قال الرب المجيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وان كثرة الكلام تضر بالنفس أكثر مما يضر بالبدن الطعام وكل هذا المصاب انما جاء من قبل الاعجاب وكثرة الكلام والغرور وعدم التأمل فى عواقب الامور

قال الشاعر ما ان ندمت على سكوتى مرة * ولقد ندمت على الكلام مرارا
قال حكماء الهند وفضلاء السند مادام الكلام فى الفؤاد ولم يبد منه على اللسان باد ولم يصب منه سائل حرف فى صدفة الآذان أووعاء الطرف فهو كالبنت البكر المشهورة الذكر كل أحد يخطبها ويميل اليها ويطلبها ويتمنى أن يراها ويترشف لماها فان ألقى الى المسامع ووعاه كل ناظر وسامع فهو كالعجوز الشوهاء اذا سلوها وقلوها وهى تلازم صبا حاو مسا ويفر منها الرجال والنسا ويصدكل أحد عنها فاذا تكلمت أسكتت واذا سلمت أعرض عنها وقال بعض الحكماء اللسان أسد وهو حارس الرأس والجسد ان حبسته حرسك وان أطلقته حبسك وان سلطته افترسك وقالوا الكلام أسيرك مالم تبده فان تكلمت به فأنت أسيره قال بعض الحكماء انا على مالم أقل أقدر منى على ماقلت وقال عيسى صلوات الله عليه العافية عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت الا عن ذكر الله وواحد منها فى ترك مجالسة السفهاء وقال نبي الحرمين وامام الثقلين صلوات الله وسلامه عليه الصمت حكمة وقال عليه الصلاة والسلام البلاء موكل بالمنطق وقال الحكماء السكوت يستر عيب الجهل ويعظم حرمة الملوك ولقد آذيت نفسك وتسببت فيما أوجب حبسك وأقلقت ودودك وأشمت حسودك ولقد كانت حصتى من بلائك وعنائى من شدة عنائك أعظم من كل حصه وقصتى فى ذلك أعجب من كل قصه اذ أنت رفيقى وزميلى وفى حضرة الملك ومنادمته عديلى نشأنا على ذلك وسلكنا فى الموافقة والمرافقة اقوم المسالك وكنت المرجو لمخافى واياى فى مطافى ومشتكى حزنى ومشتفى شجنى ومخزن أسرارى وأعظم أستارى وراوية أخبارى فى أحبارى وراوية أسفارى فى أسفارى ومن أين آتى مثلك رفيقا أو أجد صديقا شفيقا وأنت صاحب السراء ومصاحب الضراء وأنشد

ومن أين ألقى بعد سبعين حجة * رفيقا كمن أرضعته قهوة الصبا
اديبا أريبا لم أمل مقامه * ولا ملنى يوما حكيما مهذبا

ويعز على ويعظم لدى أن أراك فى هذه الحاله ثم أجرى سحائب دموعه الهطاله وقال

وما على الحر أنكى أن يرى حزنا * فى محنة ضاق عنها دونه الحيل

ولقد تحيرت فى هذا الامر المهول وما أدرى قصاراه الى ماذا يؤل وليلة التم الصراح عما ذا يسفر فيها الصباح فانبكى لذلك أبو نوفل وبكى وتضرع الى الله وشكا وقال يا اعز الاصحاب وأحب الاحباب لقد أثر عندى ماقلت من الكلام أكثر مما أصابنى من الآلام كيف يفتقر لاحد الجانبين ويطلق أحد القيدين وأنى يعتذر بالقضاء والقدر لاحدى الغصتين وهل هى شئ فى عالم الكون والفساد جاء خارجا عما قدره الله وأراد وكنا فى هذا سويه والعبد فيه موضع المنيه ولكن الجد اذا أقبل ولاحظ بسعده وتفضل فكل حركة تصدر من الغبى العاجز يعجز عن مقاومتها البطل المبارز وكل قول يتفوه به الجاهل يدع دليل معانيه ادلة العقلاء فى مجاهل ومذاهل ودعاميص ذوى الآراء المنضبة المناهل تلقى من عقنقل الحيرة فى مجاهلها مناهل فيصير كل وجه اليها مائل وكل انسان بها قائل وقوام كل سعد وقبول اليها قابل كما قيل

وإذا السعادة لاحظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل * واقتد بها الجوزاء فهي عنان

ونعوذ بالله من ليل السعد إذا أدبر وصبح النحول إذا أسفر فإن اللبيب إذ ذاك يخطئ ما كان يصيب ويفعل العاقل ما لا يرتضيه بأقل فيكون جهد النفس زيادة في العكس

وإذا تولى البخت يحتاج الذكي * في رأيه قبل الزوال مراحا

وانقلاب الدهر وانعكاس الزمان شيمة معهودة وخصلة معدودة كما قيل

ومن ذا الذي ما غره صرف دهره * فأضحكه يوما ولم يبكه سنه

وأنا كنت غافلا وإن لم أكن جاهلا وقد يكون الشخص عما تحققه ذاهلا وذلك لما كان عودني الزمان والتقمني سالف الدوران وإرخاء العنان ونيل الأماني والأمان وإسبال ذيل النعم والإحسان الدائم والكرم فشبت على ما كنت أعهده وفي نفسي أجده وأيضا كانت لذة عشرتك ونعيم صحبتك وحسن موافقتك وعزم اتفاقك أنساني كل بليه وأمنت بذلك كل رزيه فألهاني عن التنكد ودهتني غفلة عن التوزع والتبدد مثل ما أصاب ذلك الهدهد قال أخو نهشل أسرد ذلك المثل فقال ذكروا أن الله مجري الخير على بعض عبيده الصلحاء منطق الطير فصاحب منها هدهدا وازداد ما بينهما توددا ففي بعض الأيام مر بالهدهد ذلك الإمام وهو في مكان عال ملتفت إلى ناحية الشمال وهو مشغول بالتسبيح يسبح الله بلسانه الفصيح فناداه يا صاحب التاج والقباء والديباج لا تقعد في هذا المكان فإنه طريق كل فتان ومطروق كل صائد شيطان ومقعد أرباب البنادق ومرصد أصحاب الجلاهق فقال الهدهد إني عرفت ذلك وإنه من المهالك قال فلأي شيء عزمت على القعود فيه مع علمك بما فيه من دواهيه قال أرى صبيا وأظنه غويا نصب لي فخا يروم لي فيه زخا وقد وقفت على مكايده ومناصب مصايده وعرفت مكيدته أين هي وإلى ماذا تنتهي وأنا أتفرج عليه وأتقدم للضحك إليه وأتعجب من تضييع أوقاته وتعطيل ساعاته فيما لا يعود عليه منه نفع ولا يفيده في قفاه سوى الصفع وأسخر من حركاته وأتبسم من عجز على خزعبلاته فتركه الرجل وذهب وقضى حاجاته وانقلب فرأى الهدهد في يد الصبي يلعب به لعب الخلي بالشجي ولسان حاله يلهج بمقاله

كعصفورة في يد طفل يهينها * تقاسي حياض الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها * ولا الطير مطلوق الجناح فيهرب

فناداه وقال يا أبا عباد كيف وقعت في شرك الصياد وقلت لي إنك وعيت ورأيت ما رأيت فقال أما سمعت أن الهدهد إذا نقر الأرض يعرف مسافة ما بينه وبين الماء ولا يبصر شعرة الفخ وذلك لينفذ ما كتبه الله تعالى وقدره من قضائه وقدره وناهيك في قضية القضاء والقدر قضية آدم أبي البشر مع موسى الكليم عليهما الصلاة والتسليم لما جرت عليه أحكام القضاء والقدر فتمت مشيئة الله تعالى السابقة في علمه وجرى ما لم تدركه عقول الفحول في ميدان إرادته من سوابق حكمه وحكمه وأنشد الهدهد

يا سائلي عما جرى * والعين مبصرة القدر

أوماسمعت بأن اذا * جاء القضاعمى البصر

وقال أيضا

ان كنت أخطأت فما أخطا القدر * ان القضاء ان أتى يعمى البصر

واسمع أيها العاقل قول القائل

اذا أراد الله أمرا لامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
وحيلة يفعلها فى دفع ما * يأتى به محتوم أسباب القدر
أصم اذنيه وأعمى قلبه * وسل منه عقله سل الشعر
فلا تقل فيما جرى كيف جرى * فكل شئ بقضاء وقدر

وانا لما اغتررت بحدة بصرى ذهلت عما يجول فى فكرى فتغطت حدة استبصارى فوقعت فى فخ اغترارى أما سمعت ياهمام قول الامام اذا حلت المقادير ضلت التدابير ثم قال أبو نوفل وقد أثر فيه كلام أخى نهشل

دع عنك لومى فان اللوم اغراء * وداونى بالتى كانت هى الداء

وانما أوردت هذه الحكايه لتخفف عنى ما فى تقريعك وتوبيخك من نكايه وتعلم أن الامور كلها جلها ودقها جارية على وفق ما قضاه الله تعالى وقدره واثبته فى سابق علمه فى اللوح المحفوظ وسطره وان كانت الاحكام فى هذا الباب تضاف الى العلل والاسباب ولا شك فى هذا ولا ارتياب فقد مر أن الذهول شغلنى عن الفضل بالفضول وأن العذر غير مقبول فان الجهل لا يكون حجه ولا مخاص لسالك الاسواء المحجه وقد طال الكلام والحق يدلك والسلام وانما الآن نخل المقصود من لطفك المعهود وبذل المجهود وتذكر سابق العهود وقديم الصداقه وأكيد المحبة والعلاقه عطف الخواطر الملكيه ورجوعها على ما كانت عليه من الصدقات السنيه والعواطف الملوكيه وأقل الاقسام الخلاص من هذه البليه وعلمك قد أحاط بأوثق مناط أنى شخص وحيد بين ملازمى الخدمة فريد لم يكن لى أخ سوالك وأنت مشتكاى وأنا مشتكاك وهذا أوان الفتوه وزمان المروه وعدم التخلى عن الاخوان والانبعاث بالهمة الثابتة الاركان والسعى فى خلاص الصاحب القديم من هذا البلاء العظيم وأسألك بسالف الخدمه والمودة ذات القدمه أن لا تذكر ما سلف من التقصير الموجب للتلف فانى معترف أنى للذنب مقترف وأنشد

جاوزت فى اللوم حدا قد اضربه * من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

وانى اذا تفكرت وتصورت ما وقع اذا تذكرت وان كان قد مضى يضيق بى الفضا وأغرق فى عرق الحيا وتسود فى عينى الدنيا فكأنه فى هذا القبيل عنى قيل

كأن فؤادى فى مخالب طائر * اذا ما ذكرت الحب يشتد بى قبضا

وهذا القدر من الاعلان يكفى وانى استحلى اذا مر بخاطرى غصص حتفى ثم علا زفيره وشهيقه وبدا من لهيب قلبه بريقه ومن وادى دمعه عقيقه حتى خيف عليه غريقه وحريقه ورق له عدوه وصديقه وبكى لبكائه رفيقه قال أخو نهشل اعلم أيها الاخ المفضل انى لم أقل ذلك الكلام للعدوان والملام فضلا عن ايحاش قلب وايلام ولكن لما تألم جنانى أجرى الله

ذلك على لسانى ولم يكن لذلك الحديث باعث ولا قصد عابث أو عائث ولكن صفو المحبة ووفور الصدق أوجبا التلفظ بذلك النطق وكيف لا ادرك دقائق المعانى وانا الهام من ثمار فضائلك جانى وأما بذل الاجتهاد من أهل الوداد فهل يخطر ببالك غير ذلك ويأبى الله والاخلاق الكريمه وما علمته من همة وشيمه وفواضل فضائل من مواهب خصائلك اقتبستها ومطارف معارف على منوال سجاياك نسجتها أن اتخلف عن التعلق بأهدابها وأغلق أبواب مقاصدها فى وجوه طلابها وانا ان لم ابذل مجهودى واصرف موجودى فى مساعدة خلى وصديقى وصاحبى ورفيقى بما تقتضيه المروأة والفتوة والصداقة القديمة والاخوة والا فأى فائدة فى وجودى لوالدى ومولودى وطارفى وتليدى وصديقى وودودى وقد قيل اربعة أشياء فرض عين فى شريعة المروأة على المحبين وكذلك الاخوان وسائر الاصحاب والخلان الاول المشاركة فى النوائب وتعاطى دفعها من كل جانب الثانى اذا ضل احدهم عن طريق السداد يردونه الى سبيل الرشاد ولا يتركونه على غير الصواب بل يستعطفونه بألطف خطاب الثالث اذا صدر من احدهم نوع جفا يلاقونه بالوفاء والصفا ولا يتركونه على شفا ولا ينسون الوفاء القديم بالجفاء الحادث فربما يتفرع على ذلك ما يؤكده من العوائث الرابع لا يؤاخذون المقصر فى حال الغضب بل يرجئون عقوبته الى أن يطفأ اللهيب فربما يتعدى بواسطة الغضب الحد فيقع بسبب ذلك بين الاصحاب نكد ثم ان ابا نوفل قال لاخيه نهشل المبادرة اولى الى التلافى لئلا يسابق الجنود الى تلافى وهذا المصاب اتى فجاء بغتته واخذ قلوبنا واسماعنا بهتة فاستعمل فكرك القويم وتوجه الى التدارك بقلب سليم فقال ها أنا أذهب على الفور لهذا المطلب النافع وأقوى العزيمة واجتهد فى دفع الموانع فأول ما أبتدئ بقصد الملك وانظر ما يصدر منه قولا وفعلا فى هذا الامر المشتبك فأنحو على ذلك ما يناسبه وأجاريه فيما يميل اليه خاطره ولا اجاذبه ثم توجه الى الاسد ودخل عليه فوجد الدب جالسا بين يديه وقد بلغه قضية النديم وانه حل به العذاب الاليم فاغتنم الفرصه وبادر ليتم على ابى نوفل الغصه ويتعاطى فى امره قصه وحصه فأراد اخو نهشل ان يفتتح الكلام ثم افكر فى انه ربما يعاكسه الدب فى المرام وانه اذا قام فى المناقضة لا يمكنه مقابلته بالمعارضه وان سكت فالسكوت رضا وان وافق فعلى فعلى غير مراده مضى فأمسك عن الكلام ورأى السكوت مقتضى المقام ثم امعن النظر واجال قداح الفكر فرأى انه ان انفصل المجلس من غير ان يفصح بشئ وينبس ربما يفوت المقصود او يسابقه بالمعاكسة عدو او حسود لاسيما مثل الوزير الرفيع الخطير صاحب الرأى والتدبير وهو عدو قديم وفى طرق التلزى تطيره عديم فاذا بادر الملك بالكلام ربما يقع منه فلتة بمقام كما قيل

اتانى هواها قبل ان اعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فتلقاه الملك بقبول فيصول كما يختار فى ميدان الفتك ويجول فتنعقد الامور وتتقصد وتتعقف الاخلاق الاسدية وتتعرد فرأى الاولى المبادرة بالكلام والوقوف فى مقام الشفاعة أنسب بالمقام فان عارض أحد عرف أن جوهر كلامه عرض ولا تصدى الا لغرض وكان الملك قد سمع كلامه بعد معرفة سلامته والقائه على أبى نوفل عدله وملامه وكلامه بلاشك مقبول

وما لاحد عنه عدول وكان الدب منتظرا خروجه من عند الملك حتى يختلي بالكلام معه
ويتمه فادرك اخو تهشل هذا المرام فوقف في مقام الدعاء وبادر بالكلام ثم قال بعد
وظائف الدعاء والقيام بما يجب من مراسيم الثناء العلوم الشريفه والآراء المنيفه محيطة
ان من عادة الملوك العظام واخلاق السلاطين الكرام العفو عن الجرائم والاغضاء عن
العظائم لاسيما اذا صدر ذلك من أحد المخلصين والعبيد المتخلصين على سبيل السهو والخطا
لا على سبيل العمد والاجترا

من ذا الذي ما ساء قط * ومن له الحسنى فقط

وان العبد الاقل أبا نوفل الواقع في الخطر الخطير المعترف بالذنب والتقصير متوقع غفرها
من صدقات الحضرة الملوكية ومراحمها وما اعتاده من حلمها الشامل ومكارمها ومحتم
على الملوك القيام بقبول الشفاعة فيه دون سائر الخدم والجماعه خصوصا وقد كان رفيقا
نديما ومصاحبا قديما ولم يقصد المملوك بذلك الا سوق الحسنات الكثيره الى دفاتر
الصدقات الشريفه وقصد الخير بذهاب الاسى والضير وانتشار صيتها في الآفاق
والاطراف بالعلم والحلم والعفو والصفح والفضل والعدل والالطاف فلان الاسد من هذا
الخطاب وعرف أن قصد الشافع من هذا انما هو الثواب والصواب فاطرق مليا ولم يحر من
الاجوبة شيا فتأثر الدب الخبيث والعدو القديم لهذا الحديث وخاف أن يكون
السكوت رضا وان هو رضي يفوت منه المنى والاطراق علامة الحلم والسكوت في الحرب
دليل السلم ومن فوت الفرصه وقع في غصه ومتى يقع أبو نوفل المحتال في مثل هذا العقال
وما للطرف مقال من قال

وان رأيت غراب البين في شرك * فاذبح وكل وذر الافراخ في عنق

وقد قيل

اذا صارت الاعداء غلا فانهم * اذا لمتطأهم اصبحوا مثل ثعبان
وكم ذا يقاسي من اذاه وقرصه * على ضعفه ان صار داخل آذان

فانبرى وانبرم وتصدى للمعاكسة ذلك اليوم وغطى دسائس لومه بنقوش الكرم وقال
اعلم أيها النديم القديم ومن هو للملك أوفى خديم أن الواجب على جميع الخدام أن يكونوا
في الصدق متساوى الاقدام ولا يقدموا على نصح الملك غرضا ولا يطلبوا سوى رضاه على
النصيحة عرضا ولا عوضا فلا يصادقوا الخائن ولا يصدقوا المائن ولا يواطئوا الخاطى ولا
المذنب المتعاطي ولو بالكلام الواطي ولا يخفوا الخيانة والجنايه ولا يرعوا في ذلك أدنى
الرعايه فساعد السارق سارق ومعاضد المارق مارق والقيام مع الجاني جنايه واخفاء
الخيانة نكايه وفي هذا الكلام كفايه ومن اعتذر من جناية بان لاسيما ان كانت في حق
ملك أو سلطان فهو شريك فيها بل أعظم جرما من متعاطيها لان عظم الجنايه اذا الدرايه
انما هو بحسب المجني عليه وان ذلك الوهن عائد اليه لا على مقدار الجاني وانت لا تجهل
هذه المعاني ولهذا قال بعض أهل الافضال ان تعاطي الفساد اذا الرشاد ليس فيه صغيره
وأن كل ما يخالف الامر كبيره وذلك بالنظر الى الجناب الاقدس القاهر تعالى وتقدس

فقال أخو نهشل كلام مولانا الوزير هو المفضل وما أشار به هو الصواب المعدل ولكن يا مولانا الوزير علمك الخطير خبير بأننا كلنا محل الخطا والتقصير ولا يسع الكبير منا والصغير الا الحلم الغزير والعفو عن كثير وقل لي من هو البرىء عن الهفوه والذى لا يتوقع من مولانا الملك عفوه وان لم تقع الشفاعه فى الجانى وذى الخلاعه وتخالف سنة الجماعه فالمحسن لا يحتاج الى شفاعه ومن لم يجبر المكسور ويأخذ بيد المقور فما يجد عند انكسار هجابرا ولا يؤخذ بيده حين يصير عاثرا وقد قيل من مثالك الفضيل وصاحب الادب الجزيل

اذا أصبحت فيناذا اقتدار * وأمرك فى رقاب الخلق جارى

أقل واقبل عثارا واعتذارا * فمن يقبل يقل عند العثار

فما زال الصغار تروم عفوا * وغفران الكبائر من كبار

وأحسن العفو يا ذا السلوك عفو السلاطين والملوك لاسيما اذا عظم الجرم وكبر الاثم فان العفو اذا صادر من ملك ذى سلطان قادر مع قوة الباعث على المؤاخذه والقدرة الشاملة النافذه وغير الملوك من العاجز والصعلوك عفوهم انما هو عجز خشيه أو لقشية غرض مشيه والملوك انما يؤثر عنهم الخلال الحميده والخصال الشريفة السعيده والاكابر يعفون والاصاغر يهفون وقد قسم الحكماء والحكام ما يقع من الذنب والآثام أربعة أقسام فاسمع يا كبير هفوة وتقصير وخيانة ومكروه وحرروا ذلك وضبطوه وذكروا الكل جزاء قرروه فجزاء الهفوة العتاب وبه نطق الكتاب وجزاء التقصير الملامه على ما أورث من ندامه وجزاء الخيانة العقوبه فان فى ارتكابها العاقل صعوبه واعظم بعقابها مشوبه وما يرتكب المكروه الا الغافل المعتوه وجزاؤه أيضا عثله وهذا على مقتضى العقل وعدله والذى صدر فى سابق القدر من المخلص أبى نوفل انما هى هفوة بها زل وجزاؤه على هذا الحساب انما هو العتاب وقد استوفاه وزياده وفى هذا لمولانا الملك الاراده فان شاء عاقب على الذنب الصغير وان شاء عفا عن الجرم الكبير والهفوة لا يكاد يسلم منها الخواص فضلا عن هو فى شرك العبودية والاقتناص ولأن يؤثر الفضل عن الملك وعلى طريق عفوه يسلك الدرب المستلك خير من أن يؤثر عنه لنفسه الانتقام ويخلد ذلك على صفحات الايام ولا شك أن سيرة العفو والفضل أفضل من القصاص والعدل وذلك هو الاليق بالحشمه والاوثق للحرمه والاجدر لناموس السلطنة والابقى على ممر الدهور والازمنه وقد قال سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ينادى مناد يوم القيامة من كان له عند الله يد فليقم فلا يقوم الا من عفا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله ولقد كان جماعة من عظماء الملوك والاكابر يخشون عن تعاطى الذنوب والاجرام من الاصاغر لاسيما لمن يتعرض لذات الملك ونفسه ويستعين بطوا تقه على فساده من أبناء جنسه فاذا قدروا عليهم عفوا وتلذذوا بالعفو والاحسان واستعفوا وحسبك يا ابا جهينه ومن فضله اعذب مزينه واقعة ابن سليمان المخلدة على ممر الازمان وما تضمنت من مكارم الاخلاق التى تعطرت بها الآفاق فتوجه الاسد اليه ومال وقال أخبرنا يا أخا نهشل كيف كان هذا

المثال

الجنان قال لما انتهت أيام بني امية وتطرزت خلع الايام باعلام الدولة العباسية واشرق بطلعة أبي العباس السفاح في دياجير الدهر اعين صباح باحسن فلاح اختفت نجوم افلاك بني امية وكواكب من بقي من تلك الزواهر المضيئة وكان منهم ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان وجعل السفاح يتطلبهم ويرغب من يدري بهم ويرهبهم الى ان ظهر ابن سليمان وكان من أمره ما كان فحكي انه كان بالحيرة مختفيا في هم وحيرة قال ففي بعض الايام تراءت لي على سطح سواد أعلام فوقع في نفسي وغلب على حدسي انها قد جاءت الطلبي راغبة في عطبي فتنكرت في الحال واختفيت وخرجت من الحيرة والى الكوفة أتيت فدخلتها خائفا اترقب ولم يكن لي فيها مترصد ولا مترقب ولا صديق اركن اليه ولا صاحب اعول عليه فصرت في تلك البلاد مثل المنشد ببغداد

بغداد دار لاهل المال منعمة * وللمفاليس دار الضنك والضيق

ظلت حيران أمشي في ازقتها * كأنني مصحف في بيت زنديق

فادّاني المسير الى باب كبير منظره جليل وداخله دهليز طويل ليس فيه أحد من الحجاب والرصد فدخلت اليه وبه مكان فجلست عليه واذا برجل جسيم جميل الشكل وسيم على فرس جواد مع طائفة من الاجناد فدخل الى دهليز الباب وفي خدمته غلمانه والاصحاب الى ان نزل عن دابته وانفرد عن جماعته فلما رآني في وجيف ووجل قال من الرجل فقلت خلالك الذم مختف على دم واستجرت بجوارك ونزلت في دارك فقال أجارك الله لا تخف من سواه ثم أدخلني حجرة لطيفة تشتمل على أشياء ظريفة قد جعلها مضيفة ينزلها كل من قصده جهلا أو عرفه فمكثت عنده حولا أصول في نعمه صولا ولا يسألني فعلا ولا قولا بل كان يركب من الاسحار وينزل اذا انتصف النهار وذلك كل يوم لا تأخذه عن ذلك سنة ولا نوم فسألته في بعض الايام ونحن في اهنا مقام وقد صرت عيبة سره ومرآة قلبه وصدره عن ركوبه ونزوله وموجب تنقله وحلوله فقال ان ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان قتل أبي صبرا واورثني بذلك نكدا وضرا واوهج في فؤادي لهيبا وجمرا وقد دارت على بني أمية الدوائر وبلغني انه بالكوفة مختف حائر فانا كل يوم اركب اليه وافتش عليه لعل الله يوقعني به لاشفي قلبي بقتله من كربه فآخذ بثاري واكشف عني عاري وأطفئ لهيبي وآخذ ثار أبي قال ابن سليمان فعجبت من قضاء الرحمن وكيف ساقتني ارجلي الى شبكة مقتلي وامشاني القضاء برجلي الى من هو دائر على قتلي فاستحييت منه ومن الله وكرهت عند ذلك الحياة فسألته عن اسم أبيه لاتحقق ما يبديه وينهيه فأخبرني فعرفته وتذكرت اني أنا قتلته فقلت يا هذا وجب علي حقك وأنا غريمك ومسترقك وقد قرب الله خطاك وأنالك منالك فقال وما ذاك فقلت أنا ابراهيم الذي على طلبه تهيم وأنا قاتل أبيك فافعل بي ما يرضيك وخذ ثارك وأطفئ نارك فقال كانه طال بك الخفاء وأضر بك الاختفاء فاردت بالموت الخلاص واستندت لدعوى القصاص فقلت لا والله الذي علم السر وأخفاه بل قلت الحق وفهت بالصدق وخلاص الذمة في الاولى اخف من قصاص الاخرى واولى أنا فعلت بابيك الاذى في يوم كذا ومكان كذا بسبب كذا قال فلما علم ذلك مني وتحقق أنه

صدره في احمرت عيناه وانتفخت شفتاه وقامت عروقه ولمعت بروقه وازبدت شدوقه وأطرق الى الارض وكاذبا كل بعضه البعض وجعل يرجف ويرعد ويرأرك كالاسد ويتملل كريشة تقلبها الريح في قاع البلد واستقر على ذلك زمانا يتأمل فيما يفعله بي اساءة واحسانا الى أن سكنت رعدته وبردت همته فامنت سطوته وقهر جدى سورته ثم أقبل على ورفع رأسه الى وقال اما انت فستلقى أبى غدا فيقتص لعدتك جبار السما وأما انا فلا انتفر ذمتي ولا اضيع جواري وحرمتي ولا يصل اليك مكروه مني ولكن قم واخرج عني فلست آمن نفسى عليك ولا أقدر بعد اليوم انظر اليك ثم دفع الى ألف دينار وقال استعن بها على ما تختار فلم آخذها ولا نظرت اليها وخرجت من داره ولم أعرج عليها ولم أر أكرم من ذلك الرجل ولا أحلم ولا اعظم مكارم منه ولا اجسم وانما أوردت هذه الحكايه وقى الله مولانا الملك شر النكايه ليعلم أن الذنب الكبير يستدعى العفو الكثير ممن قدره عظيم وحسبه جسيم ونسبه كريم كما قيل في محكم الكتاب الحكيم ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم فقال الوزير ناموس السلطنة وحشمتها وهيبة الملك وحرمتها لها شروط كل منها محرر مضبوط وبالمحافظة عليه محوط ولا بد من اقامة أركانها وتشييد بنيانها ويجب الوفاء بها على الملوك والمالك ويفترض القيام بها على سلاطين الممالك والاخلال برعايتها وهن في الولايه فلا غنى عن العمل بها ورعايتها أحسن رعايه فمن ذلك أن لا يسامح جماعه ولا يغفل عنهم وعن كيدهم ساعة فساعه ولا يركن اليهم في اقامة ولا سير حيث لا يصدر عنهم للملك ولا للمملكة خير فمنهم من يعزل الانسان عن منصبه من غير وقوف لعزله عن سببه ومنهم من يوالى اعداء الملك وهو ذو اجتراء منهمك ومنهم من يراعى مصلحة نفسه ويقدمها على مصلحة مخدومه في حالتى رخائه وباسه ومنهم من يفشى سره ولا يراعى خيره وشره ومنهم من يتعرض اسقطه وغلطه لتغيير خاطره وسخطه ومنهم من ينتقص حرمته ويفتك عظمته وحشمته ومنهم ذو الطبع اللئيم المفسد في الحريم ولا شك أن أبا نوفل المهمل المغفل قد ارتكب بعض هذه الصفات وهو متلبس بأشنع الحركات وهذا يدل على لؤم اصله وشؤم محله وسوء طويته وفساد نيته ومن أكرم اللئيم فهو الملوم وهذا أمر معلوم وقد قيل

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

فقال أخو نهشل الفقير لا تقل ذلك أيها الوزير فان أبا نوفل عبد خديم ومخلص قديم وظريف نديم ومحب صديق وودود شفيق امين ثقه ذو وفاء ومقه محب ناصح وجليس صالح لم يعلم مولانا الملك عليه الا الخير ولم يزل يسير في طريق العبودية أحسن سير ولم يطلع منه على شئ يعيبه ولا يشينه في الدارين ولا يريبه بل هو ملازم لوظائف عبوديته مباشر لما يجب عليه من شرائط خدمته لم يصدر عنه ابدا غش لمخدومه ولا خروج عن امتثال أوامر مرسومه فان صدرت منه هفوة نادره أو سهوة بادره أو جفوة صادره فحلم مولانا الملك لا يقتضى بل ولا يرتضى اطراح هذه الاوصاف المتعاضده لاجل هذه الزلة الواحده كما قيل

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا * فافعاله اللاتى سررن الوف

مع انه حصل له من كسر الخاطر واحراق القلب واغراق الجفن الماطر مالا يجبره الا العواطف السلطانيه والمراحم الشريفة الملوكيه وتظرة من الحنو والعطف وذرة من الشفقة واللطف تكفيه ومن أليم الجفاء تحييه وبعد شدة الممات تحييه والافلا نعرف أحدا يجبر كسر ذلك الوهن أبدا الا الا آلاء السلطانية من يد العلو تعالى مقامها الى درجات السمو والعطف والحنو ثم عطف على الدب وقد حف رلايقاعه الجب وقال أما انا مع قلة البضاعه واحتقار مقامى بين الجماعه فقد أقمت نفسى لما وجب عليها فى مقام الشفاعه فلا اقصر فيها ولا أرجع عنها ومن يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها وأسأل صدقات مولانا أبى اللماس المساعدة فى اجازة هذا الالتماس وأن يكون شريكا لى فى احرازه هذا الجمل والوصول الى أنواع الفضل من هذا الفصل فانه يرد عنا فتنه ومن يشفع شفاعة سيئه وأرجو من وزير الممالك أن لا يقع منه مخالفة فى ذلك فان من سكن الكرم فى ربعه لا يصدر منه الا ما يليق بكرم طبعه واللئيم يتكلف بل يحسد عليه ويتأسف اذا شرع فى مكارم الاخلاق وتعاطى فيها ما لم يقسمه له مقسم الارزاق ترى وجوه محاسنها فى مكامنها تتستر منه بانقاب النشوز وأبكار خدورها فى قصورها تتراءى لعينه فى صورة شوهاء عجوز فلا يطاوعه لسانه فى طيب المقام الى طيب المقال ولا يبعثه جنانه الى مباشرة حسن الفعال فيصير كما قيل

يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقل

والناس على دين ملوكهم سالكون طريق سلوكهم وحيث كان مولانا الملك مجبولا على الشفقة الكامله والمراحم الشامله فكلما يجب على ذمتنا ويلزم دائرة همتنا أن نتخلق باخلاقه العليه ونتشبث باهداب شمائلها الرضيه ونتعاون جميعا على التزين بملابسة ملابسها البهيه ونستضىء بل نهتدى فى دياجير المعاش بدرارى افلاك صفاتها الزكيه فان العبد فيما يتعاناه مجبول من طينة مولاه وان الله جل وعلا لا يضيع أجر من احسن عملا قال فألجم الدب ذوا الساقطه بما فعله به من المغالطه ثم امسكوا عن الكلام وانتظروا ما يصدر من الضرغام فلم يبد خطابا ولا انهى جوابا سوى أن قال صلوا فى الرحال ولا تبعدوا ولا تمدوا ولا تتقصوا فى هذه القضية ولا تزيدوا حتى امعن فيها النظر واشتشير فيها مشير الفكر فيما اشار اليه الرأى وارشد الى اتباعه الهدى فيما يتعلق بحاله تقدمت الحكم بامتثاله فلما انصرفوا توجه أخو نهشل الى الحبس وذكر لاخيه ما جرى بينه وبين ذلك الضبس ثم قال أبشر بالنجاح والفلاح والصلاح فقد رأيت فى جبين الفوز نور صباح ولا شك أن الله الغفور يجرى على يدى ولسانى من الامور ما يجلب السرور ويذهب الشرور فكن اوثق صبورا وان حصل فى الطريق عقبة تعويق فلا يكن فى صدرك حرج فان وراءها باب الفرج فان الظفر مقرون بالصبر والصبر مشفوع باليسر وقد أجاد صاحب الانشاد

اصبر على ما جرى من سابق قدما * فركب الصبر بالامهال تلحقه

فشكره بجميل سعيه ثم عرض على مشير وعيه فقال كنت أرى أن هذه القضية تؤخر

ويرجى السعي في أمرها ولايذكر وسبب ذلك أن الطالع قد أدبر والحظ عن المساعدة قد تأخر وإذا تحول الشخص والسعد ساكن وتبسم الدهر والزهر بالك وطلب شكر مساعيه وهو شاك فهو كقاطع البحر بالمراكن والباقي على نجيه اماكن لا يصلح له عمل ولا يكمل له امل فيشبه اذ ذاك الحمار المعصوب العينين في المدار يقطع بالمسير زمانه ولا يفارق مكانه كذلك من يتعاطى الاعمال والسعد غير عمال فلا يستفيد الا التعويق والتبعيد ففي تلك الحال ينبغي الاهمال لا الاعمال الى ان يتوجه السعد بالاقبال فعند ذلك مد الشباك وصد السماك فان السعد آتاك والدهر واتاك (وناهيك قصة كسرى القديم) مع وزيره بزرجمهر الحكيم فسأل أخاه شبل بيان مانقل من المثل أخوه أبو نوفل فقال بلغني ان كسرى أراد التنزه فتنزل الى حديقة عنان التوجه وطلب الحكيم بزرجمهر وجلسا تحت دوحة زهر على بركة ماء أصفى من دموع العشاق وأنقى من قلوب الحكماء ثم طلب طائفة من البط لتلعب قدامه في البركة وتغطس وجعل ينادم وزيره ويتلقف منه حكمه المنيره ويتفرج على البط وهو يلعب ويتأمل في أنواع حكم الصانع القديم ويطرب وصار يعبث بالخاتم في أصبعه ويسرح في رياض الصنع سوائم منظره ومسمعه فسقط الخاتم من اصبعه وهو ساه وشاهد بزرجمهر هذا الامر فما ابداه ولا أنهاه فالتقمته بطه وغطت في الماء غطه وكان فيه فص ثمين وكسرى به من المغرمين فلما سود قلم الاقتدار بياض النهار واكحل مشقه على قرطاس الاقطار اذن كسرى للوزير بالانصراف وقد أسبغ عليه خلع الانعام والاسعاف ودخل كسرى الى الحرم وافتقد من أصبعه الخاتم فلم يتذكر ماجرى له ولا وقف على كيفية هذه الحاله فأرسل يطلب الوزير البارع وسأل منه عن خاتمه الضائع وكان الوزير قد تطرف في الطالع فرأى أن الكلام في أمر الخاتم غير نافع فلو تكلم بصورة الواقع ذبح جميع البط وما وجد لان الطالع مانع فكتم أمره وكلمه بكلام لحقيقة الحديجامع مانع ثم انصرف وذهب واستقر كسرى على الطلب ولم يزل بزرجمهر يراقب الاوقات وينظر في أحوال الساعات الى ان استقام الطالع وزال من السعد المانع وتبين الفال وحسن البال وحال الوبال فتوجه بزرجمهر الى خدمة مخدومه وأخبره بما كان مختفيا من أمر الخاتم في جيب مكتومه وانه سقط من اصبعه وهو على البركة في موضعه فبادرت بطه الى الغطه فاختطفته وابتلعته بعد ما التقمته فاحضروا البط جميعه وذبحوا من عرضه واحدة بديعه فوجدوا الخاتم في حشاها ولم تحوج الى ذبح سواها ثم سأل كسرى الحكيم الاديب لم لم يخبره بهذا الامر الغريب في أول وقوعه وصدوره وما موجب تأخيره فقال كان اذ ذاك الجد في انعكاس والسعد في انتكاس والطالع في سقوط والنجم في هبوط وأما الآن فالطالع استقام والسعد كالخادم أقام ونجم السعود قد سال عنه الهبوط والوبال وفي استقامة السعد واقباله من بعد يفعل الشخص ماشا فالدهر معه جار سواء جاري أو ماشي وانما أوردت هذا النظير لتعلم أن معاندة التقدير أمر خطير وخطب عسير فربما يفرغ الانسان جهده في المبالغه ويكون الامر فيه عالقه وحراوغه فينعكس المرام ولم يحصل سوى اضاعة ايام

ولم اذكر هذه المفاوضه الاعلى سبيل العرض لا المعارضه لما اعلم منك من وفور الفضيله وان مقاصدك على كل حال جميله فقال أخوك مثل الامر كما زعمت وأشرت به ورسمت ولكن اختشيت ان لم ابادر يسبقنى عدو غادر أو حسود ماكر أو مبغض مكابر فينم بى الى المسامع ما ليس بواقع فلم تشعر أيها البطل الا وقد ولج قلب الملك أنواع من مكر ودخل فيصير كما قيل

أتانى هواها قبل ان أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

لاسيما وقد تقرر فى الامثال عند غالب الرجال أن الدعوى لمن سبق لا لمن صدق وبالجملة يا ابا عويله اذا كانت مقاصد الشخص جميله فان الله تعالى ينجحها ولا يفضحها ويدبرها ولا يدمرها وان كان فى الظاهر وعند البادى والحاضر يظهر فى بعض القضايا نوع هم وغم لكن ذلك لسر لم يطلع عليه الا مدبر العالم واذا فوض الشخص الامور الى العزيز الغفور الذى هو مدبر الطالع والغارب وفى الحقيقة رب المشارق والمغارب وعلم أن مقاليد الامور بيد تدبيره وان ملوك الارض تحت اسير يف تقديره وتسخيره استراح فى كل المطالع وأخلص التوكل فنجاه الله من كل الوقائع وأوصله الى ما رام من المطامع (وحسبك قضية الناصح الاستاذ) الامين الدمشقى مع الخائن جاسوس بغداد وهى طويله طائله فى مجلدة كامله وأيضا لم أبادر بمفاتحة السلطان فى أمرك يا أعز الاخوان الا لئلا أنسب الى تهاون وتوان وما من شروط المروه والصداقه والاخوه ان يتخلف الفطن فى مثل هذا الموطن عن مساعدة الاصحاب ومعاونة الاحباب لاسيما صديق مثلك وحبيب متسم بفضلك وانى لا أدع من انواع الاجتهاد وما يحسن بيانى فى الاصدار والايراد شيأ الا فعلته ولا أمرا الا اقتحمته ولا فكرا الا استعملته ولو بذلت فى ذلك روحى ومالى وخيلى ورجالى ولقد صبا كرباب الملك وملازمه كأحسن من سدلك فان رأيته مكرما مقامى مصغيا الى كلامى خاطبته بما يليق وسلكت فى الشفاعة وحلو العبارة أوضح طريق وان شاهدت فى خلقه شكاسه وفى طبعه شراسه وصعوبة وشماسه سلكت سبيل حسن السياسه وفى الجمله أستعمل علم الفراسه وفى كل حكم نظيره وقياسه وأستعين بالاقرباء والاوداء واغالط المناقض والمعارض من الاعداء وأقصد النجح وأراقبه وارتقب السعد واخاطبه واعطى كل احد ما يناسبه فالعدو اقتله والحسود اختله والعذول أفتله والمحب احتله والمبغض ابتله ومن تصلب فى المدافعة امتله الى ان ينقضى هذا الامر وينطفئ منه الجمر ويقبل مبشر الاماني بالطبل والزمر ثم انه بات مفكرا وبادر الى الصباح مبكرا ولزم أبواب السلطان قبل سائر الخدم والاعوان فوجد الدب قد سبقه وجاس من عين المكر فى الحدقة وقد فوق سهم الكيد وصوبه الحشا كلة الصيد ولم يبق الا اطلاقه ليشتد من المرمى وثاقه فقبل النديم الارض واعلن سلامه وقطع على أبى جعيد كلامه وعارض ملامه وناقض مرامه وقال أدام الله أيام السعاده واعوام الحسنى وزياده المستقدمين بهاء مولانا السلطان وعمر دهره المخلد على تعاقب الزمان وأوطأ الامم مواطئ قدمه وأطاب بطيب حياته معايش عبيده وخدمه كانت المواعيد الشريفه والآراء المنيفه سبقت

بالتأمل في امر عبدها القديم وخديمها الفقير العديم وجالب سرورها أبو نوفل النديم مع ما كان لائحا وعلى صفحات الرضا واضحا من شمائل الاخلاق الملوكيه ومكارم الشيم السلطانيه أن مراحمها ستأخذ بيد العاثر وتقيل عثرته بحسن المآثر ثم بحيث يشرح الخاسر ويربح الخاسر والملوك يسأل مراحمها ويرجو مكارمها أن لا تخيب ظنه وان تجبر بتحقيق ظنه وهنه وان تجري مماليكها وعبيدها على ما عودها من الصدقات قديمها وجديدها ثم أنشد والى الرضا ارشد

أرجو أبا العباس ان يروي لنا * عن ثغره الضحاك نورا يقتبس

فاقرأ تبسم ضاحكا من قولها * مثلا لا تجري ولا تقرأ عبس

فتبسم أبو العباس ابتسامه ظهرت منها للرضا علامه فاشتعل الذيب من الغيظ وكاد يتمزق من الغيظ وعلم ان عقد أمره انفرط ونجم سعده من فلك السعد سقط وأنه لم يكتسب من مكايد التساوي الاهانات العداوه وانكشف عند مالكه ما وطأه من مغطى وقرأ كل أحد حديث ذلك الموطا وغلب عليه الوجد في الحال فخرج عن دائرة الاعتدال وسكر من خمرة العدا وتفطفح وعربد وشطح فقال كل من ستر على اعداء الملك فهو في الخيانة والجناية مشترك وكل من شفع في الجاني فهو في قيد العصيان عاني بل هو أشد من المباشر اذ هو معاشر للمتعاطي ومكاثر والابقاء على المعصية شر منها والرضا بكفر الكافر فتنة يفترعنها وما أظنك أيها النديم العارف القديم لمعرفة هذا القدر عديم فان أبيت الا الاصرار ومساعدة الفجار ومعاونة الاشرار فأنت حينئذ مستخف لهيبة ولي نعمتك مستنقص حرمة مالك رقبتك طالب لابتذاله مستهون بمقام جلاله راض بتسليط الانذال والاوغاد الارذال على انتهاك حرمته وابتكاك استار حشمته ونحن لا نرضى بهذا الندامه ولا كيد للمنافق ولا كرامه فعند ذلك استشاط الغضنفر وتأثر لكلام الوزير وتغير وزأر وهمر وزفر زفرة وزمجر وكاد ان يثب على ابي جعفر ثم انه تماسك وتناسى الغدر وتناسك وقال يا أبا سلمه كبرت كلمة غيبة الاصحاب والنميمة بين الاحباب وساءت حركه وبئست ملكه تناسي الحقوق وتناسي العقوق واطراح جانب الصديق الصدوق والرفيق الشفوق واضاعة خدمة الخديم لاسيما النديم القديم ولم تزل الاصاغر تستقطر مراحم الرؤساء والاكابر ولم تبرح الملوك تعطف على مساكينها المملوك انسيت ما قلت لك في حقيقة من ملك وهو

ليس المليك الذي تشقى رعيته * وانما الملك مولى يحفظ الخدما

وأيضا لم تزل الاصحاب تساعد أصحابها وتستعطف عليها ملوكها وأربابها وترتع بحسن السفارة من ستائر الدهشة حجابها ويثبتون بذلك الاجر العظيم والثواب الجسيم والثناء العاجل والجزاء الآجل في صحائف مخاديمهم ويعدون ذلك ابدع معاليهم ويبذلون في ذلك الجهد ويبلغون فيه غاية الكد وذلك مما يجب عليهم ويتقدم بالمحافظة عليه اليهم كما قيل

يستعطفون الاكابر * ويستعبدون الاصاغر

يحيون بهم الاوائل * يعلون الاواخر

واى فائدة واستفاده أيها الوزير أبا قتاده فى رعية ملك لا تتفق قلوبهم ولا تستر بينهم عيوبهم ولا تطهر بالصفاء جيوبهم ولا تتجافى عن مضاجع الجفاء جنوبهم ولا يتساوى فى الوفاء حضورهم وغيوبهم تراهم فى الغيبة يقت بعضهم بعضا قتنا ويرعون لحومهم قتا كبهائم لاقت فى مرعاها قتا وفى الحضور تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ثم ان كان أخو نهشل ساعد اخاه ابا نوفل فذاك شئ يجب عليه ويندب اليه فانه صاحبه القديم وجليسه القويم وان تخلى عنه فماذا يرجى منه وجبر النوائب هو محك الاصحاب وجبر المصائب يظهر من تبر الصداقة اللباب وقد قام فى هذه النوائب بعدة اشياء كلها عليه واجب اولها القيام بحق اخيه والسعى فى خلاصه من هذا الامر الكريه ثانيها ساق الى صحائفى الحسنات وقصد لى رفع الدرجات ثالثها طلب رضا خاطرى وما يشرح صدرى ويسر سرائرى رابعها مباعدتى عن الآثام وخلاصى ذمتى من الوقوع فى الحرام فرعايتى على العفو والحلق الشرود على التعدى فى الحدود خامسها انه راعى بالفضل وعدم المؤاخذة بالعدل فيشيع فى الآفاق عنى مكارم الاخلاق سادسها انتشار صيتى بحسن الوفاء والقيام بحقوق الاخوان وعدم الجفاء سابعها انه غرس فى قلوب الاماثل محبته وزرع فى أرواح الافاضل مودته وان كان صدر من أبى نوفل ما صدر فانه اعترف بالذنب وعنه اعتذر فنعمل معه بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر كما قيل

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان بر عندك فيما قال او فجرا

فقد اطاعك من ارضاك ظاهره * وقد اجلك من يعصيك مستترا

ولو بلغت هذه الحكايه غاية الشرور نهاية النكايه ماتدانى واقعة الملك الصافح عن عدوه المؤذى المسافح فقبل الدب الارض وقام فى مقام العرض وسأل الملك بيانها ليعلم بحسن التصريف فرزانها ويقيس عليها اوزانها فقال ذكر ان بعض السلاطين تصدى له عدو من الشياطين يحرض عليه الاعادى ويفسد عليه الحاضر والبادى ويجتهد فى اقامته ومسيره فى ازالة الملك عن سريره ويغرى به العساكر فيقابله ظاهرا بالنواكر وباطنا بالمواكر وما فسد منه ما فسد الابدواعى الحقد والحسد فجعل الملك يسترضيه بالهبات فلا يرضى ويستدنيه بالصلات فلا تزيده صلاته الا بعدا ونقضا كما قيل

الى كم يدارى القلب حاسد نعمة * اذا كان لا يرضيه الا زوالها

فاضطر الملك من أموره واشتغل لايقاعه بنذوره وجعل ينصب له شرك الوقائع ويجتهد فى ايقاعه بكل دان وشاسع وذلك الباغى أحذر من الغراب وأسهر من طالع الكلاب والملك لا يقر له قرار ولا يطيب له عيش لا بالليل ولا بالنهار فكان من أحسن الاتفاق ان علق ذلك الباغى ببعض الاوهاق فحمل الى حضرة الملك وهو فى قيد البلاء مشتبك فلما رآه فى قيد النكد بادر الى الارض فسجد وقال الحمد لله المغيث حيث أمكن منك اى خبيث أترى هذا فى المنام فهو أضغاث أحلام ام سمح الزمان بأهل العدوان وانا يقظان ثم شرع فى السب والتصديع والتوبيخ والتقريع واقسم بفالق الاصباح وخالق الارواح ورازق الاشباح ليفعلن بذلك النباح من النكال والجراح ما فعل المصطفى عليه السلام مع سراق

القاح وليذيقنه كأس البأس وليجرعه من خمر المنية أمر كأس ثم امر الجلاد ان يأتيه بما هو من النطع والسيف والعتاد فعلم ذلك الزنديق انه وقع فى الضيق وانه لا ينجيه أخ ولا صديق ولا افتداء بشقيق ولا حميم وشفيق فضلا عن مال ومنال أو خيل ورجال فلما غسل يده من العيش استهوته الخفة والطيش فشرع فى السباب ودخل فى الشتم من كل باب ورفع بفاحش الكلام الصوت وقال ما بعد الموت موت فسأل الملك أحد الوزراء ماذا يقول من الافتراء هذا الظالم المجترى الباغى المفترى فقال يدعو بدوام البقاء ورفعة مولانا الملك والارتقاء ويقول ما أحسن العفو عند المقدره واللطف والكرم ايام الميسره وان لم يكن ثم مجال للمعذره ولو جعل العفو شكر المقدرة لكان أولى واعلى مقاما فى مكارم الشيم واحلى كما قيل

ما أحسن العفو من القادر * لاسيما لغير ذى ناصر

ويترحم على أسلاف مولانا السلطان الذين كان شيمهم العفو عن ذوى العصيان وكان ذلك منتهى لذتهم وغاية أمنيتهم وما اجدر مولانا الملك ان يحيى مكارم سلفه ويجعل العفو كلمة باقية فى خلفه ولا زال يقول من هذا المقول حتى لان له القلب القاسى ورق له قلب الملك الجاسى فأمر باطلاقه ومن عليه باعتاقه وكان احد الوزراء واركان الامراء شخص يعاكس هذا الوزير ويناقضه فيما يراه ويشير وبينهما مرت أسباب عداوه احلى فى مذاق طبعيهما من الشهد والحلاوه كل مترصد للآخر زلة متوقع لايقاعه فى شبكة البلاء غفلة فحين رأى شقة الحال نسجت على هذا المنوال وجد فرصة للمقال فتقدم وقال ما أحسن الصدق واين كلام الحق خصوصا فى حضرة المخدوم وهذا أمر معلوم عدو مبين وحسود مهين لم يترك من أنواع العداوة شيأ الا تعاطاه ولا من الافساد والشر صنفا الا حياه قد أهلك الحرث والنسل وبدل جنتى الصلاح من الفساد بخمط وأثل الى أن امكن الله تعالى منه وحان تفريغ الخواطر الشريفة عنه ثم انه فى مثل هذا المقام بين الخواص والعوام يثلب الاعراض من الامراض ويجهر بالسوء من القول ويصرف فى الخنا والسب ماله من قوة وحول كيف يحل السكوت عن جرائمه وتغطية مساويه وعظائمه فضلا عن ان تجلى سيأته فى خلع الحسنات وتحلى شوهاء سواخط أدعيته بملابس أحسن الدعوات ومع هذا يطلب له التوقع والخلاص والاطلاق من شرك الاقتناص وهو على ما هو عليه من الاساءة المنسوبة اليه اما والله يا مولانا الهمام وسلطان الانام ما قال الا كذا وكذا من قبيح الكلام وتناول العرض المصون بالسب والدعاء والملام فتغير خاطر الملك وتعكر وتشوش صافى خاطره وتكدر ثم قال أيها الوزير ذو الصدق فى التحرير والله وحقك ان كذب هذا الوزير عندى خير من صدقك فانه بكذبه أرضانى والى طريق الحق هدانى وأصفى خاطرى من الكدر وأطفأ ما كان تلهب فى غيظى من شرر ونجانى من دم كنت أريقه ولا يهتدى الى كيفية استصلاح طريقه فأصلح بذلك ذات البين وأصار المتعادين أحسن محبين وخلد ذكرى بجميل الصفات وسلك بى طريقة اجدادى الرفات واما أنت فكدرت عيشى وأثرت غضبى وطيشى واسمعتنى الكلام المر وقدمت منك الضر واما أنا فقد أعتقت هذا

واطاقته فلا ارجع فى ايذائه وقد اعتقته وقد ثبت لهذا الوزير على حقوق لا ينكرها الا ذو عقوق ولا تسعها الاوراق والرقوق فكذبه عندى خير من صدقك وباطله أحلى على قلبى من حقك ولهذا قال ذو الافضال ما كل ما يعلم يقال وانما أوردت هذا الكلام يا كرام لتعلموا ان السلطان بمنزلة الامام واركانه له تبع فى القعود والقيام ولا يتم الائتمام الا بالاتفاق بين الرفاق فاذا كان الجماعة مجمعين طائعين لامامهم مستمعين استقام القيام وانتهوا من جميل التحيات الى السلام ولا يقع لهم انتظام مع مخالفتهم لحال الامام هذا قائم وهذا قاعد وهذا راكع وهذا ساجد وهذا نائم وهذا جاهد وأيضا السلطان بمنزلة القلب والراس وبمنزلة الاعضاء رؤساء الناس وباقى الرعية خدم للرأس والاعضاء منتظرين لما تبرزه المراسيم من الزجر والامضاء فاذا اتفقت الاعضاء واصطلحت انتظمت أمور كل من الرأس والرعية وانصلحت واذا وقع اختلاف وتباين فى الاعضا صار كل من الرأس والقلب والرعية مرضى ولقد صدق من قال صلى الله عليه وسلم وارضى المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وخلاصة هذا الكلام أين قصدى ان تكون احوال رعيتى على النظام لا يقع بينهم شقاق ولا تنافر ولا نفاق وأما ابو نوفل فيكفيه جفاوه وخجلته فقد انتهت وتمت عقوبته واخذ حده حقه ولا يليق بكرمى أن أرده وهذا الذى ورثته عن أسلافى وهو الخلق اللائق بمحاسن شيمى وأوصافى فلما سمع الوزير هذا الكلام وجرح فؤاده نصل هذا الملام ندم غاية الندم وعلم انه قد زلت به القدم وانه لا حاجته قضى ولا على صديقه أبقى ولم يستفد مما ابداه من نجم سوى اظهار معاداة أبى النجم وانه اذا تخلص من حبسه وكربه ورجع عند الملك الى منادمته وقربه لا بد أن يتصدى لمعاداته وسلبه ولا ينفعه بعد ذلك افعاله ولا يسمع فى أبى نوفل أقواله فانصرف من عند الملك الطيشار لا يدرى أين يضع قدمه من الافتكار حتى وصل الى منزله واختلى فى فكره بعمله وفرع للتخلص من هذه الورطة طرقا وتفرقت رواد افكاره فى منازل الخلاص فرقا فأدى مصيب الرواد من الآرا ومفيد القصاد من الشورى الى السعى فى مصالحة أبى نوفل وازالة ما وقع من الغبار فى وجوه الصداقة وتخال ثم أدى افتكاره واورى من زند رأيه شراره الى ان الذى وقع منه قد اشتهر وعلم به أصحاب البدو والحضر فاذا طلب من بعده الصلح فذلك فى غاية القبح اذ كل من فى حجره حجز يتحقق ان ذلك خور وعجز فصار يتردد بين هذه الافكار ويتأمل ما فيها من تحقيق الانظار وتدقيق الاسرار فبينما هو فى بحر الافتكار يلطمه الموج ويصدمه التيار دخل عليه صفى له صافى الوداد وهو ظبى أغر يدعى مبارك الميلاد ذكى الجنان فصيح اللسان دقيق النظر عميق الفكر ذو رأى صواب وشفقة كاملة على الاصحاب فرآه مطرقا الى الارض فى فكر ذى طول وعرض فسلم عليه وتقدم بالسؤال اليه عن تشوش باله وتوزع حاله فطلب الوقوف على ما ناله لينظر عاقبة أمره وما له فاخبره بموجب ذلك وانه قد سدت فى وجهه المسالك فقال مبارك الميلاد يا صحيح الوداد أنت قد زعمت أن مولانا السلطان قد ترك ابا نوفل الندمان وطرحه اطراح الارجوحة فيه وانه بعد اليوم لا يذكره ولا يدنيه وان عثرته لا تقال وغصته لا تزول وقصته لا تزال هيهات هيهات

يا ابا الترهات الملوك ان لم يعرفوا حقوق خدمهم ولم يثبتوا في ديوان احسانهم قدم قدمهم خصوصا هذا الملك العظيم الذي انفاس شيمه تحيي العظام الرميم ونحن قد زجينا عمرنا في خدمه وأذاقنا برد عفوه وحلاوة كرمه وغذاء أرواحنا انما هو غوادي حلمه وروائح نعمه مع ان أبا نوفل لم يقع في محذور معضل يوجب تنافي ذممه وابتذال حرمته وحرمه وانه استغفر وأناب واعتذر وتاب واعلم ايها الوزير الاكرم ان ذوي النهى والحجر اذا أرادوا الشروع في امر تأملوا في مبداه غايته ومنتهاه وهذا التقرير كالجلوس المقصود من عمل السرير فانما تنبعث لصنعته النفوس اذا علمت بحصول الرفعة عليه من الجلوس كما قيل

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارده ضاقت عليك مصادره

اما بلغك يا اخي واكرم حظي حكاية التاجر البلخي قال الوزير اخبرني بكيفية هذا التنظير قال مبارك الميلاد بلغني من احد العباد الذين طافوا البلاد انه كان في مدينة بلخ تاجر كثير العروض والمتاجر عريض المال والجاه غزير الضياع والمياه تكاثر نقوده الرمال وتباهي خزائنه معادن الجبال وتفاخر جواهره درر البحار وتسامي بضاعته تلال القفار تراجع عنه الحظ وعامله الزمان بعادة طبعه الفظ وأدبرت عنه من الدنيا القوابل وتزلت بساحة موجوده بالاعدام النوازل وولت وفود معايشه فكادت تقده السلاسل فصار كلما عامل معاملة انعكست عليه حتى نفد جميع ما بين يديه فلم ير لنفسه اوفق من التغرب عن وطنه والاقامة في سكن غير سكنه فأخذ بعضا من المال وخرج من بلاد الشرق الى بلاد الشمال وداوم في الارض على الضرب حتى انتهى الى بلاد الغرب فأقام بها دهرا يتعاطى معاملة وتجرا الى ان زاد ماله وأثرى ورجع اليه بعد ما ذهب من يديه ثم اشتاق الى بلده ورؤية زوجته وولده فتجهز اليها وسار حتى نزل عليها وأراد الدخول الى داره فأوقفه مشير افتكاره الى اعمال النظر في حادث القضاء والقدر وأنشده الزمان بلسان البيان

للكون دائرة من قبلنا صنعت * لا بي تضيق ولا من أجلك اتسعت
والسر في جيب غيب الله مكتتم * فلست تدري يد التقدير ما صنعت

فرأى ان يدخل عشيا متنكرا مختفيا ويتوصل الى داره ويتجسس أحوال كباره وصغاره وما حدث عليهم من الحوادث وتقلبات الزمان العائث فتوجه لما اظلم الى داره وهو يترنم

بالله قل لي خبرك * فلي زمان لم أرك

الى أن وصل الى الباب وما عليه حاجب ولا بواب فرأى الباب مقفلا والقنديل عليه مسبلا وكان يعرف للسطوح دربا خفيا فاستطرق منه وارتفع مكانا عليا واشرف من الكوة فرأى ربة البيت المرجوة فوق سرير الامان معانقة فتى من الفتيان كانهما لفرط العناق كانا ميتين من الم الاشتياق فمنعهما قيامة التلاق فتلازما والتفت الساق بالساق ولسان حال كل منهما يروي عنهما

عانقت محبوب قلبي حين واصلني * كأنني حرف لام عانقت ألفا

فتبادر الى وهله لغيبوبة عقله أن ذلك الشاب الظريف معاشر حريف افسد زوجته مغتنما غيبته وانه في تلك الليله استعمل قوله

لا تلق الا بليل من تواصله * فالشمس نمامة والليل قواد

فسل السكين وقصد قتل ذلك المسكين وصمم على النزول الى البيت وإثارة الفتن بكيت وكيت ثم استتاب وهله واستراب عقله وأخذ يتفكر و يتأمل ويتدبر واستحضر أحوال قرينته وانها في العفة مجبولة من طينته وانه لم يطلع عليها الا الخير وعدم ميلها عن حلالها الى الغير فطلب قبل الفضيحه لزوجته طريقة مندوحه طريقة ممدوحه فان مدة غيبته طالت وزوجته ان كانت حالتها حالت فلا بد أولا من الوقوف عليها كيف استحالت ثم كف عن الذبح ونزل عن السطح وقصد جارة داره ودارة جاره وطرق بابها واستنبح كلابها فخرجت اليه عجوز كانت الى الدار تجوز فسألت من هو وما مراده ومن أين اصداره وايراده فقال اني رجل غريب ليس لي بهذه البلدة خليل ولا قريب وبلادي أرض مكة كنت أتردد الى هذه السكة واعامل التجار وكان لي في هذه المحلة مجير وجار من التجار الكبار كنت آوي اليه وأنزل في قدومي عليه اسمه فلان وقد مر علينا زمان وعاقني عنه نوائب الحدثان والآن قدمت الى هذا المكان وقد قصدت داره ولا أدري أي جار عاره ولم أعرف له خبرا ولا رأيت له عينا ولا اثر فهل تعرفين كيف حاله والى ماذا آل ماله فقالت نعم زالت عنه النعم والجأته الحال الى الترحال فرحل منذ سنين وكان في جواره من الآمنين وانقطع عنا خبره وعن زوجته عينه واثره وطال عليها انتظاره فدعتها الضرورة والاعدام الى عرض حالها على الحكام فأذن لها قاضي بلخ في ابطال نكاحها بالفسخ ففسخت نكاحها واعتدت وطلبت نصيبها واستبدت ولقد أوحشنا فراقه وآلمنا اشتياقه غير أن زوجته قامت مقامه وافاضت علينا احسانه وانعامه وهي متشوقة الى رؤيته متشوفة الى مطالع طلعته متلهفة على أيام وصاله متأسفة على ترشف زلاله فلما وقف على صورة الحال سجد شكرا لله ذي الجلال وحمد الله على الثبات في مثل هذه النائبات وانما أوردت هذا المثال لتعلم فضيلة التأمل في المآل والتفكر في عواقب الاحوال قال الدب دعنا من هذا الكلام والاخذ في الملام وأسعدني في التدارك فانك نعم المشارك قبل انفلات العنان وانقلاب الزمان وخروج زمام التلافي من أنامل الامكان واشتغال حل عقدته من اللسان والبنان الى الاسنان فقال مبارك الميلاد الرأي عندي بالاتقاد المبادرة الى الصلح والاصلاح ليحصل النجح والفلاح والأخذ في المصافاه وسلوك طريق الموافاه والعمل به باطنا وظاهرا والاستمرار عليه أولا وآخرا ومحو آثار العداوه وتناسي أسباب الجفا والقساوه واستئناف المودة الصافيه والمحبة الوافيه وصرف القلب نحو دروس فقه الحلة الشافيه والكافيه حتى يقول من رأى وسمع الحمد لله آلت العاقبة الى العافيه ثم اعلم انه لا يصفو لك صاحب وخاطرك عليه بالتكدر مصاحب ولا يخلص لك صديق ولئن خلوص محبتك اياه مذيق وقاطع بغضك في الطريق وشوك حقدك راكب

التعويق والقلوب في المحبة تجازى ان حقيقة فحقيقة وان مجازا فمجازا وكل شئ بمقدار وميزان وكما تدين تدان وقلما تجد من تحبه و يبغضك وتربه و يرفضك وتصفوله و يتكدر ولا تتغير عليه و يتغير ودونك ياذا الكرامات ما قال صاحب المقامات

وكات للخل كما كال لى * على وفاء الكيل أو بخسه

وقال من أحسن المقال

والعين تعرف من عينى محدثها * ان كان من حزبها أو من اعاديها

وأنا ما اقول هذا الكلام الا من قول خير الانام عليه أفضل التحيات واكمل السلام الارواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وانما يقع التعارف من الجهتين والتناكر من الطرفين ولا تغالط نفسك وتكابر حسك أن يحبك من تكرهه و يزينك من تشوهه ويقربك من تقصيه و يقبلك من ترميه و يرفعك من تضعه و يأخذ بيدك من تدفعه كما قيل في الاقاويل

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * ما لم يروا عنده آثار احسان

واعلم ان غالب الاخوان في هذا الزمان مسلوب الانسانية وان كان في زى الانسان من أحسنت اليه أساء ومن ترفقت له قسا ومن نفعته ضرك ومن أمنته غرك ومن سكنت اوامه بزلال فضلك حرك وقد أجاد صاحب الانشاد

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا * ولا بينه ود ولا تتعارف

فما سامنا خسفا ولا شفنا اذى * من الناس الا من نود ونالف

واذا كان هذا فيمن تحسن اليه وتسبغ ملابس افضالك عليه فكيف يكون حال من تضمر له اشكال وتتمنى وقوعه في شرك العقال أنى تراه بصفو لك ويتقاضى سؤلك ومأمولك وهو مترقب غيلة غولك متوقع منك أن يصير مقتولك فاذا عسى ان تبلغ منه سؤالك ومسؤلك أو ترى من محبته ومودته مأمولك ومحصولك وانما أوردت هذه المقامات وان كانت من فضلات علمك ورشحات قلمك أننا متقدمات الا لنتعاطى أسباب الصلح أولا في نفسك ثم تستعمل الوسايط فيه من أبناء جنسك فيفتح المقصود و يصفو الورد والمورود كما قيل

فان القلوب مرائى الصفات * كما السيف مرآة وجه الذوات

قال الدب انا ألقى الزمام في هذا المقام لنيل هذا المرام الى يد تدبيرك وأكتفى في رعى رياضه برائد رأيك وتقديرك فان فكرك مجيب وسهم رأيك مصيب فافعل ما تختار وأذقنا من رائق رأيك المشتار فقال تقسم أولا باللطيف الخبير انك صفيت الضمير من الغش والتكدير وكرعت من وارد الصفاء الزلال النمير ونفضت يد المحبة والاخاء من علاقات البغضاء والشحناء حتى يجيب دعي ولا يخيب سعيى وأبذل مجهودى في نيل مقصودى وابنى على اساس واسلك مع الناس مسلك الناس فبادر بالا يمين الى اليمين واشهد عليه الكرام الكاتبين أنه صقل مرآة محبته عن صدا المداهنة وجلا طريق مودته من غبار المباينة وانه يكتفى من غدير الغدر بما جرى ويطوى حديث الشحناء فلا سمع الواشى بذلك ولا درى فليبذل مبارك الميلاد جهده في السعى في اصلاح الفساد وعقدا على ذلك العهد وتوجه مبارك الميلاد من

بعد وقصد منزل أخي نهشل فرآه في نار همومه في مشعل وقد غرق في بحر الافكار هائما لا يقر له قرار فسلم عليه وتقدم بالسؤال عن حاله اليه وآنسه بالمحادثه وذكر له الدهر وحوادثه وتذاكرا ما وقع من الدب وكيف أظهر نواقض الحب وبارز بالعداوه وأبرز بأدنى حركة موجبات القساوه ثم أخذ أخو نهشل في العتاب وفتح لمبارك الميلاد من جهة صاحبه وعتابه الباب فاعترف عن صاحبه بان الظلم في جانبه وانه كان حصل له من الوهم الكاذب ما أورثه الوقيعة في جانب الصاحب وانه ندم على ذلك واعترف بأن فعله سالك ولم يسعه الا الاعتذار وجبر ما وقع لأبي نوفل من الانكسار بالسعي في مساعدته والقيام معه في جماعته والتوجه الى حضرة المخدوم والتلافي بمرهم التصافي ما سبق من جراحات الكلام والكلوم ثم اذا حصل من الخواطر الشريفة الاغضا واغترف رياض العفو لجاني الندم فواكه الرضا يستأنف سوق المحبة عقود المبايعه ويروج تاجر الصداقة على مشتري الحشمة في مظان رغباتهم بضائعه الى أن يتزايد الوداد ويتأكد بين الجميع عالم الاتحاد فانهض يا رئيس الاصحاب وانيس الاحباب

فالعمر أقصر مدة * من أن يدنس بالعتاب

ثم نهضا جميعا واتيا ابا نوفل سريعا فوجداه في احرج مكان واوحش زمان محفوفا بالاحزان مكنوفا بالاشجان وما حال من جفاه أحباه واقصاه مولاه وصار وهو جان غريمه السلطان فلما سلما عليه وجلسا اليه واعتذر مبارك الميلاد بعد اظهار تباشير الوداد أن موجب تقصيره في السؤال عنه وتأخيره ان قلبه الوامق وطرفه الوادق لم يطاوعا على رؤيته في تلك الحال ولا سمحت قدمه بالتقدم اليه وهو مشغول البال ثم تفاوضا في أسباب الصلح وقصدا أبواب النجح فتجاذبوا أطراف الطرائف وتفكهوا على موائد التحف واللطائف وما زالوا يفصمون خلع الوفاق ويمزقون شقق الشقاق الى أن انعقدت اهداب المحبة والوداد وانحلت عقود الحقود والكياد وتحقق كل أحد من كبير وصغير ومأمور وأمير وجليل وحقير بحصول خالص المودة بين النديم والوزير

ولما أن تراءى الفجر يحكي * جبين الحب أو رأى اللبيب

توجه الوزير ومبارك الميلاد واخو نهشل ورؤوس الاجناد مع سائر الامراء والوزراء والاعيان والكبراء حتى انتهوا الى السدة العليه والحضرة الملكية السلطانيه فقبلوا أرض الطاعه ووقفوا في مواقف الشفاعه ونشروا من الدعاء والثناء ما يليق بجناب الملوك والعظماء وذكروا النديم ابا نوفل بما يستعطف به الخاطر المفضل حتى عطفت عليه مراحمه وانجمت من جريدة الانتقام جرائمه وسمح باحضاره لديه ليسبل ذيل الكرم والعفو عليه ثم يشمله ثوب الرضا وخلع العفو عما مضى فاسرع نحوه البشير بما اتفق من الجماعة مع الوزير ثم وصل القاصد وهو له مراصد فتوجه منشرح البال منبسط الآمال حتى دخل على حضرة ذي الدولة والاقبال وقبل الجدار وقعد في موقف الخجالة لا يرفع طرفا ولا ينطق حرفا فرسم بالتشريف والخلع ليرفع عنه التخويف والهلع فتضاعفت الادعية الصالحه والاثنية الفائحه

بغداديه من ذكره قد تمسكت * بطيب ثنا يحيى الزمان روائحه

وأقيت حرمته واستمرت عليه وظيفته ثم ان الملك انتقل من المجلس العام الى مجلس خاص
واجتمع بالخواص وعم الخطاب لكل ناس ومحدث وقاص فقال ليعلم الوزير والنائب
والامير والحاجب والصديق والصاحب والجندى والكاتب والمباشر والحاسب
والراجل والراكب والآتى والذاهب وليبلغ الشاهد الغائب ان مقتضى الرياسه فى
الشرع والسياسه على ماقرره حكماء الملوك وسلكوا بعباد الله تعالى أحسن السلوك ان
كل واحد من الغنى والصعلوك لا سيما من له من الامر شئ أو نوع مباشرة على ميت أو حى
له مقام معين لا يتعداه ومكان مبين لا يتعداه قال الحى القيوم ذو الملك الدائم حكاية عن
متصرف فى ملك الدوام ومامنا الا له مقام معلوم وعلى هذا جرت سنته وورد كلامه وعلت
كلمته وبه أمر الشرع والانسان مدنى بالطبع فالواجب على كل من اقامه الله فى
خدمة ملك ولاه أو سلطان علاه أن يلازم مقامه ويلاحظ فى صف جماعته امامه ويراقب
مايصدر عنه فقد قيل اياك ومايعتذر منه فاذا رام أن يتكلم بكلام بحضرة الامام
أو بحضور أحد من الخواص والعوام يسبر كلامه أولا بمسبار التفكر ويعيره بمعيار التأمل
والتبصر ثم يسبكه فى بوتقة الفصاحه ويسكبه فى قالب الملاحه ويصوغه بآلات حسن
الانسجام ويرصعه بجواهر مقتضى المقام فاذا صيغ على هذه الصياغه وقعدت على صورة
سبكه نقوش البلاغه واخرج له غواص الفكر من بحر المعانى والبيان فرائد افكار لم تظفر
بها اصداف الآذان وخرائد ابكار لم تفترعها فحول الاذهان ازدانت بها من حور جنان
الجنان ومقصورات خيام الدهور والازمان آنسات لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان
فاختلب بهاته القلوب والارواح واستلب برواته الاموال والاشباح واستمال الخواطر
وسحب الايادى المواطر وصار الدهر من بعض رواته واشناف مايرويه عنه معلقة
بآذان نباته وان وقع والعياذ بالله منه مايورث الندم والحزن وأخرج سهم الكلام من
قوس العجلة لا كال ولا اتزن حصل فى موقى ظاهره وباطنه الغبن والغبن وأصابه ما اصاب
نديم فغفور الختن فنهض الجماعة والارض قبلوا وعن كيفية هذا الخبر سالوا فقال الملك ذكر
المخبرون والخبر المذكرون انه فى قديم الزمن كان عند فغفور الختن ندمان كامل المعانى فى
البيان ذونه مقبوليه وصورة جميله وفضائل فضيله مبرز فى العلم كامل المودة والحلم
محبوب الصوره مشكور السيره طاهر السريره ثقيل الراس خفيف الروح والحواس
قد جال وجاب وبلا الاعداء والاصحاب وترشح لمنادمة الملوك والامراء ومجالسة
السلاطين والوزراء وهو خصيص بملك الختن والصين مقبول عند الملوك والسلاطين اتفق
له فى بعض الليالى انه كان عند جناب ملكه العالى وعنده جماعة من العلماء وطائفة من
الاخصاء والندماء وهم يتعاطون كؤس اللطائف ويتواطون على مافى الدنيا من طرف
وطرائف ويتذكرون عجائب الاقطار ويشنفون المسامع بخصائص الامصار فقال
النديم رأيت فى بعض الاقاليم من الاراضى الحاميه والبلاد القاصيه حيوانا كبيرا
سريع السير مترددا شكله بين شكلى الجمل والطير يضرب به فى الدبدبة المثل فيتعاطى

التمال

التعلل فى الكسل ان قيل له احمل يقول انا طير وان قيل له طر يقول أنا جمل وذكر أن اسمه النعام وسائر أوصافه واعضائه على التمام فتعجب الحاضرون من هذه الصفات والاشكال البديعة والهيآت ثم قال وأعجب من هذه الصفات أن هذه الدابة تأكل الجمرات وتلتقط الحصيات وتختطف الحديدة المحماة من النار تزدردها ولا يتألم لذلك فمها ولا جسدها وتذيب كل ذلك معدتها ولا يتأثر به لسانها ولا ترقوتها فانكر بعض الحاضرين هذا المقال لكونه لم يشاهد هذه الاحوال ولا رأى ولا سمع خبر طير يأكل النار ويبلع الاحجار ونسبوه الى الخارقة فى الاخبار فتصدى لاثبات ما يقول بطريق المنقول والمعقول فلم يسعف كلامه القبول على ما ألفته منهم العقول لان الحيوانات بل وسائر الجمادات اذا اتصلت بها النار محت منها الآثار وهذا طير من الاطيار من لحم ودم فكيف لا تحرقه النار فاتفق الجمهور على تكذيب هذه الاخبار وقالوا المثل المشهور انما هو موضوع على لسان الطيور فيمن تردد بين الامور فيقال هذا الفقير كالنعامة لا يحمل ولا يطير ومثل هذا المضرب ياشيخ المشرق والمغرب قولهم طارت به عنقاء مغرب فقال النديم الفاضل الحكيم أنا رأيت هذا بالعين فلم يزدهم الا تأكيد المين وقالوا قد غلطت ولزمت الغلط فوقع من أعينهم بهذا الكلام اذ قالوا هذا كذب وسقط فحصل لذلك النديم من الخجالة والندم أمر عظيم واستمر فى حصر حتى منعه السلطان من الدخول الى القصر وصار بين الاصحاب يشار اليه بيا كذاب فلم يسع ذلك الاستاذ الا السفر من تلك البلاد والتوجه الى العراق وبغداد وأخذ من طير النعام عدة واستعمل عليها رجالا مستعدة ونقلها الى الصين فى عدة سنين تارة فى البحر وأخرى فى البر وقاسى أنواعا من البؤس والضر وتكلف جملا من الاموال وتحمل مع المشاق منن الرجال فما انتهى به السير الا وقد مات غالب تلك الطير فوصل الى حضرة ملك الخطا واشتهر فى المملكة أن النديم الفلانى أتى فاجتمع الناس لينظروا وأمر الملك الخاص والعام فحضروا واحضروا النعام فى ذلك المحفل العام وطرح لها الحديد المحمى فخطفته والجمر والحصا فالتقفته فتعجب الناس لذلك وسبحوا الله مالك الممالك وعلم الصغار والكبار انه يخلق ما يشاء ويختار فشمله الملك بمزيد الانعام واعتذروا اليه عما مضى من ملام وزادت رفعته ونفذت كلمته اذ قد اثبت مدعاه وحقق بشاهد الحس معنى ما ادعاه ففى بعض الاوقات تذاكروا ما فات وانجر بهم الكلام الى ما مر من حديث النعام فقال النديم أيها الملك الكريم انى تكلفت على هذه الاطيار كذا وكذا ألف دينار وقاسيت من المشقة فى الاسفار وعاينت من شدائد الاخطار ما لا تقاسيه عبدان النار واستمررت فى هذا العذاب الاليم المهين وفى سجن المشاق بضع سنين حتى بلغت تحقيق مرامى وتصديق كلامى ولولا عناية مولانا السلطان لما ساعدنى على مقصودى الزمان ولما زال عنى اسم الكذاب الى يوم الحساب فتبسم السلطان وقال لقد أتيت بمحاسن وما قصرت ولكن كلمة يحتاج فى اثبات تصديقها والخروج من عهدة تحقيقها الى صرف المال الجزيل وتجشم مشقة السفر العريض الطويل وتحمل منن الرجال وركوب الاخطار والاهوال وازعاج الروح والبدن واضاعة جانب كبير من العمر والزمن لاى معنى يتفوه

به العاقل ولماذا ينطق بها مستمع او ناقل وانما أوردت هذا المقول ليعلم أرباب المعقول من جلساء الملوك والعظماء ورؤساء الامراء والزعماء خصوصا خواص القدماء وعوام الندماء ان شيأ يحتاج فيه الى تعب النفس وقيد ونكال وحبس ثم استعمال من جماعه واصحاب يتقدمون الى الشفاعه لا ينبغي للعاقل أن يحوم حوله ولا يعقد أبدا عليه قوله فتقدم مبارك الميلاد ويذل في اداء وظائف الدعاء الاجتهاد وقال انما كان عاقبة هذا الامر واطفاء نائرة هذا الجمر واداؤه الى انتظام عقود السعد واشتماله على جمع الخواطر من بعد يمن الخواطر الشريفه وشرف ملاحظتها المنيفه وتوجه مساعدتها لخدمها وشمول عواطفها على عبيدها وحشمها واقبال طالعها السعيد ولولا ذلك لما انتظم لنا شمل أيها العبيد فالمنة في هذا كله للصدقات الشريفة والجميل لعواطف مننها المنيفه ونظير هذا الشان ما جرى للخارج على الملك انوشروان فسأل الملك المطاع عن هذا المضاع فقال ذكر أهل التاريخ يا عالي الشماريخ ان كسرى انوشروان جاهره أحد الملوك بالعصيان وانتدب لحاربته طائفة من الاعوان فتوجه كسرى اليه ووثب وثوب الاسد الضاري عليه ورأى التواني في أمره والتأخير من جملة الاخلال والتقصير فقابله قاتلا وقاتله قاتلا

اذا استصغرت أدنى من تعادى * ع الك من يد وندى وطاقه
فما استصغرت ان اهملت الا * أمورك وهو ذاعين الحماقه

فلما توافقا واصطدما وتثاقفا انكسر ذو الطغيان وانتصر انوشروان وقبض على العدو وحصل الامان والهدو وقص طائره وتفرقت عساكره وجعل وقد سيم خسفا وكسرا الى الملك العادل كسرى فتقدم بالاحسان اليه وجعل العفو شكر القدرته عليه وبالغ معه في اللطف والاحسان وانزله عنده في بستان ترتع النزاهة في ميادين رياضه وتكرع الفكاهة من رياحين حياضه وأفاض عليه من خلع الانعام وادرارات الفضل والاكرام ما أزال دهشته واحال وحشته وابدى استعباده وابعد استبعاده فلما حصل انسه وهدأت نفسه أخذ في تعبئة وابلاغه الى مأمنه وتجهيزه فأبى الا الاقامه والتلبث بدار الكرامه وسأل الصدقات وما لها من عميم الشفقات مجاورة محالها والاقامة تحت ظلها واغتنام مشاهدتها والتشرف بيامن طلعتها مدة أيام فانها محسوبة من العمر العزيز باعوام فأجابت سؤله واستنجزت مأموله وكان في ذلك البستان نخلة كنخلة مريم قد يبست من الهرم ولما تماورتها ايدا القدم لم تصلح الا للضرم فأرسل يسأل الصدقات ان تنزله أن تهبه تلك النخله فاستنزل كسرى عقله وأجاب قصده وسؤله ووهبه تلك النخله فكان كل يوم يتوجه اليها ويسند ظهره ويعتمد عليها وهو في أرغد حال واعين ما آل فبعد عدة شهور طلب الى التوجه الدستور فاستدعاه واكرم مثواه وأجاب قصده ومناه واسبغ عليه نعمه وفضله وسأله عن موجب سؤاله النخله وسبب طلبه الاقامه ثم سؤاله التوجه بالسلامه فقال أما سبب الاقامة بهذا البلد فلجوار مولانا الملك الامجد والاستسعاد بمشاهدة وجهه الاسعد فان طالعه قوي سعيد ومجاورته للسعادة تفيد ويحصل منها لمجاورها

المزيد فأردت أن يكون لي منها نصيب ويلاحظني منها سهم مصيب

فان تلم بقفر عاد روضا * وان تمرر بجلمد صار شهدا
وان يخطر ببالك نحس نجم * يعد في الحال من رياك سعدا

فصرت مشمولا بيمامن ظلها مغمورا بفائض وابلها وطلها وأماطني الخلة البايسة فاني تفاءلت بها من حظي مساعدة ومناصحة فكنت اتردد اليها وأعول في ذلك عليها فدامت في تحول كان جدي وسعدي في تحول الى أن رأيتها قد حضرت وأطلعت واستبكرت فاقبل سعدي وحيا وعاد بعد أن مات حيا وساقطت نخلة سعدي من ثمرات السعادة رطبا جنيا فعلت أن طالعي الهابط عاد الى الاوج ورسول حظي دخل في دينه ناس الايناس فوجا بعد فوج وارمل جدي ازدوج ببكر الامال وكان لها أحسن زوج كل ذلك أي اعظم مالك بسعد فالك وجوار دار جلالك ومشاهدة أنوار جمالك واستماع كلامك وانتجاع كمالك فن يعد اسعادا السعد كل سهم أمل فوقته ونحوشا كلة قصد أطلقته اصيب الغرض وحزت جوهره بلاعرض فاذا اسعف السعد النفس لايعقبها معه نحس وانما أوردت هذا القول بإذا الكرامة والطول ليعلم الحضار والسادة النظار أن استقامتنا واقبال سعدنا وانتظام أمورنا وجدنا انما هو بالتفات الخواطر الشريفة وشمول أحوالنا بلاحظها المنيفة واستدامة بركاتها وميامن حركاتها كما قيل في ذا القبيل

تلقى الامان على حياض محمد * ثولاء مخرفة وذئب أطلس
لاذي تخاف ولا لهذا جرأة * تهدى الرعية ما استقام الرئيس

وكما أن الرعية لا يستقيم حالها الا بالملك الراعي فانها كالرعية لا ينتظم لها امر الا بالراعي كما قيل

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

كذلك الملك بإذا الدرجات العليه لا يصير ملكا الا بالرعيه ولو لم يكن العاشق مشوقا لم يكن المعشوق معشوقا ولو لم يوجد الراجي بالامل مسوقا لم يصر الملك المأمول مرموقا وقد عني هذا المعنى من في رياض المعاني أعني

واحقر صب فيك يهدي سناؤه * كاعظمهم اذ من هواك تعظما
فلا تحتقره ان تملكت قلبه * فلولا الهوى ما كنت ملكا مفخما
ففي موقف العشاق منك وظيفة * لكل فلا يبقى لها متقدما
وكل له وجد يليق بحاله * وكل لحال يوافيك مغرما
ألم تر أن الله اوجد حكمة * ذبابا وعقبانا وبقا وضيغما
وكل له نفع وضر مخصص * فسبحان من قد خص طورا وعمما

والله تعالى لكمال قدرته واسبال ذيل رحمته خلق الكبير الاعلى محتاجا لخدمة الصغير الادنى وجعل الفقير الادنى محتاجا لرحمة الكبير الاعلى ولهذا أعظم الخلق من خلق الخلق واحوج الخلق الى الخلق وهو غني عن الخلق وقيل أيها الملك السني الانسان بطبعه مدني ويعقد اركثرة الرعيه واشتراكهم في الصفات المرضيه وانقيادهم لاوامر ملكهم

السنيه تصير درجة الملك عاليه كما كان في زمن نبي الله سليمان صلوات الله عليه وسلامه وتحيته واكرمه ولقد جرى في عصره بين الطيور مفاوضة بين اللقلق والعصفور فسأل ملك الاساد عن تلك المفاوضة مبارك الميلاد فقال بلغني ياسلطان الاسود ان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام كان في سيرانه مع خواص اركانه فمر بذلك الطالب على شجرة دالب للقلق فيها عش قد بناه كاحسن عش وقد استوكر في عشه عصفور واحتمى بجواره من مؤذيات ابي منصور فكانا يتخاصمان ويتقاولان ويتواصمان ويتصاولان فوقف النبي الكريم واستوقف الجند العظيم ليسمع مايقولان وينظر كيف يجولان فسمع اللقلق يقول وهو يجول ويصول ويخاطب العصفور بجمع من الطيور اشكرلي حسن الصنيع حيث انزلتك في حصني المنيع لاحية ترقى اليك ولاجارح ينقض عليك ولولا انك عندي مناخا مابقت لك الحية ذاتا ولا افراخا وانما سلمتم بجواري وبقربكم من داري فوثب ابو محرز وتوسط الجمع وهو يجمز ونادى بين الاطيار انسيت ابا خديج اى جار وأنا في المدار حول هذه الديار آناء الليل واطراف النهار ألقط النمل الكبار والصغار ولولا انا حارس منازلك ماأبقى لك النمل أثرا ولا افراخك فكل منا محتاج الى جاره مغتبط بجواره آمن به في سربه ومطاره فارفع من بيننا هذا النكد ولا يمن منا أحد على أحد فالحقوق ماتضيع بين الجيران كما تراعى بين الاصحاب والاخوان وكما تدين تدان ومع هذا فكلنا نصلي على نبي الله سليمان ملك الانس والجان وسلطان الطيور وسائر الحيوان فانه بحسن عدله اعتدل الزمان وبيمن فضله صلح الكائن والمكان ونحن أيضا كذلك نشكر الله رب الممالك اذ من علينا بهذا السلطان المالك ملك الوحوش الاكابر وكاسر السباع الكواسر المشفق على الضعفاء والاصاغر فلم يخل من فضله سبع ولا طائر ثم نهضوا فوقفوا ودعوا للملك وانصرفوا هذا آخر الباب والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

(الباب السادس)

(في نوادر التيس المشرقي والكلب الاقرقي)

قال الشيخ أبو المحاسن من ماء معارفه غير آسن ومن لمدود ارض الفضل من فضائله رواس وفي مشحون بحر العلم من فوائضه مواس فابتهج الملك لهذا الكلام وارتاح لما تضمنه من الحكم والاحكام واستزاد الحاضرين من عقود هذا النظام فقبل الارض في مقام الخدام وقال بلغني يا ملك الانام أن راعيا كان يرعى ثلة من الاغنام وجملة من المعز الجسام وفي ماشيته تيس مطاع كلها له اتباع وهو قائدها وقائدها وزعيمها وأبو تاجها وهو نعاجها واصله من الشرق لم يكن بينه وبين ابليس في الشيطنة فرق اسمه الذميم التيس الزنيم وكان بواسطة الفحولة والكبر والتقدم في الحضر والسفر يستطيل ويصول وينطح الكباش والوعول ويكسر أصحاب القرون من الفحول فيجرح ضعيفها ويطرح خفيفها ويضرب بخالص الهالفيها الى أن أباد اعيانها واعجز رعيانها وطال منه العقوق فذهب به

الراعى الى السوق ليبيعه ويستريح ويخلص الماشية من شره ويريح فبينما هو يطوف
اذا برجل مهول مخوف طويل القامه كبير الهامه كانه زبنى القيامه شثن اليدين
ازرق العينين أسود الخدين بثوب وسخ وطرطور سخ وسطه محزوم بسير مبزوم
فصادف الراعى وهو فى السوق ساعى فتديده الى التيس وقال بكم هذا يا أبا الكيس فوقع
بينهما الاتفاق ووقع الزنيم فى شبكة الرباق فتأمل شكل القصاب وصورته القاضية بالعجاب
فرأى رجلا كانه من الشياطين معلقا فى وسطه عدة سكاكين فدخله الرعب ورجف من
الرهب وأدرك بالفراسه انه سيهلكه ويحذف راسه وقال ظنى والظن يخطئ ويصيب انى
وقعت مع هذا فى يوم عصيب وأنه قاصده لا كى ومقيم على البواكى فالاولى الاحتراز
والتأهب قبل زمان الجزاز فان حصل خير فما فى الاحتراز ضير وان وقع على الاهلاك العزم
فاتلق سيفه بما اعددته من ترس الحزم فوزن الجزار الثمن وشحط الزنيم بالرسن وأتى به
مطابخ فقطعها الى مسالخ فشم رائحة الزهومه وأحس من الجزار نكده وشومه فلما دخل
المسلخ ورأى القصابين هذا يذبح وهذا يسلخ واللحم شقات على الجدران معلقات وأنهر
الدماء كدموع العشاق جاريه ورؤس الغنم وجلودها واكارعها كل كاشيه هذه الكاشية فى
ناحيه وهذه الكاشية فى زاويه فرجف قلبه وازداد رعبه والتجأ الى الله تعالى وتاب اليه
عما عليه من الذنوب مالا خاواطأ القصاب المصارع ان شد من المشرق الا كارع وجدله على
الجداله واخرج لذبحه الاله فلما رأى هذه الحاله تحقق ما كان ظنه فاستحضر باله وايقن
انه هالك لا محاله فنظر الى القصاب وذكر ما قيل فى حق الساب

نظروا اليك بأعين محمرة * نظر التيوس الى شفار الجازر

فوجد السكين كليله ليس للذبح بها حيله فطلب المسن ليحدها ويريح ذبيحته ان حدها
فتركه وذهب للمسن وقد تحقق الزنيم ما كان ظن فتنفس له البلاء وارتخى عنه عقد القضاء
فمطى فى رباط الاكارع فخرقه بحبل قاطع ثم وثب وقصد الهرب وخرج من الباب
وصاحوا عليه هراب فلم يلتفت الى الصوت وفر فرار من عاين الموت وطلب الخلاء وطريق
الفضاء فادى به الذهاب الى بستان بجوار بيت القصاب فدخل البستان وامتد فى الجريان
والقصاب وراءه بهيئته المهوله والسكين فى يده مسلوله وكان قبل هذا الزمان بين زوجة
القصاب وصاحب البستان ما يكون بين الحرفاء والاخدان وكانت كلما وجدت فرصه
جعلت للبستانى من نفسها حصه تنزل من بيتها الى بيته وتغمس سراجها من فتيله قنديله
وزيته فاتفق ان فى تلك الحال طلب كل من المحبين الوصال وكان زمان اشتغال العام
بالمعاملة مع الخاص والعام فلاشتغال وهله لا يتردد فيه الى أهله فاغتنمت الزوجة غفلة
الرقيب ونزلت من بيتها الى بيت الحبيب فكان المحبان آمنين وقد تعانقا تحت دوحة ياسمين
فاتفق ان الهارب من الموت وداوهيه أخذ على مكان هما فيه والقصاب يتبعه رافعا يده
والسكين فى يده مجرده فلم تشعر الا وزوجها رافع الصوت واقف على رأسهما وبيده آلة
الموت وما شعر بدواهيهما حتى عثر عليهما فقفز كلاهما من مكانهما مفتضحين فى مكانهما
فاشتغل القصاب بنفسه والتهى بنجته عن تيسه وكان الناس تابعيه فوقفوا على ما وقع

فيه وقامت الغوغاء وقعدت للعار من البلاء فتفرس النجاة من الردى فلم يزل في سدات البرى ذاهلا عما يجرى حتى وصل الى ثغرة خروج منها الى الصحرا فانقطع عن ذلك الجنى تابعه ولم يوجد من شياطين الانس رائيه وسامعه فانتهى به التسيار في تلك الصحارى والقفار الى جبل فآوى فيه الى غار كان يأوى اليه مع المواشى أوان الامطار فامسى فيه تلك الليلة الى وقت الاسفار

فلما رأى الليل العبوس صنيعه * تبسم فافترت تباشير فجره

فلما أصبح الصباح خرج الى السراح وهو في نشاط ومراح وجعل يرتاد أنيسا ليكون جليسا أو رفيقا صالحا أو صديقا ناصحا يتأنس به في الغربه ويمسح بانامل مؤانسته ثقل الكربه وما يحصل على جبين راحته من عرق القربه ويبغاهو ينشر البيداء ويطوى اذ سمع نباح كلب يعوى فتربص انلير وزوال الضير ثم قصد نحوه فرآه مقبلا من نحوه فناداه أهلا باحب الاحباب وأعز الاصحاب المفضل على كثير ممن لبس الثياب فلما دنا منه بادر الى عناقه وبثا كل الى الآخر ايام فراقه فتعانقا تعانق المحبين وبثا ما بيناته من مضض البين ثم قال له اعلم يالطيف الحركات وكثيف البركات ان كلانا غريب وكل غريب للغريب نسيب وانا قد تفرست فيك وما تكاد فراستي تخطيك انك رفيق صالح وشفيق ناصح وأحسن ملح ممالح وفي طريقة اخوان الصفا قيم وراجح وان كانت الجنسية بيننا مختلفه لكن القلوب بحمد الله تعالى مؤتلفه وكم لك من ايادسابقه وصدقات متناسقه وكم حططنا في المراعى وبتنا في الخطائر نائمين وانت لحفظنا ساعى تحرسنا من الغداة الى الرواح ومن المساء الى الصباح فأخبرني ماشانك وأين مكانك وما اسمك وما صنعتك ورسمك ومجيئك من أين وما حاجتك في البين قال أما اسمي فيسار وأما مكاني فبلاد التتار وصنعتي راعى وسبب مجيئ ضياعى ولى صاحب اسمه اقرق من دشت قفجاق بن شقرق كنت في خدمته راعى ماشيته فاضللت رعيتي وضيعت حرمتي فانا أطلب ولى نعمتي لا محو عن وصمة الدماسيتي فهذا شأني وجل بغيتي قال الزنيم أنا من حين شاهدت في وجهك الانوار علمت انك يسار وانك معدن الذكاء والالقاب تنزل من السماء وأما طلبك لصاحبك ورعيتك فانه دال على كمال مروأتك ولا يشكر لك الرفاء فان بينك وبينه الوفاء مقام الصدق والصفاء ولم يقع بينكما قط بعد ولا جفاء وشهرتك بحمد الله بجميل الصفات التى قلما تجتمع في زكى الذوات ولا تصفو الا للاولياء والبررة المبرزين الاصفياء من المسكنة والقناعه والجراءة والشجاعه وحفظ العهود والوفاء وكسر النفس والصفاء وعدم الحقد والحسد واطراح العجب والنكد والحراسة والسهر وقيام الليل الى السحر والتودد الى الناس حتى قال فيك ابن عباس كلب امين خير من صديق خوّن وعندك من التهذيب وقبول التعلم والتأديب ما يصير صيدك مذكى وسنك كالشفرة مزكى وفي شأنك ياذا الوفاء والمنفعه قال الحرث بن صعصعه

ومازال يرعى ذمتي ويحوطني * ويحفظ عرسي والخليل يخون

فياعجبا للخل يهتك حرمتي * وياعجبا للكلب كيف يصون

ومن هذا الضرب ما رواه أحمد بن حرب عن ذي العتاب منادم الكلاب ان الكلب يكف عني أذاه ويكفيني أذى سواه ويشكر قليلي ويحفظ مبيتي ومقيلي فهو من بين الحيوان خليلي ثم قال أحمد بن حرب تمنيت والله ان أكون مثل هذا الكلب لاحوز هذه الصفات وارقى هذه الدرجات وأرجو الله تعالى ان يعطفك علي ويقلب قلبك ويجهك الي بحيث ترغب في صحبتي وتميل الى صداقتي فترى اذ ذاك مني بحمد الله تعالى من الاخوة والصداقه والمروأة والرفاقه ما تنسى به كل صديق وتفضل به الصاحب الجديد على العتيق فتترك سائر أصحابك وتلتهي بي عن أعزاء أوليائك وأحبابك خصوصا بني آدم الذين انت بهم أعلم من اذهبت عمرك في خدمتهم والقيام بحقوقهم وحفظ حرمتهم وحراسة مواشيهم ودورهم وكمال فضلك في حياطة بيوتهم وقصورهم ورعاية رعيانهم وصيانة أهلهم وجيرانهم مع قناعتك منهم بما يفضل عنهم من كسرة خبز شعير أو عظم بابس كسير أو فضلة مرقة قدير واضاعتهم حقوق خدمتك ونسيانهم موجبات شفقتك حتى لو وصل فمك الى زادهم أو الى شئ من عتيد عتادهم رمولنا بالحطب ورضوا رأسك بالحجارة والخشب ولو ولغت في انائهم أو شربت من مائهم ما قنعوا في تنظيفه وتطهيره وتنشيفه بمرة ولا مرتين ولا اكتفوا في ازالة لعابك بالعين بل دونوا الغسل بالحساب وعفروا الوعاء بالتراب ويعدون ذلك من التعبد ولا يرعون مالك من تحبب وتودد وانا أرجو ان ترتفع منزلتك وتعلو درجتك ويساعدك رب العرش حتى تصير سلطان السباع وملك الوحش واجتهد في هذه القضيه الى ان أبلغ هذه الامنيه وأكون السبب في ذلك الى ان تصير رئيس الممالك فان لك علي حقا قديما وفضلا جسيما طالما اغنا آمنين في ظل حراستك ورعينا مسرورين مكنوفين بحياطتك وأجلنا منك في الخاطر ما قال الشاعر

يقا ولك فينا نعمة الله عندنا * فنحن باوفى شكرها نستديمها

قال يسار يا أخي جميع ما قررته صحيح مقبول داخل في الفضل خارج عن الفضول ولكن أنا من جنس السباع مجبول على ما لهم من الطباع ومع هذا فانا عدوهم وبسببي يزول هدوهم وانا لم أعادهم الا فيكم ولا لي وادا الا في ناديكم فان تربيتي بينكم وعيني مقارنة عينكم وانا اليكم أقرب مني اليهم ومعولي عليكم دون معولي عليهم وعلى هذا وجدت آبائي وأجدادي ونشأت من حين ميلادي والخروج عن طريقة الآباء دليل على العقوق والاباء وهو أمر مذموم وهذا شئ معلوم وقد قال صاحب الشرع الحب يتوارث والبغض يتوارث ولكن يا سليم الطباع وخصيب الرباع قولك تصير سلطان السباع سخرية مني واستهزاء ولا أستحق منك هذا الجزاء فان معنى هذا القيل أمر مستبعد بل مستحيل ان أبا طاهر نجس العين فاني من اين وهذا الهوس من أين فان أردت اعانتي على ذلك وتكفلت لي برياسة الممالك فكلانا في هذا الهوى سواء وان صممنا على ذلك فما لجنوننا دواء وهذا الوسواس من خيالات الافلاس وفي مثل هذا الحال قال من صدق في المقال لا تخيل عندك تهديها ولا امال وانا أعلم اعانتكم بما يطيب خاطري ويسر سرائري ويقربك في الحب من ضمائري قال المشرق لا تقل ذلك يا تقي فانا شاهدت في جبينك مخايل

السيادة ومن شمائلك تقاطر السعادة وقد قيل بأفضيل المرء يطير بهمته كما يطير الطير بجناحه اما بلغك يا خير عالم ما رواه الشيخ علاء الدين بن غانم ذو الفضل الكثير عن تاج الدين بن الاثير قال يسار اخبرني بهذه الاخبار قال قال ابن الاثير وهو بالرواية خبير بحر زايدي المعاني عن الامير حسام الدين البركة خاني قال كنت في عصر الشباب اصحب من صالح الشباب الملك المظفر قطز الغضنفر وكان خشداشي وبرؤيته انتعاشي فكنا ونحن صبيان كالشاطبيان غيرانا كان قله فكنت أقلي قله وامسح رأسه واذهب بأسه وتقدمت اليه بالشرط عليه أن يعطيني لكل قلة فلسا أو اصفعه صفعة ملسا ففي بعض الاوقات أخذت عنه قلا كثيرا وصفعته صفعات وقلت في غضون ذلك ونحن في حال حالك اتمنى على الله عز وعلا ان يعطيني امرة خمسين رجلا فقال لي طيب خاطرك وسر سرائرك فاني ابلغك سولك وأعطيك مسؤلك وأجعلك أمير خمسين فارسا فابشر ولا تكن عابسا فصفعته صفعه وقلت ويلك انت تعطيني امرة ورفعه قال نعم وأخبرك بالنعم فصفعته أخرى وازددت نكرا فقال لي عله ويغمس المسلة يا قليل اليقين اتريد شيأ غير امرة خمسين أنا والله أعطيك واعليك على ذويك فقلت ومن أين لك تعطيني وترضيني فقال أملك هذه الديار وأكسر التتار وأحل الكفرة والعلوج دار البوار فقلت له يا مفتون أنت مجنون بقملك وقلك وفقرك وذلك تملك الديار المصريه وتصير سلطان البريه قال نعم ولا تعمل زعم فاني رأيت في المنام النبي عليه السلام وقال لي انت تملك الديار المصريه وتكسر التتر ولا شك فيما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من خبر قال فأمسكت عنه لاني كنت أعرف الصدق منه ثم تنقلت به الاحوال وتنقل الى ان بلغ الكمال وملك هذه الديار ثم كسر على عين جالوت التتار وأعطاني ما وعدني به وأرضاني وانما أوردت هذا المثال لتعلم ان سلطنتك غير محال وانا أرجو الله تعالى ان ييسر لي القيام بجميع ما قلته لك ياامام وأنا أجلسك على السرير وأقيم في خدمتك الكبير والصغير وأرفع راية مراسيمك وانفذ اوامرها في ممالكك وأقاليمك وأجعل جنود الوحش تحت رايتك وأقاليم القفار كلها تحت ولايتك ولكن بشرط ان تتبع ما أراه ولا تخرج عن طوره ولا تتعداه وتعمل بكل ما أشير اليه ومهما ارشدتك اليه تعول عليه فقال أنا طوع يديك وجميع أموري منك واليك فقل فاني سامع ولامرك طائع فانهض وعاني هذه الاماني عسى يصير هذا الباطل حقا وينقلب هذا الكذب صدقا وقل ما تقتضيه لاتبعه وأرتضيه قال ترجع عما أنت عليه من الاخلاق السبعيه والاوصاف الكلبيه من الحرص والشره والتكالب والتره والنفس المتمرده والطبيعة المتمرده وتصوم عن الدماء واللحوم وعن تمزيق الحيوانات وتفريق الجماعات وتحمل النفس على الاخلاق الجميله والتلبس بالاوصاف الفضيله من العفة والكرم والعفو عن ظلم والقناعة بالنبات عن لحوم الحيوانات ومعاملة الكبير والصغير بالفضل الكثير والبذل الغزير وتلافي خاطر الخطير والحقير ليسهل العسير وينقاد لك المأمور منهم والامير وهذا أمر عليك يسير وهذا لانك طالما جرحت جوانحهم وكسرت جوارحهم واصطدت سارحهم وأبدت بارحهم فهم منك متخوفون والى

الايذاء والضرر منك متشوفون واذا رأوا شيأ خلاف العاده وعلموا ان ولايتك فيها الحسنى وزياده وأصابوا الخير من مواقع الضير ورأوا ماسر من مواضع الشر والضر تشرب محبتك منهم الكبير والصغير وأنهالك ان يرالك من الوحوش العيز والنفير فيتخذك الغريب حبيبا ويصير البعيد منك قريبا فتصيد بالمحبة أرواحهم كما كنت أولا تبيد اشباحهم واذا ضرب صيتك فى الارض وتردد بالطول والعرض وتسامعت بك الوفود وتحققوا انك عدلت عن خلقك المعهود أقبلت اليك منهم الجنود وزان جيد جنودهم من جواهر محبتك عقود وانعقدت بينكم بالمحبة والولاء عقود العهود فتوفرت اذ ذاك جنودك وعلت على رؤس الاقران راياتك وبنودك وجعلوا ذراك مأواهم وحمالك مصيفهم ومشتاهم مع ان هيبتك فى قلوبهم مركوزه وأسنة مخافتك فى احشائهم من قديم الزمان مغروزه وأعلى من فيهم يهابك ويخشاك و يتوقى مكانك و يتحاشاك قال يسار اعلم ياخيرسار ان حبال الآمال ومطامع الخيال مالم تتعلق بمأمول ولم ترتبط باطراف سول فالنفس ساكنه والروح مطمئنة هادئه والقلب فرح والخاطر منشرح اذ الطمع ذل وشين واليأس احدى الراحتين ومتى تعلقت بذيل المطامع مخاليب الآمال و بلغت الى حصول مأمول انخيال وقامت النفس فى تحصيله وتحركت الجوارح لنيل مأموله وانبعثت الهمة الى ادراكه وتعلق القلب بسيرافلاكه توزعت الافكار وتفرقت وتوزعت الخواطر وتمزقت وركب لذلك كل صعب وذلول وتقاذفت النفس فى كل مخوف ومهول وتقلدت بحمائل قول القائل

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فاول مايجنى عليه اجتهاده

ثم اذا لم يحصل المأمول ولم تبلغ والعياذ بالله النفس السول مع بذل هذا الجهد والمبالغة فى السعى والكد ومقاساة التعب ومعاناة النصب ترادف النكد وتضاعف السهد وصارت النفس لهذا البدد وكان فى جيد حياتها من فوات المقصود حبل من مسد فلا تزال بين تشويش ضمائر وتقسيم خاطر وفكر غائب وهم حاضر وهذا الامر الذى عزمت عليه وهممت بالترقى الى الوصول اليه الى عدم الحصول أقرب منه الى الوصول وانا أخاف وذا غير خاف ان يغرنا الطمع فى هذه الحركه فينتزع من فراغ اوقاتنا البركه ولا تحصل الاعلى مثل ما حصل لمالك الحزين من السمكه قال الزغيم تبتى أيها العليم بذلك المثل القويم قال بلغنى انه كان فى مكان مكين ماوى لمالك الحزين وفى ذلك المكان غياض وغدران تضاهى رياض الجنان

حكى بانها قد الحبيب تمايلا * فجن وفى هذا الجنون تفننا
فدار عليه النهر وهو مسلسل * فقيده اذ قد حكى وتجننا

وفى مياهه من السمك مايفوق سابحات السماك فكان ذلك الطير فى دعة وخير يزجى الاوقات بطيب الاقوات وكلما تحرك بحركه كان فيها بركه حتى أو غاص فى تلك الصغار والغدران لم يخرج الا وفى منقاره سمكه فاتفق انه فى بعض الآناء تعسر عليه اسباب الغداء وارتجت فوته أبواب العشاء فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسد الرمق من

القوت فلم يفتح عليه بشيء من اعلى السماك الى أسفل الحوت وامتد هذا الحال عدة أيام وليال فخاض يوما فى الرقراق يطلب شيأ من الارزاق فصادف سمكة صغيرة قد عارضت مسيره فاختطفها ومن بين رجليه التقفها ثم بعد اقتلاعها قصد الى ابتلاعها فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها فى رمسها فنادت بعد أن كادت ان تسكون بادت ما البرغوث ودمه والعصفور ودسمه اسمع يا جار الرضا ومن عمرنا فى صونه انقضى لاتعجل فى ابتلاعى ولا تسرع فى ضياعى ففى بقائى فوائد وعوائد عليك عوائد وهو أن أبى قد ملك هذا السمك فالكل عبيده ورعيته وواجب عليهم طاعته ومشيئته ثم انى واحد ابوى واريد منك الابقاء على فان أبى نذر النذور حتى حصل له بوجودى السرور فما فى ابتلاعى كبير فائده ولا اسد لك رمقا ولا أشغل لك معده فتصير مع أبى الفضيل كما قيل فافقرنى فيمن احب ولا أستغنى فالاولى ان اقر عينك واعرف ما بين أبى وبينك فاكون سببا لعقود المصادقه وفاتحا لاغلاق المحبة والمرافقه ويحصل لك الجليله والمنة التامة والفضيله واما أنا فاعاهدك ان أعتقتنى ومننت على واطلقتنى ان اتكفل لك كل يوم بعشر سمكات بياض سمان ودكات تأتيك من نوعه غير ممنوعة ولا مقطوعه يرسلها اليك أبى مكافأة لما فعلت بى من غير نصب منك ولا وصب ولا كد تعمله ولا تعب فلما سمع البلشون هذا المجون اغراه الطمع فما ابتلع فسها ولها ثم قال لها اعيدى هذه الرمزه فبمجرد ما فتح فاه بالهمزه انملصت السمكة منه بجمزه وغاصت فى الماء وتخلصت من بين فكى البلاء ولم يحصل ذلك الطماع الاقطع الاطماع وانما أوردت يا ذا الدرايه هذه الحكايه لتتأمل عقبى هذا الامر قبل الشروع فيه وتتدبر منتهى اواخره فى مباديه فقد قيل أول الفكر آخر العمل قال المشرق اعلم يا مرتقى ان مبنى الامور فى مجاريها وقواعد ما اسس عليه مبانيها تقدير خالقها وتدبير باريها وما حكمه وقضاه وأحكمه وأمضاه لكنه كتمه وأخفاه فلا تدركه العيون والابصار بل ولا البصائر والافكار فانه علم غيب وجهلنا به ليس بعيب لانه تنزه أحدا صمدا قال تعالى عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا كما قيل

على المرء ان يسعى ويبذل جهده * وليس عليه ان يساعده الدهر
فان نال بالسعى المنى تم أمره * وان غلب المقدور كان له عذر

وان الله العلى الاعظم قد وضع اساس بنيان العالم على الاسباب وفتح لتعاطى الاسباب الابواب فقال ذو الجلال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وقال القائل

اذا ما كنت فى امر مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
يرى الجبناء ان العجز حزم * وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى شئ حقير * كطعم الموت فى شئ عظيم

وقال عليه الصلاة والسلام علو الهمة من الايمان والمرء يسعى فى تحصيل مرامه ولا يترك شيأ من أسباب قيامه فان ساعده القدر بقدره انقاد اليه مرامه بشعره وكان مصادمه مساعده ومقاومه معاضده كما قيل

وإذا أراد الله نصرة عبده * كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكون والمكان ويمضي سهم أوامره رامي القضاء من قوس الزمان فيقيض له المساعد ويتعبد له المقارب والمباعد وحسبك بإذا الصوله ما اتفق من السعد لعماد الدوله فسأل الديار عن سرد هذه الاخبار قال كان رجل صياد له ثلاثة أولاد كان محل وقوتهم السمك تقلبت بهم الاحوال حتى صاروا برياستهم على الدنيا احال وانتهوا في الرياسه وساسوا الخلق احسن سياسه وانتشر أمرهم وطاب في الدهر ذكرهم ومما ملكوه العراقان والاهواز وفارس وسريرتها شيراز أكبرهم أبو الحسن علي بن بويه الملقب بعماد الدوله وكان في السلطنة ذا جولة وصوله ولما انتهت أيام خوله واتصل بالسعد أسباب وصوله حل ركابه بشيراز وصعد الى حقيقة الملك من المجاز ووفدت عليه الوفود وأحاطت به جموع الجنود وطالبه أهل المراتب بالرواتب والرواحل بالجوامك والرفاق بالاتفاق والاجناد بالارفاد وأرباب الولايات بالخلع والجرايات وأصحاب الاقامات بالنفقات والانعامات ولم يكن في خزائنه من ظاهر المال وباطنه ولا في ذخائره من ظاهر الرفد وضمائره ما يسد رمقهم ويرتق شرقهم فتراكمت همومه وتصادمت غمومه وتوالت افكاره وتجاذبته من بحر الحيرة دردوره وتياره لان أمره كان في مباديه وليل سعده في هواديه وقد قصرت عن طول الطول اياديه وأشرف أمره على الاختلال وملكه على الاضمحلال ووقع في يوم لا بيع فيه ولا خلال فدخل الى مكان خال وهو مشغول البال فاستلقى فيه على ظهره وغرق في بحار فكره فبينما هو يلاحظ السقوف وافكاره بين تردد ووقوف واذا بحية عظيمه بجثة جسيمه من السقف خرجت ودرجت وفي مكان آخر ولجت فوثب واقفا ورقب خائفا لئلا تسقط عليه ويصل اذاها اليه ودعا الفراشين وجماعة فتاشين بمعاول النباشين وأمرهم بنصب السلم والفحص عن الارقم وتتبع آثارها واطفاء شرارها فصعدوا الحيطان وحفروا ذلك المكان وخرقوا سقفه فانفتحت لهم غرفه كانت مخبأة لمن تقدمه وضع فيها ديناره ودرهمه وفيها عدة صناديق محكمات التوثيق والمغاليق فاطلعوه على تلك الخبيه والتهوا عن طلب الحية الخبيه فأمرهم فنقلوها اليه ووضعوها بين يديه فاذا فيها من الذهب النضار خمسمائة ألف دينار فعرف ان ذلك عناية ربانيه ومواهب صمدانيه رحمانيه فصرف المال في اصلاح حاله وبذره في مزارع قلوب خيله ورجاله فثبتت اوتاده واستقامت اجناده وقويت سواعده وأعضاده وكان أمره قد أشرف على الاختلال وعقد نظامه على الانفراد والانحلال وكان من تمام هذه السعاده وتعقيب هذه الحسنى بالزياده أن الملك المذكور بعد هذه الامور وحصول هذا السرور وانتظام مصالح الجمهور أراد تفصيل قماش وخياطة خلع ورياش فطلب خياطا ثقه ليقلده هذه المنطقه فأرشد الى خياط ماهر شكله زاهر وفضله ظاهر وحذقه في صناعته باهر الا انه اطروش حقل سمعه بذي الوقر مدبوش فما يصل ملك الكلام الى سرير صماخه الا بزمر وطبل وجاوش فدعاه فأجلسه بين يديه وطلب الثياب ليعرضها عليه فتصور الخياط انه سعي به اليه بسبب وديعة كانت لصاحب البلد لديه واغا طلبه ليطالبه فاما يؤديها أو يعاقبه

فتقدم باليمين مثل المصارعين واقسم بالله خالق المخلوق ورازق المرزوق انها اثنتا عشرة صندوق لم يشعر بها مخلوق وانه لايدرى مافيها وانها مختومة بختم معطيها فتعجب عماد الدولة من كلامه وحمد الله شكرا على انعامه ثم وجه معه من أتى بها ودخل الى بيوت مافيها من أبوابها فكان مافيها من الاموال ونفائس القماش العال جمل متكاثره وأصناف متوافره واستولى على ذلك كله وثبت بواسطة المال فى ركاب الملك واطئ ذيله وانما اوردت هذا التنظير يا ذا الرأى والتدبير لتعلم ان مسبب الاسباب وميسر الامور والصعاب اذا دبر مصالح عبده وشمله باحسانه ورفده هون عليه كل عسير وصغر عنده كل كبير وانت بكل هذا بصير قال يسار صدقت وصوابا نطقت ولكننى نظرت الى الدنيا ووزنت أحوالها السفلى والعليا ورأيت كلما ازداد الشخص حرصا وطمعا ازداد لنفسه عبودية وتبعا وللدنيا رقا وللآخرة رشقا فصارت قيوده اثقل وحسابه أشد وأطول وهمومه أتم وغمومه اعم وان الواثق بالدنيا والراكن الى مافيها من اشيا كالجاعل له من السحاب حصنا ومن الحباب كنا وأى وقاية تحصل من السحاب وأى ارواء يصدر من الحباب ومن تأمل الدنيا بعين التبصر وتفكر فى تقلباتها بصيب العقل والتدبير عد جمعها شتاتا ووصلها انبتاتا ومجيئها ذهابا وشرابها سرابا واقبالها ادبارا ونفعها اعصارا وعطاءها أخذا وعهدها نبذا وصلتها فلذا ووهبها نهبا وايجابها سلبا وحربها سلما ووجودها عدما وكثرتها قلا وعزها ذلا وضحكها نياحه وطلاقها راحه فلم يكن عنده أحسن من فراقها ولا أرصن من طلاقها والقناعة منها بالكفاف والرضا منها بالعفاف كما سلك الفلاح صاحب الماشية واستراح فقال الزعيم اخبرنى كيف كان ذلك ياحكيم فقال ان مخدومى الذى كنت عنده احفظ ماشيته وعبيده كان ذا ثروة عظيمه وأموال كثيفة جسيمه وكانت ماشيته لاتزيد فى القياس عن ألف راس وان حصل من النتاج المعهود مايزيد على هذا القدر المعدود تصدق به اوباعه اووهبه لبعض الجماعه ولو أراد لجعلها الوفا مؤلفه وأضعافا مضاعفه وكان فى الجيران والاصحاب والاخوان من هو أقل منه مالا واقصر باعا واضيق مجالا له الالوف من المواشى وكذلك من الخدم والحواشى وهم فى كل وقت فى ازدياد وتضاعف الاعداد من الاصول والاولاد ومخدومى لايقصد الزياده وان زاد شئ اباده فقال له الراعى وكان عليها اشفق ساعى يا مخدوم مالك لاتريد ان تزيد مواشيك وحواشيك وتكثر بالرفق والرفد فواشيك وبالورود والاصدار غواشيك فان المواشى تزداد فوائدها وتتوفر عوائدها باعتبار زيادة اصولها وادرار منافعها ومحصولها وجيراننا كانوا اقل عددا من هذا المقدار فصاروا بالتوفير اكثر عددا فى الاغنام والابقار فزادوا على مواشينا بعد أن كان اوساطهم كحواشينا ولا أعرف لهذا موجبا ولا أدرى له سببا غير الاهمال وقصد تضييع المال فقال له مخدومى هذا محيط به معلومى ولكن أيها الولد اعلم ان أنواع العدد آحاد وعشرات وألوف ومئات فالالوف غاية الاعداد اذا اعتبرنا التعداد والشئ اذا جاوز غايته وتعدى نهايته أخذ فى النقص واذا بلغ مداه تراجع بالنكص وقد قيل الشئ اذا جاوز حده شاكل ضده ومن لم يقنع بالقليل لم يرض بالجزيل ولقد أحسن المقال وصدق فيما قال

من

من قال

وما الدهر الا سلم فبقدر ما * يكون صعود المرء فيه هبوطه
وهيهات ما فيه يزول وانما * شروط الذى يرقى اليه سقوطه
فمن كان أعلى كان اوفى تهشما * وفاء بما قامت عليه شروطه

وكثيرا ما رأيت وسمعت ووعيت عن أصحاب الالوف القاصدين الازدياد المألوف نزلت الوفهم الى الواحد من الآحاد فاستولى عليهم لذلك الهموم والانكاد فتكدرت خواطرهم واشتغلت ضمائرهم واما انا فلم أعلم ان الشىء نقص ولا جارى حلبته مداه نكص فاذا عدى غايته ألزمته نهايته وكبحت جامح طرفه وكففت طامح طرفه طلبا للراحه ورغبة فى الاستراحه

فكم دقت ورقت واسترقت * فضول العيش أعناق الرجال

وانما أوردت هذا التمثيل لتعلم باذا التفضيل أنى مادمت له خادما وفى صف الخدمة قائما ولم أتعد طورى وهو مقام الخادميه الى ما ليس لى وهو مقام المخدوميه فانا مستريح واغيرى مريح وتقسى مطمئنه وجوارحى عن طيش السعى مرجحنه واصحابى أحبابى وأحبابى اصحابى والخواطر صافيه والمحبة وافيه والصداقة باقيه ومياه المودة فى رياض الارواح ساقيه وفى عروق الاشباه واقفة جارية فاذا رمت مع وجود هذه الحسنى الزياده وقصدت التعدى الى ما ليس لى به عاده فانا بين امرين متقلب على جمرتين اما عدم الحصول والانقطاع عن الوصول فتتضاعف المنكدات وتترادف المقسمات وبحسبها تتصل الهموم وتحصل الغموم كما مر سالفا وذ كرآنفا وأما الظفر بالمراد على حسب ما يراد فبقدر ذلك يقع الصداع ويقوم التحاسد والنزاع وأول ذلك معاداة الاصحاب ومعاناة الاحباب ومقاساة الاتراب وحصول الضغائن وبروز المكامن بواسطة الترفع عليهم وصدور المراسيم والتقدم بامتثالها اليهم فالاولى بحالى التفكر فى مآلى واللائق يشورى أن لا أتعدى طورى ولا أتورط فى هذا البحر العميق والبئر الغميق ولا أخرج من سواء الطريق فتهوى بى طير الهوان فى مكان سحيق

وانى يسار شائق أن يردنى * زمانى بما لاقى يسار الكواعب

قال المشرقى ابو زغبه ما أحسن هذه الكلمه وأبين هذا النظر وأرصن هذه الفكر وأدق معانى هذه المبانى ولكن اذا رفعك الله من يضعك واذا أعطاك من يمنعك وقد قال ذو الجلال ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وقال صلى الله عليه وسلم اللهم لا مانع لما أعطيت

وكل الناس تطلب المعالى * ونفس الحر تأبى أن تضاما

فلما بلغ بهما الكلام الى هذا المقام قال يسار اعلم يا فحل الفحول وامام المعقول والمنقول أنى ما بالغت فى الامتناع الا لا قف على ما فيك من طباع أسبر ثبوت قدميك وثباتك وراء كلك فلقد وجدتك فى هذا الامر الخطير فوق ما فى الضمير وفى مواطن الاختبار اثبت جنانا من ابن الليث الصفار فانهض لقصدك وحركته على خيرة الله تعالى وبركته فانى

وضمت عنان جموح هذا المرام في يد تدبيرك وجعلت واسطة هذا العقد جوهرة تفكيرك
وسلك نظامه ونظام قلادته جودة تصويرك فانك أهل لذلك وبرأيك تقتدى المسالك فابتهج
أبو زغبة بهذا المقال ووثب قائما في مقام الخدمة وقال حيث انشرح صدرك لكلامى
فسترى في وجهك مجالس قيامى وانا أعلم ان معبودك سيبلغك مرامك ومقصودك ولكن
يجب التيقظ وقبل الشروع التحفظ اما التيقظ فلامور يجعلها الملك مقتدى ولا يغفل
عنها أبدا كما فعل الملك الظاهر الموفق أبو سعيد محمد جقمق حين اضطربت الاوامر
واختلفت العساكر واصطدمت الامور وخرج عليه من عساكره الجمهور وقل المعين
وذلك في سنة اثنتين وأربعين فعصى تنكرى وتترس في حلب وقام بالراكبة الجلب وإينال
الحلبى بالشأم وكاتبه الطغام والعظام وهرب بالقاهرة العزيز وآزرت الشياطين فاشتد
الازيز وتضبط بالصعيد العريان وفشا في عساكر الاسلام الطوبان فسفه الحليم وجار
الحكيم وضل كل ذى رأى قويم فثبت الملك الظاهر جاشه وتعرّف الى الله تعالى فازال
استيحاشه واصفى سرائره ولم تزل سيرته ظاهره فكان الله عونه وناصره فاطفأ بادنى
لطفه شواظ تلك النائرة وقد بسط ذلك في سيرته الظاهره فتبدل الجحيم بالنعيم ورفع الله
تعالى عن الاسلام والمسلمين العذاب الاليم كل ذلك بثبات القدم وعلو الهمم ولم تحصل
هذه الفعلة الذكية الرائقة الا بالطوية الطيبة والنية الصالحة وأما التحفظ فعن مواد شرور
ملتبس بها الجمهور منها الحقد والملال والكذب في المقال والحسد والاحتيال فان الحقود
وقود والحسود لا يسود والكذوب يذوب والملول لا يطول والمحتال مغتال وباقى
النصائح الذكية الروائح تأتيك بالسعد فيما بعد وانا الآن اقدم للبيان واذكر الاهم
وما فائدته أعم قبل الشروع امام المقصود وهو تأكيد مواثيق العهود فانه اذا حفتك
الجنود وأحاط بك أرباب الرايات والبنود وأنت جالس على السرير وفى خدمتك المأمور
والامير والكبير والصغير يعثر على استيفاء الخطاب واستيعاب الجواب ولا يليق بعظمتك
ومقام حرمتك اطالة الكلام ولو اقتضاه المقام خصوصا بحضور الخاص والعام ولو كان
المتكلم أعز الخدام وأقرب الالزام فلا اقدر ان اتجرأ عليك وأنهى جميع ما أريده اليك
لان قصد الخادم اقامة حرمة مخدومه والمبالغة في حفظ ناموسه وتعظيمه وكثرة الكلام
تمنعه عن هذا القصد وتدفعه وأما في هذا الوقت فان كثير كلامى لا يورث شيأ من المقت
فلا حرج على كلامى كيفما خرج قال يسار بارك الله فيك وابقاك لذويك فما أدق
نظرك وأحسن في عواقب الامور فكرك واصوب غوصك على جواهر الانتقاد واغرب
بوصك الى زواهر الاعتقاد فقل ما بدا لك مما يزين حالى وبالك فان حرمتى حرمتك
وحشمتى حشمتك فان عظمتنى فقد عظمت نفسك وان وفرت مالى فقد زدت كيسك
والخادم اذا لم يقصد رفعة مخدومه ويعد ذلك من أكبر همومه ويسعى فيه ساعة فساعة
وفى كل مكان وعند كل جماعه والا فيدل ذلك على خساسة مقداره وقصور نظره ولؤم
نجاره وركاكة همته واستبذال حرمته فقال ابو زغبه أول شروطى يا ذا العظمه ان
لا تقرب المؤذين ولا تلتفت الى الاشرار المغتابين ولا تضيع الاوقات في الاصغاء الى

القينات

القينات ولا تسمع كلام واش وتعتقد كلامه اقل من لاش ثانيها أن لا تعجل في فصل الحكومات بل تتعاطاها بالتفتيش والالتفات الى أن تجلى صورتها وتتعين حقيقتها فاذا وضحت لديك وتجلت مخدرة حقيقتها عليك اجهد فيها بالصدق واعمل بما يقتضيه الحق ثالثها ان لا تعوّد لسانك الفحش والبذاءة فان في ذلك على الملك اسوأ اساءه فان الكلام يؤثر في القلوب وينفر من قبحه الطالب والمطلوب وقد قيل

جراحات السنان لها التئام * ولا يلتام ما جرح اللسان

وقد قيل ان عيسى عليه السلام مر بجماعة في بعض الايام فصادفوا كلبا اجرب فقال له سلمك الله اذهب فقال كل من أصحابه عما كان معي في جرابه من الاستنقاص وطلب البعد عنه والمناص وما سلوا الى عيسى حاله بل سألوه عن كلامه له وما دعاه فقال انى عوّدت لسانى ببيان ما في جنانى وهو المقاصد الحسنه وترك الالفاظ والعبارات الخشنه وقيل انه مر في بعض الاوقات ومعه جماعات بكلب من الاموات ملقى على مزبلة في جملة القاذورات فوضع كل منهم يده على خطمه وتكلم في رائحته عند شمه فقال عيسى عليه السلام ما أحسن بياض اسنانه فقيل له عما سمع من بيانه فقال عوّدت لساني بلفظ الخير وان لا يتكلم بما فيه ضير وكما يجب على الملك كف اللسان الفصيح عن الكلام البذى القبيح كذلك يجب عليه أن لا يصغى اليه ويتأمل قول الشاعر

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

ووجد في كتاب آداب الصحبة لابى عبد الرحمن السلمى بيت ثالث

وكم أزعج الحرص من طالب * يوافى المنية عن مطلبه

وهذا الامر يا مخدوم لكل أحد معلوم على العموم واما أكابر السلاطين والملوك الاساطين فهم أعلى مقاما أن يكون الفحش لهم كلاما وأن يجرى في مجالسهم أو يسمع من محادثهم ومجالسهم وكل ملك اعتاد مجلسه فاحش الكلام اختل نظامه ومقته الخاص والعام ونفرت عنه قلوب الرعيه وبحسب رغبة الرعية تكون الممالك راضية مرضيه واذا نفرت قلوب الرعية كرهوه ووقعوا غيره ليقوموا معه وينصروه واذا لم يوجد عقدوا الحقود واستمرّوا اذلاء كاليهود والبغضة كامنه والحسائف باطنه فتتقدم العداوة وتتقدم وتتأكد وتتأزم واذا قدمت العداوه ذهبت من الصداقة الحلاوه فلا بد يوما من الايام ان تبرز رأسها من جيب الانتقام واذا وجدوا فرصه وثبوا عليه وقصدوا قصه كما جرى للفريره مع الهريره قال يسار بين لى هذه الاخبار فقال ذكر شخص معتبر من رواة الخبر ان في القديم كان رجل عديم وعنده قط رباه وأحسن مرباه فكان عنده كالولد الاعز وأكرم من ابن الفرات عند ابن المعتز وكان القط قد عرف منه الشفقه وألف منه المودة والمقه فكان لا يبرح عن مبيته ولا يسعى لطلب قوته فحصل له هزال وتغير حاله من أمر وحال لا عند صاحبه ما يغذيه ولا هو ذو قوة على الاصطياد تغنيه الى أن عجز عن الصيد فصار يسخر به من أراذل الفيران كل عمرو وزيد وصار كما قيل

خلت الرقاع من الرخا * خ وفرزنت فيها البيادق
وتسابقت عرج الحميـ * ـر فقلت من عدم السوابق
وسطا الغراب على العقا * ب وصاد فرخ البوم باشق
سكتت بلابل الزما * ن وأصبح الخفاش ناطق

وأيضا

واذا خلا الميدان من أسد * رقص ابن عرس وتومس الغس

وكان فى ذلك المكان مأوى رئيس الجرذان وفى جواره مخزن لسمان فاجترأ الجرذان لضعف أبى غزوان وتمكن من نقل ما يحتاج اليه وصار يرتع على القط آمنا ويضحك عليه الى ان امتلأ وكره من أنواع المأ كل والمطاعم وحصل له الفراغ من المخاوف والمزاحم واستطال على الجيران واستعان بعواتف الفيران على العدوان فافتكر الجرذان يوما فى نفسه فكرا أداه الى طول رمسه وهو أن هذا القط وان كان عدوا قديما ومهلكا عظيما لكنه قد وقع فى الانفصال وضعف عن الاصطياد لقوة الهزال وقوتى انما هى بسبب ضعفه وهذا الفتح انما هو حاصل بحتفه ولكن الدهر انه دار ليس له على حالة استقرار فربما يعود الدهر عليه وترجع صحته وعافيته اليه فان الزمان الكثير الدوران يهب ويهب ويعطى ما سلب ويرجع فيما وهب كل ذلك من غير موجب ولا سبب واذا عاد القط الى ما كان عليه يتذكر من غير شك اساءتى اليه فيثور قلقه ويفور حنقه ويأخذه لاذاى والانتقام سهره وأرقه فلا يقر لى معه قرار فاحتاج بالاضطرار الى التحول عن هذه الديار والخروج عن الوطن المألوف ومفارقة السكن المعروف أمر صعب مشوم الكعب فلا بد من الاهتمام قبل حلول هذا الغرام والاخذ فى طريقة الخلاص قبل الوقوع فى شرك الاقتناص ثم انه ضرب اخماسا لاسداس فى كيفية الخلاص من هذا الباس فاداه الفكر الى اصلاح المعاش بينه وبين ابى خراش ليدوم له هذا النشاط ويستمر بواسطة الصلح بساط الانبساط فرأى أنه لا يفيده ما يريده الا بزرع الجميل من كثير وقليل خصوصا فى وقت الفاقه فانه اجلب للصداقه وأبقى فى الوثاقه ثم بعد ذلك يترتب عليها العهود ويتأكد ما يقع عليه الاتفاق من العقود وهو أن يلتزم الجرذان أن يقوم لأبى غزوان فى كل غداء من طيب الغذاء ما يكفيه لغدائه وعشائه لان الشيخ فى الدرس قال خير المال ما وقيت به النفس الى أن يصح جسده ويرد اليه من عيشه رغده ويكون ذلك سببا لعقود الصداقه وترك العداوة القديمة السابقه وان نشترط دوام المحبه وازدياد الوداد والعصبه وأن لا يقصد أبو الهيثم أبا راشد بشئ من الاذى والشرور والمفاسد ويعمل هذا الهر بموجب ما قال الشاعر

ان الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا * من كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم ان الجرذان جمع من الاخباز والاجبان واللحم القديد والمطعم المزيد ما قدر على حمله ونهضت قوته بنقله وقصد مقام الهر وسلم عليه سلام مكرم مبر محب قديم وصديق حميم وقدم ما معه اليه وتراءى بكثرة التودد والاشتياق عليه وقال يعز على ويعظم لدى أنى أراك يا خير جار فى هذا الضرر والاضطرار ولكن العاقبة الى خير وسيقبل السعد بأحسن

طيرفتقدم أيها الخيطل وكل من هذا المأ كل فاذا سددت خلتك كلتك بشئ استشيربه خدمتك فانه قد قيل

ان الصداقة أولاها السلام ومن * بعد السلام طعام ثم ترحيب
وبعد ذا الكلام فى ملاطفة * وضحك ثغر واحسان وتقريب
وأصل ذلك ان تبقى شمائلها * بين الاحبة تأييد وتأديب
لم تنس غيبا ولم تقل اذا حضروا * قد زان ذلك تهذيب وترتيب
ان الكرام اذا ما صادقوا صدقوا * لم يثنهم عنه ترغيب وترهيب

فتناول القط من تلك السرقه ماسد رمقه وشكر للجرذان تلك الصدقه ولما أكل قه استحسن الحدقه ثم قال له انشد ما أنت ناشد يا أبا راشد قال ان لى عليك من الحقوق مثل ما للجار الصدوق على الجار الشفوق وأردت أن يتأكد الجوار بالصداقه وتترقى الى درجة المحبة بأوثق علاقه وان كانت بيننا عداوة قديمه فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمه ونستأنف العهود على خلاف الخلق المعهود وتدبير الامور على مصلحة الجمهور ونبقى القاعدة فى البين على ما يعود نفعه على الجانبين وأذكر انك أشياء تحملك على ترك خلقك القديم وتهديك فى طريق الاخاء الى الصراط المستقيم وهو ان أكلى مثلا ما يغذى منك بدنا فضلا عن أن يظهر فيك صحة وسمنا ولكن ان أمنتنى مكرك وأعملت تطرك وفكرك ثم رغبت فى صحبتى وعاهدتنى على سلوك طريق مودتى وأكدت أى أبا غزوان ذلك بمغلظات الايمان الى أن أستوثق باستصحابك وآمن آمنا فى مجيئك وذهابك ولو كنت بين مخالبك وأنيابك فانى ألتزم لك فى كل يوم اذا استيقظت من النوم بما يسد خلتك ويبقى مهجتك صباحا ومساء وغداء وعشاء وان قلت ان ذلك شئ مجهول فانا أقدره بنظير هذا المأكول فان هذا الغذاء يكفيك عشاء وغداء وما قصدت بذلك الارعاية لحق الجوار ولقد أستحى بتسبيحك بالليل والنهار وأظن وظنى لا يخيب انك تبت الى الله ورجعت من قريب وكففت عن أذى الجيران وعففت عن أكل الفيران ثم اعلم يا أسد الضيران ان لى من هذه المؤنة عشر مخازن قد أعددتها لمثلك وأنا أقدمها لنزلك وأذخرها الاجلك والقصد أن أكون آمنا من سطواتك سالكا فى صدمات حركاتك وذلك انما يعلم بتأكيد الاخاء وتأييد المحبة والولاء فلما رأى الهر هذا البر أعجبه هذه النعم وأطربه هذا النغم وأقسم طائعا مختارا ليس اكراها ولا اجبارا أنه لا يسلك مع الجرذان الا طريق الامان والاحسان وانه لا ينوى اليه بقصد سوء بحيث تتأكد المحبه وتزداد يوما فيوما الصداقة والصحبه فرجع الجرذان وهو بهذه الحركة جذلان وصار كل يوم يأتى أبا غزوان بما التزم به من الغداء والعشاء كل صباح وعشاء الى أن صح القط واستوى وسلت خلوات بدنه من الخو والخوا وصارت المحبة تنعقد كل يوم عقدا مجددا ويزداد كل منهما فى الاخوة محبة وتوددا وكان لهذا القط ديك وهو صاحب قديم وصديق نديم كل منهما يأنس بصاحبه ويحفظ خاطره بمراعاة جانبه فحصل للديك تعويق عن زيارة الصديق فغاب عنه مده وكل منهما للفراق فى شده فلم يتفق لهما لقاء الا وقد حصل للقط الشفاء وزال الشقاء فسأل الديك صاحبه عما اذا صارت علته

ذاهبه وذاك الهزال بأى شىء زال فاخبره بأحوال الجرذان بجوال وأنهى أمره من الاول الى الآخر وبالغ فى الشكر فى الباطن والظاهر وانه كان سبب حياته ونجاته من مخاليب مهلكاته وأنه لم يكن مثله فى الاصحاب وقد صار أعز الاصدقاء والاحباب فغار الديك على الصاحب القديم واختشى أن يفسد ما بينهما المفسد الذميم فضحك مستغربا وصفق بجناحيه متعجبا فقال له لم تضحك فقال من سلامة باطنك وانقيادك لمداهنك وحسن صنائعك مع المنافق مخادعك ومكارم أخلاقك مع ناقض ميثاقك واصغائك لهذا الخبيث بحشو الكلام ومموه الحديث ومن يأمن لهذا اليوم الواجب القتل فى الحل والحرم المفسد الفاسق المؤذى المنافق الذى خدعك حتى أمن على نفسه واستطرق بذلك الى التمكن من أذاه وخسه فتسلط فى الاذى كما يختار وانهمك فى الشر آمنا منك البوار كل ذلك بسببك ومكتوب فى صحائف كتبك مع انك لست بمشكور ولا بالخير مذكور وان الذى شاع وذاع وملأ عنك الاسماع انك مستحل عقده وتنكث عهده وتنقض الايمان ويجازى بالسيئة الاحسان وانه لم ير منك ما يسره وهو متوقع منك ما يضره وأعظم من هذا انه آذى وحشر فنادى وبالشر بادى فقال انه احيانى بعد الموت ورد لى بعد الفوت ولولا فضله على وبره الواصل الى لمت هزالا وجوعا ولما عشت اسبوعا ولكنه أشبع جوعك وجلب هجوعك واستنقذ من مخالب المنية بعد ذهابك رجوعك فشفاك وعافاك ووصالك وصافاك وكفاك المؤنة وكافاك وأنك كافيته مكافأة التمساح وجازيت حسناته بالسيآت القباح ولم يكن لاحسانه اليك ولا للمامن به عليك سبب ولا علاقة سوى طهارة نفس زكت اخلاقه ولا لاساءتك اليه سبب تنقم به عليه الا ما اسداه من مكارم شيمه الواصلة اليك وفوائد نعمه السابغة عليك وقد أشاع هذا كله فى الشوارع والحارات خصوصا فى هذه المحلة ثم أقسم بعن عطفه عليك وساق فضله اليك وجعلك محتاجا الى نواله وأسبل عليك لباس صدقاته وافضاله ليستوفين منك ما صنعته وليحتفظن عليك ما عليه ضيعته وليوقعنك فى طوى بليه يعجز عن خلاصك منها كل البريه فلم يحن منك جنس الفار وليخلدن ذكر هذه القضية فى بطون الاسفار وبالجملة فهل سمعت ان جرذا ناصادق هره أو اتفق بينهما مرافقة فى الدنيا ولو مره ومناصحة القط والفار كمصادقة الماء والنار

فانت كواضع فى الماء جمرا * وأنت كمودع الريح الترابا

فلما سمع القط هذا الكلام تألم باطنه ببعض ايلام وما صدق ولكن ظن واشتغل خاطره لامر عن وتلهب واشتعل ومن يسمع يخل وقال للديك جزاك الله عنى خيرا وما أكثر شفقتك طيرا ولكن من قال لك هذا المقال قال أنت محب وعلى مودة الجرذان مكب وقد قال سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم حبك للشئ يعمى ويصم وقال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما ان عين السخط تبدى المساويا

ولقد غرتك بلقيمات من الحرام والسحت المنغمس فى الآثام وجعلها بمنزلة حبة الفخ فلا تشعر بها الا وأنت فى السلخ قد وقعت ولا رفيق ولا أخ هنالك يعرف تحقيق هذا الكلام ولكن أنت الآن راقد مثل النيام والكلام ما يفيد ولا بد أن الله تعالى يجرى ما يريد

وما في اشاعة الكلام طائل وكأنك أنت القائل

ظن العذول بان عذلي يتقع * قل ما نشا فعلي ان لا أسمع

وما قلت لك هذا الكلام الا من فرط الشفقة والضرام ورعاية لحق ما وجب على من القيام . وحفظا للصداقة القديمه والمودة التي صحابتها ديمه وأنا لو غششت كل أحد ما خطر لي ان أغشك وأنا لا استشهد على صدقي الا يقينك الساكن عشك فرجح جانب صدق الديك كفاك الله شر من يؤذيك وقال القط في خاطره بعد ما أجال قداح ضمائره هذا الديك من حين انفلقت عنه البيضه وسرحت أنا واياه من الصداقة في روضه ما وقفت له على كذب ولا سمعت عنه انه لزور مرتكب مع انه مؤذن أمين بين ظهور المسلمين وهو بالصدق قمين وما حمله على هذا الا المحبه وقديم المودة والصحبه وهو أبعد من أن يكذب ويخدع وأي قصد له في أن يغش ويتصنع وتردد أبو هريره في تيه الحيره بين الديك والفريره ثم قال للديك وقاك الله شر أعاديك فكيف اعرف صدق هذا الخبر وهل للدلالة على سوء طويته علامة تنتظر قال نعم ورب الحرم علامة ذلك أنه اذا دخل عليك ونظر اليك أن يكون منخفض الرأس مجتمع الانفاس متوقعا حلول نائبه أو نزول مصيبة صائبه أو شمول بلية غائبه متلفتا يمينا وشمالا متخوفا نكالا ووبالا طائقا يتنقب شائقا يترقب وذلك لانه خائن والخائن خائف وهذا بائن وبينهما في المحاوره والمناظرة والمشاوره تصادف بان القيل والقال دخل المفسد أبو جوال وهو غافل عن هذه الاحوال فرأى أبا اليقظان يخاطب أبا غزوان فخنس وقهقر وتخوف وتشوز وهو غافل عما قضاه الله وقدر فاشمأز لرؤيته الديك وابرأل واتفض واشعل فارتعد الجرذان من شيخ الديكه لما رأى منه هذه الحركه وانتفش وانزوى وتقبض وزوى وأشبه بغدادي بلع الدوا ونظر يمينا وشمالا كالطالب للمفر مجالا والقط يراقب أحواله ويميز حركاته وأفعاله فتحقق ما قاله أبو سليمان ونظر الى الجرذان نظر الغضبان وهمز واكفهر ورقصت شواربه وازبأر فاضطرب الجرذان وطلب الامان فنسي السنور العهود والايمان ونفض عرق العداوة القديمة والعدوان وطفر على الجرذان وأدخله في حيز خبر كان وأخلى منه الزمان والمكان وانما أوردت هذا التنظير أيها الصاحب البصير لفائدتين جليلتين عظيمتين احداهما الاعلام بالتحقيق ان العدو العتيق لا يتأتى منه صديق ثانيتهما الاعلام بان الواجب على الحكام أن لا يعجلوا بالانتقام فربما اورثهم الاستعجال الندامة في المآل في حالة لا يفيد العذل والتفنيد وعند ذلك لا يمكن التدارك بل اذا نقل اليهم وأورد عليهم ما يثير غبار الغضب ويحمي من نارا سخط اللهب لا يفلتون زمام التثبت والتفكر من أنامل التأني والتدبر خصوصا السلاطين والملوك الاساطين فان قدرتهم واسعه وأطراف أوامرهم شاسعه وأوهاق اختيارهم طويله ومرامي المراد لمرامهم منيله وآذان الكون لاوامرهم سميعه وعين المكان لمراسيمهم مراقبة مطيعه فمهما أرادوا من النفع أوصلوا ومهما اختاروا من الضرر فعلوا وذلك في كل حين ممسين أو مصبحين ولذلك قالوا القاضي لا يحكم حكما الا وهو راضي ولا يحكم وهو غضبان ولا مشغول الخاطر ولا غرثان فان وجدوا

طريقا الى الخير بادروا اليه واذا قصدوا ايقاع شر توقفوا لديه ولا يهملوه بل يسبروا غوره
الى أن يقفوا عليه فربما يكون من مداخلة عدوّ او حاسد أو يتعاطى من له غرض فاسد ثم
اعلم يا ذا التبصرة والفضل والتذكرة انه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره فلما وعى يسار هذا الحوار قال ما أزهى هذه النصائح وأذكى ما لها من روائح
وأنا أقبل عليها وأقبلها ولا يزايل مرتشف سمعي مقبلها وعلى ذلك أعاهدك ومهما رأيت
غيره أعاقدك فانه للملك عين المصلحة وللملك زين ومصلحة وأيضا فاشترط ما بدا لك مما
يزين حالك ويصون مالك ومآلك قال وأريد أن تكون حرمتي موفوره وكلمتي معتبره ومنزلتي
على أقراني مرتفعه ومكانتي في الممالك متسعه بحيث تكون مزيتي ظاهره ومرتبتي
لا كفاتي باهره وكلامي في محل الاصغاء والقبول متصلا بالنجاح في السؤل والمسؤل
فان حسن العهد وحفظ الود ورعاية الحقوق القديمة السابقه والخدمة المستمرة
المتلاحقه دليل على كمال المروأة والوفاء ونهاية الفتوة والصفاء لاسيما من الملوك والاكابر
في حق خدمهم الاصاغر ففي الحقيقة رفعة الخادم وكمال حرمته من رفعة مخدومه وعزته
وكل من رفع قدر خدمه وحافظ على حفظ حشمه ومنع جانبهم ورعى حاضرهم وغائبهم انما
حفظ اطراف حشمته وراعى جانب عظمته وحرمته وكل كبير امتهن خدامه وأذل جماعته
وقوامه ولم يتراهم منازلهم ولا عرف فضائلهم وساوى بأواخرهم أوائلهم فانما أضاع
مكانة نفسه ولم يفرق في الفكر بين يومه وغده وأمسه واذا لم يصغ الملك لكلام الوزير
واستثقل بأوضاع ناصحه والمشير فابتذله وانتهره واستقله واحتقره خصوصا في الجامع
والمحافل بين العساكر والجحافل فأي حرمة تبقى له عند البقيه من سائر الخدم والرعيه وأي
مرسوم وكلام يسمع له عند العوام فيتكدر خاطره وتتغير سرائره فيدعوه ذلك والعياذ
بالله الى شق العصا اذ صار على باب مخدومه معلقا كالعصا وقدره في المكانه وقوله في
البلاغه صار كالزيف في الصاغه والفسوق في الدباغه وناهيك ايها الخبير ما قالته لامها
الزاغه قال يسار أخبرني بذلك يا جهينة الاخبار قال ذكر أن زاغه في بلد مراغه انتشى لها
فرخه انتشر لها بين الطيور صرخه وكانت ذات بهجة لطيفه وصفات ظريفه وتربت يتيمة
بالدلال وجمعت بين فنون الكمال فلما بلغت مبلغ الزواج خطبها من صنوف الطير الازواج
وترادفت عليها الخطاب ودخلوا على أمها في ذلك من كل باب فكانت تأبى عليهم ولا تلتفت
الى بذلهم ولا اليهم الى أن بلغ خبرها الى بومه كريهة الوجه مشومه بينها وبين أم الزاغة
صداقة قديمه فخطبتها لابنها وأبانت للطير مزيد رغبتها فاستشارت الام ابنتها وأظهرت في
ابن البومة رغبتها وقالت أي ربيبة الخير قد رغب فيك أصناف الطير فكنت ادافعهم
وأسوف بهم وأمانعهم وقد اشتهر صيتك بين الكبراء وخطبك من الامراء والوزراء وأنا
على المطاوله والرد والمقاوله وقد استعصيت منهم واخشيت غائلة ما يصدر عنهم ولم أفعل
ذلك الا رعاية لحالك وخوفا من زوج ظالم بقدرك غير عالم يستضعف جانبك ويكره
أهلك وأقاربك ثم لا تقدري على مقاومته وتتعب في مرافقته ومفارقته لاسيما ان صار بينكما
معاشقه فيصير نكاحكما كنكاح الدماشقه كل يضمر السوء لصاحبه حالة المعانقه وكل

يا أحسن طائر معنى بما قال الشاعر

وأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه انت صابر

ونعوذ بالله من اختلاف الوداد وأن يصير نكاح السنة كنكاح أهل بغداد قال صادقها في محله مثل أبي بكر الرباني ودله اومثل الفرغاني وعلى أوجارة تشبه عيشة تلى تزوجها من يدى وزدتها نكدى فكنت لهذه الامور اخشى تقلبات الدهور وارد خطاب الجهور وقد خطبك يا كريمه ابن صاحبة قديمه وهى البومة الفلانيه وهى صاحبة هنيه وأخلاق ابنها رضيه وهو شخص فقير ضعيف الحال حقير نقلبه فى أيدينا كما نريد ونتصرف فيه تصرف الموالى فى العبيد لا فى الطير جنس يحبه بل كلهم يكرهه ويسبه ولا له ناصر علينا ولا جارح يدلى به الينا فهو تحت طاعتك كما تحبين وفى ربقة ارادتك كما تريدين لا كالحمام يتطوق بطوق الفخر ولا كالهدهد يتوج بتاج الكبر فما رأيك فى هذا الامر فقالت الزريقه مقالة بليغه حفظت شيأ وغابت عنك اشياء ساصنع بزوج ممتهن وبغيض الاجناس ممتحن مكسور مهجور يتطير منه بين الطيور وهذا يخطفه وهذا ينقفه وهذا ينقره وهذا ينتره وهذا ياسره وهذا يكسره واذا لم يكن للزوج حرمه ولا تسمع له كلمه خصوصا عند زوجته واهل بيته وعترته فاى قدر يكون له عند غيرها وأنى ينشر بالسعد جناح طيرها وقد قال رب السموات والارض ومالك الطول والعرض والبسط والقبض والرفع والخفض الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وقال من جعلهم قوامين وذو والتنامنه وجه وللرجال عليهن درجه ومقدار المرأة بين جيرانها وأهلها انما يعرف بقدر حرمة بعلها وانا كيف يبقى حالى وبالى وما على ومالى بين جيرانى وصواحبى وأهلى واقاربى اذا كان زوجى ذليلا بينا محتقرا بين الناس حزينا والله لا يكون لى بزوج ولو بلغ رأسه الى الاوج ولا أمد اليه باعى ولا يرفعه فى مركب الزوجية شراعى وانما أوردت هذا المثال يا شبيه الغزال لا بين انه اذا لم يكن لى فى دارك عزه ولا يرفع مكانتى ومكانى نشاط وهزه فلا يرجونى الصديق الموافق ولا يخافنى العدو المنافق فيختل أمرى ويضيع فى غير حاصل عمرى واذا ما أهمل مرسومى تعدى الوهن الى مخدومى قال بسار أبشر ايها الوزير المشفق والكبير المحقق والحكيم الماهر المدقق بالدرجة العليه والمرتبة السنيه والكلمة المقبوله والوظيفة الفاضلة لا المفضوله ولكن انا أيضا لى عليك شروط تزين عقودها المتمات فى المروط هن لدار السعادة أبواب وللترقى لى درج السيادة أسباب ومثلك لا يدل على صواب وهى ان تتقلد العمل مبسوط الامل بجميع ما قررته وتتعاطى ملازمة كل ما حررته من اقامة ناموس المملكة المجيله ورعاية شرائط السلطنة المفضله ومحافظة جانب مخدومك والانهاء الى مسامعه بجميع ما فى معلومك وتقديم مصالحه على مصالحك ومعاملة رعيته بالجهد فى نصائحك وكسه عن المظالم والعدول به عن طريق المأثم والغيرة على دينه واعتقاده ويقينه أكثر من الغيرة على دنياه وفى الجملة لا يكون الملك الا لله بحيث لا تكون من قبيل لم تقولون ما لا تفعلون واياك والرشا والبرطيل والدخول لعرض الدنيا فى الاباطيل وتوقع ظلم الرعيه للاغراض الدنية أوالاعراض الدنيوية واتق دعوة المظلوم وأن يصل سهامها الى

مولانا المخدوم واعلم انا ان بنينا أساس الامور على قواعد الظلم والشرور فنحن من الخاسرين ومن الذين ظلموا والله لايحب الظالمين وسيقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين بل ابن الامور على اساس التقوى فانك بالتقوى تقوى وبراويها تروى فمن تحلى بالقضايا العاطله وتشبث باذيال الامور الباطله ولم يقصد وجه الله فى حركاته وسكناته وادخل شوائب الرياء والسمعة فى اعماله وطاعاته لايعنى له حال ولايصلح له مال ولاما آل ويصيبه ما اصاب السائح الذى ادعى اخلاص العمل الصالح ثم شرع فى حركته واخلص فظهرت آثار براءته فلما قصد الاعراض الدنيه فسد ظاهره بفساد النيه فسأل المشرق عن حال ذلك الشقى قال كان فى أقصى بلاد الصين طوائف غير ذى عقل رصين انبت لهم فى بعض الجبال زراع القدرة ذو الجلال فى رياض النزاهة والكمال شجرة ذات بهجة وجمال أصلها فى أرض الملاحة ثابت وفرعها فى اصل المحاسن نابت وغصنها الى سماء العلا واصل وورقها كعقود الجمان بالبهاء متواصل لاسموم الصيف يزيل زهرتها ولاعواصف الخريف تذهب خضرتها ولاصرصر الشتاء يعرى أغصانها ولالواقح الربيع تذرى افنانها فأعجب بحسنها أهل تلك الديار وأشربوها اشراب بنى اسرائيل عجلا جسدا له خوار ثم تفانوا فى حبها وتهالكوا على قربها فعبدوها كما عبدوه واعتقدوها كما اعتقدوه واستولى على عقولهم الشيطان وصار يخاطبهم من الشجرة واحد من الجان فزادهم فيها اعتقادا وعمهم بعبادتها كفرا وعنادا فقدم تلك البلاد فقير من السائحين وهو من عباد الله الصالحين فلما رأى تلك الحاله افزعه ذلك وهاله وأخذته غيرة الاسلام وغضبة دعته الى القيام فاخذ فاسا وقصدها ليقطع ساقها وعضدها فلما قرب اليها وأراد وضع الفاس عليها سمع منها صوتا خوفه وعن مراده أوقفه فقال أيها الرجل الصالح والقادم السائح فيم ذى الهمه وعلام هذه العزمة المهمه وما قصدك بهذه الصدمه فقال غيرة لله أيها المضل اللاه شجرة تعبد من دون الرحمن ولايغار لهذا الشان انسان فلاقطعنك أيتها الشجرة المضله ولاجعلنك حطبا ومثله فانك قد أضللت كثيرا من الناس وفعلت مالم يفعله الوسواس الخناس وانك لاتنفعين ولاتضرين سوى انك الى النار تجرين فقالت أيها الرجل الزاهد الصالح العابد انا ما آذيتك ولاضاررتك وان رأيت نفعتك وبررتك وحاشاك أن تؤذى من لا آذاك وانا اعلم أيها الرجل الكبير أنك غريب وفقير وما اقدمك على هذا الباس الا الغربة والافلاس فكف عن هذا الامر واطفى نائرة هذا الجمر وارجع الى منزلك واشتغل بطاعتك وعملك وانا اوصلك كل نهار دينارا ذهبا نضارا كاملا وافيا معيارا يأتيك هنيئا ميسرا كل صباح مبكرا اذا استيقظت من رقدتك تجده موضوعا تحت وسادتك وهذا هو الاليق بحالك وأفرغ لخاطرك وبالك وأخلص لك من ورطات المهالك واذا أصلحت مع الله سريرتك وطهرت من ادناس الدنيا سرك وسيرتك فاترك الناس ولو كانوا جيرتك أو أهلك وعشيرتك وعليك بخويصة نفسك فاذا انقذتها من الورطات فأمسك وقد قال منزل القرآن لحرسكم يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم فلما سمع بالدينار الهاه الطمع والاغترار فبردت همته وضعفت فى اقه قوته وتركها ورجع وترك القيام وهجع فلما أصبح الصباح وحاز بالصلاة الفلاح بادر الى الفراش

وطلب المعاش فوجد الدينار كما ذكره الشيطان وأشار فالتقطه وابتهج وتحقق انه فتوح باب الفرج واستمر على ذلك اسبوعا والذهب عنده مجموعا ثم بعد ذلك قصد الفراش بسرور واهتشاش فلم يجد شيأ من الذهب فحرق قلبه والتهب فاخذه الحنق والقلق وأخذ الفاس وانطلق فلما قرب من الشجرة ناديته بالفاظ عكرة قف مكانك واذكر شانك وقل لى فيما اذا جيت فلا حييت ولاحييت فقال جئت لاقطعك ومن الارض أقلعك غيرة على الدين وقياما بحق رب العالمين فقالت كذبت انما غرت وشبت وقمت وقعدت برقت ورعدت لفقدك الذهب الذى عنك ذهب وانما كانت الغيرة الصحيحة والقومة المليحة الناهضة الصحيحة القومة الاولى فانها كانت والحق قد تجلى فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا فى منعك وصدك لما ظفروا بك ولا قاموا بحروبك واما الآن فهذه الغضبة غضبة الفاجرة القصبة التى حصلت بواسطة عدم الدينار فهى التى اثارت منك ما اثار فلودنوت منى خطوة أوتقدمت من مقامك ربوة دققت عنقك وشققت زقك وقد قلت انى لااضر ولا أنفع ولا أجلب ولا أدفع فاما المنفعه ياصلعه بن قلعه فانك رأيتها فى الدنانير التى لقيتها فتقرر النفع باستحق الصفع وأما المضره فقسها على المنفعة ياأبا مره فان الذى له قدرة على المبره ربما يقتدر على الايذاء والمضره وان شئت تقدم وجرب لتعلم واخبر واسبر وانظر كيف اثر منك الراس بهذا الفاس وحقق وصدق ان كتفك حلت حتفك فبهت الرجل وتحير وشاف وخار وتقهقر وانقطع حبل رجائه وافات يتلفت الى ورائه وانما ذكرت هذا التعلم أيها الوزير المكرم ان كل أمر لايقصد به وجه الله فان عقباه الندم وان حسن اولاه وكل قصد ليس لغرض صالح فان شجرة غراسه لاتثمر الا الفضائح فترك الشروع فيه أولى ومحو صورته من لوح الضمير اجلى ومن لم يترك مالايعنيه وقع فيما يعنيه وحل به من الفضيحة والايلام ماحل بذلك المفسد فى مدينة السلام فقال الزنيم المشرقى البصير الافرقى كيف كانت تلك الفضيحه ليأخذ منها النفسه النصيحه قال كان فى مدينة بغداد صانع حريرى استاذ خبير له جار سنى الجوار وزوجة تخجل البدر عند الكمال والشمس قبل الزوال وذلك الجار الجانى يدعى ابن الفرغانى ففى بعض مطاره لمح زوجة جاره فتعلق قلبه بها واشتغل من هواها نار احشائه بحبها فاخذ يلهو بها الى ان افسدها والى الضلال ارشدها وكان الزوج مغرما بها فوجد على حالها منها فصار يراقبها من كافه ولا يغفل عنها لشدة شغفه ويجتهد فى كفها عن الخيانه وان تحفظ الغيب وتؤدى الامانه ففى بعض الاوقات رأى فى بعض الطرقات صيادا ومعه طير قد اوثق رجليه بسير فسأله عن طيره والى أين قصده فى سيره فقال هذا من الجوارح السوانح لا البوارح يحاكى الصوادح ويباكى النوائح وفيه سر عجيب وأمر غريب وهو انه اذا كان فى بيت ورأى فيه على صاحبته كيت وكيت أخبر زوجها خبره وقص بجره وبجره وقد رغب فيه رئيس يشتريه فانا ذاهب به اليه اقدمه لديه وامتن به عليه فرغب فيه الحريرى واشتراه وأتى به الى ذراه وقال لزوجته أكرمى مثواه واحسنى مأواه فانه يخبر بكل ما رآه وهو من أحسن صفاته واعجب أموره وحكاياته ومهما فعلت زوجة الانسان ذكره على وجهه كما كان فقالت نحن بحمد الله فى بركه آمنون عما ينقل عنا

من حركة فان رأى شيأ يهوله لا يكتمه عنا بل يقوله فتركه الزوج وذهب فدخل الحريف الملتهب فرأى المرأة وحدها والطير عندها فاخذ في المهارشة ومد يده الصناوشته فقالت كف يدك واحفظ الذمام فانه قد حصل علينا رقيب نمام فكف يدك يا حبيب لئلا نصاب ولا نصيب وتفكر في قول الشاعر المصيب

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل علي رقيب

فقال وأين الرقيب ياست الجار والحبيب قالت هذا الطير ليس غير فان له خواص عجيبة وفيه أشياء لطيفة عجيبة منها انه نمام ومهما رآه أوسمع من الكلام فانه يفض عنه الختام ويذكره لصاحب البيت على التمام فقهقه بصوت عال وسخر منها وقال صدق سيد المرسلين الذي قال النساء ناقصات عقل ودين ثم أقسم بحياتها وحسن ذاتها وصفاتها ليوبخن القضيب في الكثيب بمرأى من ذلك الرقيب حتى اذا فرغ من أمره يسمع في منقاره ورأس ايره ليعلها صحة ما اوهمها ثم حاورها وغابها وساورها وقلبها وحل الصدر بالسكة وتعلقت الحلقة بالسكة وامتزجت الالف العربية بالكاف الكوفية والتم زر الوردة النصيبيه شفاه الوردة القسري فيه واستمر في أخذ وعطاء بلا غطاء ولا وطاء كانهما افواج الحجاج أو ثباج الامواج في شيل وحط وقبض وبسط وهرج ومرج ودخل وخرج واستمر من نحو هذا التصريف في بحث الرفع والجر ومن علم المطاردة والركوب في صنعة الكر والفر ومن علم الزندقة والالحاد في عالم الحلول والاتحاد الى ان دفق الابريق العقيق في قدح اللجين شراب الرحيق وقد أنشد الحريف هذا النظم الظريف وهو

لو تنظر الرقبا وقد عانقته * والشمع مشتعل وبابي مقفل
طورا اشاهده وارشف تارة * واضمه من بعد ما أتأمل
واذا تغشى ذيل ثوبي بان لي * من جيبه شيء عليه المقتل

فلما سال الميزاب بما يجرى وقضى زيد منها وطرا نهض ليبرّ قسمه حسبما مزه وقسمه وادنى من منقاره غرموله وكان الطائر مدة لم يتناول ما كوله فتصوره قطعة لحم قدمها اليه طعمه فأنشب مخالبه فيه فاستغاث بعل فيه وكاد ان يغمي عليه واستعان بحبيبة قلبه اليه فاقبلت المرأة كالحدأة فاشار عليها أن تكشف عن ساقيها وترى الطير بظرها وحرته فربما يلتهي به ويترك آلته فتكشفت وادنته اليه وعولت في خلاص صاحبها عليه فوثب لشدة قرمه وتأثير الجوع وألمه ليلهم ذاك القلهم فأنشب مخالب رجله الاخرى في فلهم تلك البظرا فاشتبكا وفي البلاء اشتركا وبقيا هما في تعاطل الكلاب واذا بالزوج قد دخل من الباب فرآهما على تلك الحال من الاشتباك والاعتقال ونقل الطير ما قال بالافعال دون الاقوال فصح قوله وفعله وفعل معهما ما يجب فعله وانما أوردت هذا البيان لاعلم اشرف جنس الحيوان ان الشروع فيما ليس فيه منفوع يجب الابعاد عنه والفرار منه وعدم الاصغاء اليه والتوجه والاقبال عليه ولهذا قال النبي النبيه من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه قال المشرقي ما بقي يا تقي الآن ترنق فلقد طال البيان وضاع الزمان (شعر)

فانهض هديت الى مارمته عجلا * فالدهر عات وللتأخير آفات

وكانت هذه المحاوره تحت ظل شجره فيها وكرحمامه وكان لها بالبلد اقامه في برج رجل من أهل الزعامه ثم اختارت العزله واختيم انه مقوله فاختارت هذا المقام ولها فيه عدة أعوام فسمعت جميع ما قالاه من مبدئه الى منتهاه فلما وعت ما اتفقا عليه وتداعيا اليه اخذت تضرب اخماسا لاسداس وتتأمل فيما يتجلى من عرائس معانيه من القدم الى الراس وتجيل في صور مبانيه قداح النظر وتلاحظ سيرة غاويه بلواحظ الفكر وتجوز مذاهبه وتروز عواقبه وتقيس مدارك عوارجه وتقيس في مداخله ومخارجه فادى فاتد فكرها ورائد نظرها الى انه ربما يكون لهما شان وعلو مكانة ومكان فان محاوراتهما وما مر من مناظراتهما كانت منطوية على ذكاء وفطنه وتجارب وحكمه وعلو همه صادرة عن فكر مصيب ورأى له في السداد وفر نصيب ولم يبق لهما في القدر الا مساعدة القضاء والقدر واذا كان الامر كذلك فالاليق في قطع هذه المسالك المبادرة الى التعرف بهما واعانتهما والتقرب الى خواطرهما ومساعدتهما على ما هما فيه ومساعفتهما بما تصل اليه اليد وتحويه لانهما في حالة الشدة وزمان الانفراد والوحده محتاجان الى المساعده والمساعفة والمرافقه وفي مثل هذه الحالة تظهر الفضيلة ويتحملان المنة والجميلة وتقع مساعدتي أحسن موقع وتنزلني عندهما أرفع موضع فانه اذا علا شانهما وارتفع بدون معاونتي قدرهما ومكانهما واجتمع عليهما الجنود وأقبل اليهما الوفود وكثرت الحفدة والاتباع وتكاثفت العساكر والاشياع فغاية ظهر لمن يتقرب اليهما ويتراءى لديهما اذ ذاك كبير فائده ولا كثير عائده ثم انها توكلت على الرحمن وصدحت على الاغصان بقولها

على الطائر الميمون والبشر والسعد * سموت الى العليا منهم دا على نهد

ثم هبطت وبين أيديهما سقطت فاذكرت قول الرئيس هذا الشعر النفيس

هبطت اليك من المحل الارفع * ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقبلت الارض ووقفت في مقام العرض ولزمت شرائط الحشمه وادت مواجب الخدمة وهنأت نفسها والكون بسلطنة الملك بسلارخات الصوت وقالت اني الكاتم العون وموطني في هذه الشجره وانا الاوامر كم مؤتمره وقد وعيت ما قلتماه ومادار بينكما وذكرتماه ورأيته صادرا من مشكاة السعاده مشرقا بانوار السيادة سهامه نافذة في قلب الغرض وسيستعبد جواهر الرعايا بادني عرض فان حسامه مطبق لمفصل القصد وشانه سيبلغ أعلى اليمن والسعد وها قد جئت مبادره واردة منهل الطاعة وصادره فأمر الامتثال وانظر الاحتفال وتحكما لا طيع وتكلما فاني سميع فان اشرتما فالقصد قاف وان استشرتما فالرأى كاف وان خبرتما فالحزم واف وان استنهضتما فالعزم شاف وان استخدمتما فالعبد خادم صاف مصاف فلما رأيا من الحمامه هذه الكرامه تبسم الزنيم وتفاءل واشرق وجهه وتهلل وتيمن بطلعة الورقا وعلم أن أمرهما يرقى وقال ليسار هذا من علامات اليسار وجبر الانكسار والخروج الى اليمن من اليسار وعنوان السعود وحصول النجح والمقصود فان مسبب الاسباب العزيز الوهاب تبارك وتعالى وجل جلالا هو منشئ السحاب ومفتح الابواب واذا أراد أمرا هيأ اسبابه وفتح على الضعيف طاقته وبابه ووسع وطابه وسدد الى مرامى المرام

الراميه نشابه وحصول مثل هذا الصاحب الصادق والرفيق الموافق والمعين المصادق ادل
دليل على أن الله الجليل ييسر هذا المطلوب ويظهر هذا النجح المحبوب ثم انهما استشارا
الحمامه فى كيفية نيل الزعامه والشروع فى هذا الامر والتوصل الى دعوة زيد وعمرو وطريقة
اشتهاره وتعاطى أسباب انتشاره فقالت أنا من جنس الطير مشهورة بينهم بالخير ولهم الىّ
سكون وعلى مناصحتى اعتماد وركون فالصواب فى فتح هذا الباب دعوة الجمهور من الطيور
وانا به زعيم وفى الرسالة حكيم فان اقتضى الرأى الرفيع توجهت ودعوت الجميع بعد التخيير
والتشهير بين الكبير منهم والصغير ان ابا الجراء السلطان وابا الجداء الوزير وقد وقع
الاتفاق فى الآفاق على هذا الوفاق فليبتهج سائر الطيور بهذا الفرح والسرور وليقرأ
على رؤس الجمهور هذا المقال المنشور وليبادر الى الخدمة بالحضور ولا يتخلف أحد من
آمر ومأمور والحذر الحذر من المخالفه وعدم الانقياد والمؤالفه فقد طاب الوقت وراق
وزال المقت والشقاق والمسارعة فى أقرب زمان ليأخذوا لانفسهم الامان ولا يركبوا من
التعويق سوى متن مسافة الطريق فاعجب الملك والوزير من الهديل هذا الهدير فكتب
بذلك بطاقه وحملها الحمامة باحكم وثاقه ثم أخذت الى الجو ووقيت من الجوارح السو ثم
هبطت الى مجمع الطير وهو نادى الندى والخير فرأت منها خلقا كثيرا وجمعا غزيرا فسلمت
سلام المشتاق وعانقت عناق العشاق فترحبوا بقدمها وسألوا عن معرب أحوالها ومعجمها
وقدموا موائد الضيافه واظهروا السرور واللطافه فبثتهم كثرة الاشواق وما عانته من
الم الفراق وقد حرضها شدة الشوق وساقها اليهم اشد سوق وبينها أيضا باعث وهو من
أحسن الوقائع وأين الحوادث وذلك أن شخصا من أصلاء بنى سلاق الحاكم على بنى زغار
وبنى براق تولى سلطنة السباع ومالكية الذئاب والضباع مضافا الى ذلك الحكم على الطيور
والقيام بسياسة أمور الجمهور وأقام له فى ذلك وزيرا كافيا ناصحا مشيرا يدعى بازغة المشرق
من نسل تكابك الارتق وهو من الفحول وكباش الوعول وقد أرسلونى الى الجماعه يأمرونهم
بالدخول فى رياض الطاعه ليحصل لهم الرعى والرعايه والرفاهية والحمايه ويأمنوا صيد
الصائد وكيد الكائد ثم شرعت تبث للكبير والصغير ما شاهدت من مخايل الملك والوزير
وحسن شمائلهما وعين خصائلهما وما هما عليه ونسبا اليه من الشجاعة والدين والعقل
المتين والفضل المبين والقناعة والعفه والجد الذى لا تدرك وصفه وان الملك المعلوم
قد عف عن تناول اللحوم وقد قنع بما يسد الرمق من حشيش النبات والورق وقد تكفل
برفع المظالم وردع الظالم واجراء مراسم العدل واحياء مواسم الفضل فان انابوا واجابوا
ربحوا واصابوا وطالوا وطابوا وان أبوا وصبوا واهتزوا للمخالفة وربوا ثم وكسهم الدمار
واركسهم فلا يلوموا الا أنفسهم فصدقوها من اول وهله والرائد لا يكذب أهله لانهم كانوا
بها واثقين ولكلامها فى الحوادث مصدقين فما وسعهم الا الطاعه والتوجه الى خدمة
الملك فى تلك الساعه وبعد ما تبادروا بالتصديق طاروا بالفرح ودخلوا الطريق واستصحبوا
من الخدم والتقادم ما يصلح للمخدوم من الخادم فلما قربت الديار ودنوا من ولاية الملك يسار
تقدمت الحمامة وسبقت وأخبرت الملك والوزير بما فتقت ورتقت فاستبشروا بما تقدم وبادر

الوزير بالاقاة المقدم فتلقاهم بالاحترام والتوقير وأكرم الكبير منهم والصغير ومشى معهم بالاكرام والحرمه واوقف كلا منهم في مقام الخدمه وحين استقر بهم المقام افتتح الوزير الكلام فاثنى على الله تعالى وضاعف التحية على نبيه ووالى ثم امتدح الملك الذكى بثناء يخجل المسك الذكى وذكر بعد ذلك ما يتعلق بسياسة الممالك وان الله من بالملك عليه وساق سلطنة الوحش والطيور اليه وذكر مقام كل من الطيور وماوطئته بيننا وبالك الجمهور فاطاع الكل وتابعوا وعلى ما اقترحه عليهم بايعوا وأنشدوا فارشدوا

وتحن أتينا طائعين ولم نكن * عصاة فرم غير الطيور عساكرا

ولما انقضى الوطر من قضايا الطير أخذوا في استدعاء جموع الغير من الوحوش الكواسر والبهائم الجواسر والهوام النواشر والجوارح النواسر وأرسلوا من تلك الجماعة الحمامه وقلدوها فيه طوق الزعامه فتوجهت نحو الوحش والى كل قارح من الصيد وجحش وكانوا بذلك قد سمعوا وللمشاورة فيه قد اجتمعوا فبلغت الحمامة الرساله وأظهرت ما فيها من بساله وكان آخر ما وقع عليه الاتفاق الوفاق وعدم النفاق وقصد الارتفاق والتوجه الى خدمة الملك بسار صحبة الرفاق وقالوا لا شك أن الكلب بالوفا مشهور وبحسن الرعاية والحراسة مذكور ويقدر أن يرعانا من الانسان ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان واوصافه مذكورة في الكتاب وناهيك بفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب فتقدم خزز من بين تلك البزز يدعى رئيس الارانب محبب الى الاقارب والاجانب وهو مشهور بالحصافه موصوف بالذكاء والظرافه والمعرفة التامه والتجربة المفيدة العامه بعيد الفكر في العواقب سديد الرأي حازم مراقب وقال يا معشر الاصحاب واولى الابصار والالباب كيف خفى عليكم ولم يتضح لديكم عاقبة هذه الامور وما فيها من عكوس وشرور وهل يصلح للرياسه واقامة السلطنة والسياسه أهل النذالة والخساسه المتصف بالقذارة والنجاسه اوما علمتم أن من اخس السباب الشتم باخس من الكلاب أوما سمعتم في كلام مالك ازمة القلب في حق من عامله بالسلخ والسلب فمثله كمثل الكلب أوما قال صاحب الشرع في حق ما ولغ فيه الكلب بالسبع ثم التعفير بالتراب وهو مذهب كثير من الاصحاب وأن لا يطهر بالدباغة منه الاهاب لا اصل نقى ولا وصف تقى ولا نسب طاهر ولا حسب ظاهر ولا وجه زاهر ولا شكل باهر فان كنتم نائمين انتبهوا واعرضوا عما قصدتم اليه وانتهوا فلعن الله زمانا صار فيه التيس وزيرا والكلب سلطانا ولقد أرشد من انشد

لقد جار صرف الدهر في كل جانب * من الارض واستولت علينا الاراذل

هل المسخ الآن ترى العرف منكرا * أو الخسف الاحين تعلو الاسافل

فتصدى الهديل للجواب وقال لا شك ولا ارتياب أن المستحق للسلطنة الامام العادل والشخص الكامل الفاضل ولا يقدح في هذا الفصل دناءة الاصل فقد قال القيوم الحى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى وكل من اتصف بالهمة العلية والاوصاف السنيه ومكارم الاخلاق والشيم وانتشر بها صيته بين الامم يستحق أن يرأس بين العرب والعجم واما الانساب ففى نص الكتاب قال من بقوله يهتدى المهتدون فاذا نفخ في الصور

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقال الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * فسوف يغنيك ذا عن النسب
ان الفتى من يقول ها انا ذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال أيضا

لعمرك ما الانسان الا ابن يومه * على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وما الفخر بالعظم الرميم وانما * فخار الذى يبغي الفخار بنفسه

وأما الاوصاف فلاشك ولا خلاف في أن الكلاب فضلت على كثير ممن لبس الثياب وما ذاك الا لاوصاف اختصتها وآثار اقتفتها واقتصتها وهي مشهوره وعن الكلاب مسطوره ومن جملة محاسنهم مأثوره وأما الاوصاف الذميمه فيمكن صيرورتها مستقيمه وذلك بحسن التأديب والتربية والتهذيب والتمرين والتشذيب حتى يصير نابه مديه وهذا اليسر فيه مريه ويجتزي بالفاكهة والبطيخ عن اللحم السليخ وبالخبز الشعير عن أكل لحم الحمير وناهيك يا أبا وثاب ما قيل في الكلاب ولابسي الثياب (شعر)

وما ضر أهل الكهف ايمان كلبهم * ولكنهم زادوا يقينا على هدى
وماذا افاد العلم بلعام وهو من * بني آدم لما الى الارض اخلدا

وهذا السلطان قد عاهد الرحمن أن لا يرزق حيوان ولا يذوق لحمان وأن يقنع بالكفاف ويسلك طريق العفاف وماذا لعجز نسب اليه ولا لوهن طرأ عليه بل سمت همته عن ذلك ترفعا وسلك طريق الملوك في احيائهم همها ومعاليها تطبعا (وبضدها تتبين الاشياء) فان اجبتم كان لكم الحظ الاوفر وان امتنعتم فقد اعذر من انذر وبلغ من حذر وما قصر من بصر والعاقل من يتبصر عيوبه ويسلك من الخلق الجميل دروبه وقد قيل لامير النحل ذاك الاسد الفحل كرم الله وجهه وجعل له الى الرضوان أحسن وجهه يا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ممن تعلمت الادب قال من قليل الادب يعني اذا رأيت في أحد خلقا ذميما أو وصفا فاسدا بادرت الى افتقاد نفسي وتاملت في حدسي وحسي هل انا محلى بذلك الوصف أم لا فان لم يكن اجتهدت أن لا يكون وان كان أبعدته عرضي وأصون وحسبك يا ذا الرتبة العاليه استنكاف اللص العاقل من قول تلك الزانية فقالت الخزز للحمامه أخبريني بذلك الاستنكاف يا ذات الكرامه قالت الحمامة ذكر رواة الاخبار عن شاطر من الشطار قد بلغ في الشطاره واللصوصية غاية المهاره يسرق الوهم من الخاطر والرائحة من الطيب العاطر والنوم من اجفان الوسنان واللماظة من أسنان الجيعان ويأتي على كوامن الغيوب فضلا عن خزائن الجيوب ويلف الرخيص والغالي والوضيع والعالي وقد اعجز المقدم والوالي ففي بعض الاوقات قصد جهة من الجهات فبينما هو في المناهضة والمناهزه غشيه الوالي مع العسس والجلاوزه ومعهم امرأة بغي قد خرجت عن الصراط السوي وهم يضربونها وعلى افظع حالة يسحبونها وهي تستصرخ المسلمين وتستغيث ائمة الدين فلما أحس اللص بهم تنكب عن دربهم وولاهم عطفه وانزوى في عطفه وانتظر حتى يجوزوا فسمع المرأة وهم بها قد اضروا وهي تصيح بلسان فصيح وتقول يا أهل الاسلام وأمة خير

الانام أنجدونى وارحمونى وأسعدونى لاسرقت ولانقبت ولااختلست ولاسلبت ولاطمعت فى مال أحد ولانهبت ولاوقفت لاحد فى درب وانما استنفق من حاصل دار الضرب وذلك ملكى وحوزى وغرة لوزى وجوزى باشارة سهام الحاظى الموزه من قسى حواجب بالجمال متوزه وسفارة نظام ألفاظى المعززه المشبهه باب طريقها در رافى العقيق والرحيق معززه فالى على أحد ثقل ولاطمعت فى مال أحد فيحصل له منى ملل فلما سمع قاصد الحرام هذا الكلام افاق وصفا خاطره وراق وتنبه لقبح صنعته وان الزوانى تأنف من حرفته وتستنكف عما هو مفترض ملته فقال لعن الله فعلا تتقدمه اللواطى وتباوسحقا لمتعاطيه من متعاطى ثم عاهد الله التواب ورجع اليه عن صنعة الحرام وتاب وانما أوردت هذه المناقب ياشيخ الارانب لتعلم أن العاقل من يتصفح جرائد أعماله ويتأمل صحائف حركاته وأحواله وان هذا الملك صفى شراب صفاته من كدورات الهوى براووق المراقبه ونقى رياض ذاته من شوك الاخلاق الذميمة بمنكاش المعاتبه بقدر طاقته وامكانه وهو مثابر على ذلك فى غالب ازمانه ولايكلف الله نفسا الاوسعها وليس لك أن تعترض بان النفس لاتغير طبعها وليس الاكمه كالارمد ولاالسطيح كالمقعد ولاسحبان كباقل ولاالعاقل كالمتعاقل

ليس التكحل فى العينين كالكحل

وتخرج يامسكين بواقعة السلطان محمود بن سبكتكين مع وزيره حسن الميمندى بسبب القضية الواقعة لابن الجندى فسأل أبو عكرشه اباعكرمه عن هذه الواقعه ليتبين من القتيل مواقعه فقال ان السلطان محمود ذا الطالع المسعود الذى فتح بلاد الهنود جرى بينه وبين وزيره مباحثه وقع فيها عن دقيق العلوم منابثه فى أن الطباع هل تقبل التغيير أم لاتستحيل عما جبلها عليه الفاطر الخبير فقال الوزير نعم تقبل التغيير بواسطة التأديب وحسن التشذيب والتهذيب وقد شاهدنا الطباع من الوحوش والسباع بواسطة التعليم تركت الخلق الذميم واكتسبت الوصف المستقيم لجريان هذا الامكان احرى أن يوجد فى جنس الانسان فقال السلطان المظفر لاتحول الطباع ولاتتغير ولايمكن صرفها عما جبلت عليه ولايتصور قال من ليس فى كلامه اشتباه فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله

وقال القائل وتابى الطباع على الناقل

واستمر هذا الكلام بينهما عدة أيام الى أن ركب السلطان وقصد السيران والوزير فى ركابه بين خدمه وأصحابه فرأيا من بعد شابا من أولاد أحد الجند وهو جالس على فرع شجرة يابس يريد قطعه لما عدم نفعه وقد جعل ظهره الى طرف الفرع وهو عمال المنشار فى اصله للقطع فتأمل السلطان والوزير فى هيئة ذلك الظبى الغرير ثم قال السلطان للوزير بين الاعيان وطبع هذا ايضا داخل فى الامكان وهو يقبل التغيير والتعليم ويمكن استحالته بالتأديب والتفهيم فلم يحر الوزير جوابا لاخطأ ولاصوابا ثم أشار الى بعض خوله أن يذهب بذلك الشاب الى منزله فلما نزل من الركوب أحضر ذلك الشاب المرغوب الغافل المحبوب ثم طلب له مؤدبا حاذقا مهذبا وأمره أن يجتهد فى تعليمه ويبالغ فى تأديبه وتفهيمه ويوقفه من العلوم على دقائقها ويسلك به الى خفايا طرقها وطرائقها فاشتغل بتربيته ليلا ونهارا

وبذل مجهوده فى ذلك سرا وجهارا الى أن برع فى أنواع العلوم وضبطها من طريق المنطوق والمفهوم ولما فرغ من العلوم ادناها وأنهاها من مبتدئها الى منتهاها شرع به فى علم ادريس وهو علم النجوم النفيس واستطرد منه الى علم الرمل المنير وتوسل به الى أن توصل الى اخراج الضمير فاتقن هذه العلوم لاسيما اخراج الضمير الموهوم فلما أتقن ذلك وسلك فيه ادق المسالك أحسن الوزير اليه واستصحبه الى الملك ودخل به عليه فقبل الارض وأدى من شرائط الخدمة النافلة والفرض وقال للسلطان محمود ان هذا هو ذلك الشاب المعهود وقد برع فى العلوم ووصل الى استخراج الضمير المكتوم وقد بدلت بلادته بالذكاء وصار فؤاده كابن ذكاء فان اقتضت الآراء السلطانية سبرته واعتبرت فهمه بعدما اختبرته فادخل السلطان يده فى كمه ونزع خاتمه من بصمه وأطبق يده عليه ليسبر منتهى علمه وينظر ماقاله الوزير فى كيفية هذا التبديل والتغيير ثم اخرج يده من كمه وقال ليظهر نتائج علمه ليخبرنا بما فى كفى وعن حواس العيون مخفى فتقدم الشاب ورفع الاصطرلاب ووضع أوضاع الحساب وخط ذلك النقى اشكال طيات والنقى وسائر الاوضاع من الطريق والاجتماع ثم نظر وسبر وعبس وبسر وقدر وفكر وقال دل الشكل والله أعلم أن ماحواه الكف المكرم شئ من المعادن محفوف بسواد وسواد بائن وهو فى أفضل الاشكال لانه مستدير وفى أحسن الالوان لانه مستنير وفى دائرته قطر ومركز وفى وسطه ثقب ملغز وهو ثقيل اما فى الثمن أو فى التحميل ثم تأمل بعد الوقوف فى أن هذا الموصوف ماذا يكون فقال كانه والله أعلم فردة طاحون فضحك السلطان الكبير وخجل لذلك الوزير ثم قال السلطان أبى الله السبحان أن يكون باقل كسحبان

اذا كان الطباع طباع سوء * فليس بنافع أدب الاديب

وانما أوردت هذه المسائل لئلا يعترض قائل ويستدل بمثل هذا الدليل على ان الطباع لاتقبل التغيير والتحويل بل الطباع تتغير (ومن ذا الذى ياعز لايتغير) فسبحان من لايحول ولايزول الذى وضع عالم السكون على الانتقال والحلول وكل لجلال عظمته مخبت يحق ماأراد ويثبت ويمحو مايشاء ويثبت ومذهب أهل الثبات فى المحو والاثبات أن الكافر قبل الاسلام كافر عند الملك العلام وبعدما انخرط فى سلك المؤمنين صار مؤمنا عند رب العالمين وعلى هذا التقدير والتقرير أيها الفاضل الكبير والعالم النحرير فالملك يسار نظر بعين الاعتبار وتنصل من رذائل الاوصاف وتخلق باخلاق الاشراف من التلبس بالعدل والانصاف ولولا نيته الصالحه ماصارت صفقته فى المبايعة رابحه ولا كانت كفة فضله راجحه ولا ازاله النكد ولا اطاعه أحد والاعمال بالنيات وعلى مقدار النيات العطيات وجنس هذا الملك فى الاوصاف المتباينة مشترك فانه قد جمع بين خصائص الحيوان حتى كأنه سبع بهيمة انسان كما قيل

بجمع الكلب فى حلاه صفات * فهو سبع بهيمة انسان

وكما قيل أيضا

يكاد اذا ما ابصر الضيف مقبلا * يكلمه من حبه وهو أعجم

وانا يا مولاى اعرض عليكم هذا الراى وهو شاهد عدل وحكم فصل وهو أن يقع الاتفاق على واحد منكم من خلص الرفاق من تحققتم حسن آرائه وصدقه فى انبائه وصحة دينه ورصانة عقله ويقينه فأنطلق فى ركابه الى حضرة الملك وجنابه فيكتحل بانوار طلعته ويشمله ميامن رؤيته وبطالع جميل صفاته ليسكن الى فضيل حركاته وينتقل من علم اليقين الى عين اليقين فيزول باليقين الشك ويظهر خلاصة الذهب بالحك ثم يأخذ لكم العهد والميثاق بما يقع عليه الاتفاق وما ترضونه وترونه من الصواب ويرد عليكم بذلك الجواب فان وافق قصدكم توكدون عليه عهدكم وتتوجهون بقلوب مطمئنه وخواطر فى حصول المرام مستكنه والافترون رأيكم فيما عليكم وما لكم فاستصوبوا هذا الرأى واسترضوه واستعذبوا لطيف معناه واستحسنوه وانتدبوا لهذا الامر الخطير من يصلح أن يكون عند الملوك السفير فوجدوا اطبا طيب العناصر قدعقدت على غزارة فضله الخناصر من أعقل الجماعة وأذكاها وأحسنها رأيا وأدهاها فقلدوه الزعامه وأرسلوه مع الحمامه على ان يجتمع بالملك يسار ويعاهده على ما يقع عليه الاختيار ثم يسمع أقواله ويشاهد أفعاله ويميز أحواله ثم يرد عليهم الجواب فيميزوا ما فيه من خطا وصواب فيبنوا عليه ويرجعوا اليه فتوجه الظبى والحمامه مستصحبين الأمن والسلامه فلما قربت الديار سبقت الحمامة الى خدمة الملك يسار وأخبرته بصورة الاخبار وأن الظبى فى العقب مقبل بما يحبه الملك ويحب فأمر الملك الوزير أن يتلقى الظبى الغرير مع جمع الطير الكثير فتقدم الوزير وقال أسأل مولانا الملك المفضال ان صدر من هذا القاصد خطاب ان يشار الى برد الجواب فان ذلك اعلى للحرمه وأدنى للحشمه وأقوى لناموس الملك والرياسه وأزهى لطاوس الياسة والسياسه فان كان ذلك الجواب متحليا جيده بعقود الصواب كانت سعادة الملك الملهمه وفى خدم الملك من تصدى للامر وأبرمه فان خرج عن طريق الجاده فلا ينسب الى الملك تلك الماده بل يتلقاه الملك بكرمه ويكون الخطأ منسوبا الى خدمه فاجابه الى ما سأل وتقدم الوزير للملاقاة مع سائر الخول فتلقوا الظبى بالترحاب وفتحوا فى وجهه للكرامة أوسع باب ومشوا معه حتى وصل الى الحضرة وشاهد تلك الحشمة والنضره فقبل الارض ووقف وعرف مقدار الملك واعترف وأدى الرساله وبين للملك ما فيها من رقة وجلاله فقابله الملك بما يليق بحشمته وأجلسه بالقرب من حضرته وخاطبه بما أذهب دهشته وآنسه بملاطفات جلت وحشته وساله عمن خلف وراءه واستقصى فى التفحص أحواله وانباءه فبلغ عبوديتهم وطاعتهم وان الاخلاص والطاعة شملت جماعتهم وفتح فم الدعاء بلسان ذلق وخطاب طلق وكلام غير معقد ولا قلق واطال فى الدعاء وأطنب فى الشكر والثناء وسأل شمول المراحم وكف كف المتعدى والمزاحم فانهم انبسطوا وانشرحوا وابتهجوا باستيلاء هذا الملك وفرحوا وشكروا الله هذه النعمه وأنى يفوت بشروط العبودية والخدمه ثم سأل أخذ الميثاق وتأكيد العهد بالايثاق بالامان والاطمئنان لمن وراءه من الوحوش والغزلان فاعطاهم الامان وشملهم بالاحسان على أن لا يراق لهم دم ولا يهتك لهم حرم وانهم يرعون حيث شاؤا ويسرحون حيث ذهبوا

وجاؤا وان الملك بسار حاكم سلوق وزغار وخليفة براق وكوبلك والتتار قد عاهد الملك
الجبار أن لا يتعرض لوحش القفار ولا لاحد من أجناس الاطيار حتى ولا لحيتان البحار
ولا يريق لهم دما ولا يقصد لهم أذى ولا ألما ويرعى جانبهم ويقضي ما ربهم ويحفظ
شاهدهم وغائبهم ويمنعهم من مناويهم ولا يسلط عليهم من يؤذيهم ماداموا تحت طاعتي
وفي جواري وذمتي فقبلت الغزاله بشفاه العبودية تحت الجداله وقالت هذا كان المأمول
ومحل القصد من الصدقات والمسؤل والذي جئ لاجله فقد حصل من صدقات الملك وفضله
ولكن العلم العالي محيط بان وحوش البسيط أقوام ضعاف ليس بينهم ائتلاف وهم طوائف
كثير والاختلاف أجناس متفرقه وأنواع متمزقه ليسوا كقطائع الغنم مجتمعين
ولا كقطار الخيل ممتنعين ولا بعضهم لبعض متبعين ثم لم تزل العداوة بينهم قائمه وعيون
الصلح والاتفاق عنهم نائمة لا يضبطهم ديوان ولا يحصرهم حسبان ولا يمنعهم من التعدي
سلطان القوي يكسر الضعيف ويمزقه والشاكي يستطيل على الاعزل ويفرقه ولاجل
هذا المعنى لا يمكن اجتماعهم في مغنى بل البعض في قلل الجبال متوطن والبعض في سرب
التلال متحصن والبعض متشبث بذيل الكهوف والمغارات والبعض في الآجام والآكام
خوف الغارات وكل يخاف سلول البلاء قد اتخذ لذلك القاصعاء والنافقاء واستعد بفنون
المكيد خوفا من جوارح الصيد واذا كان الامر كذلك فاجتماعنا متعسر وحفظنا في الملك
غير متيسر فلا بد من ترتيب قاعده تعم منها جميع الوحوش الفائده ويشمل أمنها غائب الملك
وشاهده والا فالحاضر آمن وقلب الغائب غير مطمئن ولا ساكن فليفتكر للرعية في ضابطه
تكون الحرمة فيها للقريب والنائي باسطه فالتفت الملك للوزير وقال أجب هذا السفير فقال
الزنيم يا أحسن ريم هذه الافكار من قصور الانظار وعدم التأمل والاستبصار والافات
السلطان في كل مكان كلمته عليا ووجوده كالشمس في الدنيا فكما ان الشمس اذا استوت
وعلى سرير كبد السماء احتوت عم فيض شعاعها الجبال والآكام والتلال والآجام
وانتشر على البحر والبر واشتهر على الفاجر والبر فربت الازهار والاثمار وشبت مشاعل
الكلا في القفار وطبخت الغلال وفواكه الاشجار وصبغت في كوامن المعادن جواهر
الاحجار كما قيل

كالشمس في كبد السماء محلها * وشعاعها في سائر الآفاق

كذلك الملك العظيم اذا انتشر صيت عظمته وعدله في سائر الاقاليم شمل فضله الشريف
والوضيع وبلغ جود وجوده الدني والرفيع وردع عدله الطائع والعاصي ووسع نواله
الداني والقاصي وانه كالغمام الصيب الصيب على الربيع الخصيب والديمة المطبقه والمزنة
المغدقه اذا انتشرت في الآفاق وصارت لام عهد عاهدها للاستغراق فروت الحضيض
والبقاع وعمت الوهاد والتلال والبقاع وخاطبها ظمآن الرياض وعطشان الغياض شعر

أمطر على سحاب جودك ثرة * وانظر الي برحمة لا أغرق

هذا ومتى انتشر في الاطراف انكم التجأتم الى هذه الاكناف وتطرز بشمول الصدقات
السلطانية من ملابس طاعتكم الاطراف والاطراف منعت العواطف الملوكيه والخواطر

الشريفة السلطانيه عوادى المعادى وكفت أكف المصادم والمصادى فلا يجترئ أحد على التعرض لكم ولا يخطر ببال مخالف أن يقطع سبلكم قال الرسول الامر كما يقول مولانا الامير وما أحسن هذا التقرير ولكن مع المراحم السلطانيه وصدقات العواطف الملوكيه وحسن الطويه واحسان النيه فلابد للسياسه وضبط الرياسه وقواعد الملك فى الحراسه من ضابط يبنى عليه الملك لامره اساسه لا يتميز به كبير دون صغير ولا يختص برعايته جليل غير حقير فان من احسن اوصاف الملوك والاكابر ان لا يغفلوا عن تفقد احوال الصعاليك والاصاغر ولا يقتصروا فى ذلك على نوع دون جنس كما يفعله لغلبة الهوى بعض حكام الانس مع أنهم مسؤلون عن جليلها وحقيرها ومحاسبون على كبيرها وصغيرها وفى شأنهم قد قال من فى ضبط حركاتهم وسكناتهم استقصاها ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقد تنبه لهذا الفعل الرجيح أيها الوزير النصيح والمنطيق الفصيح انوشروان وهو من الكفار واشتهر عنه قضية الحمار فسأل الوزير بيان هذا التقرير فقال الريم بلغنا ايها الكريم ان انوشروان بالغ فى نشر العدل والاحسان ومعاملة الرعيه كبيرا وصغيرا بالسويه وبذل فى ذلك جهده واستنهض لمساعدته وكده وكده واختشى ان يمنع المتظلم الفقير الابواب بسبب حاجب اوكبير لغرض اوعرض اوارتشاء من فى قلبه مرض فيمشى مداس البراطيل عن خوف الاباطيل ويضيع بحث صارخ الحق فى أوقات التعطيل فأداه فائد اجتهاده وانتهى به رائد مراده الى أن يعقد فى طاق ميتة ويجمع خاطره عن تشتيته من محاذى السرير حبل من الحرير ويربط طرفه الادنى فى حلقة الباب حيث لا حاجب ولا بواب وهو مكان مجمع الجمهور ولا يمنع احد فيه من الوقوف والمرور وان يشد فيه اجراس من خالص الذهب لا النحاس بحيث انه اذا حرك الحبل صوتت الاجراس صوتا أخرس الطبل ثم امر مناديا أن يرفع صوتا عاليا بأن من كان شاكيا فعليه بتحريك ذلك الحبل ليقع الظالم فى الكبل او ينتصر المظلوم من بعد ومن قبل فاشتهرت هذه العاده ونال بها فى الدنيا السعاده وعظم صيته وخدت عفاريته وانتصفت صفاريته ففى بعض الظهائر عند قائلة الهواجر وانوشروان فى ميتة قد طاب اضطرب الحبل والاجراس أشد اضطرابه ففزانوشروان مذعورا وتصور المحرك مظلوما مقهورا فابتدر بطلبه لينظر فى ظلمه وسببه فتبادروا الى احضاره واستكشاف أخباره واذا هو حمار جرب جنب جسمه من الجرب خرب ومتن ظهره من الحك نقب وقد هدم عمارة عمره هادم الهرم وألهب حشيش حشاشته من الجوع ماضى الضرم يحمله صاحبه ما لا يطيقه ويقطع عنه قوته وعليقه يؤذيه ولا يداويه ويدوريه ولا يداريه فطلب مالكه وعتبه ثم زجره وضربه ثم أمر بالنداء فى الاسواق وامتد ذلك حتى بلغ الآفاق وعم الضواحى والرزداق ان يسلك بما ملكت اليمين الارفاق ولا يقتر عليها فى الانفاق وكل من عنده دابة قد استعملها فى صباها واستوفى فى خدمته قواها يراعى حقوقها اذا كبرت ولا يضيع ما قدمت بما أخرت وصك وجه ذلك الرجل صكا وكتب عليه بفرض جاره صكا واتما ذكرت هذا المثال فى معرض ما يقال من ان عدل

السلطان خير من خصب الزمان وأيضا فان قصد الملك اذا كان صالحا كان أمره في جميع الازمان ناجحا وسخر الله له من يرشده الى قصده ويعينه على أمور رشدا نره ويحيي ذكره من بعده وتدر على يده سحائب البركات ويجري منها على غير قصده ابحر الخيرات وحفظ كل من اليه ينتسب ورزقه كل ذلك من حيث لا يحتسب وحاصل هذه المقدمه ان المسؤل من الصدقات المعظمه أنه اذا تراءى على أبواب عدلها شاكي اوتعلق باسباب معدلتها متظلم باكي تتصدى هي بنفسها الكشف ظلامته ولا تترك الغير في فصلها لاقامته وان الفقير من جماعتنا والضعيف من اهل طاعتنا اذامست الحاجة به الى بث شكوى او رفع بلوى يتقدم الى شكواه بلا واسطه ليأمن في امره المغالطه ويصادف مقسطه لا قاسطه ويتساوى في كل من مشرب العدل والانصاف ومراعي الفضل والالطاف الظباء والاسود والذئب والعتود والعقاب والعصفور والحمام والصقور ولا يتقدم في الدعاوى من حيث التساوي الوجيه على الجاهل ولا النبيه على الخامل ولا الكبير على الصغير ولا الجليل على الحقير فان اقتضت الآراء العاليه تولية عامل في ناحيه فليكن ممن له شفقة تامه ورحمة في امر الرعية عامة ويعرف ذلك بتجربته العلوم الكريمه وتحققت ان نيته في رعاية الرعية مستقيمه قد صارت له الشفقة ملكة وكل من العدل والانصاف قد ملكه ولا تولى احد الغرض اومن في قلبه من اذى المساكين مرض وان الطبيعة اذا اعتادت عاده والسجية اذا جعلت لها بعض الاوصاف قلاده سواء كان ذلك مذموما او محمودا مقبولا عند العقل والشرع او مردودا فانها تبرزه في غالب الاوقات ولا تتخلف عن ملابسته في اكثر الحالات (شعر)

العين تعرف من عيني محدثها * ان كان من حزبها او من اعاديها

وكل قضية لا يساعدها القلب فنتيجتها على العكس والقلب ونظيرها يا رئيس المداره قضية من زوجته امه وهو كاره فسأل الوزير من السفير تقرير هذا النظير فقال كان شاب من العراب قصدت امه تأهله فزوجته بامرأة ارملة ولم يكن له احتياج ولا رغبة في الزواج واختار التخلي للصلاه على مذهب الامام الشافعي رحمه الله ولكن فر من العقوق وكتب على نفسه الحقوق فلما عقدت الوليمه وصممت العزيمه وجمعت النساء والرجال أرسلت أمه الى جارلهم قوال استاذ في صنعته ماهر في حرفته فدعته الى الجمع ليبتهج بحسن غنائه السمع فيشغل الوقت ويذهب المقت ويحصل للحضور النشاط والسرور فتخلف وأبى وعن الحضور نبا فسئل عن تخلفه وسبب تخلفه فقال بلغني ان الزوج الخاطب غير طالب ولا راغب واذا كان كذلك فلا يغني الغناء الا العناء ولا يؤثر في القلوب والاسماع بل تنفر عند سماعه الطباع فكل شيء لا يصدر عن رغبة القلب فان ايجابه لا يفيد الا السلب فيضحك على القائم والقاعد ويسخر منه الصادر والوارد ويروح تغزلي في البارد وانما ذكرت ذلك لاعرض على آراء المالك انه اذا أوليَ أمر الرعيه الى أحد من الخاصكيه ينظر الى شفقته ويسبر وفور مرحمته ثم يوليه عليهم ويتقدم بالطاعة اليهم فيستقيم اذ ذاك فعلهم ونعله ويظهر في حركاته وسكناته عدله وليس العدل في القضايا تساويهما ولا اجراؤه

على

على نسق واحد يجرى بها بل معرفة مقاديرها وبيان تقريرها في المبادى وتحريرها ثم اجراؤها على مقتضى مدلولها ورد فروع كل مسئلة الى أصولها ووضع الاشياء في محلها وايصال الحقوق الى أهلها ومعرفة منازل أربابها وأوضاع أصحابها ومراتب طلابها فمن لم يحقق هذه الامور اضاع مصالح الجمهور فأعطى غير المحق مالا يستحق ومنع الحق عن المستحق وقد قيل يا أبا السعودات حقيقة الجود اعطاء ماينبغى لمن ينبغى والا كان كالباذر فى السباخ واشبه فى أمره أجير الطباخ الذى لم يعرف معنى العدل فقصده فوقع فى الجدل فسأل الغزال شيخ الاوعال عن هذا المثال فقال كان عند بعض الاشياخ من الطباخين أجير طباخ له رغبة منهمة على معرفة طبخ الاطعمة وكيفية ترتيبها وصنعة تركيبها وكان مغرما بذلك يسلك فيه كل المسالك ويرد فيه الموارد ويتبع كل صادر ووارد ففى بعض الاثناء وقف على طبيب من الاطباء فسمعه يقول ان أصلا من الاصول العدل والتسويه بين الاطعمة والاغذيه والعقاقير والادويه فمن لم يستعمل الاستوا فى دربات الغذاء والدوا ضل عمله وغوى واصل هذا المزاج ولا يشكره الاذوبلجاج فان العناصر الاربعه منها المضرة والمنفعه وقد تولد منها السوداء والبلغم والصفراء والدم فتى اعتدلت هذه المتولدات صحت الابدان والذات ومتى عن الاعتدال عدلت أمرضت وقتلت وكذلك النير الاعظم والكوكب المضىء فى العالم اذا حل فى مركز الاعتدال استقام للعالم الحال وطاب الزمان واعتدل وذلك عند نزوله فى برج الحمل فتصور ذلك الواهان أن المقصود التسوية فى الاوزان فانصرف وهو فرحان وقصد طعام الزيرباج وعى من مفرداته مايحتاج ثم انه ساوى بين أوزانها وقصد العدل فى ميزانها وخلط كذلك اخلاطها ووضعها فى قدر وساطها فخاب عمله فى عدله وبان نقصه فى فضله فلما وعى الملك والوزير ماسلكه السفير فى نظام هذا التقرير شكر المساعيه وأخصبا فى الاكرام والاعزاز مراعيه وقالا جزاك الله خيرا عن شفقتك وحسن صنيعك لمرسليك ورفقتك فذلك من يصلح للسفارة بين الملوك وتولى أمور الرعية من الغنى والصعلوك فانك ناصح لمن فوقك شفيق على من دونك ثم قال الوزير ان هذا الملك الكبير مقاصده العظيمه أن تكون الامور مستقيمه وان يصلح العباد والبلاد ويطمئن المستفيد والمستفاد فاحتفظ أيها السفير المنير الضمير بما سمعت ورأيت وشاهدت ووعيت واجعله من عنوان انبائك ومقدمات أفعالك وآرائك وأبلغه من يخلفك من أمامك وورائك ومهما وصلت اليه قدرتك وأحاطت به يدك وكلمتك من ابلاغ الخبر الى مسامع الوحش والطير عن هذا الملك وأوصافه وتطلعه الى مراقى البر والاحسان واستشرافه ومانسكن به الخواطر وتطمئن اليه الضمائر وتقر به العيون بالسرور وتستقر به القلوب فى الصدور فلا تأل فيه جهدا وأوسع فيه جدا ولا تنه فى انهائه حدا فان المجال واسع وميدان المقال شاسع وقد اذن لك فيه وان اخفيته فى نفسك فالله مبديه ثم كتب له بذلك مراسيم عن ثغر الامانى مباسيم وافيض عليه خلع الكرامه واضيفت اليه الحمامه ورجع الى أهله مغمورا بفضله مسرورا بقوله مشكورا بفعله فائزا بالمطلوب ظافرا بكل مرغوب فارغ البال طيب الحال فاتصل بأهله فى دياره وهم فى انتظاره فبادروه

بالسلام وقابلوه بالاستلام وقالوا اما وراءك يا عصام فبلغ الجواب بارشق عبارة وابلغ خطاب وذكر لهم ما رأى وسمع ووعى فانتشرت هذه الاخبار حتى ملأت الاقطار وتسامع بها وحوش القفار وفاح بطيب نشرها الازهار فكان جميع البر معطار ثم اجتمع رؤساء الوحوش والبهائم وعرفاء الصوادح والبواغم وكل ساكن في القفار من سائم وسائم وأرسل كل الى أمته رسوله يدعوها الى ما يحصل سواها وسوله فلبت كل أمة دعوة رسولها وأقبلت لاستماع المراسيم وقبولها فاجتمعوا في رياض مرج أخضر وحلقوا لاستماع المراسيم حول المنبر وأطرقوا وسكتوا واستمعوا وأنصتوا وتناول المرسوم الصادح من الباغم وصعد على الغصن الناعم مطوق الحمائم وابتدأ باسم الكريم الغفور وقرأ على رؤس الاشهاد مضمون المنشور ودعاهم الى الطاعه والدخول في سنن السنة والجماعه وأنهم لا يتأخرون عن الحضور بعد الاطلاع على مضمون المنشور فانه فرمان أمان لكل من أجناس الحيوان ولم يبق مقال المتخلف ولا مجال المتأخر ومسوّف كما قيل

فمن جاءنا طوعاً أقمنا بجده ❊ ومن يأب لا يعتب علينا فعالنا

الى آخر الرساله مع ما تحمله الرسول من مشافهة ومقاله ومن ملاطفات تشرح الصدر وتستنزل البدر وتوضح ما للملك من جلالة وقدر فتلقى الكل هذا الكلام بآذان القبول والاكرام واتفقوا على التأهب والمسير والاحتفال بالكبير والصغير وأخذوا في تعبية التقادم والخدم وفرضوا ذلك على ما لكل من طوائف وحشم وتصدعوا عن هذا المرسوم على ان يجتمعوا في يوم معلوم ثم أعد كل عتاده وأكمل خدمته وزاده واجتمعوا لذلك اليوم الموعود وتوجهوا الى الخدمة في الطالع المسعود ولما دخلوا الدرب وضربوا في الارض أي ضرب توجهت الحمامة بالبطاقه بهذه البشارة والطلاقه فانتشر هذا الخبر وملأ البدو والحضر فلما وصل الطائر دقت البشائر وسرت الاهل والعشائر ثم ان الملك دعا الوزير وقال اعلم أيها الناصح الخبير والحبر النحرير ان الوحوش واصلة الى منزلك بخفها وحافرها نازلة في ساحلك وان راية سلطاننا بعون الله بالنصر نشرت ووحوش الجنود والعساكر بحمد الله تعالى على بساط بسيط الطاعة حشرت وفي هذه الجيوش أصناف الوحوش وطوائف السباع وأنواع الذئاب والضباع وفيهم الفراعل والثعالب والعسابر والارانب ولا شك ان هيبة الملك صادعه وحرمة السلطنة باسطة قارعه وحضرة السلطان ذات جلال وان كانت جامعة لصفتي الجلال والكمال وما عند كل أحد مسكة للملاقاه ولا ثبات جنان عند المشاهدة للملك اذا رآه فمن لم يكن بيننا وبينه اجتماع فقد وقرت هيبتنا في قلبه على السماع ومن تصدينا له في ميادين الصيد وأفلت بعد معاناة الكد والكيد قد رأيته على العيان ولا يحتاج في معرفة قوة سلطاننا الى ترجمان وعلى كل تقدير فشاهدتنا على غالبهم امر عسير لانه ربما يتذكر منهم متذكر أو يتفكر منهم متفكر واقعة سبقت او سابقة وقعت انجرح فيها من فصل أنيابنا مفاصل عراقيبه اوتعلق بها من اشعاره وأوباره مشاطة جلابيبه ومن لم يجمعنا ضباحه ولم يكن سلاحه من كلاليب مخالبنا الاسلاحه فبمجرد ما يقع نظره علينا اويمثل بالوقوف لدينا يرجف فؤاده وينقض من عيبة

كرشه زاده فينكص من الخوف على عقبيه ولا يعرف امره من حواليه فيتبعونه ويحصل الفشل ويقع الخباط والخلل فيهم ما أوضحناه ويفسد اضعاف ما أصلحناه وينهدم من اول الامر الى آخره ما بنيناه ويعوج من مستقيم السلطنة ما سويناه فلا يحصل من عزة المملكة الاعلى مثل ما حصل لابى الحصين من شيخ الديكة فقال الوزير يشم مولانا الاجل يتقرير هذا المثل قال الملك سمعت مخبرا انه كان فى بعض القرى للرئيس ديك حسن الخلق وديك مرتبه التجارب وقرأ تواريخ المشارق والمغارب ومضى عليه من العمر سنون واطلع من حوادث الزمان على فنون وقاسى حلوه ومره وعانى حره وقره وقطع للثعالب شباك مصايد وتخلص لابن آوى من ورطات مكايد ورأى من الزمان وبنيه نوائب وشدائد وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب وأحكم من طرائقها عجائب وغرائب فاتفق له فى بعض الاحيان انه وقف على بعض الجدران فنظر فى عطفيه وتأمل فى نقش برديه فرأى خيال تاجه العقيق ونظر الى خده الشقيق ونقض برائله المنفش وسراويله المنقش والثوب الذى رقه نقاش القدرة من المقطع المبرقش فأعجبته نفسه واذن فاطربه حسه وتذكر ما قاله الاسعد المادح فى المعتصم ابن صمادح وهو

كأنّ أنوشروان اعطاه تاجه * وناطت عليه كف مارية القرطا
سبى حلة الطاوس حسن لباسه * ولم يكفه حتى سبى المشية البطا

فصار يتيه ويتبختر ويتقصف ويتخطر فاستهواه التمشى سويعه حتى أبعد عن الضيعه فصعد الى جدار وكان قد انتصف النهار فرفع صوته بالاذان فانسى صوته المكانى والدهان فسمعه ثعلب فقال مطلب وسارع من وكره وحمل شبكة مكره وتوجه اليه فرآه فسلم عليه فلما أحس به أبو اليقظان طفر الى أعلى الجدران ثم حياه تحية مشتاق وترامى لديه ترامى العشاق وقال أنعش الله بدنك وروحك وروى من كاسات الحياة غبوقك وصبوحك فانك أحييت الارواح والابدان بطيب النغم والصياح فى الاذان فان لى زمانا لم أسمع بمثل هذا الصوت وقاه الله نوائب الفوت ومصائب الموت وقد جئت لأسلم عليك وأذكرك ما أسدى من النعم اليك وأبشرك ببشاره وهى أربح تجاره وأنجح من الولاية والاماره لم يتفق مثلها فى سالف الدهر ولا يقع نظيرها الى آخر العصر وهى ان السلطان أيده الله بدوام أركان الايمان أمر مناديا فنادى بالامان والاطمئنان واجراء مياه العدل والاحسان من حدائق الصحبة والصداقة فى كل بستان وأن يشمل الصداقة كل حيوان من الطير والوحش والحيتان ولا يقتصر فيها على جنس الانسان فيتشارك فيها الوحوش والسباع والبهائم والضباع والاروى والنعام والصقر والحمام والضب والنون والذباب وأبو قلمون ويتعاملون بالعدل والانصاف والاسعاف دون الاعتساف ولا يجرى بينهم الا المصادقه وحسن المعاشرة والمرافقه فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقه فيطير القطا مع العقاب ويبيت العصفور مع الغراب ويرعى الذئب مع الارنب ويتآخى الديك والثعلب وفى الجملة لا يتعدى أحد على احد فتأمن الفارة من الهرة

والظروف من الاسد واذا كان الامر كذا فقد ارتفع الشر والاذى فلابد ان يمتثل هذا المرسوم ويترك ما بيننا من العداوة والخلق المذموم ويجرى بيننا بعد اليوم المصادقه وتنفتح أبواب المحبة والمرافقه ولا ينفر أحد منا من صاحبه بل يراعى مودته ويبالغ فى حفظ جانبه وجعل الثعلب يقرر هذا المقال والديك يتلفت الى اليمين والشمال ويحتاط غاية الاحتياط ولا يلتفت الى هذا الهذيان والخباط فقال الثعلب يا أخى مالك عن سماع كلامى مرتخى انا أبشرك ببشائر عظيمه لم تتفق فى الاعصر القديمه وانما برزت بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمه وأراك لا تلتفت الى هذا الكلام ولا تسر بهذا اللطف العام ولا تلتفت الىّ ولا تعول علىّ وتستشرف على بعد لشئ فهلا اخبرتنى بما أضمرت ونويت وتطاولنى فيما تتطاول اليه على ما رأيت حتى اعرف فى اى شئ انت وهل ركنت الى اخبارى وسكنت فقال ارى عجاجا ثائرا ونقعا الى العنان فائرا وحيوانا جاريا كأنه البرق ساريا ولا عرفت ما هو ولكنه أجرى من آهوا فقال ابو الحصين وقد نسى المكر والمين بالله يا أبا نبهان حقق لى هذا الحيوان فقال حيوان رشيق له آذان طوال وخصر دقيق لا الخيل تلحقه ولا الريح تسبقه فرجفت قوائم الثعلب وطلب المهرب فقال أبو المنذر تلبث يا أبا الحصين واصبر حتى أحقق رؤيته وأتبين ماهيته فانه يا أبا الحصين يسبق طرف العين ويكاد يا أبا النجم يخلف النجم فى الرجم فقال أخذنى فؤادى وما هذا وقت التمادى ثم أخذ يسلح وولى وهو يصدح بقوله

لابس التاج العقيق * لا تقف لى فى طريق

ان يكن ذا الوصف حقا * فهو والله السلوقى

فقال الديك واذا كان وقد قلت ان السلطان رسم بالصلح بين سائر الحيوان فلا بأس منه عليك فتلبث حتى يجئ ويقبل يديك ونعقد بيننا عقود الصداقه ويصير رفيقنا ونصير رفاقه فقال مالى برؤيته حاجه فدع عنك المحاجة واللجاجه فقال أوما زعمت يا أبا وثاب ان السلطان رسم للاعداء والاصحاب ان يسلكوا طرائق الاصدقاء والاحباب فلو خالف المرسوم هذا الكلب لما قابله الملك الا بالقتل والصلب قال لعل هذا المشوم لم يبلغه المرسوم ثم ولى هاربا وقصد للخلاص جانبا وانما أوردت يا نفيس هذا المثال لتقيس أحوال من دان لك من هذا الحيوان ولا تشفقها بعصا واحده واحسب حال كل واحد على حده فربما يكون فى هذه البهائم من لاهو بأحوال الصلح عالم ولم تبلغه الدعوه وانما انضاف بسبب وجوه أو آمن على سبيل التبعية والتقليد ولم يطلع على موارد الوعد والوعيد ولا وقف على ما وقع من الاتفاق ولا يثبت لمصادمة اللقاء وقت التلاق فيصدر منكم حركه تؤدى الى قلة بركه وتستطرد الى نفرة وجفول فيدهمنا هدم ما اسسناه على غفول ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ويضيع نقود جواهر جهدنا وكدنا فيه واذا كانت الدنيا محل العوارض والغالب انه عند مشارفة المقصود يحصل العارض والعاقل لا يغفل عن هذا الخطر فعند صفو الليالى يحدث الكدر وقد كفاك من ناداك بقوله

اذا قربت يداك الى مرام * وقلت تحولت نفسى مناها
فلا تأمن من الدهر اختلاسا * يحول فكره فى ذا تناهى
فكان لم يصبه الشوك الا * وقد وصلت يداه الى جناها

فالرأى السديد يا أبا سعيد يقتضى ان تمضى الحمامة المطوقه الى تلك الجموع المفرقه وتنادى فى كل نادى بين الحاضر والبادى والرائح والغادى بحقائق الامور وتطييب خاطر الجمهور وماهم قادمون عليه ومن هو الواصلون اليه ليعلموا انهم فى صفقتهم رابحون وانهم على هدى من ربهم وانهم مفلحون فتوجهت الحمامة بهذه النقوش وشهرت النداء فى طوائف الوحوش بماهم عليه قادمون وأنهم للملك بسدار خادمون ثم تبعها الوزير ومعه كل أمير وكبير من خواص المباشرين والاعيان الملازمين وكبراء الاطيار ورؤساء الاخيار واستقبلوا املوك الوحوش والهوام ورؤساء السوائم والسوام وقابلوا ملتقاهم بالاعزاز والاكرام ووعدوهم بكل خير واحسان ووصلوا بهم الى ميدان الامان وحين حل عليهم نظر السلطان قبلوا الارض ووقفوا فى مقام العرض وادوا من واجب العبودية النفل والفرض فانزل كلا فى مقامه بعدان احله فى محل اكرامه وأفاض عليه خلع احسانه وانعامه وعلت منزلة الوزير وتقدم كما تقدم وأشير وصفا لهم الزمان وعاش فى ظل عدلهم كل ضعيف من الحيوان وتقلبوا فى رياض الامانى على بساط الامان وفائدة هذه الحكايات تنبيه أشرف جنس المخلوقات والطف طائفة المكونات وهو نوع الانسان الذى اختصه الله تعالى بانواع الاحسان وأيده بالعقل وأمده بالنقل على انه اذا كان هذا الفعل الجليل يصدر فى التنظير والتمثيل من أخس الحيوانات ومالا يعقل من الموجودات فلأن يصدر من أولى النهى وأولى الفضل والمكارم والعلا أولى وأحرى لاسيما من رفع الله فى الدنيا مقداره وأعلى على قمم الخلائق مناره وحكمه فى عبيده المستضعفين واسترعاه على رعية سامعين مطيعين وسلطه على دمائهم وأموالهم وبسط يده ولسانه فى رفاهيتهم ونكالهم والاصل فى هذا كله قول من عم عبيده بفضله وبقوله اهتدى العالمون وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون آخر الباب السادس والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين آمين

(الباب السابع)

فى ذكر القتال بين أبى الابطال الريبال وأبى دغفل سلطان الافيال قال الشيخ أبو المحاسن من ليس له فى الفضل مساو ولا مواس فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الاحلى من النسيب قبل أخوه بين عينيه وأفاض خلع الانعام عليه ثم استزاده وفتح لحامع فضله باب الزيادة وكان قد وقع بين ملك الافيال وبين ملك الاسود المسمى بالريبال المكنى بأبى الاشبال وأبى الابطال مقال أدى الى جدال واتصل بحرب وقتال فسأل الملك أخاه هل سمع من ذلك شيأ أو وعاه فأجاب بالايجاب وذكر فى الجواب الامر العجاب فقال كان بابالك الزمان فى بعض اطراف الهنود من عساكر الافيال جنود فى جزيرة عظيمة كبيره

لهم من جنسهم وجلدتهم ونفسهم ملك عظيم ذو جسم جسيم وشكل وسيم منظره بديع وهيكله رفيع طويل الخرطوم واسع الحلقوم مبسوط الأذنين حديد العينين طويل الانياب كأنه طود في جواب كثيف في المرأى خفيف في الموطأ عدد جيشه غزير ومدد جنده كثير وهو فيهم ملك كبير ذو قدر خطير منفرد بالسرير ورثه كابرا عن كابر وكل جيشه رؤساء وأكابر لأوامره طائعون ولمأ يراه تابعون فبلغه في بعض الايام أن في بعض الغياض والآجام مكانا في غاية النزاهه معدن الفواكه والفكاهه ذا مياه عذبه ومروج رطبه أراضيها أريضه ورياضها طويلة عريضه أطيارها تسكر بألحانها وأشجارها تخجل قدود الملاح بأغصانها وأزهارها زاهره وأنوارها ناضره ونسيم الصبا والشمال تنشر الى الآفاق طيب أنفاسها العطره وأنه يصلح أن يكون لملك الافيال مقاما مع ان فيه من الجبال والحصون معاصم وعصاما غيران فيه أسدا هصورا جمع فيه جندا كثيرا ولا زال الناقل يصف ويطنب ويحجم في حسن شمائلها ويعرب حتى قال بعض الندماء الحاضرين من الكبراء لو قصد الملك ذلك المكان وجعله لنفسه من بعض الاسكان وتنقل اليه في بعض الاوقات وساعات التفرج في المنتزهات لأراح نفسه الخطيره من وخم هذه الجزيره ووجد لذة الطعام ونشوة الشراب على المدام والاسد الذى فيها وان كان مالك نواحيها وبيده تصرفه زمام نواصيها وحاجم قلاعها وصياصيها لكنه ملك عادل وسلطان فاضل تمنعه شهامته وكرم نفسه وكرامته ورياسته وزعامته ان يضايق الملك في ذلك او يضيق سلوكها على سالك وان شرع في الممانعه واخذ في اسباب المدافعة بالمقارعة والمنازعه فالعساكر المنصوره واعدادهم الموفوره فيهم بحمد الله لذلك قوة وكفايه ولهم في بداية الحروب هدايه وفقاهة ليس لشرحها غايه ولا لفروع أصولها نهايه يحيون في مباحثها النفوس ويعيدون في مدارس الحرب بتكرار الضرب فانى الشجاعة بعد الدروس فيكفون الملك أمره ويكفون أذاه وشره ولا زال يفتل منه في الغارب والذروه ويقوى بتمويهاته دواعى الحرص والشهوه حتى اقتنصته أشراك المطامع واوقعته في عبودية شهوة تلك المواضع ودعته النفس الابيه وحمية الجاهليه وباعث العصبيه الى الاستيلاء على تلك الاماكن البهيه والولايات السنيه والمساكن الزهيه واسامة سوارح اللحاظ في مراعى نزهة تلك الغياض ومروج أراضى هاتيك الرياض وأزعج في ذلك المقتضى وأسلمه العدل والخلق الرضى وغلب عليه سيئ الطباع واستولت عليه فوارغ الاطماع وعشقها على السماع وكان عنده اخوان هماله عضدان هما وزيراه وفي مهامه مشيراه مسعداه في الامور ومنجداه في احوال السرور والشرور أحدهما واسطة خير قليل الشر عديم الضير قد جرب الزمان وعاناه وقالب قوالب وقائعه بالمقايسة ما قاساه اسمه مقبل وهو كاسمه مفضل والآخر بالعكس في جميع حركاته وكس وهو كاسمه مدبر بكل شيء مخبر قصده غبار تثيره وعسكر بلاء يغيره وطالب أذى وعناء يعيره أو سر يذيعه أو مكر يشيعه أو منسوق شر يبيعه وهما ملازمان الخدمه واقفان في مقام الحشمة والحرمه كالفتق والرتق والباطل والحق والكذب والصدق

وفى الافساد والاصلاح كالمرهم والجراح ومصلح الدرهم ومفسد الراح ومرشد العقل ومضل الاقداح وفى الوفاق والشقاق كالسم والترياق وفى الحكم والقضاء كالداء والدواء وفيما يقع من الحوادث المفرحات والكوارث كالحر والبرد والشوك والورد فاختلى الملك بأخويه واستشارهما فيما أنهى اليه فقال اخوه المقبل يامولانا أبادغفل لولم يكن بهذا المكان أحد من أدنى الوحوش فضلا عن الاسد لكان قصده ترفعا وترفها والتوجه الى الاستيلاء عليه موجها فكيف وذلك فى ولاية مالك وهو ملك صعب كابى حفص الاصعب ملك كبير عادل وسلطان خطير فاضل مطاع فى صاغيته متبوع فى حاشيته عادل فى رعيته سيرته مشكوره ومحاسنه مأثوره وهيبته وبسالته غير منكوره وهو جار حسن الجوار لم يضبط عليه مايقتضى انتزاع ملكه من يديه ولم يتعرض الى متعلقاتنا ولا آذى أحدا فى ولايتنا وان مولانا السلطان لم يصدر منه الا العدل والاحسان الى الاباعد والاجانب فضلا عن الجيران لاسيما الملوك والا كابر ومن ورث الملك كابرا عن كابر وقد التقفت من أفواه الحكماء وتشنفت مسامعى من جواهر ألفاظ العلماء بثلاث نصائح هن من أحسن المنائح احداها احذر أيها الموفق ان تقع فى دم بغير حق ثانيتها اياك ياذا التوفيق وأموال الناس بغير طريق ثالثتها اياك ياذا الشيم الكريمه وهدم البيوت القديمه واعلم ان الله تعالى عم رزقه وخص كل موجود بما يستحقه وقد أقام الاسد فى تلك الاماكن وهو وان كان مضر كافهو فيها ساكن ولولم يستاهل لما اختص بتلك المناهل وما ينكر هذا الا جاهل أومن هو عن الحق ذاهل وحاشى ان تنسب يارئيس الاخيار الى حسد اوسوء جوار وعظمتك تأنف عن ذميم الاخلاق وكيف وقد انتشر بالفضل صيتها فى الآفاق واذا كان للشخص مايكفيه فينبغى ان يقتصر عما يطغيه ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه وقد أحسن فى المقال من قال

يا أحمد اقنع بالذى أوتيته * ان كنت لاترضى لنفسك ذلها
واعلم بان الله جل جلاله * لم يخلق الدنيا لاجلك كلها

فالتفت الملك الى المدبر وأشار اليه كالمستخبر ماذا تشير أيها الاخ والوزير فقال جميع ماقرره مولانا الوزير حق وجملة ماذكره وحرره صدق نصائح ترشد العقول وتزين عقود المعقول والمنقول ولكن لايخفى على كريم العلوم ان الاسد حيوان ظلوم غالب ظالب وخلاص الرعية من شره واجب ويلزم كل أحد ان يخلص الرعايا من ظلم الاسد ومولانا لم يبلغه ظلمه ولم يحط باحوال الاسد علمه وانه من أظلم البريه لمن تحت يده من الرعيه وانه يجب على مولانا السلطان خلاص الرعية منه على أى وجه كان وأيضا فان انعامات مولانا البارة على كل أحد من الخلق دارة والخرج والكلف والمكرم الذى بانامله ائتلف كل يوم فى ازدياد والعساكر المنصورة كل وقت تزداد واذا لم تتسع الولايات وتكثر الجهات والاقطاعات كان الخرج أكثر من الدخل والمصروف من الخزانة كالوابل والدخل كالطل واذا زاد المصروف على الحاصل عجز الواصل وفرغ الحاصل ودل ذلك على ركاكة الهمه وقصور النهمه والملك يجب عليه والمندوب فى شرع همته اليه ان يكون كل وقت بجديد

فى فتح سعيد وترق مزيد وتوسعة الممالك وتنزيه بساط السلطنة عن المنازع والمشارك والاستكثار من الجند والرعيه واستجلاب خواطرهم الابيه بالجوائز السنيه والانعامات السميه ولايجوز فى ملة الاسلام ان يتعدد الخليفة الامام ولله در القائل العلى الشمائل

اذا مالم تكن ملكا مطاعا * فكن عبدا لمالكه مطيعا
فان لم تملك الدنيا جميعا * كما تهواه فاتركها جميعا

وناهيك بامالك الممالك والماليك فى علو الهمه وصدق العزمه وغوص الافكار فى استخلاص ممالك الاقطار قضية فحل الرجال تيمورلنك الاعرج الدجال مع نائبه الله داد احد القواد ونواب البلاد فسأل أبو مزاحم اخاه عديم المراحم عن تلك القضيه وايضاحها عن جليه فقال ان تيمور رأس الفساق الاعرج الذى أقام الفتنة على ساق لما حل بالممالك الروميه فى شهور سنة خمس وثمانيه واسر مالكها واستخلص ممالكها استمر فى ممالك العرب يصول وفى فكره استخلاص ولايات الشرق يجول وكان أقصى ما انتهت اليه فى الشرق مملكته ونفذت بسهام احكامه فيه اقضيته بلدا يسمى اشباره قد أعده لشياطين النهب والغاره وبنى فيه قلعه ونقل اليه من ذوى المنعه جندا منتخبا من كل بقعه وهو فى بحر ممالك المغل والتتار والحد الفاصل بين ممالكه وولايات عباد الشمس والنار وأمر على أولئك الاجناد شخصا يدعى الله داد وهو من خواص أمرائه ورؤساء جنده وزعمائه فمن جملة ما أمره به ذلك المشوم وهو مخيم ببلاد الروم انه أبرز اليه مراسله فيها أمور مجملة ومفصله أمره بامتثالها وارسال الجواب ببيان كيفية حالها منها انه يبين له أوضاع تلك الممالك ويوضح كيفية الطرق بها والمسالك ويذكر له مدنها وقراها وهدها ووهادها وقلاعها وصياصيها وأدانيها وأقاصيها ومفاوزها وأوعارها وصحارها وقفارها وأعلامها ومنارها ومياهها وأنهارها وقبائلها وشعابها ومضايق دروبها ورحابها ومعالمها ومجالها ومراحلها ومنازلها وخاليها وآهلها بحيث يسلك فى ذلك السبيل الاطناب الممل ويتجنب مأخذ الايجاز خصوصا المخل ويذكر مسافة ما بين المنزلتين وكيفية المسير بين كل مرحلتين من حيث تنتهى اليه طاقته ويصل اليه علمه ودرايته من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور والى حيث ينتهى اليه من جهة سمرقند علم تيمور وليعلم ان مقام البلاغة فى معانى هذا الجواب هو ان يصرف فيه ما استطاع من حشو واطناب وتطويل واسهاب وليسلك فى بيانه الطريق الاوضح من الدلاله وليعدل عن الطريق الخفى فى هذه الرساله الى أن يفوق فى وصف الاطلال وتعريف الرسوم وحدود الدمن صفة الشيخ القيسوم فامتثل الله داد ذلك المثال وصور له ذلك على أحسن هيئة وآنق تمثال وهو انه استدعى بعدة اطباق من نقى الاوراق وأحكمها بالالصاق وجعلها مربعة الاشكال ووضع عليها ذلك المثال وصور جميع تلك الاماكن وما فيها من متحرك وساكن فأوضح فيها كل الامور حسبما رسم به تيمور شرقا وغربا بعدا وقربا يمينا وشمالا مهادا وجبالا طولا وعرضا سماء وأرضا مرداء وشجراء غبراء وخضراء منهلا منهلا ومنزلا منزلا وذكر اسم كل مكان ورسمه وعين طريقه ووسمه بحيث بين فضله وعيبه وأبرز الى عالم

الشهادة غيبه حتى كانه شاهده ودليله ورائده وجهز ذلك اليه حسبما اقترحه عليه كل ذلك وتيمور فى بلاد الروم يجوز وبينهما مسيرة سبعة شهور وكذلك فعل ذلك البطل وهو بالبلاد الشاميه سنة ثلاث وثمانيه مع القاضى ولى الدين عمدة المؤرخين أبى هريرة عبد الرحمن بن خلدون اغرقه الله فى فلك رحمته المشحون وقد سأله عن أحوال بلاد الغرب وماجرى فيها من صلح وحرب وماوقع فيها من خير وشر ونفع وضر ثم انه اقترح عليه وتقدم بالامر اليه بوضع أوضاعها ورسم مدنها وقلاعها وحصونها وضياعها وتخطيط ولاياتها واشكالها وهيأتها فامتثل ذلك وأبداه وعلى حسب مااختاره واقترحه أنهاه وبين ذلك مثل ماذكر أعلاه فشاهد أوضاعها وخبر وهادها وبقاعها كان الحائل رفع من البين وعاين عين ذلك الاقليم بالعين فانظر الى هذا الاعمى وهو سطيح نصف آدمى وهمته العالية كالبرق تضرب تارة فى الغرب وأخرى فى الشرق وانما أوردت هذه القضيه ليقف سامعها على مقدار الهمة العليه فلا يرضى الملك الهمام بالمنزلة الدنيه ولا يقنع بالدرجة الوطيه بل يجتهد فى تكثير الجند والرعيه وفتح الاقاليم العربية والعجميه ولا يقتصر على الحالة السويه وانما يلازم طلب الارتقاء بكرة وعشيه ويكون سعيه كالشكر يطلب المزيد وكما يستديم طلب الزيادة من مولاه يستديم زيادة العبيد والا فينسب الى قصور الهمه وافلاس الذمة ونقصان الحرمه وبطلان الحشمه واعظم بها من وصمه وبالعجز والتقصير يضيع حقوق الملك الخطير ويجد الرعية للطعن مقالا وفى ميدان الاعراض عن الملك مجالا وهذا خلاف موضع الامامه وعكس ماتقتضيه الرياسة والزعامه فان موضوع السلطنه أن يتعاطى الملك مهما أمكنه من أسباب الفتح والفتوح ومايستميل به من الرعية القلب والروح وذلك بالاحسان والاكرام والبذل والانعام فبه تقوى رغبتها وتزداد محبتها فاذا لم يكن ذلك فل المملوك عن الممالك واسمع قول الاديب ذى الرأى المصيب وهو

اذا أهملت أمر العبد يوما * وقصرت العليق عن الحمار
توقف فى المسير أبو زياد * وقام العبد يجرى للفرار

وقيل والدر يقطعه جفاء الحالب وقال أشرف جنس الانسان علو الهمة من الاعيان فالرأى السديد عندى والذى بلغ اليه جهدى انفاذ هذه العزيمه وسلوك طريقها القويمه وابرازها من مكان القول الى ظواهر العمل والحول والاعتماد على ماقيل

فلا تثن عزمك خوف القتال * بسمر دقاق وبيض حداد
عسى ان تنال الغنى او تموت * فعذرك فى ذاك للناس باد
فان لم تنل مطلبا رمته * فليس عليك سوى الاجتهاد

فأقبل الملك على المقبل وقال توجه بكليتك على وأقبل شعر

ولاتبق مجهود ابرأيك انه * سديد ومن يقف السديد سديد

فان القلب قد مال الى العزم والاخذ فى التوجه بالحزم وترجح جانب الوثوب الى جهة هذا المطلوب فأمعن النظر واجل قداح الفكر ولا تخف رأيا يسنح فى اى جهة ترجح فقال

أفعل بشرط أن يقبل اعلم زادك الله علما وفضلا وكرما وحلما ان الذى رآه العلماء وأشار به ذو والحنكة من الحكماء ان من طلب وفور خيره وفائدة نفسه فى مضرة غيره لا يتمتع بتلك الفائده ولا تثمر معه تلك العائده وهذا على تقدير حصولها والاستيلاء على فروعها وأصولها وان لم يظفر بها فلا تستفد النفس غير كربها مع زيادة الحسره وسوء الصيت فى الشهره ووفور الندم وزلة القدم وكل من أراد غشية هواه ولم يلتفت الى ما سواه ورأى نفسه أحق من غيره فلا يطمع أبدا فى خيره ولا يكاد يسلم من الانكاد ولا يصفو له زمان ولا تدوم له اخلاء واخوان ولا تزال ديم الهموم من غمام الغموم تهمى على حدائق آماله وتسقى مزارع أحواله الى ان تحظل نخلات نيته وتيبس حقول طويته ويحصده حراث الفنا ويدرسه دراس الردى ويذرى حبات وجوده الهوان فى الهوى وينقل عن بيدر الشقاء الى طاحون البلاء فهنالك يجدح سويق افعاله مالم يبغه فيحسوه ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ويصهر به ما فى البطون ويقال له ذوقوا ما كنتم تكسبون هذا واذا كان الدخل لا يفى بالخرج وخيف من ذلك وقوع هرج ومرج فبحسن التدبير يتصرف الملك الخبير وبكفاية الوزير وتوفير المشير يجل الحقير ويكثر النزر اليسير كما قيل

قليل المال تصلحه فيبقى * ولا يبقى الكثير مع الفساد

وبالخلق الحسن وحسن السياسه تملك رقاب أولى الرياسه فضلا عن العوام وهذا بحسب المقام ولا يتصور أن مجرد المال هو شبكة صيد الرجال فان حفظ الممالك هو وراء ذلك وقد قال رسول خلاقكم انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وشئ يحتاج فى تحصيله والانقطاع الى وصوله الى بذل أموال وأرواح وكد نفوس واشباح واتعاب خيل ورجال وارتكاب شدائد وأهوال وبعد حصوله يتكلف فى محافظته وحراسته وملاحظته الى تحمل هموم وغموم وكلام وكلوم وآخر الامر يخرج من اليد ولا يبقى الا النكد والكد فتزول فى الدنيا اللذات مع معاناة الكدورات وتجرع الغصص والمشقات وتبقى فى الآخرة التبعات لجدير بأن لا يلتفت اليه ولا يعول عليه ولا يهتم له بشان ويستغنى عنه وان احتيج اليه بقدر الامكان والاغفل الذى يعلق به فؤاده ويربط بدوامه وبقائه اعتقاده ويتصور ذلك بفكره الفاسد ونظره الكاسد كمثل كسرى لما مات ولده وتفتتت عليه كبده وحصل له عليه الاضطراب ورده عن خطئه البهلول الى الصواب فسأل أبو الحجاج أخاه الحجاج عن بيان هذا الامر وكيفية اطفاء هذا الجمر فقال المقبل ذكر محدث معدل أن كسرى كان له ولد قد سكن منه سويداء الخلد يخجل البدر ليلة تمامه ويستميل الغصن حالة قيامه وكان يحبه حبا جاوز النهايه وتعدى الحد والغايه وكان لشده شغفه استبعد حلول تلفه بل أحال وفاته واذهله عن درك الحق وفاته فأدركه الاجل المحتوم واستوفى مداه المعلوم فاضطرب كسرى لموته واضطرم واصطدم بصخور فراقه واصطلم ولم يقر له قرار ولا طاوعه اصطبار فوعظه العلماء فما افاد وثبته الحكماء بضرب الامثال فأعياهم المراد وكان فى بلده رجل بهلول يتردد اليه ويدخل فى أكثر أوقاته عليه فيلاطفه فى محاورته ويتبهج بكلماته فى مخاطبته فدخل عليه البهلول وهو كئيب ملول لا تسر حاله

صديقا ولا يهتدي الى السكون طريقا فسأله عن حاله وما اوجب توزع باله وتغير أقواله
فقال يا بهلول عدمت ولدي وقرة عيني وراحة روحي وجسدي شعر

لا صبر يجدي على فراقه * ولا معين على احتراقه

وقلت آواه من فرقة الاحباب آواه * لقد كوى من حشا قلبي سويداه

قال البهلول نعوذ بالله من ساعات الذهول يا ملك الانام ان عيسى عليه السلام شكا اليه
بعض حواريه شيا يشابه ما أنت فيه فقال عليه السلام كن لربك كالحمام يذبحون
فراخه ولا يفارق مناخه ولا ينفر عنهم ولا يشكو منهم ثم ان البهلول قال وأنا لي اليك
سؤال فاجبني بجواب شاف فانك ذو ألطاف فلا يكن فيه جواف فقال سل فكلامك
لا يمل قال اكنت ترجو أن ولدك لا يموت أبدا وأنه يصير في الدنيا مخلدا فقال لا ولكن أردت
ان يبقى مده ويتمتع بشبابه وبنعيمها عنده ويلتذ بطيب المآكل والمشارب ويقضي من
أوطار الشباب المآرب ويؤنس أنداده وصحبه ثم يقضي بعد ذلك نحبه قال هب أنه عاش
مهما رمت وقام وقعد في الدنيا كما قعدت وقمت وعاش العيش الطيب وهمى عليه من سماء
ملاذها الوابل الصيب وحصل له من العيش الهني والعمر السني امثال الجبال واعداد
الرمال فعند مفارقته العيش وحلول الخفة والطيش هل يدفع عنه ذلك شرا أو يرفع عنه
بؤسا وضرا أو يجلب له منفعه أو يذهب من ذلك شيء معه أو يفيده أدنى فائده أو يعود
عليه منه عائده قال لا قال فلا تأس على معاش يكون عقبى امره الى لاش وعمر ذا مصيره
سواء طويله وقصيره وكثير تنعمه ويسيره شعر

واذا كان منتهى العمر موتا * فسواء طويله والقصير

(غيره)

فعش ماشئت في الدنيا وأدرك * بها ماشئت من صيت وصوت

فحبل العمر موصول بقطع * وخيط العيش معقود بموت

فهب انه عاش ونهب الملاذ وحاش وعلا في أرض التنعم وغلا وجاش كل ذلك في المقدار على
حسب ما اختار وانه جاءه القضا وقد قضى وطره ومضى ثم قضى نحبه وقضى فجبر بهذا
الكلام كسرا وسري عنه همه واسرى وقال الآن سكنت فنعم الناصح أنت وانما
أوردت هذا التنبيه أيها الملك النبيه لاعرض على الخواطر السعيده والآراء السديدة
الرشيده أن الاقتصار عن هذا أولى وأليق بالركون تحت ارادة المولى قال المدبر المفتن المعبر
ثلاثة أشياء ينبغي لطالبها ان لا يفتكر في عواقبها الاول الاسفار في البحار والغوص فيها
الى القرار فان طالب الجواهر النفيسه ومن قصد ان يكون في صدر التجارة رئيسه لا يخشى
من الغرق ولا عنده من ذلك فرق فهذا يعني بضائع المال وذلك يغطس الى قعر الاوحال
وكل منهما لا يفتكر في العاقبة والمآل الثاني المقدم على الحرب والرشق والطعن والضرب
ومصارعة الابطال ومباشرة أسباب القتال لا ينزعج لصوت ولا يفتكر في الهزيمة والجراح
والموت والثالث طالب الرياسه والملك ذي السياسه لا يفتكر في الاقتحام ولا يتوانى في
الاقدام ولا يتأمل في العواقب ولا يتلفت الى المناقب ويلقي نفسه في الاخطار ويضرب

الى أعماق الاقطار ويجعل جل همه بلوغ الاوطار وقيل

بقدر الكد تكتسب المعالى * ومن طلب العلا سهر الليالى

تروم العز ثم تنام ليلا * يغوص البحر من طلب اللآلى

وقيل اذا هم ألقى بين عينيه عزمة * ونكب عن ذكر العواقب جانبا

قال المقبل الحكيم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم أولوا الالباب المميزون بين الخطا والصواب الناظرون من مبتدا الامور فى اعقابها المستبصرون قبل وقوعها فى ما لها وما بها الآتون بيوت النوائب والنوازل من أبوابها قالوا اذا تحصن أبو الحصين وأغلق عليه من وراء جدار بابين ثم حاصره أسد من خارج ساوت قوة الخارج قوة الوالج ولاشك ان حركة العساكر وقطع الفيافى والدساكر والتوجه الى قتال من هو ساكن فى سربه محتاط فى اقليمه ودربه متحصن فى قلاعه متدرق بجنة امتناعه يحتاج فى الاموال الى اخراج وفى الرجال الى ازعاج وتحمل اخطار وتجشم اسفار وأخذ ضعفاء تحت اقدام وهدم دور وقطع ارحام ومع هذا كله حصول المقصود موهوم والظفر به غير معلوم فان حصل فقد مرات لاثبات ولاتمتع وان احتجب فهو وراء ستر التقنع فكم من دماء حينئذ تراق وقد كانت مصونه وأموال تهدر وقد كانت مضمونه واعراض تهتك وقد كانت محترمه وانفس تذل وقد كانت عزيزة مكرمه والحق فى هذا متضح ومن تجابر أسه فقد ربح وقد قدمت هذا التقرير وهندست هذا التقدير لان العاقل الماهر فى التجاره كما يحسب الربح يحسب الخساره وكل هذا فى العاجلة فضلا عن المحذورات الآجلة من غضب الله وعقابه وتوبيخه وأليم عذابه واذا خرج الامر عن اليد ودخل على القلب الاشتغال بالنكد وذهب المال والمنال ونقصت الاهبة والرجال وتناقص العدد والعدد وتناكص المدد والمدد فاى حرمة تبقى للملك عند الرعايا وقد قلت عنهم منه الارفاد والعطايا وكيف يستقر ملكه أو يدور على فلك الثبات فلكه فلا تخافه الرعية ولا يرجونه ولا يسمعون كلامه ولا يطيعونه ويصير كالسحاب الخلب لا يوثق منه بوعد ولا يحصل منه مطلب ان تكلم عابوا كلامه وان حكم نقضوا أحكامه وان حلم قالوا عاجز وان تقدم فى الحرب قالوا مجنون مبارز وأما الغنى ذو المال فهو على عكس هذه الاحوال فان رأوا منه فضلا كان لكل مكرمة أهلا فرفعوه الى العيوق وكان المعظم المرموق ان أعطى قليلا استصغروا حاجاتهم عنده وأطنبوا بلسان الثناء فى شكرهم رفده وان بخل قالوا مدبر لا يضيع ماله وان كذب صدقوا قيله وقاله وفى الجملة حركات الغنى مستصوبه وكلماته مترشفه مستعذبه وقد قيل

ان ضرط الموسر فى مجلس * قيل له يرحمك الله

اوعطس المعسر فى مجمع * سبوا وقالوا فيه ماساه

فضرط الموسر عرنينه * ومعطس المفلس مفساه

وكما قيل الفقر يزرى باقوام ذوى حسب * وقد يسود غيرا لسيد المال

ولقد رشفت من افواه الحكماء ونصائح البلغاء بل شاهدت من النوائب وتلقفت من ذوى التجارب وتحققت فى الدهر أبى العجائب ان الفقر شيب الفتيان وسقم صحيح الابدان ومبعد

الاقارب وجاءلهم اجانب وقاطع الارحام ومانع السلام ومبغض الاحباب ومفرق الاتراب ومشتت شمل الاصحاب وبالجملة فالذى يجب على ولى الامر التأمل فى قصارى هذا الامر والتفكر فى عاقبة هذه الحركه وما يصدث فيها من شوم وبركة وان يجيل قداح التدبر والتبصر والتصبر ويتثبت فى صدر هذا المورد المضيق ومافيه من مجال أوضيق ولا يعتمد فيه على القوة والحول وأسباب الطول والطول وكثرة الشوكة والعدد وامداد العدد والمدد مع عدم الاكتراث بالاخصام وقلة المبالاة بكل أسد ضرغام فان الاسد سلطان السباع وملك عظيم كثير الجند والاتباع شجاعته مشهوره وشهامته مأثوره به يضرب المثل ويشبه كل بطل ونحن وان كان لنا عساكر كالجبال تهدم الحصون وتدك القلال لكن ماجربنا مصارعة الاسود ولا مارسنا مقارعة النمور والفهود ولا نعرف طريق بلادهم ولا طريقة جدالهم وجلادهم وان لهم فى الحروب اساليب وفى افتراس الفرائس انيابا ومخاليب فأخشى ان لا تتم هذه الامور وتقصر حبالنا عن مصادمة مالهم من قصور فيرجع وبال هذه الامور علينا اذ ابتداؤه اولا منسوب الينا ولا نحصل الا على الندامه والتوبيخ والملامه ويخاطبنا الجدال ويل بما قيل

تبنى بأنقاض دور الناس مجتهدا * دارا ستنقض يوما بعد ايام

وقال المدبر ولاشك ان جوهر هذا النظام وعقود هذا الكلام صادر عن فكر بعيد ورأى سديد وأمر رشيد وتأمل فى العواقب مفيد أصله الحكمه وفرعه الشفقه وزهره المعرفة وثمره الفطنه ولكن من حين استولى على الملك كيومرث وصرث على سرير التحكم اصبح الولاية ابلغ مرث وسن قواعد السياسه وأسس بنيان الرياسه وذلك زمان الابتدا وأول ماملك على الدنيا والى هذا اليوم لم يزل القوم من الملوك فى روم وطلب الزيادة والسوم ولا عتب فى ذلك ولا لوم وقل لى أى ملك مالك تحكم فى الممالك وسلك فيها المسالك ولم يقصد فيها الولايات الشاسعه ولا الاقاليم الواسعه ولم يطلب الترفع على الاقران وعلو المكان بقدر الامكان والملك عقيم والعاجز سقيم وكيف يتصور أيها الملك الاكبر ان تكون همة الملك ادنى من همة تاجر فى البحر ينهمك فان التاجر اذا افتكر فى لذة الفائده ومايعود عليه العائده وغرته كما يقال التسع أواق الزائدة يضع جميع ماله وماتصل اليه يده من خدمه ورجاله فى الفلك المشحون ولا يرهب ريب المنون ويركب هو أيضا فيه ولا يلتفت الى مجانب دواهيه ولا يفتكر فى الغرق ولا فى جبر السفينة ولو انخرق ويسلم قياده الى متصرف الهواء ونفسه وماله الى حاكم الماء ودونك ياذا الحشمه والوافر الحرمه ماقاله العاشق العالى الهمه

ان تم سوبدرا فليكن * ابن الخليفة ذى السرير
او ابن سلطان الورى * او ذى الوزارة أو أمير
وتجنب الاوغاد والـ * ـغوغا وذا القدر الحقير
ان الخطير هو الذى * قد قام بالامر الخطير

وأما قولكم عساكرنا اغمار لا دربة لهم بتلك الديار ولا معرفة لهم بمصادمة الاسود ومقاومة

ثلاث الجنود فاعلم أيها الوزير الفاضل الكبير ان الاسد ملك كاسر وعلى سفك الدماء جاسر وان في رعيته من اذاه وأنكاه في ذويه وابكاه وكسر مجبرا واسترعاه قسرا واستولى عليه قهرا فهو منتظر تنفس الزمان مترقب انقلاب الحدثان متوقع أيها الفضيل معنى ماقيل

اذا لم يكن للمرء في دولة امرئ * نصيب ولا حظ تمنى زوالها

فاذا سمع باحد خرج على الاسد ولو كان اقل الاعوان فضلا عن ملك الافيال بل قيل الاقبال الفاضل في ذاته الكامل في صفاته العادل في رعيته البار بأهل ولايته المحسن الى أهل مملكته المشفق الحليم الرؤف الرحيم فبالضرورة يبادر الى ملاقاه ويسارع الى ما كان تمناه ويغتنم عبودية الملك ويعدها غاية مرتجاه فيدل على عورات العدو ومظان عثراته ويرشد الى طرائق نكاياته ونكباته وينادي في النادي نلت مرادي على رغم الاعادي ويعلن بانشادي للحاضر والبادي

اذا كان للانسان في دولة امرئ * نصيب واحسان تمنى دوامها

وأيضا في ذلك الاقليم من هو متشبث بأمر جسيم وهو ماله من مال واولاد واقطاعات وعقار وبلاد وسوائم ومواشي واثقال ومواش فلا يمكنه التحول عن طريقنا ولا التحمل لرعودنا وبروقنا ولا قوة المقاومة ولا طاقة المصادمة فبالضرورة يصانع عن تعلقاته بالطاعة ويتشبث بذيل متتابع الجماعة فنستمد بآرائه ورواته ونستفيد فيما نحن بصدده دواء لدائه فقال الملك للمقبل ما الجواب عن هذا الخطاب فقال هذا المقال وان كان لا يخلو عن الاحتمال ووقوعه غير محال لكن الاقرب الى الذهن ان هذا لا يقع لانه أمر مبتدع ولان طباعنا مخالفة لطباعهم وأوضاعنا غير أوضاعهم وناهيك أن كلاب الحارة في النهب والغارة يمزق بعضهم بعضا ويتناحرون فيما بينهم حرصا وبغضا حتى اذا دخل بينهم ذيب أو حيوان غريب توجهوا اليه واتفقوا عليه فمزقوا أديمه وهتكوا حريمه وجعلوا لحمه لجماعتهم ولمه وعند الاسد من الوحوش أنواع ما بين سباع وضباع وغور وذئاب وقرود ودباب وفهود وكلاب كلهم على طباعه متفقون على اتباعه وان اختلفت عليهم الثياب لكن الكل كلاب أولاد كلاب وكل من هؤلاء على ما هم عليه متفق والاهواء له على خصمه في مجادلته وخصمه دربة في المساورة ووثبة في المغاورة وأنواع في المكر والفر وروغات في الخير والشر ومداخل ومخارج ومدارك ومعارج وليس في عساكرنا سوى الصدمات والحطم بقوة النهضات والعزمات فان أفاده هذا الاصطدام والاقتحام الا الانهزام فلما بلغ المقبل في الكلام الى هذا المقام وكان رسخ في قلب الملك من كلام المدبر الوسخ فما اثر نصح المقبل وما أفاد لان النفس بطبعها مائلة الى الفساد فشرع الملك واعتقد على التوجه الى بلاد الاسد وأمر رؤسا قبيلة الهنود بجمع العساكر والجنود وأشيع ذلك في اطراف الممالك فاطلع على هذه الاحوال غراب يكنى أبا المرقال كان له وطن وولد وسكن في ممالك الاسد لكنه قدم بجزيرة الافيال للتنزه على سبيل التفرج والتفكه فشرع يتأمل في هذه الامور ويستنتج من قضاياها ما يتولد من سرور وشرور فانتهى سابق افكاره في ميدان مضماره الى ان هذه القضايا تسفر عن بلايا ورزايا واراقة دماء وخراب اماكن وهلاك

رعايا سواء تمت للاقبال أو رجعت عليهم بالوبال فخاف على سكنه ودمار اهله ووطنه فأدى فكره الاسد ان يطلع على ذلك الاسد ليتداركه بحسن آرائه ويعترف للغراب بحسن وفائه فبكر بكوره وقصد دوره فوصل في أقرب زمان ونادى الريبال ابا الزعفران وقال الله الله انى انا النذير العريان واطلع الاسد على هذا النكد وقرر معه حقيقة الاحوال وما عزم عليه ملك الافيال فتشوشت لذلك الخواطر وتصدعت لخوفه الاكابر والاصاغر ثم أمر السباع وطوائف الوحوش بالاجتماع مع رؤساء مملكته وأساطين خاصته ورعيته وذكر لهم هذا الامر المهول وما عزم عليه ملك الفيول وأذن لكل واحد منهم في ذلك بما يقول فوقع الاتفاق من أولئك الرفاق ان يتفق أعيان كل جنس من الحيوان على رئيس من جنسهم يقيمونه مقام نفسهم يرضون بأقواله ويقتفون آثار افعاله وليكن من أهل الحصافة والكفايه واللطافة والدرايه والشفقة العامه والمعرفة التامه يقدمهم للمؤامره مجلس رأى ومشاوره فيما وقع عليه الاتفاق واجمع عليه الرفاق واستصوبه الاسد وارتضاه اتبعوه وعملوا بمقتضاه فتقدمت طائفة الآساد الى تاج منها نهاد سبع يسود على طوائف الأسود طالما افترس الاقران وانغمس في دماء الشجعان وأضاف جوارح الصيد فضلات ما افترسه من عمرو وزيد كاسر جاسر باسل باسر حاسر قاسر ظاهره أبي وباطنه بالمكر غبي

أسد يسود على الاسود نئيره * رعد وعيناه بروق تخطف

فقدموه واختاروه واشاروا أرأى رأيه وامتاروه واختارت النمور نمرا يعور سريع الوثبه بديع الضربه لطيف الحركات خفيف النهضات قوي الشماس خفي الاختلاس كثيرا ما كسر أسامه وسامى أسود خفان فاسر ضرغامه كما قيل

نمر يخاف الاسد من وثباته * ويخاف حركاته وثباته

وقدمت الثعالب ثعلبا لطيف الروغان ظريف الزوغان خفي الحيل قوي الميل طالما فرمن طيل واحال على الصيادين من أهوال وأحرق السلوقيات سلاحه ونفذ في غالب الاسود بالمكر سلاحه

يضل بنى سلوق من دهاه * فيخلص من مخالبها سليما

واعتمدت الذئاب في هذا الباب على ذيب فعله عجيب وأمره غريب سديد الختل والختر شديد المكر والكسر طالما أفسد ثلة ودخل في قطيع ماشية فقطعه كله يعجز الاسود والنمور والفهود شيمته الغدر والخديعه ودأبه المكر وسوء الطبيعه شعر

وقد جمع الضدين نوما ويقظة * يخاف الرزايا فهو يقظان نائم

فاختلى بهم أبو الاشبال وشاورهم فيما دهمهم من الاهوال وتوجه بالخطاب الى الاسد وقال ماذا رأيك في هذا النكد فقال لانطلب النصر في هذا الحصر الا من مالك العصر ومصرف أحوال الدهر بين الفرج والقسر وهو الله سبحانه وتعالى وعز شأنه وجل جلالا فانا مظلومون وهم ظالمون ونحن ما اعتدينا عليهم ولاتقدمنا بالظلم اليهم فسيرد الله كيدهم في نحرهم وسيحيق بهم عاقبة مكرهم وهذا أمر مقرر وأظنه هو المقدر وأما ما يتعلق بنا وبهم من الفرار والصلح أو حربهم فاذكره على التفصيل وأخبر في ذلك الرأى الجميل اما

القرار فلا سبيل اليه ولا معول ابدا عليه وأنى ذلك وهو عيب ماوصمت به الاسود ولا الهم به وصف معهود وبنا يضرب المثل فى الشجاعة والبساله وتتشبه بنا الابطال فى الاقدام لا محاله وكيف نترك بلادنا وأهلنا واولادنا من أول وهله ونعزم على الرحله ولا صادمناهم ولا واقفناهم ولو فعلنا ذلك فهربنا وتركنا مالنا وذهبنا لفسدت أمورنا وخربت ممالكنا ودورنا ولانفرط نظامنا وتعوج قوامنا واستمرت هذه الملامه الى يوم القيامه ولدام علينا هذا العار ولا يقر لنا بعد ذلك قرار واعلم ايها الملك نور الله وجه السرير بك ان العمر السنى ما مر فى العيش الهنى وقد قيل

ما العمر ما طال به الدهور * العمر ما طاب به السرور

والعمر الذى يمر فى نكد لا يحتسبه من ذوى الكفاية أحد وحسبك ما ذكره المترجم من حكاية الملك المعزول مع المنجم فسال ابو الاشبال سرد هذا المثال فقال الاسد ذكر القائل ان اهل بابل كانت عادتهم فى دينهم وسلوك طريقهم مع سلاطينهم انهم اذا اعتنوا بشخص ملكوه واتبعوا طريق أمره وسلكوه وبذلوا فى طاعته ما ملكوه فاذا أرادوا عزله تركوه وانشزوا عنه وفركوه واهملوا احسانه ونذلكوه وسكنوا غيره فى سرير الملك وحركوه فاتفق انهم ولوا واحدا وأعزوه ونصروه ثم خذلوه واقبلوا عليه أولا ثم قتلوه وكانت مدة ما بين ذلك يسيره وعمر ايامه فى ولايته قصيره فحصل له اولا السرور ثم تراكمت عليه بالعزل الشرور فاحشوشه الفكر وبات يصارع القضاء والقدر ثم قال لو راقبت فى أول الجلوس ما فى الطالع من سعود ونحوس ثم اخترت ساعة ارتقائى وقتا يطول فيه بقائى وذلك يكون نجمى فى برج ثبت لما انقلبت كواكب سعدى عن الاستقامة ولا نبت ولكن حيث فات ذلك فى الابتداء فاتداركه فى الانتهاء فلعل ذلك يفيد ويردنى الى سرير السرور ويعيد ثم طلب منجما حاذقا ماهرا فى صنعته فائقا وقال انظر فى طالع جدى وتأمل برج نحسى وسعدى واختر لى ساعة يصلح فيها النزول عن السرير ويكون العود الى السرير بواسطة الناظر اليها غير عسير فان الناظر الى الطالع هو الجالب والمانع فامتثل المنجم ما رسم وشرع فى وضع الاشكال والقسم ثم قال احسن ما نظر فى الطالع المسعود من حين الميلاد فانه اول الوجود فاذا أخذ الطالع من ساعة الميلاد ترتب عليه ما يصدر على ذلك المولود من السعد والاسعاد ومن الخوف والرجاء فى عالم الكون والفساد فهل اطلع الملك فى أى ساعة وجد وكم أتى عليه من حين ولد قال نعم اعرف مدة عمرى جزما وهى اثنان وعشرون يوما فتعجب المنجم من مقاله ولم يقف على حقيقة حاله فقال اوضح الملك ما أشار لاقف على حقيقة هذه الاسرار فقال مدة استيلائى على السرير هو هذا القدر اليسير وانا لا احسب العمر ولا اعتد بوصال بيض ولا سمر الا هذه الايام والليالى ولا احتسب سواها عمرا ولو بيع باللآلى وقد قلت

وعمر مضى بالهجر لست أعده * ولكننى أقضيه فى زمن الوصل

وانما عرضت يا بطل على رأيك السعيد هذا المثل لتعلم ان ايام المحنة لا تعد عمرا ولو قضى الانسان فيها زمانا طويلا ودهرا وأما الصلح يا ذا الركون فعلى أى وجه يكون ومن أين يقع بيننا وبينهم اتفاق وسكون وليسوا من جلدتنا ولا على ملتنا وفى أى عصر وأوان ذل

الاسد واستكان وتخضع للفيل ودان او اعطى الغضنفر النباح والضرغام الصعب الناّج لغيره الجزية والخراج وهو في الحقيقة سلطان الوحوش ووهاب التاج فلم يبق الا الاستعداد للمصادمه والتأهب للمقاحمه والمقاومه وانما من ذلك في البين احدى الحسنيين اما الظفر بهم وهو المرام واما الشهادة فنموت ونحن كرام وقد قال السيد السديد من قتل دون ماله فهو شهيد وقيل ياحاتم طي حسن الثناء على الميت خير من سوء الثناء على الحي والموت في مقام العزه مع النشاط والهزه أرفع من الحياة بذلة ووخزه وكسرة وبخزه وقد كنت انشدت وقديما أرشدت

هو الموت ان لم تلقه ضاحكا فتى * عبوسا بوجه اقترا للون اغبرا
ومن لم يمت في ملتقى الخيل مقبلا * عزيزا يمت تحت السنابك مدبرا

فاقبل الريبال على ابي مرسال وقال أيها الغر وصاحب الخلق الزهر ماذا تشير في هذا المهم والمشكل الذي دهم فقال ان الافيال اكبر جسوما واعظم حلوما واقوى في الضرب وأعدى في الحرب وقد استعدوا واقبلوا واتقنوا امورهم واعملوا وانا اخشى ان يكونوا اقوى بطشا وان نعجز عن المقاومة في المصادمه فان فينا العاجز والضعيف والذميم الجثة والنحيف ومن لا عرف الافيال ولا رأى تلك الاشكال فينفر من مصادمة الجبال فيطؤننا تحت اخفافهم وتنكسر شوكتنا في أول مصافهم فلم يبق الا الفرار ولا يقر لنا بعد ذلك قرار فيستولون عنوة وقسرا على هذه الديار وينفرط النظام ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام ونقع في البلاء العريض الطويل وانظر يامولاى الى ماقيل

هل للعرانين من صون اذا وصلت * ايدى الرعاء الى الخلخال والخدم

فعندى الرأى ذو الاصالة ان ننتخب الملك من يصلح للرساله ويحسن السفاره ويحسن العباره فيسكن من فورة شغبهم وثورة لهبهم وسورة غضبهم ويعدهم ويمنيهم ويحسن التقريب ويقصيهم وفي ضمن هذه الاوقات واثناء هذه الحالات يراقب أوضاعهم ويخبر جمعهم واجماعهم ويتوصل الى أسرارهم ويواصلنا باخبارهم ويطالعنا بما خامر افكارهم ويكتب ماقدموا وآثارهم ونستمر على المراسله والمقاولة والمطاوله فان تيسر رجوعهم وانكشف بالهوينا جموعهم والا فنكون قد استعددنا عن الاستبصار فنتعاطى أمور قتالهم بعد التأمل والاختبار وان امكننا أن نأتيهم بالليل ونحل بهم الدواهى والويل بعد ان يركنوا الى جانبنا ويأمنوا من نوائب مصائبنا فربما نصل الى بعض القصد أو يوافق بعض حركاتنا السعد فالتفت الدوكس الى العملس وقال أى سيد وذا الامر الرشيد ماذا ترى فيما طرا وكيف طريق العوم فيما جرى قال السمسام يامولانا الضرغام الذى سمعته من أولى التجارب وتلقفته من الاصحاب والاجانب أنه من التوفيق اذا ابتلى الشخص بعداوة من لا يطيق أن يدافعه بالهدايا والتحف ويصانعه بشئ من الطرائف والنتف فانه قيل في الامثال ان خير الاموال ماادخر لدفع البوس ووقيت بنفائسه النفوس فاجب النهاب بابي وثاب ياأبا الحصين مارأيك في البين وأى آراء الاصحاب أقرب الى الصواب فتقدم الثعلبان وتكلم فابان وقال أسعد الله الاحد مولانا الاسد وجعل رأيه الاسد وفعله على

أعدائه الاشد اعلم أيها الداهات ان أمورنا لا تخلو عن احدى ثلاث اما المقابلة بالمقابحه واما المهادنة والمصالحه وقد تقرر فيما تقدم وتحرر بيان كل منهما وما يصدر فيهما وعنهما وأما الفرار وتولية الادبار وترك الاوطان والديار فأف لذلك من عار وسبة وشنار فما بقى الا الحالة الثالثه وهى بعساكرهم عابثه ولقلوبهم كارثه وهى طريقة الاحتيال والتوصل الى القائهم بطرائق المكر فى جب الوبال فان صائب الافكار يعمل ما لا يعمله الصارم البتار فبشباك الحيله تصاد كل فضيله وتهون كل جليله وأنا أفصل ما اجملت وأبين ما فصلت أما المقابله والاخذ فى أسباب المقاتله فلا طاقة لنا به ولا باب لدخول قبابه لانا عاجزون عن المصادمه قاصرون عن المقاومه محتاجون الى الطعام والشراب وبعض عساكرنا لا يعيش الا باللحم والكباب وجيشهم الذى قد ملا وسد الوهد والفلا يقنعون بالحشيش والكلا فلا يتكلفون لحمل زاد ولا يحتاجون الى عدة وعتاد وأيضا احوال عساكرنا المفرقة المضمومه لاختلاف اجناسها وانواعها غير معلومه فلا اعتماد عليهم ولا يتحقق الركون اليهم فانهم اجناس مختلفة وطوائف غير مؤتلفه وبينهم معاداه وفى جبلتهم النفرة والمنافاه وبعضهم غذاء بعض وفى قلبه منه عداوة وبغض لو ظفر به كسره واكله وان استنصر به خذله فهم كالقفل المجمع ولون اتفاقهم ملمع وأما عساكر الافيال فبينهم اتفاق على كل حال لانهم جنس واحد وما بينهم مخالف ولا منا كد ولهم اعتماد على قوتهم وعلى اتفاقهم وشوكتهم والمعتمد على مثل عساكرنا ان لم يضبط بطريقة كلية أمر عشائرنا ينفرط أمره ويخمد فى ايقاده نار الحرب جمره ويعلوه من بحر النوائب غمره ويظفر به من اعدائه زيده وعمره ويصيبه من الخطه ما أصاب الصياد من القطه قال أبو الحرث عن بيان هذا الحادث قال الثعلب ذكر أن رجلا ذا كيد كان مغرما بالصيد وكان عنده قط صياد يجترئ على الغمس والفياد فكان يوما بين يديه فمر عصفور عليه فطفر كالنمور وحصل من الهواء العصفور فاعجب به صاحبه ثم قصد الصيد وهو مصاحبه وحمله تحت ابطه وبالغ فى حفظه وضبطه وركب جواده وتوجه يروم اصطياده فرقا سفح جبل فخرج من وراء صخرة طائفة من الحجل فتوجه اليه وألقى القط عليه فطار الطير وخاف القط وقصد رجوعه الى تحت الابط فطفر الى جبهة الجواد وأنشب فيها مخاليبه الحداد فجفلت الفرس من القطه وخبطت بفارسها الارض شر خبطه ازهقت فيها نفسه وابطلت حسه وانما أوردت هذا المثل ليحترز أيها البطل فى هذا الامر من وقوع الخلل ويتفكر فى أمر هؤلاء الجماعه وكيف ثباتهم فى دعواهم السمع والطاعه فانهم لا يصلحون للقتال خصوصا مصادمة عساكر الافيال فالملك لا يعتمد على مثل هذا العسكر اللهم الا ان يتقرر أمرهم على صدق اللقاء ويتحرر وأما ما ذكره مولانا أبو سهيل فى تبييت عساكر الافيال بالليل فهو رأى معتبر ولكن فيه نظر لان ذلك انما يكون اذا كان العدو فى سكون وعن توقع النكبات فى ركون فبيناهم فى غفلتهم ذاهلون جاءهم بأسنا بياتا أوهم قائلون واما اذا كانوا مستعدين يقظين مجدين وقد توجهوا للقتال وانتصبوا للمناضلة على هذا الحال فلا شك انهم اتقنوا امرهم واخذوا اسلحتهم وحذرهم فأعدوا لكل نائبة نابا ولكل بائقة بابا ولكل حرب حرابا ولكل

ضرب ضرابا ولكل شدة سده ولكل عدة عده ولكل جزة جزه ولكل وفزة فزه ولكل نفرة طفره ولكل فرة كره ولكل ازمة حزمه ولكل كسرة جزمه فربما يكونون افتكروا منا هذه المكيده وأعدوا فى مقابلتها داهية نصبوا لها مصيده فنتوجه اليها غافلين فننشب فى شركها ذاهلين فيصيبنا من النكال ما أصاب الجمل من الجمال فقال الريبال هات يا أبا الترهات أخبرنا يا أبا نوفل أخبار الجمل المغفل قال كان جمال فقير ذو عيال له جمل يتعيش عليه ويتقوت هو وعياله بما يصل منه اليه فرأى صلاحه فى نقل ملح من الملاحه فجد فى تثقيل الاحمال وملازمته بانقال الاثقال الى ان آل حال الجمل الى الهزال وزال نشاطه وحال والجمال لا يرق له بحال ويجد فى كده بالاشتغال ففى بعض الايام ارسله مع السوام فتوجه الى المرعى وهو ساقط القوة عن المسعى وكان له ارنب صديق فتوجه اليه فى ذلك المضيق ودعاه وسلم عليه وبث عظيم اشتياقه اليه فلما راى الخز زهزاله تالم له وسأله احواله فاخبره بحاله وما يقاسيه من عذابه ونكاله وأن الملح قد قرحه وجب سنامه وجرحه وانه قد اعيته الحيله واضل الى الخلاص سبيله فتألم الارنب وتأمل وتفكر فى كيفية عصر هذا الدمل ثم قال يا ابا أيوب لقد فزت بالمطلوب وقد ظهر وجه الخلاص من شرك هذا الاقتناص والنجاة من الارتهاص والارتصاص تحت حمل كالرصاص فهل يعترضك يا ذا الرياضه فى طريق الملاحة مخاضه فقال كثير وكم من نهر وغدير فقال اذا مررت فى خوض ولو انه روض او حوض فابرك فيه وتمرغ وتنصل من حملك وتفرغ واستمر فيه يا ابا ايوب فان الملح فى الما يذوب وكرر هذه الحركه فانك ترى فيها البركه فاما انهم يغيرون حملك او يخففوه او تستريح بذوبه من الذى اضعفوه فتحمل الجمل للارنب المنه وشنف بدر هذه الفائدة اذنه فلما حمله صاحبه الحمل المعهود ودخل به فى طريقه المورود ووصل الى المخاضة برك فضربوه فما قام ولا احترك وتحمل ضربه وعسفه حتى أذاب من الحمل نصفه ثم نهض انتهاضه وخرج من المخاضه ولازم هذه العاده الى ان أفقر صاحبه وأباده فأدرك الجمال هذه الحيله فافتكر له فى داهية وبيله وعمد الى عهن منفوش وغير فى مقامرته شكل النقوش واوسق للجمل منه حملا بالغ فيه تعبية وثقلا وسلط عليه الظما ثم دخل به الى الما فلما توسط الما برك وتغافل عنه صاحبه وترك فتشرب الصوف من الما ما يملؤ البرك ثم اراد النهوض فنا به الربوض فقاسى من المشاق ما لا يطاق ورجع هذا الفكر الوبيل على الجمل المسكين باضعاف التثقيل فساء مصيره وكان فى تدبيره تدميره وما استفاد الا زيادة النصب وامثال ما كان يجده من التعب والوصب وانما أوردت هذا المثل عن الجمل ليعلم الملك والحضار ان العدو الغدار والحسود المكار يفتكر فى انواع الدواهى ويفرع أنواع البلايا والرزايا كما هى ويبذل فى ذلك جده وجهده ولا يقصر فيما تصل اليه من ذلك يده فتارة تدرك مكايده وتعرف مصايده وتارة يغفل عن دواهيها فلا يشعر الخصم الا وقد تورط فيها وعلى كل حال لابد للشخص فهو عليه من الاحتيال وأما طلب الصلح وارسال الهدايا فمن أعظم المصائب وأكبر الرزايا فان ذلك يدل على عجزنا والخور وينادى على هواننا فى البدو والحضر ويجرئ علينا الغريب ويذهب حرمتنا عند القريب ودونك يا أبا العباس

ما أنشدتك في القياس

وما أنا من فر من نار خصمه * أظل حسودا والي في شامت

ولكن الرأي الانور أيها الورد الغضنفر ان ترسل اليهم رسولا عاقلا فصيحا جليلا بصيرا بعواقب الامور قد مارس تقلبات الدهور وتدرب وترب وعن الرذائل تأبى وبأنواع الفضائل تعبى واسوم الى كعبة محاسن الشيم ولبي ولولا ان باب النبوة استدلتنى برسالة خلة تسفر عن بسالة تجوله تتضمن سؤالهم عما أوجب ارتحالهم وسبب قصدهم لبقعتنا وتوجههم لدخول رقعتنا وما موجب هذا الاعتداء ولم يصدر منالهم الا المحبة والولاء وحسن الجوار والاحسان الى الكبار والصغار ومعاملة القريب والغريب بالفضل المجيب والكرم الذى لا يخيب ويذكرلهم بسالتنا وشجاعتنا وفي معاملات المضاربة بضاعتنا ويكشف لهم في ملابسة الحرب والضرب صناعتنا ويحقق عندهم ما عندنا من أسود الحرب وفوارس الطعن والضرب وأجناس الوحوش الكواسر والسباع الجواسر وأصناف الفراعل والعساير ويتكلم بكلام يراه مقتضى المقام ومناسب الحال ويوسع في ذلك المجال ويميز أوضاعهم وعساكرهم ويسبر عسبار العقل أمورهم وأوامرهم ويسمع الجواب ومافيه من خطا وصواب ويورده الينا ويعرضه علينا فنعمل بمقتضاه وينظر الرأي السديد فيه ما ارتضاه ونبني على ذلك الاساس ونفصل على ذلك القياس فاستصوبوا هذا الرأي من الآراء وطلبوا له كفوا من الاكفاء فوجدوا ذئبا هو من خواص الحضره ومن ذوي النباهة والشهره له في ميدان الفضائل كر وفر وفي مظان النفع والضر خير وشر قد جرب في المصايد ودرب في المكايد وهذب في المصادر والموارد ورتب في المطارف والمطارد ادنى فضائله حسن السفاره واحدى فواضله ترتيب العباره حلال المشكلات كشاف المعضلات فوقع عليه اختيارهم ورضي به كبارهم وصغارهم فحمله الاسد كلامه وجعل البسملة مبدأه والحسبلة ختامه ومن مضمونه بعد ابلاغ التحيه والاثنية السنيه الى الحضرة العليه ملك الافيال أبي مزاحم المفضال ألهمه الله هداه وصرف عنه رداه وبصره مواقع الخير وهداه ولا شمت به اعداه وحفظه بالعشي والغداه وجعل عقباه خيرا من مبتداه فحيط علومه الكريمه وآراءه العلية الجسيمه ان قوتنا من قديم الزمان ظاهره وهيبتنا باهرة وصولتنا قاهره لم نزل تفترس الفوارس ونكرم أصناف الاضياف من الوحش والطير بالفرائس ويضرب بنا في الشجاعة والكرم الامثال ويفر من بين أيدينا اسود الابطال ولا عار على من فر من بين يدي الريبال وقد اتصل بنا أن ملك الافيال توجه الينا بجنوده وهيأ في ذلك اجناس عساكره وبنوده وما علمنا لذلك موجبا ولا تقدمنا بعداوة تنشي حربا وحربا بل ولا تعرضنا لاحد في ملكه وملكه وعدلنا بحمد الله تعالى جار في بحار الملك وفلكه والرعايا شاكرة منا ولم ينتشر سوى الذكر الجميل عنا فأنعموا برد الجواب وميزوا الخطأ من الصواب قبل ان يكشر الشر نابه ويفتح جرابه ويحرش للهرير كلابه ويسلخ ليل اهابه ويكسر رائد الفتنة بابه فتتفاقم الامور وتتعاظم الشرور وتتلاطم بحارها وتمور عند التهاب شواظ الغيظ من الاسود والنمور مع ان اعتمادنا على الله العظيم

وتوكلنا على العزيز الرحيم فلما بلغ الذئب الرساله وأدى مافيها من شجاعة وبساله وبين
لملك الافيال ماتضمنته من عظمة وجلال استشاط ملك الافيال وتغيرت لاضطرابه
الاحوال ونظر من تلك الفيول الى فيل ظلوم جهول وبدر اليه من غير تدبر ولا تأمل
فى الامور وتفكر وقال اذهب الى هذا المعتمد على كلامه الراقد فى غفلة منامه وقل له متى
مارست معركة الشجعان أو صارعت رجال الميدان وأنى لك طاقة بصادمة الجبال ومن
أين تعرف مقاومة الافيال فاستيقظ لنفسك فعن قريب تحل برمسك واستعد لجنود
لاقبل لك بها فستشاهد مالم تسمعه من ضربها فى حروبها فلقد أتاك عسكر القضاء وجنوده
وليحطمنكم سليمان الافيال وجنوده فليريقن الدماء وليستأسرن الحرائر كالاماء
وليدوسن الاطفال وليترين منه الانكاد والانكال وليظهرن آثار الدمار والبوار بممالك
من ممالك ومساكن وديار وليفعلن بولاياتك مافعله بممالك الاسلام التتار وأنت بين أمرين
وبخير النظرين اما ان تطيع لامرنا وتنقاد وتسلم الينا ما بيدك من بلاد واما ان تختار
طرق الفراق والفرار وتصوم منامضيا الذباب وتتنحى عن طريقنا بما معك من كلاب وذئاب
وقد بالغنا فى النصيحه بعباراتنا الصحيحه واقوالنا الفصيحه قبل افشاء الفضيحه فوصل الفيل
الرسول وادى هذا المقول فتشوش الاسد وداخله الغيظ والنكد فاراد الايقاع بالرسول
الظلوم الجهول ثم تمالك وعن ذلك تماسك وقال لولا ان عادة الملوك ودرب السياسة المملوك
ان لاتهاج الرسل ولا تضيق عليهم السبل لقابلتك على كلام ملك الفيل بما يعجب من العج والثج
ثم التفت الى الثعلب وقال يا أبا الحصين ما عندك فى جواب هذين الخصمين قال الثعلب أنت
الاغلب هذا القيل أقوى دليل وأوضح سبيل على عدم عقل الفيل وان فكره وبيل
وبصيرته قد عميت وطرق هدايته قد خفيت وانه غوى واضل قومه وما هدى وكل من
اعتمد على قواه وحوله واستحلى غرور فعله وقوله فقد زال وزل وفى عقد البلاء حال وحل
وهذا الجاهل السخيف الكثيف الثقيل الجثة الخفيف قد استصغرنا فى عينه فسيرى منا
ماحاول حينه وكل من استحقر واستخف بعدوه فسيعدم حلاوة هدوه وسيحرم مواصلة
مرجوه وقد قالت الحكماء الاخيار والعقلاء ذووا الاعتبار واولوا التجارب والاستبصار
لاتستحقر السقم والنوم والدين والعدو والنار فالملك اعز الله نصره واعلى مناره وقدره
وسلط على الاعداء قهره لايلتفت الى هذا الكلام ولا يتزعزع لهذه الاوهام ولايخف من
جهامة الافيال فكل ماهم فيه باطل ومحال بل يعتمد على الله العزيز الجبار ويصفى نيته
بالعدل والخير مع الكبار والصغار ويقوى جنانه على الملاقاه وقد وافاه النصر وآتاه
ولاغاه السعد ولاقاه فان هؤلاء اعتدوا على ولايته وانوها فسينزل الله تعالى عليهم جنودا
لم يروها فكم من مستضعف حقير صدر منه بالحيلة أمر خطير وبحسن التدبير ومساعدة
التقدير تم له أمر كبير وناهيك قصة الفاره مع رئيس الحاره وما فعلته اذ ختلته الى ان
قتلته فسأل حيدره عن تلك المأثره فقال بلغنى أيها النفيس انه كان رئيس ضيق العطن
خسيس له زوجة ذات صيانه ودين وامانه لم تزل تجتنب الخيانه وتتعاطى العفة والرزانه
وله دجاجة تبيض على الدوام فيسرق بيضها أبو راشد وهم نيام فاذا افتقد الرئيس بيضته

طالبها زوجته فتحلف انها ما رأتها ولا تعرف يدا اخذتها فيولها سبا ويوجعها ضربا ولا يصدق قولها ولا يرحم عويلها ففي بعض الاحيان رأت المرأة الجرذان وهو يجر البيضة الى جحره وقد بلغ بها باب وكره فدعت بعلها لتريه الفارة وفعلها فعلم براءة ساحتها وعمل على راحتها واعتذر اليها وطلب الفارة وحنق عليها وأعمل المكيده ونصب للفارة دون البيضة مصيده فلما رأت الفارة الشرك علمت ان وراءه الدرك فشعرت بما وضع عليه فلم تتقدم اليه الى أن زار الجرذان أحد أقاربه من الفيران فلم يجد شيأ يضيفه فاعتذر الى الضيف بما هو بخيفه وأراه من البيضة سعاد وان دونها خرط القتاد وكان الضيف الغر لا يعرف هرا من بر فحمله السفه والحرص والشره على ان قال انا اخوض هذه الاهوال وارد من الموت حوضه واصل الى هذه البيضه ثم قصد المصيده فقبضت وريده وبخعت به وليده ووديده فتنكدت الفارة وتكدرت والتظت احشاؤها وتسعرت وتألمت لموت ضيفها وبلغ جيرانها حديث حيفها فخجلت منهم واختفت عنهم وشاعت قضيتها وذاعت بليتها فلم تجد لبرد النار سوى أخذ الثار فاخذت تفتكر في وجه الخلاص فرأت انها لا تخلص من عتب الجيران الا بالقصاص فشرعت في تعاطي أخذ الثار من صاحب الدار وكان لها صاحبة قديمه عقرب خبيثة لئيمه معدن السموم في زبان ابرتها وطعم المنايا مودع في شوكتها فتوجهت اليها وترامت عليها وقالت انما تدخر الاصحاب للشدائد ولدفع الضرر والمكايد وازال الداء بساحة الاعداء ولاخذ الثار والانتقام من المعتدين اللئام وقصت عليها القصه وطلبت منها ازاحة هذه الغصه وان تأخذ لها بضرباتها القصاص ليحصل لها بين جيرانها من العتب الخلاص فاجابتها الى ماسألت واقبلت الى وكر الفارة بما اقبلت واخذا في اعمال الحيله فأدت افكارهما الوبيله الى ان تخدعا صاحب البيت بالذهب وتلقياه بذلك في اللهب ثم امهلا الى ان دخل الليل وشرعا في ايصال الويل فاخرجت الفاره دينارا والقته في صحن الدار ووضعت آخر عند جحر الفار واظهرت نصف دينار من ذلك الذهب وسترت النصف الآخر عند العقرب واستترت العقرب بجناح السكون تحت ذيل الكمون وقد عبت في زبانها ريب المنون فلما أصبح الصباح ونودي بالفلاح وجد صاحب الدار في وسطها الدينار فتفاءل بسعد نهاره ولم يعلم انه علامة دماره ففتح عينيه ونظر حواليه فرأى عند جحر الفار أخا الدينار ففرح وطار ونشط واستطار وزاد في الطلب على بقية الذهب فرأى نصف دينار داخل جحر الفار فمد يده اليه واعمى القضاء عينيه عما قدره الله عليه فضربته العقرب ضربه قضى منها نحبه فبرد مكانه ولاقى هوانه وأخذت الفارة ثارها وقضت من عدوها أوطارها وانما أوردت هذه الاخبار ليعلم الملك ان حيلة صائب الافكار تفعل ما لا يفعله العسكر الجرار بالسيف البتار والرمح الخطار وبقليل الحيله تتم الامور الجليله فلا يهتم الملك بجيش الافيال ويشرع فيما هو بصدده من دقيق الاحتيال وأنا ارجو من الله تعالى الظفر بعدونا وحصولنا على غاية مأمولنا ونهاية مرجونا فاول ما نعامله بالوهم واظهار الصوله والتخويف والارهاب بقوة الدوله فان الوهم قتال والعاقل المدبر محتال وطائفة الفيول عديمة العقول وبالوهم يبلغ الشخص مراده كما بلغ

الحمار من الاسد ما أراده فسأل ملك الاساد بيان حكاية أبي زياد فقال أبو الحصين أخبرني
أبو الحسين ذو المفاخر ناصر انه كان في بعض الاعصار والمعاصر حمار في مدار يستعملونه
بالليل والنهار الى ان حصل له الكبر ورمي بالعبر وابتلي باطنا بالجوع وظاهرا بالدبر وعجز
عن العمل وانقطع منه الامل فتركه أصحابه واعتقوه وفي بعض المراعي أطلقوه فصار يمرح
وفي تلك المروج يسرح الى أن خرج الى الصحرا وانفرد في رياض القلا فوصل الى بعض
الآجام وحصل له النشاط التام الى ان صح بدنه وسمن وبرا دبره وأمن وأخذه البطر
واستولى عليه الاشر واستخفه الطيش وطيب العيش وصار في تلك المراعي يتردد ذهابا
وايابا كالساعي فيهدي ويلجم في شقتها ويفصل مهما اختار من هرخرقتها وينهق على
عادة الحمير فيملأ تلك الاماكن من التشهيق والزفير وكان في تلك الآجام أسد متخيس يسمى
الشبل ابن المتأنس كان أبوه ملك تلك الاماكن قد نشا بها وهو فيها ساكن شاب غرير
لم يكن يعرف الحمير ولا طرق سمعه شهيق ولا زفير بل ولا خرج من تلك الآجام ولا عرف
تصرفات الايام وكان أبوه قتل في الاصطياد وتفرقت عنه العساكر والاجناد فنشأ
وحيدا يتيما واستقر فيها مقيما فلما سمع صوت الحمار أخذته الرعدة والاقشعرار واستولى
عليه الهلع فقعد عن الاصطياد وانقطع وصار كلما نهق هرب واختفى من الفرق وغلب عليه
الدهش الى ان كاد يموت من الجوع والعطش وصار الحمار يتردد الى عين ما كان الاسد يسكن
منها سورة الظما فما اجترأ بعد ذلك على الورود وأضربه الخوف والانقطاع والقعود فلما
كاد العطش ان يقتله توجه الى العين محفوفا بالحيرة والوله فوجد الحمار واقفا عندها وأدرك
الحمار خوفه منه بالدها فتقدم اليه وصوب نحوه اذنيه وحلق عينيه فبدر من الاسد صرخه
انبهامن هوله شخصه وقال للحمار ايش أنت ولاي شئ ههنا سكنت وجعل يرجف وفي قيد
الخوف يرسف فعلم الحمار ان الاسد حار فقال بجنان جرى وبيان قوى انا في هذا المكان
افرق رزق الحيوان وقد اقتاحوش أرزاق الوحوش ثم اقسمها بينهم واملا جوفهم
وعينهم فقال الاسد اني جيعان ولي مدة عطشان فأعطني من الاكل رزقي وأفرزلي من الماء
حقي فقال بوجه مقطب ادن الى الماء واشرب فدنا وشرب وهو خائف مضطرب ثم قال أنا
جائع فأطعمني وعجل ولا تحرمني فلي مدة من الجوع لا قرار لي ولا هجوع فقال الحمار تعال
معي الى موضعي لتعرف مكاني وتقرر جرايتك في ديواني فذهبا في طريق حتى وصلا الى
نهر ماء عميق فارادا العبور فقال الاسد المهصور هذا الماء عميق وكم فيه من غريق فاحملني
في الذهاب وأنا احملك في الاياب فاجابه الحمار وحمله وخاض به ونقله وأنشب الاسد الاظفار
في كاهل الحمار وثقل عليه فلم يتأثر له ولم يلتفت اليه فزاد وهمه من الحمار وقال هذا
راس الدعار ثم سارا ساعة أخرى فرأيا في طريقهما نهرا فطلب الحمار الوثوب وقال هذه نوبتي
في الركوب ثم طفر على الاسد وثقل عليه الجسد وتمكن عليه وأرخى يديه ورجليه فتضرر
من ثقله وابتلي بشر حمله ثم تورك عليه وانشب في كاهله مسامير نعليه فصاح الاسد ومار وقد
اثرت فيه حوافر الحمار فقال له اثبت وآلك فما حولك تحتي واحالك فقال يا اخي جرت في
أمري لقد أوجعتني وقصمت ظهري وكان يكفيني جوعي وقلقي وخضوعي وما أدري

هذا الضر والبلا من أين أقبلا فقل لي ما الذي أنشبته في كاهلي ونزلت به من حاقرك في ساحلي فقال هذه مسامك لطلاب الجرايات والجوامك وهي أربعون مسمارك لابد ان تثبت كلها في قفاك حتى يترصع لك اسم في الديوان والا فالرزق لا يحصل بالهوينا بل بالهوان فقال يا أخاه اتركني لوجه الله وارفق بي رفقا وما اريد منك رزقا ودعني بالامانة ووفر الجراية على الخزانه ولا رأيتك ولا رأيتني ولا عرفتك ولا عرفتني فاني اتقوت من حشيش الارض وخشاشها واستعد لمعاد نفسي بالرفق في معاشها فنزل عنه الحمار وتركه وسار فهرب منه بعد ما ودعه وولى يلتفت يمينا وشمالا لئلا يتبعه وانما صورت هذا النقش لتعلم يا ملك الوحش ان الوهم يصدر كالسهم وهو عند براهمة الهند وحكماء السند احد طرق العلم وقال الله الى سلم السلم والوهم غالب على الافيال بل سهم الوهم يقتل كثيرا من الرجال فنرجو من الله ان يبلغنا مقصودنا وننال من طالع الجدوا لحظ مسعودنا وان يرجع اعداؤنا بالخيبه وفراغ العيبه وهذا المثل الذي ضربته والتقريب الذي قربته انما هو مثل العاجز الضعيف مع القوي العسوف لا العنيف واما نحن بقوة الله وحوله ومساعدة نصره وطوله فقوتنا قاهرة فائقه وصدمتنا بعون الله دعائمها دائمه لم يحصل منا خوف ولا خور ولا فزع ولا جزع ولا جور ففينا بحمد الله قوة لمصادمتهم وقدرة لمقاومتهم فامض لامرك فكانى بك وقد رجعت فائزا بنصرك مجبورا بكسر عدوك محبورا بيسرك ثم انه اقتضى رأى أبي الضراغم اعادة الذئب الى أبي مزاحم برسالة مضمونها بصرك الله بعيوب نفسك وارالك عاقبة غدك في صبح امسك وجعلك ممن اتبع الهدى وامتنع عن موارد الردى اعلم ان علماء الهند وحكماء البراهمة والسند امتازوا عن حكماء الاقاليم ووضعوا رقعة الشطرنج للتعليم وان واضع ذلك صور الرقعة بصورة الممالك وقسمها بالسويه وجعل لكل قسم جنسا من الرعيه ووضع له نوعا من السير لا يتعداه وبين لكل منهم مكانا لا يتخطاه وانا أخاف ان تتعدى مكانا هو مقامك وتتقصد بيت الشاه ويفوت مرامك وينادبك فرزين العقل وانت راحل في النقل يا ذا الهوس ماذا بيت الفرس فتقع وانت تصرخ في لعبك بالنفس مع الرخ فلا يفيدك الندم وقد زلت بك القدم وخرجت في لعبة من رقعة الوجود الى العدم وترى تلافي الموافاة فات ويقول خصمك وقد رأى كلاحة وجهك شاه مات فلا تعتمد على جهامة جسدك وكف عن حقدك وحسدك ولا تقصد حرم كعبة غيرك بالفكر الوبيل فيصيبك مثل ما أصاب أصحاب الفيل حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل وتصير بعد وقوع الملاحم وصدوع المقاحم ابا حرمان بعد ان كنت أبا مزاحم فلما قرأ الفيل هذه المطالعه غطت حمية الجاهلية منه الباصرة والسامعه فاراد ان يأمر بابطاء الرسول تحت اخفاف الفيول لكن راجع عقله وأحضروهله وورد الذيب بجواب مخيب وسهم غير مصيب وقال استعدوا للقتال ومصادمة الابطال ومقارعة الافيال ثم أمر بالعساكر فتجهزت وبامور الحرب فتجهزت وثار بغضب احمى من جمر الغضا وسار بالعساكر الجرارة فملأ الفضا فبلغ الملك المظفر أبا الحرث الغضنفر ما فعله الاكاب فاستشار الثعلب فقال اعلم أيها الملك وقاك الله شر المنهمك ان الافيال لا يعرفون الا المصادمه والاندفاع مرة واحدة في المخاصمه

وليس لهم فى الحرب حراب الا الخراطيم والانياب لايعرفون الكر والفر ولايفرقون بين النصب والجر ولكن بعض العساكر له فى ذلك معارف ومناكر منها المواجهة والمشافهه والمصارعة والمقارعه والمدافعة والممانعه والمخاتلة والمخادعه والمناوشة والمهاوشه والمعانشة والمهارشه والمكافحة والملاطحه والمطارحة والمراجحه والمرافسة والمراوسه والممارسة والمعاكسه والوثوب والمساوره والروغان والمصادره والاحتيال والكيد والاغتيال للصيد والربوض فى الكمين والنهوض من ذات الشمال وذات اليمين وكل أرباب هذه الملاعب وأصحاب هذه المخارق والمذاهب فى عساكرنا موجودون مجدون ومن أبطالنا معدودون معدّون فلابدّ من ترتيب كل فى مكانه وايقافه بين اضرابه واقرانه وتعبيتهم ثم تخبيتهم وكان بالقرب من ميدان النطاح وموضع جولان الكفاح وهو برية قفراء وأرض غبراء انهر مياه جاريه وعليها جسور وقناطر عاليه فاقتضى رأى الاسد والفكر الاسد أن يطلقوا ثغور المياه على البريه ويتركوا فيها العساكرهم طرقا ودروبا مخفيه ثم انهم عبروا تلك المياه وصفوا العساكر للملاقاه فقدموا امامهم الثعالب والكلاب وكل سريع المجىء خفيف الذهاب وصفوا وراءهم الذئاب والنمور والفهود والببور ووقف الاسد بين الاسود فى قلب الجنود بعد ان عبى الاطلاب وعرف مقام كل من القرانيص والاجلاب ثم أن الثعالب ونظراءها دخلت من الافيال وراءها وصارت تروغ بينها وتلاعب على عينها حينها وتتعلق باذنابها وتتشبث بعراقيبها وكعابها فزاد حنقهم وثار قلقهم وتقدموا واصطدموا وحطموا واضطرموا وبنار الحرب اصطلوا فناوشهم الببور البواسر وهاوشهم النمور الجواسر وهارشهم الاسود الكواسر ثم ولوا امامهم مدبرين وقصدوا الطرق المخفية عابرين فتصور الافيال ان جيش الاسد قد انحطم وانكسر وان عسكرهم غلب وانتصر فخطموا يدا واحده بهمة متعاضده ونهمة متعاقده وصدمة متأكده فى الحال ارتدموا وفى الاوحال ارتطموا وقطع دابر القوم الذين ظلموا ثم كرت عليهم الاسود والنمور والفهود وسائر السباع والذئاب والضباع فوقعوا فى تلك الفرائس وقوع الجياع على الهرائس وعانقوهم معانقة الاحباب للعرائس وأكلوا وادّخروا وحمدوا الله تعالى وشكروا ومن بعد ما ظلموا انتصروا واظهر العدل للحق مناره وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام من آذى جاره ورثه الله داره والله لايهدى القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه أجمعين

(الباب الثامن)

فى حكم الاسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد قال الشيخ أبو المحاسن من هو بجرعة الفضل أحسن حاسن فلما وعى الملك الجليل والفيل الفضيل ما جرى بين الاسد والفيل من القتال والقيل وانجرار ذلك الى الضرب الوبيل وعلم ان عاقبة الظلم وخيمه وشناعة التعدى والطمع مشومه أمر رؤساء المملكه وزعماء السلطنة بالكف عن الطمع وتجنب الحين والهلع ومعاملة الاهل والجار بحسن الخلق والجوار وانتشار ذلك بالاشهار فى الولايات والاقطار

فان العاقل من اعتبر بغيره وكف كفه عن اذاه وضيره ونشر مهما استطاع من موائد احسانه وخيره وعدى عن التعدى والعدوان لاسيما اذا كان ذا قدرة وامكان وتحكم فى الفقراء والضعفاء وسلطان فنهض الحكيم حسيب وقبل أرض العبودية بشفاه التأديب وقال وبلغنى أيها الملك المفضال مما يطابق هذه الاحوال انه كان فى بعض الازمان وانزه الاسكان سلطان الحيوان أسد عظيم الخلقه جسيم الشفقه جليل المكارم سليل الاكارم قد بلغ فى الزهد الغايه وفى الورع والعفة النهايه مع حسن الاوصاف والشمائل وكرم الاعطاف والفضائل قد جمع بين الهيبة والشفقه والصدق والصدقه وسورة الملك وسيرة العدل وسمة الفصل وشيمة الفضل هيبته ممزوجة بالرأفه وعاطفته مدموجة فى الصوله قد عاهد الرحمن بالكف عن اذى الحيوان وان لا يريق دما ولا يتناول دسما ولا يرتكب محرما يتقوت بنبات القفار ويقوم الليل ويصوم النهار يرعى فى دولته الذئب مع الغنم وينام فى كنف ضمانه وكفالة مأمنه الثعلب والارنب بعد حز الحرب والحرب فى ظل الضال والسلم كما قيل

ولى البرية عدله فتمازجت * أضدادها من كثرة الايناس
تحنو على ابن الماء ام الصقر بل * يحمى اخو القصباء اخت كناس

وفى جواره دوحة كثيرة الثمار غزيرة الانهار نضيرة الازهار رائقة الماء والكلا فائقة النشو والنما شائقة النشر والهوا رياحينها طريه ومروجها بهيه ومقاصفها شهيه فكان الاسد ذو الزهاده اذا أطال اجتهاده وأراد أن يريح نفسه من مشاق العباده يتوجه الى ذلك الروض الاريض والمرج البهى الغريض والمرعى الطويل العريض فيتنزه فى نواحيه يسرح سوائم طرفه فيه ويشغل صادح لسانه بتسبيح خالقه ومنشيه فبينما هو فى بعض الاوقات يتمشى فى تلك الخضراوات صادف دبا عظيم الجسم مليح الوسم فقبل الارض بين يديه وذكر انه أقبل لينتمى اليه وانه قد سمع باوصاف عدله ومكارم شيمه وفضله فقصده ليتشبث باذياله وينتظم فى سلك خيله ورجاله ويزجى فى خدمته باقى عمره ممتثلا بارز مرسومه ونافذ أمره فتلقاه بالقبول والاقبال وشمله بالفضل والافضال وقال له طب نفسا وقر عينا لقيت زينا ووقيت شينا فانتظم فى سلك خدمه وانغمر فى بحر كرمه واشترط عليه ان يحتمى عن لحوم الحيوان ولا يتعرض لايذاء طائر ولا انسان فامتثل ذلك بالسمع والطاعه وسار على سنن السنة والجماعه ثم بعد مدة يسيره قصد الاسد مسيره وخرج يسير على باكر وحوله طائفة من العساكر فلقى بحلاضل الطريق وتاه عن الصاحب والصديق ونسيه الجمال وتركه الرفيق فبادر اليه جماعة الاسد وهموا بتبضيعه بالناب واليد فانهم كانوا الشدة القرم الهيت احشاؤهم بالضرم فناداهم الاسد ويلكم كفوا وعن التعرض الى ايذائه عفوا لئلا يصيبه من الكيد ما اصاب صاحب كسرى ذى الايد من كسرى لما خرج صباحا الى الصيد فقبل الجماعة الرغام وسألوا الامام عن بيان ذلك الكلام فقال ذكر ان كسرى اراد يوما الاصطياد فركب فى جماعته وأهل طاعته وسار على الصباح وهو فى نشاط ومراح وانبساط وانشراح فصادف رجلا كريه المنظر مشوه

الخلقة اعور فتشاءم بطلعته وتعوذ من رؤيته وتطير من صباحه وتكدر صفو انشراحه ثم امر به فضرب ولولا تداركته الشفاعة لصلب ثم تركه وسار نحو صيد القفار فحاش الصيد واقتنصه من عسكره عمرو وزيد ورجع مسرورا فرحا محبورا وأدركه المساء فصادف ذلك الرجل ملتفا بكساء وكان ذا لب صحيح وعقل رجيح ولسان فصيح فابدى كسرا ونادى كسرى واستوقفه بعد ما استلطفه وقال أيها الملك العادل والمالك الفاضل أسألك بالله الذى ملكك رقاب الامم وحكمك فى طوائف العرب والعجم انعم على برد الجواب وبين لى الخطأ من الصواب فانك عادل حكيم فاضل كريم فوقف بعسكره واستنصت لخبره وقال هات مقالك وقل ما بدا لك فقال يا ملك ذا الايد كيف كانت أحوالك اليوم فى الصيد فقال على أتم ما تريد لقد حصل السادات والعبيد فقال هل حصل فى امور السلطنة وهن أو خلل او فى الخزائن المعمورة نقص وقال قال لا بل احوال السلطنة مستقيمة وديم الخزائن دارة مقيمة قال فهل ورد اليوم من الاطراف خبر يؤذن بتشويش واختلاف قال لا بل الجوانب مطمئنة والثغور من الاعداء والمخالف مستكنة قال فهل اصاب احدا من الخدم والاصحاب والخول والحشم مصاب قال بل كلهم بخير آمنون من الضر والضير قال فلم ضربتنى واهنتنى وعلام كسرتنى وطردتنى قال لان التصبح بك مشوم وهذا امر مشهور معلوم قال اسألك بالله الذى تتقلب فى مواهبه اينا كان اشأم على صاحبه انا تصبحت بك وأنت تصبحت بى فأنت أصبت الذى ذكرت وقد علمت ما حل بى ومع هذا فانا عبت وعتبت على الصانع وذهلت عما اودعه فى من اسرار وبدائع فانه لا اختيار لى فيما فطرنى عليه ولا مدافع ولا حيلة فيما قدره على ولا ممانع واسمع ما قلت بعدما صلت فى اهانتى وجلت

لقد كان قصدى أن اسود على الورى * بقد وظرف كامل الخلق بارع
ووجه يفوق البدر والشمس بهجة * فما كسى تقدير ربى وصانعى

ثم خطر بالبال هذا المقال فقلت

وددت لو انى أحسن الخلق صورة * واكمل من بدر السما وهو طالع
فابدع فى نقش المصور هكذا * ولا صنع لى فيما اتى الله صانع

فتنبه كسرى لكلامه وأمر باعزازه واكرامه وتدارك ما فرط منه باحسانه وانعامه وانما أوردت هذا المثل لئلا يكون هذا الجمل مثل ذلك الرجل لانه قد تصبح بى فلا يرى أبدا مكروها بسببى بل يرى الخير ويكفى أذى الغير وكذلك كل من هو عندى ومنسوب الى من خولى وجندى ثم دعا ذلك البعير وسأله عن جليل أمره والحقير فاخبره انه تاه عن أصحابه وانه من بعد يتعلق بغرز ركابه ويلازم خدمة بابه كاصحابه فاكرم مثواه واحسن مبوأه ومأواه الى ان صار من أكبر الخدم وذا خول وحشم ورأس الندماء ورئيس الجلساء وأمن النكد والبوس وصار كالعروس فحسده الدب لعدم اللب وعزم بمكره على القائه فى الجب واشتد بذلك البرم الى أكل لحم الجمل القرم فأخذ يضرب فى ذلك اخماسا لاسداس واحتوشه فى قضيته لسوء طويته القلق والوسواس فلم ير أوفق من افساد صورته واظهار سوء سريرته فيهلكه ويكيده ويقتنصه ويبيده فيحصل منه الى

مايريده ويغو بمكره الحسد ويصلح من شربه ما فسد ويروج منه ما كسد فأدى فكره الى ان يغرى به الاسد فاختلى بالجمل واشتد بالعمل وقال له في معك كلام على كتمه منك الام ولكنك لست موضعا للسر لانك لا تعرف هر امن بر وأنت ساذج ساكن سليم الفكر والباطن وقد قيل الحماقة في الطويل ولولا وفور شفقتى وحنوى عليك ومودتى مافهت لك بكلمه ولتركتك من التيه في ظلمه وقالت الحكماء ذو والمعارف لا تفش سرك الى طوائف منها سليم الفطره ومنها مدمن الخمره ومنها الكثير الكلام ومنها المرأة والغلام فانهم ليسوا محل الاسرار وانهم يفشونها بلا اختيار وقد قيل كم انسان اهلكه اللسان وكم حرف ادى الى حتف قال الجمل وقد اثر فيه مكره ودخل يا اخى انا تحقق شفقتك وصدقك وصداقتك واعرف محبتك ونصحك ومودتك وأنت لا تحتاج في تجربتى الى دليل فلى في صحبتك زمان كقدى طويل وأنا وكد قولى بالايمان واعقد على ما تلقيه الى الجنان ولا اتفوه به لجماد ولا حيوان والشخص اذا لم يعرف منه ما يراد فلا فرق بينه وبين الجماد واذكر ما قلت لك في درب ابن تلاك

ومن كان ذا عين ولا يبصر الذى * امامه فهذا والضرير سواء

وذو الجهل خير من عقول علومه * سراج ولكن ليس فيه ضياء

ثم انشأ أيمانا غلاظا انه يبالغ فيما يسمع منه احتفاظا ولا يبدى منه لا ما ولا فاء ولا ظا فلما وثق الدب على جوابه وربطه بزمام تدبيره اختلى به وقال تعلم أيها الصديق المبين ان ملكنا في غاية العفة والدين واعلى درجات العباد والزاهدين قد فطم نفسه عن الطعوم خصوصا عن الدماء واللحوم ولكنه في ذلك كله غير معصوم فانه قد تربى بلحم الحيوان وتغذى بافتراس الاقران وتعود رضع الدماء وفطمت سرته على هذا الغذاء وتزهده انما هو تكلف وتعسف وتصلف وتعففه مكابره وتورعه مصابره ولا بد للنفس ان تفعل خاصيتها وتجذب شهواتها اليها ناصيتها وتطمح الى مأرزها وتجمع الى مركزها وقال الله تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله واذا كان ذلك كذلك فاحتفظ لنفسك واحفظ نصيحتى وأمسك وتفكر أحوال غدك في أمسك فانك في صحبة الاسد على خطر عظيم وخطب جسيم فلا تغفل عما قلت لك ولا تظنن انه ان يقتلك فدا خل الجمل من هذا الكلام المهول ولم يبق له طاقة ولا مصطبر ثم ثبته التوفيق وتخلل في هذا الامر الجليل فكره الدقيق واستحضر رأيه في امره وأجال قداح فكره وقال للدب المشوم يا اخى فاى ضرورة دعت الاسد الغشوم حتى تعفف عن أكل اللحوم قال انا لا اشك في دينه ولا ارتاب في حسن يقينه ولكن ربما تعود المياه الى مجاريها وتعطى القوس باريها والشهوة التى طالما الفت صاحبها في بلده لان الانسان بل سائر الحيوان على ما يقتضيه الكون والمكان دائر مع اختلاف اخلاق الزمان فان الزمان كالوعاء والشخص فيه كالماء فيعطيه من اخلاقه ما يقتضيه من كدره وصفائه ولهذا قيل لون الماء لون انائه وقد قيل الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم وناهيك بإذا الكرامات ما قيل في المقامات

ولما تعامى الدهر وهو ابو الورى * عن الرشد في أنحائه ومقاصده

تعاميت حتى قيل انى اخو عمى * ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

والاسد فى هذا الاوان ماش على ما يقتضيه الزمان وان الزمان يتحول وسيرجع الاسد الى خلقه الاول أما بلغك ياذا الفطنة الحسيه قصة الملك مع الحيه قال لا ورب البريه فأخبرنى عن كيفية تلك القضيه قال الذئب الاشفالك ذكران حائكا من الجهالة كانت له زوجة تخجل شمس الافلاك صورتها مليحه وسيرتها قبيحه فشم زوجها روائح ما هى عليه من القبائح وخاف ان يؤدى الى الفضيحة فطلب تحقيق ذلك ابوصلها الى المهالك فقال لها أريد ضيعة لاجل بيعه فاغيب اياما يسيره لفائدة كثيره فارصدى بابك واسدلى حجابك واحفظى من الشر جنابك فقالت يت أنت رئيسه ومثلى قعيدته وعروسه أنى يحوم حوله فساد فأدرك سوقك قبل الكساد وجهزته أسرع جهاز كالمتوجه الى الحجاز فسافر من غير حربه ثم رجع الى البيت فى خفيه واختبأ تحت السرير لينظر ما يجرى من الامور فبادرت الى النار ونفخت واسرعت الى الطعام وطبخت وخرجت تدعو مرابيها وقدمت طعامها فخرج زوجها من المخبأ وأتى على الطعام المهيأ ورجع الى مكانه ونام بعد أكله الطعام فجاءت المرأة بحريفها وقصدت الطعام لتضيفها فصادفت يدها الحصير فعرفت ان البلاء تحت السرير فأخذت تطلب الخلاص من ذلك المقنص واتفق ان الملك رأى مناما هاله ولكن نسى هيئته وحاله فقصد من يخبره برؤياه ويعبرها له فنادى فى الورى يطلب لمنامه مخبرا ومعبرا وبينما تلك الفاجره على حيلة الخلاص دائره وفى بحر الافكار حائره سمعت المنادى ينادى فى كل نادى من يدل الملك الهمام على معبر المنام فله مزيد الاكرام والانعام العام فسارعت المرأة الى باب الامير وقالت قد سقطت على الخبير ان لى زوجا حكيما بتعبير المنامات عليما لكنه يتعزز وعن تعبيرها يتحرز فلا يفوه بالتعبير الا بعد ضرب كثير وانه ليس له فى ذلك نظير فأرسل وراءه وأكرم لقاءه ثم قال له بعد اكرام اوصله ووعده بانعام وصله رأيت مناما راعنى وفى الحيرة والفكر أضاعنى فدع عنك الاحتشام واخبرنى عن ذلك المنام ثم عبره لى فقد اخبرت أنك حبيب لله ولى فقال يا مولانا الملك أنا فى الجهل منهمك حائك فقير ليس لى من العلم نقير ولقد كذب على من نسب العلم الى والعين تعرف العين انا من اين وتعبير الرؤيا من اين فما صدقه ولا فى كلام استوثقه وصدق قول المرأة فيه وأمر بايصاله ما ينكيه ثم طلب المقارع وشدوا منه الاكارع وضربوه ضربا اعسفه الى أن كادت يتلفه فنادى الامان الامان امهلنى ثلاثة أيام من الزمان فتركوه وأمهلوه وقيدوه واطلقوه فصار يدور فى الخرائب ويتضرع تضرع التائب ففى ثالث الايام وقد ايقن بحلول الحمام دخل الى مكان خراب وأخذ فى البكاء والانتحاب فنادته حية من الشقوق مالك تنتحب ياذا العقوق فأخبرها بحاله وما جرى عليه من نكاله فقالت ماذا تجعل لى من الانعام اذا اخبرتك بما رآه الملك فى المنام ثم فضضت عن تعبيره مسك الختام قال أكون لك عبدا وصيفا وأعطيك مما اعطى نصيفا قالت ان الملك رأى فى منامه أن الجو يمطر من غمامه اسودا ونمورا وفهودا ويبورا وأن السماء فى ذلك تمور وتعبير هذا المنام والله العلام أنه يظهر فى هذا العام للملك أعداء كواسر وحساد جواسر

يقصدون هلكه ويريدون ملكه وسيطفئ نار كيدهم بماء سيوفه ويسقيهم من رحيق
فتوحه كاسات حتوفه فكشفت غمته ثم أصلح لباسه وعمته وقصد باب الملك ونادى غير
مرتبك وذكر المنام وعبره ووعد السلطان بالنصر وبشره فتذكر المنام وحققه واعتمد
عليه وصدقه وأمر له بألف دينار وصار له عند الملك بذلك اعتبار فاخذ الذهب مجبورا
وانقلب الى اهله مسرورا ثم افتكر ما اشترطه مع الحيه فابت عن الوفاء نفسه الشقيه وخاف
ان تطالبه بحصتها اوتفضحه بقصتها فلم ير أوفق من قتلها وسد ذريعة سبلها فاخذ عصا
ورام بذلك مخلصا وقصد مأواها ووقف فناداها فخرجت مسرعة اليه وأقبلت بالوداد
عليه فرأت العصا بيمينه فعلمت انه ناكث بيمينه فولت هاربه فضربها ضربة خائبه
لكنه جرحها وعمد الى نفسه ففضحها وتركها وذهب فاثرا بالذهب فاتفق ان فى العام الثانى
رأى السلطان مناما أقلقه وعن نومه ارقه ومن شدة اهواله محا الوهم عن لوح خياله
فدعا المعبر المعهود اليه وقص حاله عليه وطلب منه صورة المنام وما يترتب عليه من كلام
فاستمهله الايام المعدودات وقصد نيسة الحيات وناداها عجلا ووقف فى مقام الاعتذار
خجلا فقالت أى غدر كيف استحليت ما مضى من فعلك ومن بأى وجه تقابلنى وتخاطب
وقد قصدت عطبى بعد ما خلصتك من المعاطب وقابلت احسانى بالسوء ولكن غدرك بك
يبوء فقال عفا الله عما سلف والصداقة بيننا من اليوم تؤتنف ثم انشا أيمانا انه يبدل
الاساءة احسانا وأنه لايخون ولايمين فيما يقع عليه العهد واليمين بل يعود الى العهود
ومهما وقع عليه الاتفاق لايعارجه خلاف ولا نفاق فقالت أريد جميع الجائزة لاكون
بها فائزه واهلا بالجائزه فاجابها الى ما سألت وعاهدها على ذلك فقبلت وقالت رأى الامام
فى هذا المنام ان السماء تمطر قردة وفيرانا وثعالب وجرذانا وتعبير هذه الرؤيا وكلمة الله هى
العليا انه فى هذا العام والشهور والايام يكثر اللصوص والعيارون والمكرة والطرارون
ويظهر فى العساكر كل حسود ماكر وشيطان داعر ولكن صولة الملك تمحقهم وصواعق
سيوفه تصعقهم فاسرع الى السلطان وخبره بما رآه فى منامه وعبره فقال بالحق أتيت هذا
الذى كنت رأيت ثم امر له بجائزة سنيه وخلعة بهيه فصار فى عيشة مرضيه وحياة هنيه
وسلك طريقة الدنيه فلم يلتفت الى عهوده القويه وتبذ عهد الحية الحييه وقال يكفيها منى
كفى عنها فلا تطلب منى ولا اطلب منها ثم ان السلطان راى فى المنام فى ثالث الاعوام
مناما آخر ونسيه فارسل الى المعبر فغشيه من يم الهم ما غشيه وسأله عما رآه وطلب منه
تعبير رؤياه فطلب المهلة كما كان وأحاط به موج الهم من كل مكان ولم ير بدا من
معاودة الحيه فأتاها وبه من الحياء كيه وناداها بصوت خاشع ووقف فى مقام الذليل
الخاضع فخرجت فرأته فزجرته وزأرته وقالت ياخائن يا كذاب يا ناقض العهد يامرتاب
ياقليل الحياء يا كثير البذاء ياصفيق الوجه ياحقيق الصفه ترى بأى لسان تخاطبنى
وبأى وجه تقابلنى وقد خنت وقتلت وفعلت فعلتك التى فعلت فقال لم يبق للاعتذار
مجال ولا للاستقالة مقال وما ثم طريق الا معاملتك بالافضال فان افضلت اتممت الاحسان
وان رددت فعذرك واضح البيان وهذه المرة الثالثه لاتكون بينها احانثه ولا عهودها ناكثه

وأشهد الله وكفى به شهيدا أني بعد لا انقض لك عهودا ولا أحل عما بيننا عقودا فقالت لا اخبرك بشيء الآن تعهد الى ان تعطيني بجميع ما نعطي وتكف عما وقع منك من الخطا فسمع مقالها وأجاب سؤالها فقالت رأى الملك في منامه كأن الجو أمطر من غمامه ما ملأ الفضاء من خوافه واغنامه وتعبير هذا المنام انه يكون في هذا العام من الخيرات والانعام ما يشمل الخاص والعام فتطيب الاوداء وتصالح الاعداء وتطيع العصاه وتذعن البغاه ويوافق المخالف ويكثر المحب والموالف فاحفظ ما قلت لك فقد حلت مشكلك فتوجه بصدر منشرح وخاطر مطمئن فرح وقص المنام وعبر ما فيه من الاحلام فطار الملك بالفرح وتم سروره وانشرح وأمر بالجوائز فصبت عليه وبالاموال فانهالت اليه فنم بتلك العطيه والخلع السنيه وقصد وكر الحيه ثم وقف وناداها وقدم اليها كل ذلك وأعطاها وشكر لها احسانها وتحمل جميلها وامتنانها فقالت له الحيه اعلم يا أبلم انه لا عتب عليك ولا ملام فيما جنيته أولا من الآثام ولا ما ارتكبته من العداوة والمين في العامين الاولين ولا فضل لك في هذه السنه على ما فعلته من الحسنه فان ذينك العامين كانا مشتملين على قران النحسين فكان مقتضى حالهما فساد الزمان والعداوة بين الاصدقاء والاخوان ووقوع البغضاء والشرور والحنث والخلاف وقول الزور فجريت على مقتضاهما حسب مرتضاهما والناس في طباعهم وايامهم اشبه بزمانهم منهم بآبائهم وهذا الاوان قد اصطلح الزمان واستقام الطالع وزال الحسد والتقاطع واقتضى الزمان الصلح والصلاح والموافقة والفلاح فشيت على موجبه وتشبثت بذيل مذهبه فخذ مالك وتصرف بارك الله لك فيه فلا حاجة لي به ولا يدلي لتقلبه وانما أوردت هذا المثل ايها الجمل لتعلم ان الزمان لتقلبه في الدوران يوقع بين الاصحاب والاخوان ويباين بين الاصدقاء والخلان والاسد المجهول كان قد زهد وترك من اخلاقه ما عهد فيمكن عوده الى حاله الاولى فالاحتراز منه في كل حال اولى وها انا قد اخبرتك ومن سوء العاقبة حذرتك وعلى ما وصل اليه فكري اطلعتك وفرط محبتي وشفقتي عليك اقتضى افشاء هذا السر اليك ومن انذر فقد اعذر ومن بصر فما قصر قال الجمل يا أخي فنترك هذا المقام ونروح ونخدم من في خدمته نستريح قال الدب الجاحد اذا كان هذا العابد الزاهد الراكع الساجد الذي قد تعفف عن أكل اللحوم وليس له دأب الا اغاثة المظلوم قد عف عن الدماء وقنع بأكل الحشيش وشرب الماء لا تؤمن غائلته ولا تعقد خاتلته فالى اين نتحول وعلى من يكون المعول والى اين نذهب وفيمن نرغب قال الجمل فكيف يكون العمل فلقد ضاقت بنا الحيل وتقطعت بنا السبل لا طريق للمفر ولا قرار للمستقر فافتكر الدب طويلا ثم راى رأيا وبيلا وقال ارى الرأي السديد والفكر المفيد ان نبادر الاسد قبل وقوع النكد فنقصده بما يقصده ولا نوصله الى ما يعتقده فالعاقل يفتكر في عواقب الامور ويقيس بفكره السرور والشرور ويستعمل الحزم واذا قصد أمرا يصمم العزم وناهيك قضية الثعبان مع ذلك الانسان قال الجمل اخبرني عن تلك القضيه ومن ذلك الانسان وما تلك البليه قال ابو حميد الخبيث بلغني من رواة الحديث ان شخصا من الصيادين كان مغرما بصيد الثعابين يتسبب بصيدها ولا يبالي

يكيدها فبيناهو يسعى اذ صادف افعى شرها ناجز كما قال الراجز

ارقش ظمآن ذميم عض لفظ * أمر من صبر ومقر وحظظ

وقد أثر فيه الحر بالحرق وهو نائم في مكان منطبق فاستبشر الحواء برؤيته وقبضه من عقصته فلم يفق الثعبان من رقدته الا وهو من الحاوي في قبضته فتماوت وامتد وارتخى فاسبل بعدما كان اشتد فظن الصياد انه مات وان مراده منه فات فتحرق لذلك وتالم وتأسف عليه وتضرم وحرق عليه الارم ورماه من يده ثم دار في خلده ان في بطنه خرزة بهيه مشرقة مضيه فاخرج الشفرة وقصده ومد لتبضيعه يده فلما تحقق الارقم ما عزم عليه وصمم خدعه وختله وضربه فقتله وانما ذكرت يا أبا ايوب هذا المثل المضروب لتحقق ان المبادرة الى اهلاك العدو أقر للعين وأجلب للهدو ومن فوت الفرصه وقع في غصة واي غصه وهذا الاسد ان غفلنا عن انفسنا ابادها وقصد دمارها وفسادها ولا يفيدنا اذ ذاك الندم بعد ما زلت القدم وتحكم في وجودنا من مخاليبه العدم فقال الجمل اعلم أيها الرفيق الصديق الشفيق ان هذا الملك آوانا واكرم مثوانا ولم نشاهد منه سوأ ولا من ظلمة باطنه آنسنا ضوأ ولو قصد اذانا ما وجد دافعا ولا مانعا وقد علمنا انه ترك الاذى وكف عن الشر والبذا تعففا لا تخوفا وتكرما لا تكلفا واختيارا لا اضطرارا وجبرا لكسرنا لا اجبارا وأما أنا على الخصوص فلم أر منه الا الجميل والفضل الجزيل والاحسان العريض الطويل فلاي شيء أشرع في اذى نفسي وأكدر صافي حدسي ولم يظهر لي منه امارة لا بغض ولا بدلالة ولا باشاره فضلا عن سباق أو سياق بعباره وانا لو مت كذا ما قصدته باذى ولا رديته برداء ردى والصوفي ابن الوقت لا يتقيد بنكد ولا مقت فان قصدني بعد ذلك بشر أو تعرض لي بهلاك وضر لا يسعني معه الا التفويض والتسليم والتوكل على العزيز العليم مع اني لا اقدر على مقاومته ولا قوة لي في دفع مصادمته ولا طاقة لكسر انيابه ومخاليبه ولا خلاص من أشراك اساليبه غير أني وان كنت منسوبا الى التغفل لا ادع من يدي ذيل التوكل فبالتفويض يحصل النجاح وبالتوكل يظفر بالفلاح كما جرى لذلك الفلاح مع الذئب والشجاع حال التوكل الى الله تعالى والانقطاع فسأل ابو سلمه ايضاح هذه الكلمه قال ابو صابر بلغني من احد الاكابر ان شخصا فلاحا توجه الى ضيروره صباحا من غير رفيق ولا حامل سلاحا فبينا هو في البيداء سائر صادفه ذئب داعر خاتل خاتر فقصده ليكسره ففر وصعد الى شجره فترصد نزوله وانتظره تحتها ليغوله فانحصر وعن ضرورته انحصر وبينا هو في تلك البليه وقعت عينه على حية رديه ذات قرون صاعده وهي على بعض الفروع راقده فازداد همه وأحاط به لوهمه غمه فاستقر بين البينين وانحصر في دواني داهيتين دهيتين فلم ير أوفق من التوكل على الله والاعراض عما سواه فاعتمده متوكلا عليه وفوض اموره اليه وبينا هو في تلك الشده وقد بلغ ضره حده واذا برجل مقبل من الفلا وعلى عاتقه عصا فقصده الذئب من قريب فلما رأى السلاح فروله كلاح فنزل الفلاح من الشجره وأزال الله تعالى همه وضرره وانما اوردت هذا المثل لتعلم ان الله نعم المتكل فأخرج هذا الوسواس من القلب والراس ولا تبك لدنيا

ولا

ولا تعجل تلفا ولا تقطع الغذاء بإذا الرياضه قبل ان تصل الى المخاضه ولا تهتم لامر ما وقع فان ذلك من شر البدع فان قصدنا بسوء فالله يكافيه ويكفينا بحوله وقوته فيه قال الدب ذو الضرر هذا رأى القاصر فى النظر العاجز فى الفكر فاما ذو الفكر الثاقب فلا يغفل عن العواقب فكل من قصر عن العواقب نظره ولم يسدد فى الامور فكره فهو كمن تعلقت النار باهدابه والتهبت لاحراق ثيابه وهو مشغول عن اطفائها متساهل فى كشف أنبائها فلم يفق الا وقد نشبت وأعضاؤه بالنار التهبت فاذا تفسده الافاقه وقد صار حراقه قال الجمل يا أخى افق من محالك وعالج فساد تصورك وخيالك وانظر قوة جلدك وكيفية حالك انا الحى من صدقات الاسد نبت وحبه فى دمى وعظمى ثبت كيف أجحد نعمه او اريق دمه وانا غرس صدقاته وبنيان نفقاته ورفيق حضرته وعتيق منته مع انى لو نبذت عهده فقطعت ما قطعت وعزمت على مناوشته ما استطعت اما وعيت فى معانى ما رويت

هى العنقاء تكبر أن تصادا * فعاند من تطيق له عنادا

تريد صيد العقاب بفرخ الغراب أم تقتنص الذئاب بجرو الكلاب وتبغى بالقرود كسر الفهود ام بالسنانير تصيد الاسود ولا والله لا اقصده بأذا ولا يطاوعنى قلبى على ذلك ابدا ولو فعلت ذلك لسعيت فى دمارى وخراب ديارى وجدعت أنفى بكفى وبحثت عن حتفى بظلفى وجززت بيدى راسى وقطعت قدمى بفاسى وقلعت باصبعى مقلتى واستخففت ملك الموت مهجتى واصرت من اكبر المعتدين وافسدت دينى ودنياى والله لا يحب المفسدين فاطوعنى هذا الكلام وارجع عن مفاوضتى بسلام ولا تشكك به جنانك ولا تحرك به اسانك وكان بالقرب منهما وكرفاره وقد فهمت ما جرى بينهما من عباره ووعت كلامهما وما دار بينهما من كل منهما فلما رأى الدب المريد أن كلامه للجمل لا يفيد امسك واحتشم واخذه فى ذلك الندم ولكن حل من الجمل الحال وأثر فيه هذا المقال واستولى عليه من الاوجال ما اداه الى الهزال وصيره من الاتصال كالخلال وذهب ما كان عليه من النشاط وداخله الهم والاختباط وصار كل يوم فى انحطاط ولم يزل بين نضو ورازح ورازم ونازح فتعجب الاسد من حاله ولم يقف على سبب هزاله وكان عند الاسد غراب مقدم على الاصحاب هو وزيره ومعتمده وصاحب أخباره وعضده فعرض عليه حال الجمل وما شاهده منه من وجل وقال أنا عففت عن أكل اللحوم ورضيت من العيش بادنى الطعوم وهذا أمر قد عرف واستقر فما بال هذا الجمل لا يأخذه مقر فاريد أن تعرف حاله وتخبرنى صدقه ومحاله فتوجه الغراب الى منزل الجمل وقد اخاص فى القول والعمل وسأله عن حاله وموجب هزاله واتصاله وما سبب هذا الرزوح والرزوم المؤدى الى النزوح فما احار جوابا ولا ذكر خطأ ولا صوابا فصار الغراب يرقبه وحيثما توجه يعقبه ففى بعض الايام كان الغراب على بعض الاكام ورأى الجمل قد أقبل الى الما ليطفى بشربه سورة الظما فخفى الغراب واتقى ظهره الى ان قاربه وكمن خلف صخره فسمعه يقول بعد ما شرب وقد رأى السمكات فى اللعب لك الحمد يارب ما أرحمك وطوبى لكن يا سمك لا من يتمسكن تخفن ولا من هيبته ترجفن لا ملك يهولكن ولا سلطان يغولكن ولكن البكا على الجمل

الذي ضاقت به الحيل قد وقع في درور البلاء ولا يهتدي الى طريق النجاه بل ولا يدري
عاقبة امره المهول الى ماذا تؤول ألى الغرق والندامه أم الى النجاة والسلامه ثم اخذ في
الانتحاب الى ان أبكى الغراب فلما رأى ابو القعقاع هذه الاوضاع قضى من الامر العجاب
ما يشيب منه الغراب ثم توجه الى أسد الشرى وعرض عليه ما جرى بتخبير المشترى
فتشوش فكره وتشوش أمره وضاق بالهم صدره وقال أنا كففت عن الشر والشره
وعففت عن ذلك كأن لم يرني ولم أره وتركت القرم والاذى وقطعت نفسي عن لذيذ الغذا
ليأمنني اصحابي ويأنس بي أحبابي فاذا لم يستقر خاطرهم ولم تطمئن على محبتي سرائرهم
أي فائدة لي في الحياه وكيف اخلص في حرم المودة من كدر العيش الى صفاه وكل ملك
لا تصفو له رعيته ولا ترسخ في قلوب جنده محبته كيف يثبت سلطانه أو يساعده عند
الشدائد اعوانه انا بذلت جهدي وطاقتي وتشبثت بأذيال الصلاح على قدر استطاعتي ولم
يبق الا التضرع والاستكانة والتخشع الى مقلب القلوب وعلام الغيوب ليكشف هذه
الغمه ويصلح لي هذه الامه ويجلو عن جبين الحق بهيم هذه الظلمة ثم تضرع الى عالم الاسرار
ليطلعه على حقيقة هذه الاخبار ثم أمر باجتماع جماعته المقيمين على محبته وطاعته وعرض
عليهم هذه الاحوال وطلب منهم استكشاف ما فيها من الاهوال وقال اعلموا اني امنتكم
من مخافتي وبذلت لكم بدل عنفي لطافتي وقد حققتم مرامي وصدقتم كلامي وعرفتم
اخلاقي وشدي اعلاقي كل ذلك لتطيب خواطركم وتصفو لي سرائركم ولم أفعل ذلك عجزا
ولا خورا ولا تهاونا ولا ضجرا وانا الآن آمركم بواحده هي أجل فائده ان لا تكتموا عني
شيأ تكرهونه مني بل أوقفوني عليه وأرشدوني اليه ثم اجهدوا اني امنعه عني فان فيكم
اجل محبوبي من اهدى الي عيوبي وقد قال سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام
اللهم أبلغه افضل التحيات عنا من غشنا فليس منا وانما اوردت هذا الكلام في هذا المقام
بحضور الخواص والعوام على سبيل التحذير والاعلام والتنذير واقسم بالله العلي الكبير
اللطيف الخبير الذي منه المبدأ واليه المصير لم يكن في خاطري من احد حقد ولا حسد ولا
جرى بخاطري له ايذاء ولا نكد وها انا قد اخبرتكم وبا طلاعي امرتكم فلم يبق لي ذنب
يستغفر منه ولا لكم في الاخفاء ما يعتذر عنه وان الله تعالى لا يعذب بضلال الاسافل بل
يهب للاعالي الاراذل فاذا فسد الراس تغيرت الناس حل الباس ولقد قال خالق البرية
وباريها واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فقام الحاضرون في مقام
العبودية والولاء وبسطوا ألسنتهم بانواع الثناء والدعاء ونادوا بكلمة واحده متفقة
متأكده حاشا الله ما علمنا عليك من سوء ولم تزل تطيب على تقصيرنا وتأسو وتستر بذيل
عفوك كل عارمنا وتكسو وكان هذا الكلام للا كابر وقد اجتمع البادي والحاضر وأبو
جعد المفتن فيما بينهم حاضر فادرك بهذا العمل ان الاسد شعر بشيء من جهة الجمل
فاستدرك فارطه وسلك سبيل المغالطه ثم اختلى بالاسد ولم يكن معهما أحد وقال كان
مولانا الملك وقاه الله شر المنهمك أحس بشيء أوجب تقرير كلامه لطائفة جنده وخدامه
وأنا عندي كلام لم يطلع عليه أحد من الانام ولم أبده للملك بحضرة الجماعة لانه ربما

لايقصد الملك به الاذاعه ولايمكنني اخفاؤه وقدآن ابداؤه فاعلم أيها الملك الهمام كهف الفقير الشام انه كما يستحقر العالم الجاهل كذلك يزدرى الجاهل العاقل وذلك لقصوره فهمه وعدم علمه ومهما أحاط الخادم برتبة مخدومه وزاد علو قدره فى معلومه ازداد فى قلبه وجوارحه مقدار تعظيمه واستقرت هيبته فى قلبه وروحه وصارت كؤس خشيته تتادمه فى غبوقه وصبوحه وقد قال رب الارض والسماء انما يخشى الله من عباده العلماء وقول النبى عليه الصلاة والسلام انا أعرفكم بالله واخشاكم لله اشارة الى هذا المقام وكلما ضعفت معرفة الخادم بالمخدوم قلت قيمته عنده وهذا امر معلوم ثم اعلم ياملكا اعظم ان الجمل الطويل الامل قد اغتر بالملك حين كان فى ذرى امنه سدلك واحسن اليه غاية الاحسان وصار فى عدم الوفاء كالانسان وحصل له من سورة غضبه الامان فجهل قدره وتعدى طوره وقد قيل

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلى * مضر كوضع السيف فى موضع الندا

وقال الله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وكل نفس لا تحتمل الجميل وحوصلة العصفور لا تسع لقمة الفيل وناهيك ماقد قيل فى الاقاويل عن حماقة كل طويل فلا جرم فسد دماغه حين حصل فراغه وتطاولت نفسه فى مسراها الى أشياء لا يمكن افشاها ولا يتفوه بها مسلم ولا يرضاها لان ذكرها قبيح والكناية ابلغ من التصريح فلما سمع الاسد هذا المقال علم ببديهة العقل انه زور ومحال ثم أرسل الى الغراب وذكر له هذا الخطاب ليميز خطأه من الصواب ويبين القشر من اللباب فلما اتى الغراب الى حضرته وجلا صورة هذا القول على مرآة فكرته قال له ضميرك المبارك فى حل هذا المشكل لايشارك فانه حلال المشكلات موضح المعضلات وأما أنا فلا أسمع هذا الكلام ولا أقبل فى الجمل الملام فانى اعرف تواضعه ومسكنته وصبره وطاعته واخلاصه وقناعته وانه صادق فى محبته مخلص فى عبوديته واعرف ان خوفه من الملك غالب على رجائه وانه مع ذلك مقيم على سنن وفائه وعقود عهوده وصفائه ولو أراد الذهاب لذهب بسلام ولا فى وظيفته قيد ولا فى وتيرته خطام ثم قال الغراب والغالب على ظن ذوى الالباب ان هذه الفتن أصلها واصلاها الدب لانه قد تقرر وتحقق واتفق كل حكيم موفق انه اذا نقل ناقل محقق عن عاقل ابتدى بالاحسان اساءة فلا يصدق فالملك لايبادر فى هذه القضيه حتى يتبصر الامر عن جليه وحاشاه ان يفرط فى خدمة المخلصين من غير ان يتدبر أمورهم بيقين ويختلى بعبده الجمل ويحقق منه اصل هذا العمل بعد استجلاب خاطره وتطييب سرائره وضمائره فاستصوب الاسد هذا الفصل واختلى بالجمل ليقف منه على هذا الاصل وسكن جاشه وازال بلطيف الكلام استيحاشه وشكر فى خدمته مساعيه وطاب بملاطفته مراضيه ثم طلب من الجمل تفصيل مابلغه من جمل واكد قوله بالايمان انه لو صدر منه تقصير ونقصان ولو كان مهما كان فانه قد عفا عماهفا ولا يكدر من عيشه ماصفا ولا يعزف رقيق حاشية وفائه بالجفا ولا يتقيد بهفواته ولا يطالبه ابدا بزلاته فليطلعه على جلية الحال وليذكر ما وقع منه من اقوال وافعال فاقتكر

الجمل في معاهدته مع الدب وانه لا يفشي سر ذلك العديم اللب وكيف ينقذه من غضى جمرة شب وقضاء جمرة صب فقال ان قلت اضعت صاحبي وان سكت قصرت في جانبي ثم اختار كتم الاسرار وسلوك طريق الاحرار والوفاء بالعقود وعدم نكث العهود وقال أسعد الله مولانا الذي بوجوده أحيانا اني اتفكر في عواقب الامور وانظر في تقلبات الدهور واخشى سطوات السلطان وأخاف من حوادث الزمان فلا ازال من هذا الخيال في اتصال وهزال الى ان صرت الى هذه الحال فان كان هذا ذنبا يوجب العقوبه فان ازالته عن خاطري فيها صعوبه وهذه اوهام لا يمكن دفعها ولا يكلف الله نفسا الا وسعها قال الاسد فهل اطلعت على ما يوجب ذلك او يدل على الالقاء في المهالك وتضييق المسالك من حركات افعالي أو من فلتات أقوالي أو تقلبات أحوالي أو نقل اليك ناقل من جاهل أو عاقل فافحم الجمل عن الجواب واطرق فلم ينطق بخطا أو صواب فقال الغراب لا ينجيك الا الصدق وكشف استار الريب عن جبين الحق وكان حاضر هذه الفحوى خلد اعمى وهم عنه غافلون وعن استماعه ذاهلون ففي الحال توجه الى الدب وقال صورة ما جرى بتخبير المشترى فعلم الدب انه افتضح وأمره اتضح فنهض وما قعد ودخل على الاسد فرأى الجمل مطرقا لا يملك منطقا فتصور بذات اللسان وخطف كرة البيان وسابق بالكلام خوفا من الملام وقال بلسان طلق كلام فاجر مختلق اعلم ايها الطويل الابلم انك لو امسكت عن كلامك القبيح في وقتك الفسيح لكان أصوب وأحسن وأعجب لكن لما فهت بالعبر واتيت باحدى الكبر وصادمت القضاء والقدر وخنت ولي نعمتك وقصدت اهلاك الملك بقبيح شيمتك ازال الله سترك وابدى أمرك وفضحك وقصمك و بلجام الخزي كبحك لا جرم بجرمك حبسك واعلك العظيم اخرسك فابهت الضرغام من هذا الكلام وشاب الغراب من هذا الامر المشاب ووقعوا في الاضطراب والشك والارتياب واشتبه الخطأ بالصواب وقالوا ان هذا لشيء عجاب فقال الجمل للدب يا فقيد اللب يا قليل النصفه وعديم المعرفه وأخس افالك واخس سفالك واخس بثالك اتظنني خائفا من كلامك وخطابك عاجزا من ملامك وجوابك اما كفى اني قصدت ستر عوارك واطفاء نارك ومفتكر في تلافي قضيتك واخماد لهيب فتنتك واهماد شرار مصيبتك وعلى تقدير التسليم واني فهت بالكبير والامر العظيم ا كنت معك منفردا ام رأيت بيننا احدا فان كان بيننا احد فاحضره الى حضرة الاسد فاني ارضى به وبما يبين ولا دافع لي فيما يشهد به ولا مطعن وان كنت انت وحدك فما منعك عن نصح الملك وصدك فأنت اذا اما خائن واما مائن وهذا امر محقق بائن ولولا ايماني التي ربطت بها لساني لكنت أظهرت البريء والجاني ولكن حملني الى الكتم والسكوت أيماني وسيظهر الله الحق ويفصل وللباطل صولة ثم يضمحل ووالله مالك مثل مع المسكين الجمل الا امرأة النجار لما اغلقت باب الدار قال أبو الحرث المغضوب اخبرنا يا أبا أيوب كيف كان هذا الحديث لنطلع على هذا الفعل الخبيث قال ذكر رواة الاخبار انه كان رجل نجار له زوجة تخجل الاقمار وتكسف شمس النهار كأنها الدنيا تخدع بملامح صورتها وتصرع بروائح سيرتها فكانت كلما رقد زوجها وهو تعبان

انسابت الى الاخدان انسياب الثعبان فتقضي الليل بانشراح في عناق وشرب راح الى ان ينفجر الصباح ثم تثني عائده فلا يستيقظ الزوج الا وهي عنده راقده ففطن في بعض الاوقات لفعلها وراقب ليلة خيال ختلها فتراقد في الفراش وذهبت لطلب المعاش فنهض وراءها التجار واوصد لما خرجت باب الدار واستقرت هي وصاحبها وزوجها مستيقظ يراقبها فلما عادت راجعه وجدت الابواب مانعه فطرقت الباب من غير اكتراث واكتئاب فناداها يا خائنه اذهبي حيث كنت كامنه فقالت استر هذه الذنوب فاني من بعد اتوب فقال لها لا والله الرحمن حتى تفتضحي بين الجيران فقالت الموت اهون من الفضيحه فاغفر لي هذه القبيحه وانا اسلف يا ودود بالله الرب المعبود اني أتوب ولا أعود ثم الحت عليه وتضرعت لديه فلم يفتح لها بابا ولا رد عليها جوابا فقالت والله اللطيف الخبير لئن لم تفتح الباب لالقين نفسي في هذا البير ولارمينك بقتيل بين الحقير والجليل ثم عمدت الى حجر كبير وطرحته في تلك البير ثم اختفت عند الباب لتنظر ما يبرزه القضاء من الحجاب فلما سمع زوجها خبطة الحجر تصور انها تلك البغي فابتدر وفتح الباب والى نحو البير طفر ولم يشك ان تلك البغي" ألقت نفسها في الطوى" فما وصل الى البير ذلك الرجل الغرير الا وقد دخلت وفي وسط الدار حصلت ثم اوصدت الباب واستغاثت بالجيران والاصحاب واحكمت الرتاج وأوقدت السراج وملأت الدنيا بالعياط واخذت في الهياط والمياط فاجتمع الجيران لينظروا ما هذا الشان فقالت هذا الرجل الظلام يتركني كل ليلة حتى انام ثم يتوجه الى الزوانى ويدعني أقاسي القلق واعاني وانقلب في أرقي واشجاني فأخذ الرجل يحلف بالله ذي الجلال ويذكر للحاضرين حقيقة الحال فتارة يصدق واخرى يكذب وهو بين مصدق متهم ومذبذب فلم يزالا في عويل وصياح الى ان ظهر تباشير الصباح فحضرا الى القاضي واختصما وشهد بعفة الرجل الصلحاء والعلماء وأظهر الله الحق وثبت على المرأة الخيانة والفسق ولولا ذلك لذهب البرئ غلطا وانقلب صواب المحق الصادق خطا وانما أوردت هذا المثل لتعلم أيها الملك البطل خيانة الدب وبراءة الجمل والرجل اذا عجز عن فعل الشجعان يتشبث بحبائل الشيطان ويستعمل مكر النسوان ونظير هذا الكيد ما وقع بين صادق دمشق وفاسق بغداد وهي قضايا جليلة الابواب طويلة الذيول والاذناب قد دونت في مجلدة لا يسعها هذا الكتاب ففكر الرئبال في هذه الاحوال ثم أمر بهما الى الاعتقال وكان للملك سجان ذكي كنيته أبو الحصين واسمه ذكي فتسلمهما واحتفظ بهما فلما استقرا في قبضة الحبس واستقر أمرهما تحت أذيال اللبس توجهت الفارة التي كانت سمعت سر مناجاتهما واطلعت من اول الامر على حكاياتهما الى السجان وهما في أضيق مكان وسألته عما اذا آل اليه امرهما من شان فاخبرها بحالهما وجهل عاقبة مآلهما وانه ليس بعالم من المظلوم منهما والظالم فقالت الفاره أسألك يا ذا الشطاره والذكا والمهارة اذا ترجح لاحدهما الجانب وتبين الصادق والكاذب وتعين المرضي عنه والمغضوب عليه تطلعني على ذلك لانظر اليه قال السجان للفارة لقد فهمت عنك بالاشاره وأدركت من فحوى العبارة ان لك اطلاعا على هذا الامر وفرقا جليا بين تمره والجمر فان كنت تعلمين

ذلك روائح فبادرى باداء تلك النصائح فان قولك مقبول وللك الفضل لا الفضول ولا تقصدى بهذا الارشاد الا مصلحة العباد وكشف الغمه وبراءة الذمه وردع الظالم وخلاص ذمة الحاكم قالت الفارة وانا لا اقصد الا اصلاح ذات البين وشمولها بعاطفة الملك بحيث يسيران كالصبين ويرتفع النكد ويحصل رضا الاسد وينحسم الضرر والضير وتختم عاقبتهما بخير وأيضا فانى سمعت من العلماء وضبطت من نصائح الحكماء ومقالات ذوى الآراء انهم قالوا اياك والتكلم فى امور الملك ببيضاء اوسوداء وان بنت الجرد من ملك الوحوش الاسد قال السجان لا تقولى ذلك ولا تستحقرى جدوالك وما ترين فى قتوالك ودونك القول الصادر من نظم الشاعر الماهر وهو

لا تحقرن الرأى وهو موافق * حكم الصواب اذا أتى من ناقص
فالدر وهو اجل شئ يقتنى * ماحط قيمته هوان الغائص

وان النصيحة كالعسل والحق يصدع كالاسل فالعسل يعطى حلاوة ذوقه سواء كان فى صحاف الذهب اوفى زقه وقاصد الصواب والنصيحه ومن اغراضه لدفع الفساد صحيحه يخاطر بنفسه وماله ويراقب عافيه حسن مآله وافضل المعروف اغاثة الملهوف سمعت فى المثل السائر افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر وهذا الطور عند ملوك الجور فكيف وملكنا اعدل الحكام وناصر دين الاسلام متصف بمكارم الاخلاق والشيم ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والتكرم فان كنت تدرين بجهة الامتناع أولك على قضايا الدب والجمل اطلاع فقومى وانصحى وقولى تفلحى كما فعل الوزير المنتخب مع كسرى فى حالة الغضب فسألت الفاره هذا المثل واخباره قال أبو الحصين السجان ذكرانه كان لانوشروان زوجة فاقت النسوان يخجل قدها الاغصان وخدها البدر حيث لا نقصان كان ابوها من السلاطين وملوك الاساطين وكان انوشروان قتل اباها واخاها واتخذها لنفسه واصطفاها وكان مشغوفا بحبها مشغوفا من ضربها الثلاث تذكر قتيلها فيستولى طلب الثار عليها فلم يزل متحرزا من افعالها مراقبا تقلب أحوالها فاتفق انه كان جالسا معها على السرير وحولهما من الجوارى الحسان كل بدر منير وظبى غرير فناقت نفسها اليها فخذيه ووضعها عليها فنظرت الى الجوارى فرأت أعينهن اليها ناظره فصارت بين طرفى الانقياد والامتناع حائره وكانت قد سمعت من أبيها ما رأته من أقاربها وذويها معنى ما قيل

وانى لاستحى من النرجس الذى * يراقبنا انى أقبل من اهوى

فخطر ببالها انه اذا استحى من عيون النرجس وهى جامده فكيف لا استحى من عيون انسان فى مراقبتنا غير راقده فغلبت عليها الحيره وان جدع الدلال انف الغيره فانكمشت من كسرى وزادها الحياء والهيبة انقباضا وكسرا فجذبها بقوته اليه فانفلتت منه لما استعصت عليه فوقع عن سريره العالى وعلا خلقه الغرى الغالى وتبسم بعض تلك الجوار من غير اختيار فاضطرب لما اضطرم فيه النار وتذكر ما كان توهمه من أخذ الثار وفار دم قلبه لما غار فدعا وزيره الكبير ودفع اليه ربة السرير وأمره بازهاق نفسها واسكانها فى رمسها من غير مراجعه ولا شفاعة ولا مدافعه فحملها الى منزله ووقع فى صعب الامر

ومشكاه ولم يربدا من امضاء مرسومه وامتثال أوامر مخدومه ثم تدبر في المآل ونادته ربة الجمال مهلا أيها الوزير الناصح المشير ذو الرأى والتدبير هب انى اخطأت وعن مرضاة الملك ابطأت فاذنب الذى فى بطنى المودع من الملك ولم يجنى فلا بأس انك تستشيره فانك ناصحه ومشيره وان كان لابد من قتلى واستقر الرأى على تبلى وبتلى فاستمهله الى ان اضع ثم تهلك الام وتبقى التبع فانه كان يعطى النذور والاموال ويطلب الولد فى ظلمات الليال ويدعو بذلك ربه ذا الجلال فعرض الوزير على الملك ذلك فابى واستعمل فى ضروب ضربه احد عبارة وترقق فنبا فعرف ان اخلاقه ثائرة وانه لابد ان تطفأ تلك النائره فاذا برد قلبه وهمد كربه يطالبه بالفرع ان لم يطالب بالاصل وبعد القطع لا يمكن الوصل كما قيل

طوى الموت ما بينى وبين أحبتى * وليس لما تطوى المنية ناشر

فرأى الوزير الرأى فى التأخير فاودعها عند الحريم وسلك فى الحزم الرأى القويم وجعل نفسه لها وقايه الى ان أخذت مدتها النهايه فوضعت ولدا ذكرا غصن بان مثمرا قمرا فقام الوزير بتربيته واصلاح رضاعه واغذيته الى ان بلغ سبع سنين وهو كبدر الافق المبين مربى بالدلال مغذى بالكمال فكانه فيه قيل

جبين تغار الشمس من لمعاته * وقد يغار الغصن من حركاته
وخد تعالى الله است مشبها * ولا مشركا أضداده فى صفاته
رمى مهجة المضنى باسهم لحظه * فنام عليلا وهو فى سكراته

فركب كسرى فى بعض الاوقات وخرج يصطاد فى بعض الجهات فتبدد العسكر وصار كالحجيج اذا نفر ووقع كسرى فى ناحية عن العسكر منفردا فصادف غزالين بسوقان ولدا ويذكران فى ذلك القاع ما قاله عدى ابن الرقاع

تزجى اغن كأن ابرة روقه * قلم اصاب من الدواة مدادها

فهجم عليهما ودنا اليهما فلما قصدهما تركا ولدهما ففوق السهم الخفيف نحو الخشف الضعيف فلما رأت امه السهم داخلها الوله والوهم فقصدت السهم دون ولدها واستقبلت نصل كبد القوس بكبدها فأراد اطلاق السهم من الكبد ليصيب به نحر أم الولد فاعترضه الفحل بصدره وتلقاه دون نحرها بنحره وجعل نفسه وقاية لام ولده وفداهما بروحه وجسده فتذكر كسرى ولده وامه وضاعف حزنه عليهما همه وغمه وتذكر ما سلف منه فى حق زوجته وما عاملها به حين وقع من الغضب فى سورته وتأمل ما قالته فى حق قرة مهجته وما اجاب فى ذلك الى ان وردت الى المهالك وقال اذا كان هذا الحيوان الباغم المائق حمى حقيقته برمحه كماة الحقائق فلم يفعل ذلك الحيوان الناطق ثم فاضت دموع عينيه فرمى القوس والسهم من يديه ورجع متفكرا وعلى ما فرط منه متحسرا ودعا الوزير الناصح المجير والمستجير وذكر له ذلك النكد وما رآه من الغزالين والولد وتحرق على فقد حظيته وتألم لمصاب فلذة كبدته فدعا له الوزير وقال الصبر نعم النصير كان قد سبق منى اشاره ولكن المفرط أولى بالخساره الصديق الصادق والرفيق الموافق يقول

ما اصنع نصحت فلم يسمع والخبيث المنافق والحسود الماذق يقول اردت ان اقول ولكن تركت الفضول ولا حيلة للملك والوزير فيما يجرى به قلم التقدير ثم دعا له وانصرف وعبى جملا من الهدايا والتحف والبس ابن الملك انفرمليوس وجهزامه كما تجهز العروس واضاف الى ذلك من المراكيب الملوكيه والخدمات السلطانيه واقبل بهما اليه وعرض كل ذلك عليه وقال يا ملك الزمان أنا رأيت هذا اليوم فى ذلك الاوان وعلمت ان الندم سيعم من الرأس الى القدم وها قد قدمت اليك من التحف الدرمع الصدف والورد والزهر والغصن والقمر والفرع والشجر والشمس والقمر متعك الله بهما ومتعهما بك وحرس من الاسواء منيع حرمك وجنابك فانجبر بذلك كسرى ونال بشرى ويسرى وطاب سيرا ومسرى وسر صدره وانشرح واغمى عليه من شدة الفرح وانشد

طفح السرور على حتى انه * من عظم ما قد سرنى ابكانى

يا عين قد صار البكا لك عادة * تبكين من فرح ومن احزان

ثم أمر ببساط السرور وجلس فى النشاط والحبور وأنشد

أهلا وسهلا بالتى * جادت على بمهجتى

أهلا بها وبوصلها * من بعد طول الهجرة

ادر المدام وغننى * أهلا وسهلا بالتى

ثم افاض خلع الانعام والرضا والاكرام على الوزير وشكر له حسن التدبير وارتفعت عنده منزلته وتضاعفت فى الارتقاء مرتبته وانما أوردت هذه الامثال لتحذى على هذا المثال فان كان عندك ما يزيل الشك والاغاليط ويحق الحق ويميز الاخاليط فان فى ابدائه امنة عظيمه ونعمة على الملك جسيمه ستبلغنى بذلك العيش الهنى وترقينى به الى المقام السمى السنى وان اخرت النصيحه فقد شاركت الخائن فى الافعال القبيحه قالت الفارة ما أدق ما نظرت واحق ما اشرت لا تردد للعقل فى صحة هذا النقل ولكن من انا فى الرقعة ومن يقبل للفارة حتى تطلب الرفعه فلا انا فى العير ولا فى النفير وانى من مبتدا أمرى وطول عمرى فى زوايا الخمول اتحرز من فضلات الفضول لا لصحبة الملوك لى صورة جميله ولا فى طريقة السلوك سيرة نبيله لا امينة ولا ثقه واصدق اسمائى الفويسقه فكيف اصير مصدقه وقد اباح سيد العرب والعجم معدن اللطف والكرم والمبعوث بمكارم الاخلاق والشيم صلى الله عليه وسلم قتلى فى الحل والحرم فلو طلبت مصاحبة من فوقى لخرجت عن دائرة طوقى وصيرت نفسى ضحكة للناظرين وهزأة للساخرين خصوصا مالك الاسود وسلطان الوحوش من القرود والفهود ورحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره ومن أعجب العجب ان يجنى من الشوك العنب ولو فعلت ذلك لكنت كقرد حالك ذميم هالك ادعى رياسة الممالك ومن أحسن الامثال ما يقال ان السلطان للانام بمنزلة الحمام البعيد عنه يطلب قربه والداخل فيه يشكو كربه فالاليق بحالى ان لا اشغل بالى الخالى بما لا يليق بى ولا بامثالى وحيث أشرت على بأداء النصيحة وبيان الحالة الفاسدة من الصحيحه طلبا لمرضاة الملك وصونا لخاطره عن الاهر المشتبه المشتبك والفكر المريب المرتبك فانا امتثل مرسومك وأودع

ذلك

ذلك معلومك بشرط ان لا تذكرني بشفه ولا تشير الى اسمى بنكرة ولا معرفه فعاهدها على ماشترطت فمدت لسان القول وبسطت ثم ذكرت ماجرى بين الدب والجمل من فصول وقررت براءة ساحة الجمل بالمعقول والمنقول فلما اتضح لابى الحسين السجان نزاهة عرض الجمل وان الدب هو الذى اغراه على قصد الاسد وحمل وتحقق ذلك بالبرهان القاطع والدليل الساطع توجه الى حضرة الاسد واخبره بما صلح من الامر وما فسد وانه انما تأخر عن خدمة مخدومه ليصل الى مافى جيب الغيب من مكتومه فلما تحقق الليث ما فى هذا الامر من صلاح وعيث ومن هو الصالح من الدب والجمل والطالح أرسل الى الغراب وعرض عليه هذا الامر العجاب وطلب منه الارشاد الى هدم ما بناه الدب من الايقاع وشاد فقال الرأى عندى ان تجمع العساكر وتنادى البادى والحاضر ويحضر الدب والجمل ويعرض على الجميع هذا العمل فاذا ظهر الحق وانكشف سجاف الباطل عن جبين الصدق وتبين الظالم من المظلوم وتعين الصحيح من المثلوم يرى رأيك السعيد ما يقتضيه ويسلك ما يأمر به ويرتضيه ويجرى على كل منهم ما يحكم بتنفيذه ويمضيه بحيث لا ينتطح فى ذلك عنزان ولا يختلف عليك فيه اثنان فلما كان ثانى يوم أمر الاسد بجمع القوم واحضار الجمل البرى والدب المفترى فحضر الكبير والصغير واجتمع الامير والوزير ثم علا الملك على السرير واثنى على الله العلى الكبير وصلى على البشير النذير الشاهد السراج المنير ثم ذكر ما اهمه من هذه القضية المهمه وذكر فضل هذه الامه ومالها من رقة وجلاله وانها لا تجتمع على ضلاله ثم قال ماتقولون فى رفيقين شفيقين صديقين لم يكن بينهما سبب مكالحه ولا موجب منازعة ولا مجالحه سوى المحبة المليحة والممالحه والمودة الصافية الصالحه يبيتان فى فراش ويستعينان على حسن المعاش حسد أحدهما رفيقه وخان من غير سبب صديقه وسعى فى اراقة دمه وعدم وجوده بوجود عدمه فماذا يجب على هذا الحاسد المنافق فى عمله الفاسد الطالب ترويج باطله الكاسد وقصده ذلك البرى الصالح الغافل السرى والسعى به الى الحكام والقائهم بسببه فى الآثام وارتكاب هذه الجرائم وتحمل مثل هذه العظائم فأجاب الجمهور ان من أكبر الكبائر قول الزور وقد قال رب الكائنات ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم وان مرتكبه الاثيم استوجب العذاب الاليم ومن هو هذا الجرى الكذاب المفترى الذى يرتكب مثل هذه الامور الهائله والكبائر الوخيمة القاتله والعظائم المؤذية الغائله خصوصا فى مثل هذه الدولة العادله ولاى شئ يؤخر جزاؤه ولا يحسم داؤه ولا يضرب ولا يشهر ولا يؤمر بالمعروف فى هذا المنكر قال الاسد فاكتبوا بما قلتم محاضر وليعلم الغائب الحاضر حتى اذا وقع الاتفاق بين الاصحاب والرفاق وارتفع فى ذلك النزاع والشقاق واجمع على ذلك العقل والسمع فعلنا فيه ما يقتضى السياسة والشرع فاتبعوا اشروطهم وكتبوا بذلك خطوطهم فعند ذلك طلب الاسد أم راشد واقامها فى ذلك المحفل الحاشد واستنطقها بما تعلم واستشهدها على الدب بما اجرم فشهدت فى وجهه بما سمعت ورقت بذلك خطها ووضعت وزكاها الحاضرون وشهد بعفتها وزهدها الناظرون واتفقت الكلمة من

الكمال على صدقها وحقيقة نطقها فتهلل وجه الجمل بهذا القول والعمل وظهرت على صفحات وجه الدب العديم الدين واللب علامة الانكسار والفضيحة والخسار ولم يسعه الا انه اذعن واعترف ان لا دافع له في الشاهد ولا مطعن وانه قد اجترم وطلب العفو والكرم فعند ذلك غضب الريبال ولم يبق للعفو مجال فزأر وزفر وغضب الغضنفر وهمر وزمجر وتطاير من اشداقه الزبد ومن عينيه الشرر ومن شمائل حركاته غضبيات القضاء والقدر ونعوذ بالله من غضب الملوك خصوصا على الفقير الصعلوك ومن احاطت به أوزاره وقلت اعوانه وقلت انصاره ثم أمر الاسد بالدب ان يلقى من البلاء في جب وان السباع تحتوشه والضباع تنوشه ففي الحال من غير اهمال ولا توان ولا امهال نهشته الذئاب وافترسته الكلاب وتخاطفته النمور وتناتفته البيور والتقمته السباع والتهمته الضباع فقطعوه وبضعوه ووزعوه ومزعوه ونزقوه وحزقوه وخرقوه ومزقوه ولم يكتفوا بعظمه واهابه حتى لحسوا من دمه يابس ترابه وكان قد اشتد بهم القرم فالحقوا بلحمه ودمه بعض الضرم وزال عن أبي أيوب الضر وارتفعت منزلة ذلك الحر وضاعف الله تعالى على براءة ساحته أنواع الحمد والشكر وفائدة هذا المثل الجاري بين الدب والجمل معرفة فضيلة الامانه ووخامة المكر والخيانه فان الله تعالى غير مضيع أهله ولا يحيق المكر السيء الا باهله كما قيل

لابناء هذا الدهر في الغدر أسهم * وضرب خيانات وطعن مكيدة
وما للفتى منها طريق سلامة * سوى ترس تفويض لرب البرية
وكل امرئ رهن بنيته وفي * كفالة ما ينوي وما في العقيدة

وليكن هذا آخر باب الاسد الصالح والجمل الامين الناصح والعاقبة للمتقين والله الموفق والمعين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خير الخلائق اجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب التاسع)

(في ذكر ملك الطير العقاب والظلمين الناجيين من العقاب)

قال الشيخ أبو المحاسن من هو لثوب الفضل كاس ولكاس الظرف حاس وفي حدائق الادب ازكى آس ولا حذاق الادباء اذكى آس وفي عيون الاعداء انكى آس فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الذي استعبد در النسيب وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ومن مباحث الجن والانس ما حصل للسامعين به النشاط والانس ثم استطرد الى فوائد البهائم والوحوش ورقم في دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النقوش وعقد بجواهر نظامه لمفرق العدل في دار الملك اكليل العروش افتخر أخوه الفيل بوجوده وقدمه على جميع خواصه وجنوده وأفاض على حدائق آماله زلال احسانه وجوده وقال له يا نديم الدر وعديم الضير وقديم المير ومديم الخير قد افدت حكم سائر الحيوان فكرر علينا من حكم منطق الطير

فابتهج الحكيم في الساعه واتهض ملبيا بالسمع والطاعه ثم انه قال أدام الله ذوالجلال أيام مولانا الامام وشمل بذيل رأفته الخاص والعام بلغني انه كان في عالك اذربيجان جبل يسامي السماك في السمو ويعالي الافلاك في العلو غزير المياه والاشجار كثير النبات والثمار وفي ذيله شجرة قديمه منابتها كريمه أغصانها مهدله وغمارها مسبله كما قيل

وفي أصلها وكر لزوج من الحجل * كأن رياض رضوان البسها الحلل

هو وطنهما المألوف ومقرهما المعروف ورثاه من اسلافهما وهو في الشتاء والصيف مرجع ايلافهما يدعى الذكر منهما النجدي والانثى غرغرة بنت السعدي ولذلك الجبل جبل مقارن من جهة الشرق يسمى القارن لو قصد البدر دوره أو رفع رأسه لينظر سوره أو يحل فيه شعاعه ونوره لوقع عن قمة رأسه طرطوره في قلته سرير عقاب منيع الجناب هو ملك الطيور والجوارح وسلطان السوانح والبوارح وصافات تلك القلال وكواسر هاتيك الجبال كلها تحت أمره العادل العال متوج فوق رأسه بإكليل ما يبرز من مثال فكانت الحجلتان كلما فرختا وقاربت افراخهما الطيران عزم أبو الهيثم الكاسر بجماعته من عقابين كواسر وجوارح الطيور ومن تحت أمره من الجمهور على التنزه والاصطياد فضبط عساكره بتلك النواحي والبلاد فكانوا كلما وطئوا اربوة مهودها وسلكوا ما بين اكنافها وبطونها ونهودها تصل طراشة العساكر الى الجبل الذي فيه وكر الحجل فتذهب افراخهما تحت السنابك وتضمحل تحت أقدام أولئك فتقع الحجلتان في النكد والاحزان وبالجهد والمشقة البالغه يخلصان همامن تلك الداهية الشالغه والنائبة الدامغه فلم يزالا في نكد على فقد الولد فاتفكرتا في بعض الايام وقد أثر فيهما هذا الايلام فيما هما فيه من النكد لفقد الولد المتجدد على طول الامد فقال النجدي لبنت السعدي قد كبرنا وضاع العمر وحونا وقاربت شمس عمرنا الافول واقدام بقائنا أن تزل وتزول شعر

وليس لنا من يذكر الله بعدنا * اذا ما تغيبنا في مخاليب فقدنا

ولا من يحيي أثر آثارنا اذا طوى الموت بساط أعمارنا وقد قضينا العمر في الانكاد بفراق الاولاد ثم بعد الحياة ينمحي اسمنا ويندرس بالكلية رسمنا فلا حياة هنيه ولا أخرى رضيه وأي هنا مع فراق قرة العين خصوصا على وجه المذلة والشين وما الناظر في هذا الدهر المبير الامن جمع المال من حله وغير حله وتركه بعد الكفاية بلغ والحرص الى غير أهله فيصير كما قيل

تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وأنت دفين

ولا طاقة لنا في دفع جيش العقاب ولا حيلة الى الخلاص من عقاب هذا العقاب فذهب أكثر العمر في هذا الويل واشبهنا النائم على طريق السيل وان غفلنا عن أنفسنا ربما اجتاحونا وطرحونا الى مهلكة تديرعلينا من العدم طاحونا فالرأي عندي ان نترك هذا الوطن ونرحل الى مكان لا نرى فيه هذا المحن فانه لم يبق لنا طاقة على فراق الولد ولا قلب يحتمل هذا الحزن والنكد

ذاب قلبي بين دمع وضرم * فاوجعوفي آناء بالم وغم

وذلك لان المرء حيا بلا يد ورجل ولا تلقاه حيا بلا كبد قالت لقد اعربت عما فى فكرى وشرحت ما كان يجول فى صدرى وهذه محنة قد أعيانى فى دائها الدواء وبلاء عمنا فكلنا فيه سواء

المرء يحيا بلا ساق ولا عضد * ولا يعيش بلا قلب ولا كبد

(بى مثل ما بك يا حمامة فاندبى) وقد قلت

ولم يعرف حرارة ما أعانى * سوى قلب كواه ما كوانى

وأنا لم أخل قط فى وقت من هذا الفكر الذى أوجبه الهم والمقت واعلم ان سهام آراء العقلاء ونبال افكار ذوى النظر من الحكماء انما تصدر من قوس واحده وتتوجه الى غرض طريقته غير متعدده وقال العقلاء وأولوا التجارب من الحكماء بل أطبق ارباب العقول وأئمة الدين واصحاب الاصول ان قضايا العقل كلها صادقه وألسنتها فيما تحكمه بالصواب والاصالة ناطقه غير ان كثيرا ما تشتبه القضايا العقليه لسوء التصور بالقضايا الوهميه فيقع الخطأ بواسطة الوهم فى الفهم وينسب الى العقل ذلك السهم والا فاتفاق العقلاء جميعا ان القضايا العقلية لا يقع فيها الخطأ قطعا وان قضايا الحس لوقوع الاشتباه واللبس يتصور أنها حق ويقضى لها وعليها بالصدق واذا وقع الخطأ لحصول الاشتباه وعدم التأمل والانتباه فى القضايا الحسيه والقضايا التى هى بحاسة البصر مرئيه كما وقع ذلك فى حادثة الطريقة البغداديه فوقوع الخطا بالوهم أولى فى القضايا العقليه لان طرقها أخفى واحكامها معنويه فسأل الذكر عن تلك البغدادية وما هذا الخبر قالت كان فى مدينة السلام بغدان امرأة من المتخذات اخدان اسم زوجها زيد وهى أم عمرو وذات كيد لها عدة اخدان تدعو الكل بالاخوان وكل ينشد فى السر والاعلان قوله

دعتنى أخاها أم عمرو ولم أكن * أخاها ولم أرضع لها بلبان

فاتفق ان زوجها زيد دعاه أمير البلد الى الصيد فركب معه وسار وخلت منه الديار فتسامع بذلك بعض اخدانها فتوجه منهم طائفة الى مكانها فأول من سبق تاجر ذو شبق فدخل بثياب بيض وشاش رحيض وهيئة نظيفه وصورة ظريفه فاسرع فى الدخول ومعه ما يليق من المأكول فتلقته بالترحاب وأخذا فى لذيذ الخطاب فما استقر به القرار حتى قرع باب الدار فظنته زوجها وحققته بوجهها فنهض خائفا وتحير راجفا وطلب مكانا يخفيه وسكنا يأويه فلم يكن فى دارها مخبأ زوارها سوى طبقة لطيفه يصعد اليها من سقيفه فارشدته اليها فرقى عليها وبادرت الى الاتحاف فاذا هو حريف صراف ففتحت الاغلاق وتعانقا تعانق المشتاق فدخل بهيئة زهراء بلباس أخضر وعمامة خضراء ومعه من الحلاوى مجمع ومن الزجاج أربع فجلسا يتذاكران الحوادث اذ طرق الباب ثالث فقالت هبط أو جى وجاء زوجى فوثب فى رجفه كانه ورقة سعفه فسأل عن مخبأه وستر يغشاه فارشدته ربة الكريى الى طريق الطبقى فصعد اللاحق ولحق السابق وبادرت الرتاج ربة التاج وأم الازواج فاذا هو أحد الظرفاء وثالث الحرفاء رجل زيات ومعه مجمع سكرنبات فتلقته بالتكريم واجابته بالتسليم فدخل بثوب أصفر

وشاش

وشاش معصفر فشرعاق الملاعبه والملاطفة والمداعبه فدق الباب رابع الاصحاب فبادر الزيات الفرار وطلب مختفى للقرار فدلته فى المقر الى المعهود المقر فصعد اليه ولحق بصاحبيه وتوجهت الى الباب فاذا هو أحد الاحباب وهو رجل قصاب وعليه ثياب سود وخفه المعهود وعلى رأسه متزرغين وبيده خروف سمين فقالت أهلا وسهلا وارفع محلا بالحبيب النجيب والبعيد القريب فدخلا واشتغلا بالخطاب والتهيا عن رتاج الباب وكان فى تلك المحله شخص أحدب ابله يدخل البيوت ويتمسخر فلا يمنع من ذلك ولا يزجر ويلاطفه الاكابر والاعيان ولا يحتجب منه النسوان فمر على باب زيد فرآه لا اغلاق ولا قيد فدخل على غفله ولم يستأذن أهله فلم يشعرا به الا بعد حلول ركابه فوجم لرؤيته القصاب وخاف من حلول مصاب وتشور وانحرف فقالت له المرأة لا تخف انما هو ابله مسخرة فى المحله فأخذوا يتلاطفون ويتمازحون ويتظارفون الى ان قرب الليل وفات النيل فطرق الباب ووصل الزوج بلا ارتياب فلم يشعروا الا والبلاء قد أقبل ومصابهم الاعظم فى اكنافهم قد نزل فاختبطوا والتبطوا وانحلت قواهم وارتبطوا وطلب القصاب مخبا فأرته للطقيسى دربا وطلب الاحدب من شر زيد المهرب فكان فى أرض البيت تنور فنزل فيه وهو مضرور وغطته بغطائه وسترته ببعض وطائه وأراب زيدا الفتح فى ابطائه ثم توجهت الى الباب وهى فى اضطراب فدخل زيد وهو سكران ومن تأخير فتح الباب غضبان وكان قد تناول مع مخدومه ولعبت بشيخ عقله بنت كرومه فلما نزل عن السرج رأى الزوجة فى هرج ومرج فانكر حالها وسألها مالها فقالت كرهت فقدك وخاطرى عندك فلا ذقت بعدك ولا عشت بعدك فقال تكذبين أى دقار بل تسخرين بى أى نجار انما أنت فى حركة فلا طرح الله فيك بركة فقالت أنت مجنون وأى حركة عندى تكون فشرع فى حربها واستطرد من سبها الى ضربها وعزم على تفتيش البيت والاطلاع على ما فيه من كيت وكيت فخشيت ان يخرج امرها عن دائرة الستر الى لو كان وليت فتداركت التفريط قبل وقوعه وبادرت الى تلافى التلاف بالهيت فتشكت من الاذى وقد تناولها بالضرب والبذا ورفعت يدها الى الدعاء بالندا وقالت الهى وسيدى وسندى ومعتقدى ان كنت تعلم أنى مظلومه وبراءة ساحتى عندك معلومه فانزل الى أمتك ملكا من ملائكة رحمتك يخلصها من هذا الظلوم ويكشف ستر هذا السر الموهوم فبادر التاجر بالانتهاض ونزل بثيابه البياض ودخل عليه وقبض على أذنيه وصفعه على خديه وقال اتركها يا ظالم فانك معتد آثم وهى بريه وشعاتلها زكيه وضربه ضربتين ولكمه لكمتين ثم أم الباب وترك الاصحاب وشرع فى الذهاب فلما رأى هذا زيد عرف انه خديعة وكيد وقال يا أخس الفواحش وانهش النواهش تريدين خدعى وسحرى وختلى وختري وتبغين بما تبغين ختلى ومكرى أولست بعريف أنه التحريف ثم زاد فى سبها وعاد الى كبها وضربها فقالت يا الهى وسيدى وجاهى ان كنت تعلم ان هذا الاظلم أنكر الحق ورآه وما صدق فأنزل عليه ملكا آخر ذا جناح أخضر يأخذ بحق منه ويكشف سترك عنه فقال الحرفاء وكانوا ظرفاء للصيرفى قم فنحن مختفى وشدد علينا

واوصل الالم اليه فنهض ذلك المعلم وبادر الى السلم ونزل اليه ودخل عليه وقال يا كثيف يا ذا العار عن عفيفة الاستار فانما ابرية بوجها قطنه عربه ومد يده بكمه وبالغ في سبه وشتمه ثم خرج من الدار وبالغ في الفرار فقال يا لادريه من ذى القصيه الناس بواحد وأنت باثنين وقد جعلت زوجك ذا القرنين ثم أخذ العصا وضربها اضرب من عصى فقالت يا اله العالمين تعلم ان هذا من الظالمين أصدقني بالملك الاصفر صاحب الدرع والمغفر والثوب المعصفر يبرئ ساحتي ويهدى راحتي فانى مظلومه وقصتي معلومه فقال الجزار للزيات قم أرنا المكرامات وقدم صنعتك وهات فنهض الزيات ونزل الى ذلك المقتات وقال أيها اللئيم كف عن الحريم وارجع عن لوم البرى واقصر أيها المجترى المفترى ثم تناوله بعصاه الى ان آلم قفاه ثم تركه في الحركة وخرج هاربا وقصد جانبا فقال زيد يا أوسخ القصاب واسخ ذوات السباب تعدين حرفائك واحدا واحدا وتعرضينهم على صادرا ووارد ثم نهض بالعصا وتناولها ضربا مليا ورضخا فبادت وآدت وبادت ونادت الهى هذا لم يعتبر بالاتشكيك المكرام ولم ينزجر بهذا الضرم والايلام فامدني بملك النيران الزنجى الاسود الغضبان يضربه بصدق ويأخذ منه حق ويفعل معه ما يجب فان راجيك لم يخب فاعتم القصاب ان زجر كرعد السحاب وأخذ في الاضطراب والاصطخاب وأسرع في السلم الانسياب فلما سمع زيد العياط والنياط وزماجر الهياط والمياط بهت وأخذه الضراط فدخل عليه في بغترة وقد حره وترايا بصورة بشعة منكره وخطف من يده العصا وضربه بها حتى شصا وقال أى تعس ذميم واتعس زنيم أما زجرك ونهاك وكنسك وكفاك من تقدم من الاملاك ايم الله لئن لم تتركها وفي مالك ومنالك تشركها لتندمرن ديارك ولتمحون آثارك ثم تركه وذهب وأودعه بحر اللهب فلما رأى الحال نسجت على هذا المنوال استكان وطلب الامان ومعك عينيه وضم يديه ورجليه وجعل يتأوه من ألم الضراب وقال كان الدعاء في هذه الساعة مستجاب ثم قال من شدة كربه وحرقة قلبه الهى ومولاى كما استجبت دعاءها استجب دعاى وكما انزلت من السماء انصرها ملوكها فأخرج لها من الارض عفريتا ينيكها وليكن ذلك بمرأى من عيني وامامى حتى يسكن قلبي ويبرد أوامى فما صدق صاحب التنور حين سمع الدعاء المذكور والنداء المقبول المشكور حتى طفر من مخبئه كالشواظ المسجور وأقام امامها وهو المصاب واستعمل من قواعد النحو الرفع والجر والانتصاب ورفع العمودين وأولجه المحراب ولا زال ذلك الامام يتردد في البيت الحرام وقد نال في الحرم أمنا حتى رمى الجمرات وأمنى ثم قبل فاها وخرج مسرعا من ذراها وخلى الدار تنعى من بناها ففتح زيد عينيه وحملق حواليه ثم قال يا أقذر القصاب هكذا يكون الدعاء المستجاب وانما أوردت هذا الكلام والتمثيل لك يا امام ليتبين لكل عالم همام وليتبصر أولو العقل والافهام الفرق ما بين قضايا الحس والعقل والاوهام وقد شبه العقل بجبل عال عزيز المنال وكل من قصد الصعود اليه والارتقاء عليه لا يصعده الا من طريق واحدة منها يوصل منه الى الفائده وسلوك طريق المعاشرة مع العقلاء وذوى الآراء والاذكياء في العداوة والصداقه والكدرة والرياقه واللطافه والكثافه والخوف

والرجاء والابتداء والانتهاء انما هو من باب مقصد لا من طريق متعدد ولاجل هذا يا متبصر سلوك مثل هذه الطريق عليهم متيسر لا متعوج ولا متعسر ورأس خيط هذه السموط بالاستقامة والسلاح مضبوط بخلاف الجهال والعلماء والحمق والسفهاء فان أمورهم منفرطة وافكارهم وآراءهم غير منضبطة فتتكدر خواطر العقلاء في تعليمهم ويعيا طبيب الفكر في تهذيب احمقهم وتأديب سفيههم وقيل

انى لآمن من عدو عاقل * واخاف خلا يعتريه جنون
والعقل فن واحد وطريقه * ادرى وارصد والجنون فنون

ولهذا قيل معاداة العاقل خير من مصافاة الجاهل ثم قالت غرغرة في اثناء هذه القرقرة وأما ما ذكرت من البيان من مفارقة الاوطان وترك هذا المكان اما سمعت حديث أشرف جنس الانسان ان حب الوطن من الايمان وقد ألفنا وطننا وحببه وقلع اصول محبته من قلوبنا صعبه وهو في معزل عن طرق الجوارح ومكمن عن السوانح والبوارح وانما تعرض لاولادنا تلك الآفة من تراكم المساكر المسافة وما يحصل من اقدامها من سكانه وأنا أخاف إن انتقلنا من هذا الوطن يخرج من أيدينا هذا السكن ولا نحصل على مأوى يليق او لا توافقنا الغربة أو يمنع مانع في الطريق فنفقد الربح فيذهب رأس المال فنخسر ما في ايدينا في الحال ولا يحصل المأمول في الاستقبال وكيف وهو مسقط راسنا ومحل انسنا واناسنا فالاولى بنا الرضا والانقياد لاوامر القضا وملازمة الوطن القديم والسكون تحت تقدير العزيز العليم وقد قيل انما يشقى العليل اذا ترك مشتهيات نفسه وقيد مقتنياته في قيد حبسه ولابد للمريد من ترك المراد والقانع من قطع النظر عن الازدياد والحرية في رفض الشهوات وكل ما هو آت آت وأما وقائع الاولاد وحصول الانكاد وما يقع منها بسببهم في كل أوان فحسبها احدى ما يحدث لنا من نوائب الزمان ونحن بل كل المخلوقات عرضة للنوائب والآفات وطعمة لسنابك القدور ونهبة لحوادث الدهور ولو انتقلنا عن وطننا وتحولنا عن سكننا وبعدنا عن هذا الجانب ونزحنا عن الاهل والاقارب وجاورنا الاباعد والاجانب لا يطيب لنا مقام وتتكدر اوقاتنا على ممر الايام فلا نزال بين تذكر الوطن المألوف وتحنن الى الصاحب المعروف فيسهل عند هذه الانكال مفارقة الاطفال ثم اعلم أيها الصاحب الاعظم انه لو تيسر لنا مع الانتقال انتظام الامور واستقامة الاحوال وحفظت الاولاد وزالت الانكاد وصفا الوقت وزال المقت فان الخاطر يشتغل ونار القلب بسببهم تشتعل فانه من حين وجود الولد يتقيد بتعهده القلب والجسد وتصرف الهمة الى القيام بمصالح معاشه الى حين ترعرعه وارتياشه ويزداد القلب تعلقا بمحبته ويتقيد الخاطر بالالتفات الى عمل مصلحته ويتضاعف ذلك يوما فيوما وشهرا فشهرا وعاما فعاما فان نابه والعياذ بالله عضو ألم او اصابه ضر أو سقم التهبت عليه الجوارح وانقلبت الهموم على القلب والجوانح فان آل ذلك الى موت واضمحلال وجوده الى عدم وفوت فهو المصيبة العظمى والطامة الكبرى وان سلم من هذه العاهات وبلغ سن الادراك سالما من الآفات ونما الى بر الشباب من بحر الخافات اندفع كلفته

وتضاعفت مؤنته وركب والداه في ذلك كل صعب وذلول وذهبا من مسالك الكد والكدح في كل عرض وطول وتحملا أنواع المشاق والآثام وارتكبا فيما اكتسبا أصنافا من الحلال والحرام وهذا اذا كان مطيعا ولاوامرهما منقادا سميعا وأما اذا ركب جموح العقوق ونسي مالهما عليه من حقوق فهي مصيبة أخرى وداهية كبرى ويصير كما قيل

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدواله ما من صداقته بد

وعلى كل تقدير وأنت بهذا خبير وبدقائقه عليم ان الاولاد بين الابوين وبين الآخرة سد عظيم ما يخلص مع الالتفات اليهم لله طاعه ولا على الانقطاع منهم الى طريق الآخرة استطاعه وناهيك يا ذا الذكاء والفطنه اخبار من أنقذك من هذه المحنه انما أموالكم وأولادكم فتنه فاسمع هذا الكلام باذن التحقيق واسلك في سبر معانيه اوضح طريق وحقق يا ذا الارشاد ان وجود الاولاد عند ذوي البصيرة من النقاد نقد مزيف ومتاع من خوف وسم تحت حلوى وسرور فوق بلوى وعارية مردوده بعد أوقات معدوده وأيام محدوده بل لعبة من خشب مموهة بالذهب وطلاء من نضار على كوب من فخار وقد نبه على هذا رب العباد بقوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد وكان الاطفال الصغار الغافلين عن دقائق الاسرار اذا نظروا الى اللعبة المزينه والخشبيات المصبغة المستحسنه التهوا بها عن اكتساب الآداب وملازمة العلماء والمشايخ والكتاب فيبلغون وهم جاهلون وعن طرق اكتساب الكمال ذاهلون ويشيبون وهم احداث ويتصورون انهم طاهرون وهم اخباث كذلك كل من التفت الى غير الله خاطره والتهت بامور الدنيا من المال والولد سرائره وضمائره وحرم من الاطلاع على دقائق الملك والملكوت وفاته لذات الوقوف على دقائق الرغبوت والرهبوت فهو عن الله تعالى محجوب وفي عساكر الاموات وان كان حيا محسوب كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله * واجسادهم دون القبور قبور
وان امرأ لم يحي بالعلم قلبه * فليس له حتى النشور نشور

قال الله تعالى وكلمته العليا المال والبنون زينة الحياة الدنيا وهذا صريح بالشهادة على مانقلته وجلوت صدأ قلبك بتقريره وصقلته فلا تكونن لاه ولا تعلقن قلبك بغير الله قولا واعتقادا وعملا فالباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا واجهد يا حبيب في اصلاح قلبك الكليم واصغ لما قاله الحكيم الحليم متحرزا من نكاية العذاب الاليم عاملا بما يرضي السميع العليم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم واذا علمت هذا وحققته وحررته وصدقته فاعلم ان الاولى بحالنا والاحسن للنظر في مآلنا ان نعد ما نحن فيه من جملة النعم وان هذا الذي قسم لنا من القسم في القدم ولا ننقل عن دائرة الرضا والتسليم قدما عن قدم وننظر ما يتولد من حوادث الزمان ولا نرخي في ميدان الطمع العنان ونعرض على جامح الخاطر ما قال الشاعر

كم نار بادية شبت لغير قرى * على بقاع وكم نور بلا ثمر
هون عليك أمورا أنت تنكرها * فالدهر يأتي بأنواع من العبر

قال

قال الهدهد جميع هذا المقول صادر من موارد المعقول موافق لما ورد به المنقول لقد غصت في بحر الفطنه على جواهر الحكمه فما تركت في ميدان المسائل مقالا لقائل ولا مجالا لجائل ولكن لا ينبغي للعاقل ان يغفل عن حوادث الدهر ولا يسند ظهره لكواذب العصر فان طوارق الآفات وخوارق العادات ومحن الزمان وفتن الدوران محتجبة وراء استار ومستورة في انواع اطوار والفلك الدوار له في علم الادوار لعبيات ابكار يبرزها للنظار فتلعب بالافكار ويذهب في سنا برق مخارفها ابصار الابصار ويخطئ في حركاتها الرأى المصيب ويدهش في دجى حندسها الفطن الاريب وقد بادت الفكر وعجزت القوى والقدر وحارت عقول البشر دون ادراك ما يبرزه كل وقت من الصور من وراء ستر الغيب مستعد القضاء والقدر ولم يعهد من الدهر الخؤن والزمان الحرون اذا استقام او قزل أوجد أو عزل اوامر بنازل فنزل اوولى اوعزل اواقبل أو اعتزل أو نقض أو غزل ان يرسل قبل ذلك منذرا أو مبصرا أو محذرا ليستيقظ النائم أو ينهض الجاثم او يتحرك القائم وانما يعطم بغتته ويهجم في سكته ويأخذ على بهته فلا يفلت منه فلته ولا يمهل الى لحظة ولا لفته وقد قيل

ياراقد الليل مسرورا باوله * ان الحوادث قد يطرقن اسحارا

لا تركنن لليل طاب اوله * فرب آخر ليل أوقد النارا

وعلى هذا وقع منا غفلة اوذهول عند قدوم هذا الجيش المهول فاخترم والعياذ بالله واحدا منا ونحن أحسن ما نكون سكوتا وامنا فكيف ترين يبقى حال الآخر وهل يصير الا كما قال الشاعر

ما حال من كان له واحد * يؤخذ منه ذلك الواحد

واذا بقي أحدنا منفردا وانعزل متوحدا ماذا يفيده الوطن والجيران والسكن وهل تفي لذة وصال التي سنه بالم فراق تلك الساعة الخشنه كما قيل

ان كان فراقنا على التحقيق * هذه كبدى أحق بالتمزيق

لودام لنا الوصال الف سنة * ما كان يفي بساعة التفريق

وقال أيضا

لا كان في الدهر يوم لا أراك به * ولا بدت فيه لا شمس ولا قمر

وكل من لم يتفكر في العواقب قبل حلولها ويتأمل في تداركها بقدر الطاقة قبل نزولها ويطمئن الى سكون الزمان ويسند ظهره الى مسند الحدثان ويحيل الكوائن على القضاء والقدر ويرفع يد التدبير عن تعاطى اسباب الحذر كان كمن ترك احدى زاملتيه فارغه وحشا الاخرى من الاحجار الثقيلة الدامغه فأنى يستقيم حمله أو يبلغ منزله فلا يزال حمله مائلا وخطبه هائلا فالعاقل يسعى فيما يظن نفعه ويبذل في ذلك غاية جهده ووسعه ولا يترك الطلب ولا يغفل عن السبب ويعمل بموجب ما قيل

فلاوابيك لا أدع احتياطى * ومالى في قضاء الله حيله

وعلى كل حال ياربة الجمال تعاطى الاسباب لا يقدح في الاتكال وناهيك يامليحة العمل

حكاية الحمار مع الجمل فسألت غرغره أن يبين ذلك ويذكره قال بلغني أنه ترافق في المسير عير مع بعير فكان الحمار كثير العثار مع أن عينيه تراقب مواطئ رجليه وكان الجمل على عظم قامته وعلو قامته وبعد عينيه عن مواطئ يديه ورجليه لا تزل له قدم ولا يصل اليه ألم فقال الحمار للبعير أيها الرفيق الكبير ما بالي في المسير كثير التعثير دائم الوقوع والزلل والعثار والخطل لا اخلو من حجر يدمي مني الحافر أو عثرة ترميني في حفرة حافر مع ان عيني تراقب يدي ولا تنظر سواهما الى شيء وأنت لا تنظر مواطئ اخفافك ولا تعرف على ماذا تقع رؤس اطرافك لا حجر يصيب خفك ولا شوكة تخرق كفك ولا حفرة تقع فيها ولا تضل عن طريق تمشيها ولا أدري هذا مماذا قال أبو صابر يا أخي اطرك قاصر وفكرك غير باصر لا تراقب ما بين يديك ولا تنظر ما امامك الى أم عليك فاذا هممت مادهاك عجزت عنه نهاك فلا تشعر الا وقد وقعت واتخرق سار وقعت فلا يمكنك التداوك والتلاف الا وأنت رهين التلاف واما أنا فأراقب ما يصير من العواقب وانظر امامي الطريق على بعد فأميز المسالك من قبل ومن بعد فلا اصل الى صعب الا وقد اذللته ولا الى وعر الا وقد سهلته ولا الى وهدة الا وقد عرفت طريقها ولا الى عقبة الا وقد كشفت واسعها ومضيقها فاستعد للامر قبل نزوله وأتأهب للخطب قبل حلوله واحتال لقطعه قبل وصوله واحله قبل ان يعقد واقيمه دون أن يقعد وهذه قاعدة الفقهاء وأصل كبير الحكماء من العلماء انهم قالوا ان الدفع أهون من الرفع ومن كلام الالباء واصول حذاق الاطباء قوله

الطب حفظ صحة برء مرض * من سبب في بدن اذا عرض

وانما أوردت هذا المثل عن الحمار والجمل التعلي باستدلال انه لابد لنا من أخذ الاهبه قبل النكبه فما كل مره تسلم الجره وقد قرب وقت وضع البيض وبعده يدهمنا من سيل العسكر الفيض فلابد من أعمال الفكر المصيب في وجه الخلاص من هذا الامر العصيب كما قيل

(مهد لنفسك قبل النوم مضطجعا)

قالت غرغره الحكيمه المدبره جميع هذه الاخبار لا تخلو عن دقيق الانظار وتحقيق مصيب الافكار وغامض معاني الاسرار وكل عاقل يقبله ويقبل يديه ويمثله ويقبل عليه وكل فكر مصيب يجثو للاقتباس بين يديه ولكن طلاب الاغراض الدنيويه والمسارعون الى نيل المرادات والامنيه على فرقتين وانا أفصلها احقاقا حق منهم من يبلغ الآمال بقوة الجند وبذل الاموال ومنهم من يساعده الدهر ويعاضده معاون العصر وينهض له مسعد التقدير فيقوم معه كل كبير وصغير كما قيل

وإذا أراد الله نصرة عبده * كانت له اعداؤه انصارا

فيقيض له المساعد ويعضده المقارب والمباعد فلا يحتاج الى كبير سعي ولا في استماع النصيحة ونفعها الى وعي بل يصل الى قصده بدون كده وبغير جهده وجده فمهما فعل انجح ومهما قصد أفلح وحيثما توجه اربح وايثما مال ارجح ومنهم من يحتاج الى جهد جهيد وسعي مديد وكد طويل عريض وجد عريض غير غريض مع مساعد ناصح ومعاون صالح

وتعاطي

وتعاطى أسباب وقرع أبواب وفكر دقيق وسعد رفيق حتى يبلغ مراده ويصل الى ما أراده ومنهم من تغلب عليه العجلة والطمع وشدة الحرص والهلع فيسارع الى نيل ما يرومه فيلقيه في هوة الحرمان حرصه وشومه فيقع من التعب والنصب في حوه ويحرم لكونه اعتمد على ماله من حول وقوه فيصير كما قيل

الحرص فوتني دهري فوائده * فكلما ازددت حرصا ازدادت فوتا

ومنهم من يتمنى ثم يتكاسل ويرجو ويترقب ويتساهل فيحرم مقصده ويرد عجزه عن مراده يده وقد قيل في المثل تزوج التوانى بنت الكسل فاولد الزوجان الفقر والحرمان فانظر ياذا الركون والوقار والسكون نحن من اى هذه الفرق نكون وأنت تعلم انا لا نقدر على مقاومة العقاب ولا ان ندفع عن أنفسنا ما ينزل بنا من عقاب فانه اذا طار العقاب يبلغ الثريا والسحاب ونحن اذا تحركنا في الهوا فلا نقدر أن نرتفع عن وجه الثرى وقد قيل في المثل كما ترى أين الثريا من الثرى وقيل من تعلق بخصم هو أقوى منه فقد سعى في هلاك نفسه برجله ووضع تراب الدمار على رأسه بيده وكنت يا بدرى انشدتك من شعرى

ومن ينشبث في العداوة كفه * با كبر منه فهو لا شك هالك

وكان مثله مثل النملة الخفيفه التى نبتت لها اجنحة ضعيفه فحركها دواعى الطيران فتصورت انها صارت كالنسور والعقبان فبمجرد ما ترتفع عن الثرى الى الهوا التقمها عصفور أو خطفها أصغر الطيور ولهذا قيل

اذا ما أراد الله اهلاك نملة * أطال جناحيها فسيقت الى العطب

ونحن ما لنا اطلاع على مكامن الغيب فنتزه نفسك عن هواجس الريب وليس لنا مساعد من الاقارب والاباعد ولا لنا مال ولا خيل ولا رجال ونحن أقل من ان يساعدنا زمان أو يعيننا على العقاب أعوان فلم يبق الا الركون والاتكال على حركات السكون فما ندرى غدا ماذا يكون واعلم ان حركاتنا مع العقاب والجامع لنا معه من الاسباب متحدة فى الحقيقة وطريقتنا معه من جنس ماله من طريقه وهى الطيريه وكلنا فيها سويه وهو منها كاعجاز القرآن من الفصاحة فى الطرف الاعلى ونحن منها كاصوات الحيوان فى الطرف الادنى فالاولى بحالنا الاصطبار الى ان يصل لكسرنا من عالم الغيب انجبار كما قيل

مهلا أبا الصقر فكم طائر * خر صريعا بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفوها * آذنها الله بتطليق

وقيل

الامر يحدث بعده الامر * والعسر مقترن به اليسر

وحلاوة الصبيات من عسل * تلهى وان حلاوتى الصبر

والصبر يعقب بعده شكر * من نعمة تأتيك أو اجر

فقال الذكر هذه الفكر من الصواب قريب وسهمها عند أولى البصائر والتجارب مصيب ولكن من يتكفل بوفاء العمر الغدار والايصال الى الاوطار ويقوم بالامن من حوادث الليل والنهار وانسيت انشادى فى الوادى يا زين النادى وجمال الحاضر والبادى

لئن بادرت في تسليم روحي * أتاني من ورائي من يعوق
وان اسرعت نحو الوصل عذرا * فعمري من وراظهري يسوق

ثم قال النجدي والرأي السديد عندي والذي أعيده فيه وابدي ان نتوجه الى حضرة العقاب ونكشف عن وجه مرادنا لديه النقاب ونطلب منه الامان من عوادي الدهر ونكبات الزمان ونستظل بجناح عاطفته وننتظم في سلك جماعته وخدمته فانه ملك الطيور وبيده ازمة الجمهور وهو وان كان سلطان الجوارح والكواسر وشيمته سفك الدماء والتمزيق بمخالبه النواسر لكنه ملك عالي الهمه ومن شيم الملوك الشفقة والرحمه ولا تقتضي همته العاليه الا الشفقة الوافيه خصوصا على من يرتمي لديه وينتمي اليه ولا تدعه شيمته الابيه وهمته العالية الحميه وشمائله الشهمة الملوكيه ان يتعرض الينا بضرر أو ان يطير الينا منه شرر قالت غرغره بعد الاستغراب في الكركره العجب كل العجب من رأيك المنتخب انك تخلط منه الغث بالسمين وتسوق فيه الهجان مع الهجين فتارة تصيب حدقة الغرض واخرى تصرف السهم عرض فتصير كما قيل

تلونت حتى لست ادري من الهوى * أريح جنوب انت أم ريح شمال

هذه المصائب التي نشكوها والنوائب التي نقرأ سورها ونتلوها هل هي غير ما نقاسيه من العذاب ونعانيه من أليم العذاب في لحظة من ملاقاة عسكر العقاب ثم انك أنت تحركت في آرائك وسكنت وشرقت في افكارك وغربت وتباعدت وتقربت وارتفعت وحططت وامتنعت وسقطت وجلت وجمت وقعدت وقمت ثم أسفر رأيك السديد وفكرك الرشيد وأمرك السعيد عن أن تجرنا بسلاسل الحديد الى العذاب الشديد وتخلدنا فيه الدهر المديد ولا اواقفه بل تريد ان نمشي بارجلنا الى الشبكه ونلقي بايدينا أنفسنا الى التهلكه وقد اشبهت في هذه الحركه مالك الحزين والسمكه فقال النجدي لابنة السعدي اريحي وغني

(شكوى الجريح الى العقبان والرخم)

فقالت له أزل الغمه بقص هذه القصه فقال كان في بعض المروج من قرى سروج نهر كثير الحيتان شديد الجريان وفي مكان منه مصون مأوى لمالك الحزين البلشون فكان يتصرف في السمك تصرف المالك فيما ملك قضى في ذلك عمره وزجى أوقاته في طيب عيش ومسره الى ان أدركه المشيب ورحل عنه العمر القشيب وكساه خياط الدهر دلق ومن نعمره نكسه في الخلق ورأى من الكبر أصناف العبر الى ان ضعفت قوته عن الاصطياد ويجرى عليه من الآلام والانكاد ومن نوائب الدهر ما الزمان به معتاد فصار يمر عليه برهة من الاوقات وهو عاجز عن تحصيل الاقوات فتوجه في بعض الاحيان وقد علته كآبة الاحزان ووقف على النهر متفكرا في تصرفات الدهر فمرت به سمكه لطيفة الحركه فرأته في ذل الانكسار ساجيا في بحر الافتكار لا قدرة له ولا حركه ولا نهضة لاختطاف السمكه فلم يلتفت اليها ولا عول عليها وقد أوطأته الحوادث أقدام الهموم الكوارث و بدل ربيع شبابه بخريف الهرم وحرارة حربه ببرودة السلم فوقفت لديه وسلمت عليه وسألته عن موجب تفكره وسبب تحزنه وتحيره فقال تفكرت ما مضى من الزمان الناضر وما تقضى

فيه من طيب العيش وانشراح الخاطر وقد تبدل وجوده بالعدم ولم يحصل من ذلك سوى الذنوب والندم وقد وهنت العظام واستولى على الجسد السقام وتزلزلت أركان الاعضاء وتراكمت فنون الادواء واشتعل الشيب واتقد وحز الآلام وقد

عزمت على اخلاء جسمي وروحه * من خرق شيب كل عنه الراقع
قلت اسكنيه يا عمارة عمره * قالت فكيف وبيت جسمك واقع

ثم قال ولم أفق من هذه السكره ولا وقعت في هذه الفكره الا وسفينة العمر بالساحل قد ارست واصيل شمس العيش على قلة الفناء امست فما يمكنني الا التلافي بالتوبة والندم قبل حلول نوائب الاجل وزلة القدم والتطهر من جناية المظالم بمياه الاستعبار والالتجاء الى جانب الحق بالالتماظ في الاستغفار وغسل أوساخ الذنوب والمظالم بدموع الانابة والاعتذار

وما أقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب للرأس شامل

فاعلى ان جامع هواي قلع ضرس الآمال والطمع وجارح متمناي نزع خوافي الشره والهلع وقد قدمت الى هذا المكان لا تحلل من الاسماك والحيتان فاني طالما أغرت على عشائرهم وأولادهم وخضت في دماء قلوبهم واكبادهم وشتت شملهم وخوفت جاهم وقاهم وارغبتهم وارهبتهم واقلقتهم وفرقتهم وغربتهم وبالدماء شرقتهم فرأيت براءة الذمة في الاولى أولى والمبادرة بالتوبة قبل المصير الى الاخرى احرى فلعل أحمال الذنوب تحت وسحائب الغفران تكف فلما سمعت السمكة هذه الخديعه ووعت ما فيها من حركة بديعه تشربتها اضلاعها ودعاها انخداعها الى ان قالت فما ترى أيها العبد الصالح أن افعله من المصالح فقال أبلغي السمك هذا الكلام بعد ابلاغ التحية والسلام وان يكون القوم من بعد اليوم آمنين من سطواتي سالمين من حلاقي ساكنين الى حركاتي بحيث تحل الظلماء ويعود بيننا الحرب سلما وينام السمك في الماء قالت لا بد من أخذ العهود على الوفاء بهذه العقود واقلها المصافحه على المصالحه ثم تأكيد الايمان بخالق الانس والجان ولكن كيف أصافحك وانا طعمتك وأنى اتخلص من فيك اذا وضعت فيه لقمتك قال لها ابرمي هذا العلف واربطي به حنكي لتأمني التلف فأخذت قبضة من الحشيش وفتلت والى ربط فكه أقبلت فعندما صعدت منقاره الى الماء وقربت منه السمكة العمياء لم يفتر ان اقتلعها ثم ابتلعها وانما أوردت هذه اللطيفه بإذا الحركات الظريفه لتعلم ان قربنا من العقاب التي بها انقسنا الى أليم العقاب وأين عزب عنك نهالك حتى تسعى بنا الى عين الهلاك ونحن قوت العقاب وغذاؤه وداء جوعه شفاؤه ودواؤه وهل يركن الى العقاب ويؤمن منه ضرب الرقاب وقد قيل

انفاسه كذب وحشو ضميره * دغل وقربته سقام الروح

وقد قيل

انها لك انها لك لا آلوك معذرة * عن نومة بين ناب الليث والظفر

قال الفنجدي اسلي يا قرينة اخبروا على ان الربيع وقت الربيع تسكنوا أكناف الاشجار من أنواع الازهار ووجه الصحاري والقفار من أنوار الانوار مايدهش البصائر ويروق

الابصار وينعش الاجسام ويشفي الاسقام ويبرد الغليل ويبرئ العليل لاسيما وقت السحر ونسيم الصبا في ضوء القمر يربي القلب والروح ويحيي الصب المجروح وكذلك المعرفات النشر واللواقح والمعطرات بطيب الروائح ودونك قول الحق في كلمه ومن آياته ان يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته وفي الصيف الحرور العسيف ولسموم الصيف المذيب المذيف وفي الشتاء وأيام الخريف الصرصر الخريف يصفر اللون ويغير الكون ويعري الاشجار ويسقط الثمار ويثير الغبار وربما كانت اعصارا فيه نار وتسقم الصحيح وتطير الهشيم في الريح ومنها الاعجاز الموحشات والايام النحسات والقواصف والعواصف والحواصب والمراجف والصرصر والنكباء والزعزع والرخاء وقد قال فيها العزيز العليم فارسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم ثم اعلى يا ربة الجمال وفتنة الرجال ان النار تحرق من يقربها وتذهب ما يصحبها وتنشف الطراوه وتشوه الطلاوه وتلتقم ما تجده وتلتهمه وتزدرده وتسود بدخانها وتؤلم الاجساد بقربانها وتمحو الآثار وتهدم الديار مع انها تنضج الاطعمه وتصلح الاغذيه وتهدي النور وتدفي المقرور وترشد الضلال في القفار ورؤس الجبال قال من يقول للشئ كن فيكون افرأيتم النار التي تورون أأنتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين وكذلك الما يا ذات الثغر الالمى يذهب الظما ويجلب النما ويبرد الصدور ويطفي الحرور وينبت الزروع ويدر الضروع ويحمل المراكب ومافيها من مركوب وراكب قال القادر على كل شئ وجعلنا من الماء كل شئ حي واذا طغت المياه والعياذ بالله اغرقت المراكب وخطفت الراجل والراكب واقتلعت الاشجار واقتطعت الاحجار واتلفت الزروع والثمار وان تراكمت الامطار قطعت سبل الاقطار وهدمت الديار وردمت الآبار وسل عن ذلك ملابس الاسفار ومجالس الرتب من أهل الامصار واذا تكاثف الرش غرقت مصر واذى أهلها العطش ونعوذ بالله من هجوم السيل في ظلام الليل وكذلك التراب يازين الاحباب ينبت الحصرم والعنب والتمر والحطب والشوك والرطب ويشرع سنان الشوك المحدد وغصون السهم المسدد ويربي الورد والازهار والرياحين والانوار والاقوات والثمار والرياض النضره والغياض الخضره ثم اذا ثار وهاج الغبار خرج من تحت الحوافر فاعمى النواظر ففيه الحلو والمر والزوان والبر والناعم والخشن والقبيح والحسن والارض مهاد وفراش وفيها أسباب المعاش وهذه المضرة والمنفعه مركبة في هذه العناصر الاربعه التي هي أصل الكائنات وسنخ ما نشاهده من المخلوقات واذا كان ذلك كذلك وقاك الله شر المهالك وأوضح لك أوضح المسالك فاعلمي بالتحقيق يا صاحبة الثغر العقيق ان هذا الملك الاعظم بل كل أولاد بني آدم مركبون من الرضا والغضب والحلم والصخب والرفع والحط والقبض والبسط والقهر واللطف والطرافة والعنف والخشونة واللين والتحريك والتسكين والبخل والسخاء والشدة والرخاء والوفاء والجفاء والكدورة والصفاء واعلمي يا نعم العون وقرينة الصون ان هذا الكون سروره في شروره مندمج ووروده في صدوره مندرج وصفاؤه مع كدره مزدوج وجفاؤه بوفائه ممتزج فيمكن ان

العقاب

العقاب لكونه مالكا مالك الرقاب مع وجود هيبته القاهره وسطوته الباهره وخلقه الشرس الصعب الشكس اذا رأى ضعفنا وذلنا وانكسارنا وقلتنا وترامينا لديه وتعولنا عليه يضمنا الى جناح عاطفته ويسبل علينا خوافي مرحمته ويعاملنا بالالطاف ويسمح لنا بالاسعاف دون الاعساف ويعمل بموجب ما قيل

لكل كريم عادة يستعدها * وأنت لكل المكرمات امام

والقادر على الكسر والجبر لاسيما اذا كان من ذوى النباهة والقدر لا يعامل ذوى الكسر بالكسر لانا في مقام الابناء وهو في مقام الابوه والتقوى على الضعيف ضعف في القوه وقالوا الصغر لا يصغر وسجدة السهو لا تكرر قالت غرغره ذات التبصره هذا وان كان داخلا في حيز الامكان لكن اخاف ياذا الالطاف انا بمجرد الوقوف بين يديه في الصفوف لا نمهل لاداء الكلام ولا للثبات في المقام بل نعامل بالتمزيق والتخريق وتصير بعد في الطريق وتهوى بنا خواطف الطير في مكان سحيق فيفوتنا هذا المطلب اذ قيل الطبع اغلب وهذا اذا وصلنا اليه وتمثلنا بين يديه واما اذا اعترضنا دونه عارض وجرحنا من جوارح الطير معارض ولا حول يحمينا ولا قوة تحمينا فينتف ريشنا كل باغ ويتجاذب لحمنا كل طاغ فيصير مثلنا مثل النمس والزاغ فسأل اليعقوب تلك الرقوب كيف هذا المثل اخبريني يا ست الحجل قالت كان في بعض البساتين العاطره والرياض الناضره مأوى زاغ ظريف حسن الشكل لطيف في رأس شجرة عاليه أغصانها ساميه وقطوفها دانيه فاتفق لنمس من النموس في وكره ضرر وبوس فانزعج عن وطنه واحتاج الى مفارقة سكنه فقاده الزمان الى هذا المكان فراقه منظره وشاقه نوره وزهره واعجبه ظله وثمره وأطربه بخرير نهره فعزم على السكنى فيه وتوطن الى ان يتوطن في نواحيه اذ رآه أحسن منزل واذا أعشبت فانزل ووقع اختيار ذلك الطاغ على وكر في اصل شجرة الزاغ فسوى له وكرا وحفره في أصل تلك الشجره وألقى عصا التسيار واستقرت به هنالك الدار فلما رأى الزاغ هذه الحال داخله الهم والاوجال وخشي ان يتدرج من ادناها ويتدرج الى أعلاها وينشد الاصحاب في هذا الباب

ولما مضى الشوق * الى نحو أبى طوق
تدرجت واسكنى * من تحت الى فوق

فيصل الى وطنه القديم ويذيقه العذاب الاليم فليس له خلاص من هذا الاقتناص الا مفارقة الوطن والانزعاج بالتحول عن السكن وكيف يفارق ذلك النعيم ويسمح بالبعد عن الوطن القديم وهو كما قيل

بلاد بها نيطت على تمائمي * وأول ارض مس جلدي ترابها

فغلبت محبة وطنه على قلبه ولم يطاوعه على فراقه لشدة حبه ثم اعتراه في ذلك الوسواس وأخذ يضرب اخماسا لاسداس في وجه الخلاص من هذا الباس فرأى المدافعة أولى والممانعة عن جوارحه لخاطره اجلى ثم افتكر في كيفية المدافعه وسلوك طريق الممانعه فلم ير أوفق من المصانعه وتعاطى أسباب المخادعه ليقف بذلك أولا على حقيقة أمره ويعرف

معيار خيره وشره ويصل الى مقدار قوته وضعفه ورصانة عقله وفهمه وسخفه ويسبر حالتي غضبه ورضاه ويدرك غور احواله ومنتهاه ثم يبني على ذلك أساس دفعه وهدم ماينبىء من قلعته اقتلعه فهبط الى القمس من الهواء وحفظ شيأ وغابت عنه أشياء وسلم عليه سلام الحبيب على الحبيب وجلس منه بمكان قريب وخاطبه خطاب ناصح لامريب وابتهج بجواره واستأنس بقرب داره وذكر له انه كان وحيدا وعن الجليس الصالح والانيس الناصح فريدا وقد حصل له الانس بمجاورة القمس وانه صدق من قال في هذا المقال

انفراد المرء خير * من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير * من جلوس المرء وحده

فاستمع القمس حديث الزاغ وماطغى بصر بصيرته عن مكايده وما زاغ ثم افتكر في نفسه ونظر في مرآة حدسه فرأى ان هذا الطير خبث السيرة مشهور وبسوء السريرة مذكور لا اصله زكي ولا فرعه علي ولا غائلته مأمونه ولا صحبته ميمونه ولا خير عنده ولا مير بل يخشى منه الضرر والضير وكأنه فيه قيل

وهو غراب البين في شؤمه * لكن اذا جئنا الى الحق زاغ

ولم يكن بيننا وبينه قط علاقه ولا واسطة محبة ولا صداقه وأما العداوة فقائمة مستحكمه وكل منا للآخر ماكله ومطعمه ولا أشك انه انما قصد طريقة سوء ومكيدة نكد فان اضعت فيه الفرصه اطلت الغصه ووقعت من الندامة في قصة وحصه ولا يفيد في اذ ذاك الندم أني وقد فات المطلوب وزلت القدم

(واحزم الحزم سوء الظن بالناس)

فالذي يقتضيه الحزم والرأي السديد والعزم القبض عليه الى ان يظهر مالديه ثم وثب من مربضه وأنشب في الزاغ مخالب مقبضه وقبضه قبضة اعمى لا كالقابض على الما فلما رأى الزاغ هذا النكد وانه قد صار كالفريسة في مخالب الاسد ناداه يا كريم الطير ويا أيها الجار الحليم عن الضير انا رغبت في مصادقتك وجئتك محباً في موافقتك ومرافقتك وأردت ازالة وحشتك ومؤانستك بابعاد دهشتك وحاشاك ان تخيب ظني فيك وتعامل بالجفاء من يوافيك وأنشده

وحاشاك ان تغشى بوجهك معرضا * ومايحسن الاعراض عن وجهك الحسن

والكرام لايعاملون الجلساء الا بالمؤانسة وحسن الوفاء والابقاء على الخير وأبعد من الضير وانا قد صرت جليسك وجارك وأنيسك وقد قيل

وكنت جليس قعقاع بن شور * ولايشقى لقعقاع جليس

مع انه لم يسبق مني سبب عداوه ولا ماوجب هذه الفظاظة والقساوه وهذه أول نظره فما موجب هذه البدره وماسبب هذه النفره قال القمس أيها الزاغ الكثير الرواغ والخسن باغ والنجس طاغ اسمك ناطق انك منافق وهو خبر صادق اذ هو في الخارج للواقع مطابق ورؤيتك شاهدة انك تنقض المعاهده وعين منظرك دل على مخبرك وقد قيل

والعين تعرف من عيني محدثها * ان كان من حزبها أم من أعاديها

من

من اين بيننا صداقه ومتى كان بين الفرس والزاغ علاقه وكيف تنعقد بيننا صحابه وانى يتصل لنا مودة او قرابه بين لى كيفية هذا السبب ومن اين هذا الاخاء والنسب أما انت فلى طعمه وأما انا فلحمى لسد اغذائك لحمه يسوءنى ما يسرك ويشفعنى ما يضرك

الله يعلم أنا لا نحبكم * ولا نلومكم ان لا تحبونا

أنا واقف على ما فى ضميرك وعالم بسوء فكرك وتدبيرك قد اطلعت منك على الهواجس كما اطلع ذلك الماشى على ما فى خاطر ذلك الفارس قال الزاغ بين لى بلا جدل كيف هو هذا المثل قال الفرس ذكر رواة الاخبار ونقلة الآثار انه ترافق فى بعض السباسب راجل وراكب وكان مع الراجل من البضائع رزمه وقد جعلها كارة وحزمها أوثق حزمه وقد اعياه حملها حتى اعجزه ثقلها فقال للراكب أيها الرفيق الصاحب لو ساعدتنى ساعه بحمل هذه البضاعه لكنت أرحتنى ونفست عنى وشرحتنى

كذى الجد يحمل اثقاله * قوى العظام حمول الكلف

قال الفارس لا أكل فرسى ولا اتعب نفسى ونفسى فان مركوبى لم يقطع البارحة عليقه وأنا خائف ان لا يقطع بى طريقه واذا خفت تخلفى فى سيرى فأنى اتكلف حمل اثقال غيرى فبيناهما فى هذا الكلام اذ لاح أرنب فى بعض الآكام فاطلق العنان وراء الارنب وذهب وراءها كرأى الزنادقة كل مذهب فوجد فرسه قوية النهضه سريعة الركضه فرأى انه أضاع حزمه فى عدم أخذه الرزمه وما ضره لو أخذها وساق وذهب الى بعض الآفاق وأقام بها أوده وانتفع بها وولده وترك الماشى بلا شى ثم رجع بهذه النية الضاره ليحمل عن الماشى الكاره وقال له اعطنى هذا الحمل المتعب لا ريحك من حمله فى هذا المذهب وابلع ريقك واقطع طريقك فقال له قد علمت بتلك النيه وما اضجرت من بليه فاتركنى بحالى فلى حاجة بحالى ثم ان الفرس كسر الزاغ وحصل له بأكله الفراغ وانما أوردت هذا المثال لتعلم يا خل الرجال ان العقاب لا يؤمن ولا يقطع فيه بالظن الحسن ولا يركن الى خطفة بوارقه بخاليب صواعقه وصواعقه ولا الى غوائله وبوائقه وهذا ان سلمت شقة حياتنا من تشقيق غواشيه وتخلص برد وجودنا من تمزيق حواشيه وان بينك وبين هذا المراد خرط القتاد والموانع التى هى دون سعاد فما الوصول الى ملك الطير قريب التناول فى السير ولا سهل المأخذ ولا سريع المنفذ واين الجبل من العقاب ذاك فى نعائم النعيم وهذا فى عقاب العقاب فتدبر عاقبة هذا الامر وتأمل فى الفرق بين التمر والجمر والظاهر عندى وما أدى اليه فكرى وجهدى ان عاقبة هذه الامور ليس الا القطوع والقصور دون الوصول الى الملك فى القصور قال الذكر لقد كررت عليك مرارا واسندت الى سمعك انشاء واخبارا ان علو همة هذا الملك وفضله الخالى عن شرك وكرم نجاره وأمن خادمه وجاره وفيض احسانه وبسط كرمه وامتنانه وانتشار صيت حشمته واشتهار رأفته ورحمته لا يقتضى حرمان من قصده وأم جنابه واعتمده ولجأ الى جناح عاطفته وتشبث بذيل ملاطفته وحاشاه ان يصم مصون همته بابتذال دناءه ويشوه جمال وفائه بان ترقق له بنكتة جفاء تخيب رجاءه خصوصا اذا رأى منى خضوع العبوديه والقيام بمراسيم الخدمات الادبيه

والمقام عراكز مراضيه والوقوف عند كل مايحبه ويرضيه فانى بحمد الله تعالى أعرف مداخل الامور ومخارجها وعندى الاستعداد الكامل لصعود معارجها وأعلم طرق المجاز الى حقائقها وسلوك دروبها وطرائقها فالاولى ان تقتصر عن المحاوره ونكتفى بهذه المساورة فى المشاوره ونتوكل على مقلب القلوب ونتوجه نحو هذا المطلوب بعزم شديد وحزم سديد فان تيسر لى ملاقاة حضرته والتمثل فى مراكز خدمته وحصلت لى مشاهدته واتفقت مخاطبته ومعاهدته انشأت خطبة تدفع الخطوب وتجمع القلوب وتؤلف بين المحب والمحبوب وارجو أن تكون نافعه لمصالح الدين والدنيا جامعه فان كلامى فى مقامى كما قيل فى المثل

فاوجز لكنه لايخل * واطنب لكنه لايمل

وآخر الامر سلمت غرغرة زمام انقيادها اليه وعولت فى عمل المصالح عليه ثم قالت له عش واسلم وتيقن واعلم انك اذا قصدت خدمة الملوك واردت فى طريق مصاحبتهم السلوك فانك محتاج فى ذلك المنهاج الى نور وسراج يهديك الى صفات جميله وتلبس بخصائل نبيله تصلى بجمالها وتنعلى بكمالها وتجلى فى شمائل جلالها الاولى أن تقدم فى جميع مصادرك ومواردك مراد الملك على جميع مقاصدك الثانية أن تتلقى أموره بالتعظيم وتقيم أوامره بالاحترام والتفخيم الثالثة تحسن أقواله وتزين افعاله بوجه لايتطرق اليه تشويه ولايحتاج فيه الى تنبيه الرابعة تجتهد فى صيانة عرضك عن الخنا واياك ان تقول فى حضرته انا فتقع فى العنا الخامسة ان تعتد على الدوام ومرور الايام خدماتك الوافره وحقوقك المتكاثره عن حقوق نعمه قاصره السادسة اذا وقعت منك زله فلا تتعمد بهاجع القله بل اطلب اتلك الهفوه فى الحال محوه واقصد مراحمه وعفوه فان الذنوب اذا تراكمت وتجمعت وتزاحمت اشبهت المزيلة المدمنه وفاحت روائحها المنتنه والانسان غير معصوم والآدمى بالخطا موسوم السابعة احفظ وجهك فى حضرته عن التقطيب وكلامك ان يفوح منه غير الطيب الثامنة ايالك ومصادقة اعدائه ومعاداة أوليائه التاسعة كلما زادك رفعة وتقريبا مل الى التواضع واعظامه تصويبا العاشرة لاتدخر عنه نصيحه وانصحه فى الخلوة لئلا يؤدى الى الفضيحه واذا امك فى امر ولو أنه المشى على الجمر لاتطلب منه اجرا ولا تبدله ذكرا فان الطمع يورث العقوق والمن يسود وجه الحقوق واعلم ان حضرة الملوك عظيمه ومجالسهم جسيمه تنزه عن الكذب والغيبة والنميمة والاقوال الوخيمه والافعال الذميمه واياك ان تتعدى القواعد الكسرويه وتتخطى القوانين السلطانيه فان أعظمها كان ان يعرف كل انسان تقصير نفسه فى خدمة مخدومه ويعترف له من احسانه بعمومه ويقيم واجب همة ملكه ومقام مرسومه قال الجدى اخبرينى ياعدى وحظى وسعدى وابنة السعدى ومزينة القواعد بشئ من تلك القواعد قالت من القواعد الكسرويه الدائرة بين البريه ماوضعها بعض الملوك وجعل وعيته فيها على السلوك وكان مشهورا بالعدل والاحسان مذكورا باقامة البرهان متصفا بالصفات الحميده مكتنفا بالشمائل السعيده من الدين والعفه وعدم الطيش والخفه بعقل راجح الكفه والعلم الوافر والحلم العاطر وذلك انه فى بعض

الايام أمران يجمع الخواص والعوام مابين أمير ووزير وكبير وصغير وغني وفقير وجليل وحقير وعالم وجاهل ومفضول وفاضل ومذكور وخامل وناظر وعامل وحال وعاطل وحاكم وقاض وساخط وراض وجندي وتبع وأخرق وصنع ووضيع وشريف ولطيف وكثيف وثقيل وخفيف وقريب وبعيد ومقبول وطريد وشقي وسعيد وسوقة وتاجر وسفيه وفاجر ودان وقاص وطائع وعاص وصالح وطالح وضاحك وكالح ومصيب ومخطي ومسرع ومبطي وصياد وملاح وسياح وسباح وبلدي وفلاح وصعلك وسالك ومملوك ومالك بحيث لا يتخلف عن الحضور أحد ولا يجزي في التقاعد والدعن ولد ثم مهد لهم في روض أريض ومرج طويل عريض تصفق مياه أنهاره طربا وتتناغى باطيب الالحان فصحاء اطياره الخطبا وتتراقص بزهر الوقت أغصان أشجاره ويلتذ بفوا كه الجنان جاني ثماره فهو كما قيل

يلتذ جانيه بانعم مقطف * منه وساكنه باكرم معطف
والورق بين محلق في جوه * طربا ومنحط عليه مرفرف

وأمر بفرش ذلك المكان بالفرش الحسان من الديباج والحرير وأطلق مجامر الند والعبير وبين لكل مقاما معلوما ومجلسا مقسوما واحل كلا منهم محله وأسبغ عليهم ذيل احسانه وطله ثم أمر بأنواع الاطعمة المفتخره وأصناف الملاذ الطيبة العطره فاحضرت في أواني الفضة والنضار ووضعت بين يدي اولئك الحضار بحيث عمت الجميع ووسعت الشريف والوضيع وجلس الملك في مجلس السلطنه واكتنفه من العساكر الميسرة والميمنه وأخذ كل مكانه ورتب أصحابه واعوانه ثم أقام عليهم أرباب الديوان وأدخل جميعهم في دفاتر الحسبان وأمر مناديا ينادي يرفع بصوته الندا في ذلك الجمع بحيث يملأ من الجميع النظر والسمع يا أهل هذا المكان برمز رسوم السلطان ان كل من هو في مرتبه من مرضاة أو معتبه لا يلاحظ من فوقه ولو انه أميرا وسوقه بل يلاحظ حال من هو دونه فانه كانت منزلته ومغبونه فان ذلك اجمع للقلوب وأدعى للشكر المطلوب وأجلب للرضا بحوادث القضا فان من رأى نفسه في مقام ونظر غيره في أدنى من ذلك المقام استقام وكانت عنده منزلته عليه وعد انفسه على غيره مزيه فتوطنت نفسه على الرضا واستقبلت بالشكر وارد القضا مثال ذلك الرئيس النازل في الصدر اذا رأى من هو دونه في القدر لم يشك في ان محله محل البدر وباقي الرؤساء كالنجوم فلا يأخذه لذلك وجوم وقد قال الحي القيوم في دركلامه المنظوم ومامنا الا له مقام معلوم وكذلك النائب بالنسبة الى الحاجب والدوادار بالنسبة الى البزدار والخزندار بالنسبة الى جابي الدراهم والدينار والمهتار بالنظر الى السائس والبرقدار وكذلك السائس بالنسبة الى الحارس وكاتب السر المرتفع بالنسبة الى المدبر والموقع والزمام بالنظر الى سائر الخدام وأيضا القاضي مع الفقيه والفقيه مع التاجر النبيه والتاجر مع السوقي السفيه والغني والامير بالنسبة الى المأمور والفقير وعلى هذا القياس أوضاع جميع الناس من أرباب الصنائع وجلاب البضائع وأهل المدن والقرى وذوي البيع والشرا والوهد والذرى واولي الوضاعة والشرف ممن

أنواع المكتسبات والحرف الى ان ينزلوا في المراتب ويتدرجوا من اليفاع الى الحضيض في المناصب ويتفاوتوا في المناصب والمناقب ويصل قدرهم وتطورهم في ذلك الى كل ذي فعل سيئ هالك كارباب المظالم وأصحاب الذنوب والجرائم فينظر المضروب حاله بالنسبة الى المضروب والمشتوم حاله بالقياس الى حال المكلوم والصحيح بالنسبة الى حال الجريح ويلاحظ مضروب العصى حال المسلوخ بالمقارع ومضروب المقارع أحوال مقطوع الاكارع وكذلك المقطوع بالنسبة الى مصلوب الجذوع والمصاب بالمال بالنسبة الى مصاب البدن والاعرج بالنسبة الى المقعد الزمن وكذلك العوران بالنظر الى مصاب العميان وليتأمل الناظر ما قاله في ذلك الشاعر

سمعت أعمى مرة قائلا * ياقوم ما أصعب فقد البصر

أجابه أعور من خلفه * عندي من ذلك نصف الخبر

ولتكن هذه القواعد مستقرة العوائد بين الصادر والوارد ليعلم ان مصائب قوم عند قوم فوائد فاستقرت هذه القوانين مستعملة غير منسية ولا مهملة من زمان ذلك السلطان الى هذا الزمان وانظر أيها الفضيل الى معنى ما قيل في هذا القبيل وهو

على كل حال ينبغي الشكر للفتى * فكم من شرور عن سرور تجلت

وكم نقمة عند القياس بغيرها * ترى نعمة فاشكر لدى كل نقمة

وانما أوردت هذه الامثال وأطلت النفس في بيان هذه الاحوال لتأخذ منها حظك وتكررها فيما أودعته حفظك وتجرى بها الليل ونهار الفلك حتى تصلح لمنادمة الملك ولا يعاق بذيل مكانتك من الحساد حر يتك وترضى بأي مقام أقامك فيه وتعلم انه أعلى مقام ترتضيه حيث هو لك يرتضيه وتجعل مورد لسانك ومعقد جنانك في طلبك رضاه ما كنت انشدتك اياه من قديم الزمان وانا عليه الآن وهو

وأعلى مقاماتي واسنى وظائفي * وأحسن اسمائي الذي أنت ترضاه

فقال الذكر ما أحسن عقد هذه الدرر لقد أفصحت اذ نصحت وزينت بما بينت فجزاك الله خيرا وكفاك ضيرا فحقيق على ان اقتدي بآثارك واهتدي بانوارك فما أرجح ميزانك واغزر حسنك واحسانك لقد جمعت بين فصاحة النقل ورجاحة العقل ومزجت روح الحصافة ببدن الظرافة وجلوت صورة النصيحة في خلعة اللطافة ثم انهما توكلا على العزيز الوهاب وقصدا حضرة ملك الطير العقاب فواصلا السير بالسرى واستبدلا السهر بالكرى ولم يزالا في سير مجد وطلب مكد بين الادلاج والدلجة مقارن حتى وصلا الى جبل قارن وكان عند العقاب أحد المقربين من الحجاب يؤيؤ نقي الجوجؤ تقي البؤبؤ أحسن منظرا من اللؤلؤ صورته مسعوده وسيرته محموده وهو بين أولئك الطير مشكور الاحوال مشهور الخير وفيه من المعرفة والدين والعقل الرصين والرأي المتين ما يصلح ان يكون به مقتدى السلاطين وعنده من الوقوف على دقائق الامور ما فاق به الجمهور وساد به على سائر الطيور وكان صيته قد اشتهر حتى ملأ البدو والحضر فترك الصدى بنت السعدى في مكان وقصد اليؤيؤ ليعرض عليه ماله من شان فوصل الى جنابه وأتى بيت مقصده

من بابه حتى دخل عليه وقبل يديه وتمثل لديه فتوجه اليه بؤاليه وأشار بتقريبه منه وأزال دواعي الوحشة عنه وأقبل عليه بكليته وزاد في اكرامه وتحيته وسأله عن محتده وجرثومه وماسبب تجشمه في قدومه ومن أين حل ركابه وماقصده وطلابه فانشده بديها ولم يقل ايها مفصحا معلنا مستعينا مضمنا

لقد قص ريشي الدهر عن كل مطلب * وألهوني سعدي بانك راتش
ففي سمري منك كهجرك مفرط * وفي قصتي طول كمدك فاحش

ثم قال اعلم أيها الرئيس المحتشم النفيس ان مولدي في جبل من جبال اذربيجان في مكان يضاهي الجنان و يباهي روضة رضوان انزه من عنصر الشباب وانكه من معاقرة الاتراب وارفه من منادمة الاحباب على رقيق الشراب نشأت فيه مع قرينته جميلة أمينه فقضيت فيه غض العمر وزجيت فيه بعض الدهر قانعا بما تيسر من الرزق فارغا عما في أيدي الخلق متمسكا بذيل العزله أعد الانفراد نعمة جزله مكررا درس ثلاثة تجم النفس القرينة الصالحة والجار المؤانس والكفاف من القوت ومما كنت أنشدت وفي مبدأ أمري أرشدت

وحسب الفتى قوت وخل وزوجة * ليرتاح في الدنيا ويكتسب الاخرى

وكنت من الدهر على هذا اقتصرت ومن لذيذ العيش على القناعة اختصرت ولكن كان مأوانا ومصيفنا ومشتانا محل الحوادث ومجر العوائث والعوابث ومعبر المصائب الصيد ومورد المواطئ عمرو وزيد فكنا كلما ولدلنا مولود وتجدد لنا بالبهجة والابتهاج عهود حصل للعين قره وللروح مسره نقول هذا يبقى ذكرنا بعدنا ويحيي آثارنا عند حلول الحدنا فلم يكن أسرع من هجوم خاطف أو هبوب ريح نكبة عاصف يخطفه من بيننا ويجذبه من قلبنا وعيننا فان سلم من تلك المكايد وتخلص من سهم المصائب والمصايد حطمته عساكر الملك المنصوره وملأت الاقطار الجنود الموفوره فلا يخلو منها مكان قدم الا وقد غص بمواطئ تلك الامم فتذهب مناقرة العين وتدهك غلطا تحت الرجلين وهذا هو البلاء الطام والمصاب العام ولابد منه في كل عام فكانه أيها النبيه النبيل في شأننا قد قيل

ايا ابن آدم لايغررك عافية * عليك شاملة فالعمر ممدود
ما أنت الا كزرع عند خضرته * بكل شيء من الآفات مقصود
فان سلمت من الآفات اجمعها * فانت عند كمال الامر محصود

فضاق منا الهذا العطن فلم أر اوفق من مفارقة السكن والمهاجرة من الوطن فعرضت على القرينة هذه الحال وأشرت عليها بالارتحال وقلت لها المرء من حيث يوجد لامن حيث يولد فابت وكبت وشاقت في ذلك وثبت فلا زلنا نتحاور ونتشاور ويرى كل منا سهم رأيه أذى ساور حتى لانت اخلاقها الصعبه بعد ان ثلت ما في الجعبه ثم اعطت القوس باريها وسلمت الدار بانيها وادركت من ملاح مقاصدي معانيها وسمحت بالانتقال من تلك البلاد وسلمت الى يد تدبيري زمام الانقياد فرحلنا من شقة بعيده وقاسينا شدة شديده وقصدنا هذا الحرم اذ رأيناه مشتملا على اللطف والكرم وقطعنا شبال المصايد وخلصنا من اشراك كل صائد وفطمنا انفسنا عن حبات الطمع وتجرعنا من كاسات الجزع واقداح الفزع

جزعا بعد جزع فوصلنا بحمد الله الى جنابك الامين وبشرنا مبشر الاقبال أنك لكل خير ضمين
فحمدنا عند صباح الفلاح السرى وانشدنا لسان السعد مبشرا

وجدت من الدنيا كريما تؤمه * لدفع ملم أو لنيل جزيل

وان لم يكن بيننا سابقة خدمه لكن تعارف أرواحنا القديمه مع ان كرم ذاتك الجميله
وماجبلت عليه من صفات نبيله يغني قاصد قاصد قاتك عن واسطة ووسيله والله انى لواثق
بان ظني بوفاء مكارمك صادق فأسأل اسسانك باذا الخير ايصالى الى خدمة ملك الطير وان
كانت رفعة مكانه فى العيوق ودون الوصول اليه بيض الانوق لكن بواسطة الوسيله يحصل
هذا الشرف والفضيله ولازالت الرؤساء والاكابر يأخذون بيد الضعفاء والاصاغر ولرأيك
العلو والشرف والسمو والعطف والحنو فاهتز البوم لهذا الكلام وارتاح وظهر فى وجه
تباشير المسرة والارتياح وأنشد

قدمت بأنواع المسرة والهنا * على خير منزول وأيمن طائر

فأهلا وسهلا ثم اهلا ومرحبا * وبشرى ويسرى بالعلا والبشائر

اعلم ان قدومك قدوم صدق ومن افتقدك سبب الرفق ورؤيتك فتح باب الفتوح ورؤيتك
غذاء القلب وراحة الروح أبشر بكل ما تؤمل وتختار فقد ذهب العثار وجاء الامن واليسار
أصبت مرامك وزينت مقامك وآنست منزلك واوتيت مأملك فطيب خاطرك وبشر اهلك
وعشائرك وأخبر غائبك وحاضرك ولقد قادك الراى السديد والامر الرشيد والفال السعيد
حتى اويت الى ركن شديد وملك كريم خلقه عظيم وفضله جسيم وجوده عميم ونظيره عديم
رؤف برعيته رحيم لايخيب آمله ولا يريب سائله ولا يقطع واصله ولا يمنع حامله لقد انبتت
ساعيك ازهار الامن والامان وتفتحت لورودك فى رياض سعد الزمان نواظر نرجس
النعمة وشقائق فضل النعمان فاعلم ان هذا الملك ذو جناب منيع وقدر رفيع وبيان معانيه
بديع عزيز المنال جامع لصفتى الجمال والجلال قد اختار العزلة فى رؤس الجبال فلذلك طبعه
لايخلو من جساوه وقلبه من قساوه وان غذاءه من اللحوم ومن الحيوانات مشروبه
والمطعوم مخالبه كالاسل ويلجأ الى الله اذا انسر منقاره ونسل وحقيقة امره ان كنت
عنه تسل

مر على اعدائه * وعلى الادنين حلو كالعسل

فاذا التجأ اليه فقير اوآوى اليه ضعيف اوكسير اوقصده محتاج اوسلك الى باب مرضاته
منهاج فلا يمكن الطف منه ولا اشفق ولا اقرب من عطفه على مؤمليه ولا ارفق فهو كما قيل
* بيض قطا يحضنه اجدل * وسبب ذلك ان ضميره المنير خال من المكر طاهر من التزوير
لايعرف ختلا ولا خديعه ولا خيانة ولا وضيعه ولا كذبا ولا قطيعه ولا فى خاطره فساد
ولا عنده سوء اعتقاد ولا يعرف غير الحق ولا يقول الا الصدق وذلك لبعده عن مخالطة الناس
وعزلته عن كل ذى وسواس وخناس فلقد اتفق العالم أن صحبة بنى آدم سم قاتل وهم بائل
فان دأبهم المكر والتلبيس والخداع والتدليس وحسبك قول شاعرهم فى كشف ضمائرهم
وشرح حقيقة سرائرهم

كن من الناس جانبا * كي يظنوك راهبا
قلب الناس كيف شئـ * ـت تجدهم عقاربا

ولقد ارشد من انشد

بنو آدم ان زمت من خيرهم جنى * فاحلى الذى تجنيه من وصلهم صبر
مكارمهم مكر ورؤيتهم ريا * وودهم مؤذو جبرهم كسر

فان كان فيهم صالح افسدوه والى سبل الضلال ارشدوه والكلام فى هذا المقام لا يبلغ التمام فيكتفى بالقليل عن الجليل وشمس النهار لا يحتاج فى وجودها الى دليل فانهض الآن فقد آن التوجه الى خدمة السلطان فما كل زمان يحصل هذا الامكان فان الاجتماع به كل وقت مشكل فتوكل على الله باحسن متوكل فاذا دخلت عليه ومثلت بين يديه فاعرف كيف تقف وانظر ياذا الكمال ماذا يناسب الحال ويقتضيه المقام من فعل وكلام فاسلك طريقته وراع مخارجه وحقيقته وادخل معه من ذلك الباب ومثلك لا يدل على صواب فما اسرع اللطف واقرب العنف من حركات الملوك والكبراء وابعد الرفق واشرد الخرق من ملكات السلاطين والخلفاء واقصى مدانيهم اذا غضبوا واوحش مؤانسهم اذا صخبوا واقرب متباعدهم اذا عطفوا وأعجب مناددهم اذا لطفوا ويكفيك ياذا العقل المتين ما قيل فى شأن الملوك والسلاطين

ان الملوك بلاء اينما حلوا * فلا يكن لك فى اكنافهم ظل
ماذا تؤمل من قوم اذا غضبوا * جاروا عليك وان أرضيتهم ملوا
وان مدحتهم ظنوك تخدعهم * واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما * ان الوقوف على أبوابهم ذل

وقال سيد الانام طرا لا تجاور ملكا أو بحرا فان رضوا رفعوك فوق الافلاك وان غضبوا والعياذ بالله فهو الهلاك وناهيك من تقلبات الملوك ياذا الارشاد فى السلوك أطفأ الله غضبهم عنك قضية صدرت من تيمورلنك فسأل خل الخل الوزير الاجل بيان ذلك المثل الصادر من الاعرج الاشل فقال الدستور مما حكى عن تيمور من وقائع الامور وشدة عزمه وحزمه وثباته على ما يقصده وجزمه وحاول نقمته عن يعارضه ويعاكسه فيما يرسم به ويناقضه انه لما توجه بالجنود الى بلاد الهنود وذلك فى سنة ثمانمائة وصل بجيوشه الطاغيه الى قلعة شاهقه اقراط الدرارى باآذان مراميها عالقه والرجوم المارقه من النجوم الخارقه تتعلم الاصابة من رشاقة سهامها الراشقه كان بهرام فى مهواها احد سواطيرها وكيوان فى مسراها خادم نواطيرها والشمس فى استوائها غرة جبينها وقطرات السحاب فى الانسكاب تترشح من قعر معينها وشقة الشفق الحمراء على آذان مراميها وأنوف ابدانها سرادق وكريات النجوم فى القبة الخضراء لعيون مكاحلها وافواه مدافعها طابات وبنادق وكان الثريا فى اتصالها قنديل معلق على بابها لا يحوم طائر الوهم عليها فانى يصل طائش السهم اليها ولا يتعلق بخدم خدمتها الخلخال خيال وافتكار فضلا عن ان يحلق على معصم عصمتها من عساكر الاساور تسوار وفيها من الهنود طائفه ثابتة الجنان غير خائفه جهزت

أهلها وماتخاف عليه الى الاماكن المجزه وثبتت هي في القلعة حافظة لها متحرزه مع انها شرذمة قليله وطائفة ذليله لا خير عندهم ولا مير ولا فائدة سوى الضرر والضير ولا للقتال عليها سبيل ولا حواليها مبيت ولا مقيل بل هي مطلة على المقاتله مستمكنة على المقاتله فابى تيمور ان يجاوزها دون ان يحاورها بالحصار ويناجزها واللبيب العاقل لا يترك وراءه لخصمه معاقل فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد ويصب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد وكان كل يوم يقتل من عسكره ما لا يحصى والقلعة تزداد بذلك اباء واستعصا وهو يأبى الرحيل عنها الا أن يصل الى غرضه منها ففي بعض أيام المحاصرة مطروا وبواسطة المطر انحصروا وصار يحثهم على القتال ثم ركب لينظر ماذا يصنعون في تلك الحال فلم يرتض افعالهم لما عكست أوحالهم أحوالهم فدعا رؤس الامراء وزعماء العساكر والكبراء وأخذ يمزق أديم عرضهم بشفار شتمه ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمه ونفخ الشيطان في خيشومه والهب فيه نار غضبه وشومه وقال يا لئام وأكلة الحرام تتقلبون في نعمائي وتتوانون عن اعدائي جعل الله نعمتي عليكم وبالا والبسكم بكفرانها خيبة ونكالا يا نابذي الذمم وكافري النعم وساقطي الهمم ومستوجبي النقم ألم تطؤا اعناق الملوك باقدام اقدامي ألم تطيروا الى الآفاق باجنحة احساني واكرامي ألم تفتحوا مغلقات الفتوح بحسام صولتي أما سرحتم في منتزهات الاقاليم سوائم تحكمكم بترعية دولتي بي ملكتم مشارق الارض ومغاربها واذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها

ألم أك نارا يصطليها عدوكم * وحرزا لما الجأتم من ورائيا
وباسط خيري فيكم بيمينيا * وقابض شر عنكم بشماليا

ولا زال يهمهم ويغمغم ويهدم ويبرطم وهم مطرقون لا يحيرون جوابا ولا يملكون منه خطابا ثم ازداد حنقا وكاد ان يموت خنقا فاخترط السيف بيده اليسرى وهمزبه على قمم أولئك الاسرى وهم ان يجعل رقابهم قرابه ويسقي من دمائهم نمل فرنده وذبابه وهم على تلك الحال في الخزي والاذلال باذلوا أنفسهم ناكسوا رؤسهم ثم تراجع وتماسك ومكث نفسه قليلا أو تمالك فأغمد عن تشريقهم حسامه ولم يلق لامر مدبرة ولا قبيلة امامه نخاف غربه وشامه ثم نزل عن مركبه واستدعى الشطرنج الكبير ليلعب به وكان عنده ممن فاق جنده شخص يدعى محمد قاوجين ذو مكان مكين ومقام امين مقدم على كل الوزراء مبجل دون سائر الامراء وافر الطول مقبول القول مسعود الرأي ميمون الفصل مرغوب الفضل محبوب الشكل فتشفع الوزراء اليه وترامو في حل هذه الاشكال عليه وقالوا ساعدنا ولو بلفظه وراقبنا ولو بلحظه وأعمل معنا بهذا المعنى وهو

ساعد بجاهك من يغشاك مفتقرا * فالجود بالجاه فوق الجود بالمال

فاجابهم والتزم ان يرده عما تازم به وازم وراقب مجال المقال وراعى فرص المجال وشرعت افكار تيمور تغور في امر القلعة وتفور وجعل يستضوى اضواءهم ويستورى آراءهم ولا يسع كلا منهم الا القبول لما يستصوبه رأيه ويقول ففي بعض الاحايين اتفق ان قال محمد قاوجين وقد نزل به القضاء وأحاطت به نوازل البلاء أطال الله بقاء مولانا الامير وفتح

بمفاتيح آرائه ورأياته حصن كل أمر عسير هب انا افتضضنا هذه القلعة بعد ان أصيب منا جانب
من أهل النجدة والمنعة هل بقي هذا بذا ام هل يوازن هذا النفع بهذا الاذى فما احتفل
بخطابه ولا اشتغل بجوابه بل استدعى شخصا من البرقداريه قبيح المنظر الا انه في هيئة ذريه
يدعى هرامالك ذا عرف سهك ووجه في السواد سدك أوسخ من في المطبخ واسخم من في المسلخ
لعاب الكلاب طهور عند عرقه وعصارة القير حليب بالنسبة الى مرقه فعند ما حضر لديه
ووقع نظره عليه أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت وبخلقان هرامالك فخلعت ثم ألبس
كلا ثياب صاحبه وشد وسطه بعصابته ودعا داوين محمد ومباشريه وضابطي ناطقه
وصامته وكاتبيه ثم نظر ماله من ناطق وصامت ونام وجامد وملك وعقار وأهل وديار وحشم
وخدم من عرب وعجم وأوقاف وأقطاع وبساتين وضياع وخول واتباع وخيل وجمال
واحمال وأثقال حتى زوجاته وسراريه وعبيده وجواريه قائم بذلك كله على ذلك الوسخ
وامسى نهار وجود محمد قاوجين الزنخ وهو من ليل تلك النعمة منسلخ ثم قال تيمور وهو
كالثور يعور اقسم بالله وآياته وذاته وصفاته ووحيه وكلماته وأرضه وسمواته وكل نبي
ومعجزاته وولي وكراماته وبرأس نفسه وحياته لئن آكل محمد قاوجين أحدا أو شاربه أو حاشاه
أو صاحبه أو كلمه أو صافاه أو أوى اليه أو آواه أو راجعني في أمره أو شفع عندي فيه أو فاه
بعذره لاجعلنه مثله ولاصيرنه مثله ثم طرده واخرجه وقد سلبه نعمته وأحوجه فسار مسلوب
النعم قد حلت به في لحظة نوائب النقم فصيروه بالواق ورأى نعمته على اقل الخلق واتصل
غيره بالحلق وقطع منه الحلق فقلقت حبة قلبه اشد قلق ولم يزل في ذلك في عيش مر وحر حالك
وحاشا ان تشبه قضيته قصة كعب بن مالك فكان يستحلي مرارة الموت ويستبطي اشارة
الفوت وكل لحظة من هذا الحيف أشد عليه من ألف ضربة بالسيف فلما هلك تيمور احياه
ورد عليه خليل سلطان ما كان سلبه جده اياه وانما أوردت هذه السيره يا زكي السريره
لتقيس على هذا المثل نظيره وتعرف اخلاق الملوك ومعاملاتهم الغني والصعلوك وان نظرهم
نضار واعراضهم بوار ودمار ومن أراد ان يطلع على سر القضاء والقدر فليراقب شقي الملك
اذا نهى وأمر وقال من أحسن المقال

قرب الملوك يا أخا القدر السني ✽ حظ جزيل بين شدقي ضيغم

واعلم يا أبا الفضائل ان هذا الملك له شمائل وصفات وفضائل يستدل بظاهرها على باطنها
ويتوصل بظهور باديها على حركات كامنها فاياك ان تغفل عن مراقبتها وتهمل حال عاقبتها
بل اجعل شواهدها نصب عينك لتقرب من حياتك وتبعد عن حينك منها اذا رأيته رجع
من الاصطياد ظافرا منه بالمراد وقد اقتنصه وحصله وملأ منه الحوصله وسكنت منه
بواعث الشره التي هي منفخ لواعج الطيش والسفه ومنها اذا رأيته جلس في مجلس السرور
وبسط لجهة الكرم جناح النشاط والحبور وضم عن مطامح الحرص القوادم والخوافي
وطاب من رؤساء المملكة الانيس المصافي ومن ندماء الحضرة الجليس الصافي ومن مطربي
الاطيار البلبل والهزار ومن رقص بدفوف الازهار وصفق من ذي عود وطار فاستمع لهذا
وباسط ذلك وطفق جلساؤه ما بين منصت وحاك فان هذه الاوقات لما فيها من علامات

هي ساعات الانبساط وأيام الفرح والنشاط فاعمل فيها ما بدا لك وأطنب مقالك وكرر جوابك وسؤالك فانك في كعبة الامن فاستلها وقد هبت رياحك فاغتنمها والعب بابطيك وصفق بجناحيك واهدر في تقنقتك واصبع في بقبقتك فان الوقت لك لاعليك والسعد الطالع ناظر اليك ومنها اذا رأيته ميالا صاصنا أو الى الارض باهتا أو محمرة عيونه أو مضطربا سكونه أو افعاله على غير استواء أو اقواله دائر مع الهواء فاياك والدخول عليه والمثول بين يديه فانه اذذاك يجعل ديار جسدك بلاقع ولو انك النسر الطائر فتصير في مخاليبه اقعص واقع وعلى كل حال فليكن عندك لكل مقام من هذه المقامات مقال وان كان السكوت اصلح فاغلق باب الكلام قطعا ولا تفتح فكثيرا ما تخلص الساكت من البلاء وافلح وناهيك النصيح بقوله الفصيح وهو

وراقب مقام القول في كل مجلس * خصوصا مقامات الملوك الاكابر

فكم من بليغ فوق ذروة منبر * ومشه افاعى النطق تحت المقابر

قال المقلع النجدى للمرشد المجدى جزى الله مولانا عن صدقاته اوفر صلاته وواصله بعوائد كرامه في عشيته وغدواته فما اشمل احسانه وحسناته واسعد حركاته وسكناته وأوفر شفقته على قاصدى عتباته طالب أنت دليله كيف لا يفتح الى الخير سبيله ويرجع الى حصول المقام مبيته ومقيله ثم ان اليويؤ الشفوق تركهم وطار الى العيوق ثم رجع على الفور ووجهه يرف كالنور فدعا اليعقوب وتوجه وهو معه مصحوب وأخذا في السير الى خدمة ملك الطير وفرعا في جبل يسامى في المثل قبة الفلك أو مركز الملك يستمد السحاب من ماء واديه وتسبح سمالك السماء في بحر ناديه يعرق جبين الوهم من صعود عقبانه ويقصر صاعد الفكر في سلم الهواء عن الترقي الى أدنى درجاته ويستريح راقى الخيال في عدة مواضع عند قصده فروع هضباته فهو كما قيل

وطود تلوح الشمس من تحت ذيله * اذا هي في كبد السماء استقرت

فلا زالا يسيران وفي الجو يطيران اليويؤ امام قائد الزمام والحجل وراءه ينشد هذا الكلام

لكل امام اسوة يقتدى به * وأنت لاهل المكرمات امام

فوصلا من تلك المدارج الى أعلى المعارج وانتقلا في تلك المسالك عن دركات المهالك وانتهيا الى أوج رأيا مملكة النيرات جارية في حضيضه ودرر الدرارى راكدة في قعر مغيضه يشتمل على مروج ورياض ومراع وغياض وبحار وحياض تنادى خيراتها سكان الربع المسكون في انصبابها عليهم وفي السماء رزقكم وما توعدون رياض تلونت ومروج بازاهيرها تحسنت وأرض قال لها صانع القدرة اذ تمكنت تكوني كاخلاق الكرام فتكونت وأخذت زخرفها من رضوان خازن الجنان وازينت فو بلاد ارسلطنة العقاب بعد مقامات عقاب العقاب كما قيل

مكانا فيه سلطان الطيور * تصدر بالسرور على السرير

اطاف به صنوف الطير طرا * عكوفا بالحضور وبالحبور

لكل في مباشرة مقام * يقوم به جليل أو حقير

قد

قد اكتنفه الميمنة والميسرة واحدقت به المقدمة والمؤخرة كل واقف في مقامه شاهينه مع كركيه وبازه مع حمامه فالانيس صاحب الظرف والكيس حامل القبز كالاوزان يترنم في مقابلة الايوان ويمدح ملك الاطيار والامراء والحضار والكبراء والنظار وينشدهم جليل الاوصاف ورقيق الاشعار فما انشده الاوزان من مناقب السلطان ووجه به الخطاب الى العقاب قوله

مقامك أعلى ان يقوم بوصفه * بيان بليغ أو لسان فصيح
اجلك عنقا مغرب فاختفت فما * تلوح لطرف في البلاد طموح

والنسر الطائر المقدم على العساكر قد أظله بالجناح وليس عليه في طلبة سيادة الطير جناح رافع اللواء صاف في جو السماء رئيس الدير حامل القبة والطير كما قيل

ونسر تفرّ الطير من قرب ظله * وفي ظله للسعد مأوى ومنزل

والسنقر في ثوبه القهري وخلقه وخلقه الخزي امير سلاح الجوارح ورأس عساكر السوانح والبوارح كما قيل

هو السنقر العالي بهمته التي * تعلت على أيدي الملوك براية

والشاهين الدوادار عليه لمصالح المملكة المدار قد تصدى لقضاء الحوائج لكل داخل وخارج ينظر في الولاية والعزل ويتعاطى الامور بالجد لا بالهزل فيقضي المآرب ويوصل المطالب الى الطالب كما قيل

طويل العنق رحب الصدر ضخم * له في آل قسطنطين ضبط
تغشى من سواد العين ثوبا * عليه من دم الاحشاء نقط

والبكركي الراطن بالتركي يتحلى في ثوبه المسكي كاتب الاسرار وصاحب الاخبار لسان المملكة ومصور الفلكة مستخدم السيف والقلم وفي الفضائل والفواضل نار على علم كما قيل

وكركي يصيد الصقر عنه * لهيبة بطشه وشديد باسه

والتم المشهور ناظر الجيش المنصور صدر الديوان وقاضي الجند والاعوان كما قيل

وتم تم دست الطير منه * كقاضي زان ارباب الكتاب
عليه من المهابة ثوب مجد * كوجه الطاعنين لذي الحساب

والطاوس كأنه عروس في أنفر ملبوس مقدم على الخواص كالناظر الخاص ناشر مروحة الارتياح يتحلى بجمال هيئته الفائق على الوجوه الملاح كما قيل

ثوبه قد حار فيه * كل صباغ عليم
ولسان الحسن نادى * صبغة الله الحكيم
فيروق العين منه * فوق اوصاف الكليم

والبازي الامير الكبير صاحب الرأي والتدبير أمير الميمنة قد رتب صفه وزينه كما قيل

وباز أشهب عيناه جمر * يضيء وفي جناحيه النجاح

والصقر الشهم السابق في الطيران الوهم أمير الميسرة قد فاق بشهامته عسكره كما قيل

وصقران يلح في القفرظبي * اتيح له من الجو انصبابا

اقام بمخلب عن شهم سهم * ونسر عن قوى الناب نابا
والباشق الجاووش ورأس نوبة العساكر والجيوش كما قيل
انظر الى الباشق فى صيده * ينقض كالسهم من الراشق
يقفو جناحا مثل معشوقة * اتبعها الحب حشا العاشق
والببغاء تجلى فى الحلة الخضراء وتنثر من الخاتم الياقوت درر الثناء وتخبر بعجائب الهند وتسرد غرائب رغائب السند كما قيل
تسمت درة لكن كساها * حكيم الصنع ثوبا من زبرجد
ومن لهابمنقار عقيق * وخاط شعارها من عين عسجد
والهدهد لابس التاج ينهى الى موقع الدراج اخبار الماره والاحوال الساره كما قيل
وهدهد ألبس ثوب البها * فهو اذ خص بصدق النبا
اغرب اذ شرف فى حسنه * ففاق أهل التاج حتى سبا
والحمام مقدم البريديه يتردد فى مواقف العبوديه والعصافير كالماليك الاجلاب فى الكتاب يدرسون العلم والآداب والبلبل والهزار ومطوقات الاطيار وساجعات الاسحار مسبحات الواحد القهار يتناشدون الاشعار ويرددون نغمات الاوتار ومطربات رنات الاوطار وضروب ضروب الموسيقاه من جنك المنقار والشحرور والزرزور وذوات الهديل من الطيور حتى جناح الزنبور تغرد فتخجل العود والطنبور وزواجر الطير تبشر بالفرح والخير وأنواع الجوارح فى الحاقات والطير فى الموصافات كل يفدى الملك ويقدم جسده وروحه ويسبح من آتاه الملك كل قد علم صلاته وتسبيحه فتقدم اللؤلؤ الى الحضره والملك فى أبهى نضره وقبل مواطئ سلطانه ووقف من مقام خدمته فى مكانه وقال شخص عارف بطرائق السلوك * يليق لخدمته الملوك واقف بالباب يروم تقبيل الاعتاب يطلب لذلك الدستور والانعام باذن الحضور ليشمله النظر الشريف ويحظى بحظ وريق وريف هل يرجع كالمصروف عن خدمته أو يدخل كالدولة والاقبال فعطف بالقبول وأذن له بالدخول وسمح بالمثول فتوجه اللؤلؤ على عجل الى الحجل فدخل وهو من الحياء متأثر وفى ذيل الدهشة والهيبة متعثر وعليه غلالة سابوريه وخلعة نيسابوريه مشتملا بشملة كافوريه كانه شيخ الصوفيه فلما وقع نظره على العقاب قوى جأشه ورفع الحجاب وحل عقدة لسانه من لكنة الخطاب ثم قبل الارض ووقف وانشد بديها وما وقف
ولوات فغفور او كسرى وتبعا * رأوك لخروا بين ايديك سجدا
ومالك وفواحقا عليهم واغنا * على قدرما فى الوسع مد الفتى يدا
فابتدر اللؤلؤ بلفظ يخجل اللؤلؤ وقال للحجل يريد ازالة الدهشة والخجل وطيب المقام ببسط الكلام ايها الغريب الاريب والاديب النجيب رأيناك روحا لطيفا وعقلا مشخصا صحبتك مرغوبه ومنادمتك مطلوبه لقد حللت محل الامن والامانى وعقدة السعد والتهانى فدع دهشتك وذر وحشتك وأفصح بكلامك عن كمالك وعن مقامك ومقالك نعبارا تك عقيلة العقل وواسطة عقود النقل فان كان عندك نصيحة تصلح للملوك * اووصية

ترشد اهل الملوك بين العدل بنورها طرائقه ويزين العقل بجوازها حقائقه وتستقيم بها الامور ويستفيد منها الجمهور أو نوع رفع مظلمه أو حط ماثمه أو كشف بلوى أو بث شكوى أو حاجة في نفسك وما قاسيته في يومك وأمسك أو لطيفة تشرح بها الصدور وتبسط بايرادها الحضور فهذا وقت تشنيف المسامع بجواهرها وتردد رحاها على بادى الحاضرين وحاضرها فان المحل قابل وعنق الاصغاء الى اطواق لطائفك مائل وجمال الحلم لذاتك واسع ومجال الكرم دارسع وفاعل الصنيعة صانع وكف اللطف معط لامانع فقال الجمل بعد ان زال الخجل وحال الوجل وجال الزجل من غير ريث ولاعجل الحمد لله الذى آسى جراحنا واحيا بعد التلف أرواحنا قد كنا في بيداء الحيرة والهلاك وظلماء الضر والخوف في انهمالك * ومرت علينا سنون ونحن في الخسار والغبون ونار الاشتياق تضطرم وبواعث تقبيل الاعتاب الشريفة السلطانية في الفؤاد تزدحم اذ قد انتشر جناح عدلها ونجاح ظلها وسماح وابلها وطلها وكرر كل لسان محامد فضلها واشتهر لكل حيوان ما تم نبلها فهي امان كل مخوف وملجأ كل ملهوف لكن كانت العوادى تقرع تلك الدواعى وغواشى الحوادث تعترض دون المساعى تارة باكتناف المخاوف وطورا باحتفاف الخواطف وحينا بضعف المبانى وآونة بعدم المعاون والمعانى والا ن يا ملك الزمان بحمد الله المنان ازحنا المهالك والمهاوى واسترحنا من ضرب المسالك والمساوى اذ قد طرنا بجناح النجاح من جنح الجناح وصرنا الى محل السماح والرباح فزالت العلل وانسد الخلل وحللنا في عقوة منيفة وسدة شريفة فامنا شر المكايد وشر المصايد وتوسدنا مهاد الدعه واستظللنا جناح الامن والسعه وانه قد قيل عدل السلطان خير من خصب الزمان وقيل الملك العادل والامام الفاضل كالأب الشفيق والوالد الرفيق يعامل بالسويه ويحفظ الرعيه ويحرسها من برد الماء وحر النار كما يحرس الوالد الولد من هبوب الهواء وشم الغبار وقلت

نزلنا في ذرا ملك كريم * برانا مثل اولاد الكرام
اضل نوائب الايام عنا * فلم ترنا ولا في الاحتلام
ولا مطر السماء يصيب منا * كأن مقامنا فوق الغمام

فقال الملك اهلا وسهلا وناقة ورحلا طب قلبا وقر نفسا واهنأ معنى وحسا اذ قد حللت بساحة الاستراحه وباحة الامن مباحه وقاحة ليس لصائدها وقاحه ولا لجارحة جارح بها جراحه وقد خلصت من جواسر الكواسر ومناسر النواسر ونزلت بوادى الخير ونادى ملك الطير فاكرمت صدر منزلك ونلت غاية املك فاذهب بسلام وأت بمالك من خادم وغلام واهل وثقل وفرس وجمل واثاث وقماش ومعاش ورياش وتخير مكانا تختار وجارا حسن الجوار فقال ايها الملك السعيد انا شخص فريد غريب فقير لا ابريق لى ولا حصير وقلت

انا لولا الحيا وخوف العار * لم أكن في الانام الاعار
من رآنى فقد رأى وبقى * ودثارى ومركبى وشعارى

غيران لى قرينة مثلى فقيرة مسكينه صابرة على السراء والضراء قضينا معها ماضى الصباح والمساء لم يترك عقيل الحوادث لنادارا ولا يد العوايث عقالا ولاعقارا ولا مخالب العوائث بارا ولا جوارا ولا ناب الكوارث ولدا ولا قرارا والويل كل الويل لمن كان مستقره فى طوارق الليل ومن حوادث الدهر على سبيل السيل وقد طال الكلام فى كيت وكيت وقضايا ذيت وذيت الى ان لم يبق فى البيت سوى البيت ولما بلغ سيل العرم الزبى وحزام الهم الطبى وما حال من يرى أفلاذ كبده تتقطع ويشاهد كل وقت قرة عينه بمخالب الجوارح تتبضع ولا يد للمدافعة تمتد ولا نهضة للممانعة تشتد فينشد

كفى حزنا انى ارى من احبه * رهين الردى يرنو الى بطرفه

أودعالى لو يفدى ومهجتى * ولكن يد التقدير غالت بحتفه

ولما تكرر ضر ايوب وتضاعف حزن يعقوب تركنا تلك الديار بالاضطرار وعلى اوابك الشر بقة وقع الاختيار فرصدنا التحويل ايمن الساعات واخترنا للرحيل احسن الاوقات ثم صممنا العزيمه ونادانا هاتف السعد أسرع اندى بجذعه فقطعنا المهامه والقفار وسرينا الليل والنهار فكم رغنا عن ابى الحصين واقينا ما لاقى الحسين بكربلاء من الكرب والبلاء وكم لجأنا من بنى زغار الى كهف واجم وغار واحترزنا من قنافذ وافعوان ذى سم نافذ ونفرنا من حيات اشراك وحدنا عن اوهاق شباك واخترنا الجوع وعدم الهجوع على الحب المبذور لاصطياد الطيور كل ذلك فى المسالك والسعد قائدنا والفلاح رائدنا والامن دليلنا وظلال امنك ظليلنا وفى تهانى سعدك مبيتنا وكنف فضلك مقيلنا حتى حللنا بدار الامان ونزلنا بحرم مولانا السلطان فنادانا فضل خالق الورى لا تخافا اننى معكما اسمع وأرى * القيا عصا التسيار وانزلا عند خير جار فتركت القرينه فى منزلة حصينه وكل بلاد لك امينه وأممت مقامك الشريف وجنابك المنيف مقاما عظيما وجنابا كريما ومجلسا عاليا وبابا ساميا فتوخيت ثم نوديت

هذا هو الملك الذى من بابه * يعطى المخوف امانه لزمانه

عم الورى احسانه فكأنما * ارزاقهم كتبت على احسانه

ثم نهض اليعقوب من مكانه وقبل الارض بين يدى سلطانه وتوجه فائزا بامنيته حتى وصل الى خليلته فاخبرها بما جرى بتخيير المشترى وكيف رأى الدر بؤ والملك وصورة ما فعل به وسلك وكيف تلقى مقدمه واكرمه الملك بما اكرمه وقرر كيف كان خطابه وعلى أى صورة حسناء رد جوابه فسر صدرها وانشرح وطارت بهذا الامر من الفرح ثم توجها الى حضرة السلطان * وحصل لهما من الانعام والاحسان ما انساهما الاوطان وسلكا بنفس مطمئنه فى خدمة الملك مع الجماعة واهل السنه وخوطب اليعقوب من الملك اسكن انت وزوجك الجنه فلما استقرت بهما الدار وتبدل انكسارهما بالانجبار افيض عليهما من الصدقات والادرارات والنفقات ما لم يخطر ببالهما ولا دار على خيالهما وحصل لهما الامن والامان والسلامة والاطمئنان وانشرحت خواطرهما وابتهجت بالسكون سرائرهما واستقر اليعقوب ملازم الخدمه وتوفرت عند الملك واتباعه له الحرمه وسمعت

كلمه وتزايدت حشمته ولم يزل صحيح الطلعه * نجيح السعي والنجعه وضيء المنظر مقضي
الوطر يرتع على بساط النشاط ويطير في رياض الامن والانبساط مؤديا شرائط الخدمة على
الوجه الاحسن قائما بواجب العبودية مهما امكن الى ان تميز على سائر الخدم وتقدم على
السابقين في القدمة وثبات القدم ناشرا ألوية النصيحه ناثرا الاثنية الصريحه منادما
باللطائف الصحيحه والنوادر المليحه بالعبارات الفصيحه والاشارات الرجيحه حافظا
زمام الاحتشام مراعيا مقامات الكلام على مر الايام وكر الشهور والاعوام ثم ختم
الكلام في هذا المقام باعظم ختام وهو حمد الله الملك العلام وشكره المستدعي لمزيد
الانعام والصلاة على سيد الانام وآله واصحابه السادة الكرام عليه وعليهم أفضل التحية
والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب العاشر)

في معاملة الخادم والاحباب والاعداء والاصحاب وبه تمت أبواب الكتاب قال الشيخ
أبو المحاسن الراوي من الادب الاحاسن فلما أبان الحكيم عن هذا الفضل الجسيم وكشف
نقاب البيان عن مخدرات هذا التبيان فتلا لامن وواضحت الفاظه ووجوه معانيه الحسان
عظم في اعين الاعاظم وكبر لدى الاعراب والاعاجم ورفعه اخوه وعظمه ذووه فاضاء
مناره وعلا مقداره وملأ الآفاق انواره ووقع من الملك على الاعتماد عليه اختياره
ثم استزاده من فيض هذا اليعبوب واستسقاه من حوض هذا الشؤبوب واستطعمه من
اخبار العقاب واليعقوب ان كان ثم بقيه تجلو القلوب الصديه فامتثل الاشاره وحسن
العباره وقال ثم ان ابا الحجاج دعا القبيح ابا الدجاج واختلى به دون اصحابه وقال له اعلم
يا جليس الخير وأنيس الطير ورئيس الدير أني تحملت من اليؤيؤ المنة العظيمه والجميلة
الجسيمه حيث ارشدك الى بابي ونظمك في سلك اصحابي ولا جرم انه قام بما يجب عليه وعرف
مقدار احساني وميلي اليه وانه لأوثق اعواني وأصدق خلاني وصاحب قديم ومخلص
عديم النظير نديم وصديق كاف وناصح مصاف واني لأتيمن بطلعته وأتبرك بمشاهدته
واستجح بآرائه واستصبح في المهمات المظلمة بلامع ضيائه واقد حصل منك على عضد
معاضد وساعد مساعد وكهف وذخر وسند وظهر فاياك ان تترك ذيل مودته او ترغب
عن صحبته ومحبته وان تقتصر بذا الوقوف في صداقته على الوقوف فافضل المحبه
واكمل الموده ماتزايد على مر الدهور وترادف على كر العصور وثبت اصله وغزرت فروعه
وفاض من سويداء القلب على مجاري الجوارح ينبوعه بحيث يقع الاتحاد ويمتزج بالصفاء
الوداد فقد قيل لا تصح المحبة بين اثنين حتى يصيرا كالعينين حيثما نظرت احداهما شزرا
مالت معها تابعة الاخرى بل يصيرا كالنفس الواحده لا كل واحد على حده ولا كما تقول
الملاحده بل يكمل لكل واحد بالاخر الهناء ويحصل له بوجوده السناء واذا شاطبه قال
باانا ولا انعمل يا كل كما قيل

ملأت حشاشتي شوقا وحبا * فان ترم الزيادة هات قلبا

فان الفتاح عنده الفتوح وباب الفضل والزيادة مفتوح وكرم الله لايضاهى وفضله كعطاه لايتناهى وانظر يا فضيل وذا العلم العريض الطويل الى ماقيل وهو

أيها السائل عن قصتنا * انا من اهوى ومن اهوى انا
نحن روحان حللنا بدنا * من رآنا لم يفــــرق بيننا
نحن مذ كنا على عهد الهوى * تضرب الامثال للناس بنا
فاذا ابصرته ابصرتنى * واذا ابصرتنى ابصرتنا

والطف من هذا وأرصن ماقاله القائل وأحسن وهو

انا والمحبوب كنا فى القدم * نقطة واحدة من غير مين
فبرانا الله اذ أظهرنا * مهجة واحدة فى بدنين
فاذا ماالجسم أمسى فانيا * تلتقينا واحدا من غير بين

ولقد كرك عندى بانواع الفضل وبوفور التجارب والعقل وهذا يدل على نصحه وقوة دينه وصدقه فى المحبة وحسن يقينه ولم يذكر غير الواقع ولا جازف فيما أنهاه الى المسامع بل قال قليلا من كثير وقطرة من غدير ولم يخبر بذلك غير خبير فانى اعرفك كما عرف ووقفت على أوصافك كما وقف ثم انت عندى فوق ما وصف فاريد منك نصائح بالخير لوائح تتضمن فوائد وعوائد وفرائد تكون لنهم الحكمة موائد ولشمم الحكام قوائد ولنحور ألباب المعقول وأرباب المنقول قلائد واضبط اساس الملك والدين قواعد وعقائد فتلقى مثاله بالامتثال وقبل الارض فى مقام العبودية وقام وقال اضبط العلوم الشريفة والآراء العالية المنيفة أن صانع العالم تعالى وتعاظم بين أمور المبدا والمعاد وما بينهما من معاش مستفاد على دليلين عظيمين جليلين أحدهما العقل الذى هو مناط التكليف وثانيهما قواعد الشرع الشريف فان اردت ان تكون سعيد الدارين فاستمسك باذيال هذين الدليلين أما العقل فهو الدليل القاطع على وجود الصانع وهو مستقل بالقطع غير محتاج الى السمع وكما هو مستقل بالدلالة على وجود ذاته كذلك هو مستقل بالدلالة على تحقيق صفاته ثم ورد بذلك الشرع فتأكدت فى وجود الصانع دلالة العقل بالسمع وأما وحدانية الصانع فكل من العقل والنقل دليل عليها قاطع وقد تطافرا بالاستباق اليه وتظاهرا فى الدلالة عليه بقول الكافر يوم المصير لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى اصحاب السعير وبالعقل والسمع يستقيم أمر المبدأ والمعاش وبالسمع فقط ميت المعاد عاش لان امور المعاد من الشرع تستفاد والعقل فى ذلك تابع سامع لاوامر الشرع طائع والمسموع فى ذلك دليل قاطع وعلى كل تقدير أيها الملك الكبير فاجعل العقل وزيرا تجده لك فى ظلمات المشكلات سراجا منيرا واتخذ النقل هاديا ونصيرا يكن بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وعامل الرعية بالعدل يعاملك الله بالفضل واعلم ان الدنيا فى معرض الزوال وانه لابد عنها من الانتقال وان الله سبحانه وتعالى وجل سلطانه جلالا اقتضت حكمته وجرت بين عباده سنته أن يكون الانسان على خلاف ما فطره الرحمن فانه خلقه للعباده وركب فيه عناده واقامه للعمل وجبله على الكسل فامره بالصلاة وهو كسلان وبالصوم وهو

شهوات وبالزكاة وحبب اليه المال وبالحج وكره اليه الانتقال وبالرضا وركز فيه الغضب وبالتسليم والصبر وخمره بالضجر والصخب وبالتواضع ووضع فيه التيه وبالتخلق باخلاق خالقه وفيه ما فيه وحكم عليه بالموت وقد تحقق انه ليس له منه فوت وهو يكره عن الدنيا التحويل واقل اقسامه انه يحب العمر الطويل وعلى هذا قد تعود أن يفعل فى المكان المتزود افعال المقيم المؤبد والدائم الخالد ويبنى بناء من لا ينتقل وعن قليل يتركه ويرتحل لاسيما من تعلق بالدنيا قلبه وتشبث بالمال والولد والجاه واتحكم حبه وقد اخبر العزيز الوهاب فى اصدق كتاب واوثق خطاب فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب فالنفس مائلة الى الاقامه راغبة فى دوام السلامه تحب طول العمر فى الزمان وان احوجت الثمانون السمع الى ترجمان وقد قيل

واحسن ما كان الفتى فى زمانه * مع السعد والجاه العظيم معمرا

واشهى ما سمع الحاكم والندما تلقاه من قول الناظم قوله

فلازلت بين الورى حاكما * بجاه عريض وعمر طويل

ولقد بلغنى يا ملك الزمان ان الملك العادل انوشروان كان بنى اساس ملكه على العدل وعامل رعيته بالاحسان والفضل ويكفيه من الفضائل وحسن الشمائل قول سيد الاواخر والاوائل ولدت فى زمن الملك العادل وقال الرحمن فى محكم القرآن ان الله يأمر بالعدل والاحسان وقد قيل فى الاقاويل لا ملك الا بالرجال ولا رجال الا بالمال ولا مال الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل فلا ملك الا بالعدل ومن أقوى الصفات العدليه عمارة بلاد الرعيه وبذل الجهد فى العماره ليكثر الربح وتقل الخساره فاذا عمرت البلاد وترمم الطريق والتلاد حصلت الاموال وكثرت الرحال واستقامت الاحوال فقد بلغنى يا ملك الزمان ان الملك انوشروان كان مارا فى سيرانه بين جنده وأعوانه فرأى شيخا كانه قوس قطان نثر على رأسه قزع اقطان وهو فى بعض البساتين يغرس نصب تين فتعجب من انحناء قامته وبياض هامته مع شدة حرصه وتعبه على نصب غرسه ونصبه فقال له ياذا التجارب ومن هو من شرك الفناء هارب الام ترتع فى ميادين الامل وقد تطوقت باوهاق الاجل تبنى واركان جسدك واهيه وتغرس وقوائم بدنك كاعجاز نخل خاويه وربيع شبابك قد استولى عليه خريف الهرم وصيف وجودك قد ادركه شتاء العدم ومحت نسيم طراوتك عواصف الذبول ومحت قوى عبالتك بقواصف الحول وقد آن أن تغرس للآخره فانك قد صرت عظاما ناخره فقال يا ملك الزمان وعادل الاوان قد تسلمناها عامره فلا نسلمها غامره قد غرسوا واكلنا ونغرس ويأكلون وفى الحقيقة كلنا زارعون وغارسون

لقد غرسوا حتى أكلنا واننا * لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا

وأبعد فلاح عن الرشد والفلاح من يتسلم المعمور ويتركه وهو بور فاعجب انوشروان وفور عقل الشيخ الفان وحسن خطابه وسرعة جوابه فقال زه يعنى احسنت وهى كلمة تحسين ولفظة اعجاب وتزيين وكانت علامة للاحسان اذا تلفظ بها السلطان يعطى

المقول في حقه أربعة آلاف درهم لرفقه فأعطوا الشيخ الهرم أربعة آلاف درهم فقال أيها السلطان ان الغراس يثمر بعد زمان وان غراسي لحسن طاعته اثمر من ساعته فقال زه فاعطوه أربعة آلاف اخرى ورفعوا منزلته قدرا فقال وأعجب من هاتين القضيتين ان الغراس يثمر مرة وانا غراسي يثمر مرتين فقال زه فاعطوه القدر المعلوم وزادوه في التكريم والتعظيم والتفخيم وقال له انوشيروان ان أمهلك الزمان حتى تأتيني بباكورة هذا البستان فانا أقطعك خراجه واقضي مالك من حاجه فامهله الدهر وطال به العمر وأدرك ما نصبه ولم يخيب الله تعبه فحمل الى الملك الباكوره ووفى له الملك نذوره وانما أوردت هذا المثل ليعلم مولانا الملك الاجل ان الدنيا وان كانت ظلا زائلا وحائطا مائلا فهي مزرعة للآخره وان الآخرة هي الدار الفاخره وان الله تعالى وجل جلالا ولاك هذه المزرعه وعلق باوامرك العليه ما بها من مضرة ومنفعه وحكمك في البلاد وملكك رقاب العباد فاياك ان تغفل عن عمارتها بالزراعه أو تسلم زمام تدبيرها الى يد الاضاعه فانك مسؤول منها ومسؤول عنها وان مصالح عساكرك بها منوطه وأحوال مملكتك بالعساكر مربوطه فكلما تعمرت الضياع والقرى ترفهت الاجناد والامرا واستراحت الرعيه واستقرت مناظم الملك مرعيه وتوفرت الخزائن واطمأن القاطن والساكن وقلت المظالم وكفت اكف الظالم وملاك هذا كله العدل والاستوا ومجانبة الاغراض الفاسدة والهوى وهذا الذي يقتضيه مقامك ويتم به مرامك فان الملك انما هو ملك بالاجناد فلا بد له من عمارة البلاد والنظر في مصالح العباد لينتظم بنظره مصالح العالمين ويستقيم امر العالم الى الحين الذي قدره احكم الحاكمين فان سنة الله جرت على هذا السنن وما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن ولهذا قال سيد سكان الخيف انا نبي السيف والجهاد فرض عين على الملوك لا على الفقير والصعلوك فالملوك في نوع من السياده تقتضي من المال ازدياده ليقيموا من الاسلام عماده ويقتفوا من الشرع مراده ويقصموا الكفر وعناده ويبيدوا اهله واولاده وينهبوا اطرافه وتلاده ويوطئوا سنابك الايمان بلاده وواجب على كل حاكم ان يبذل في ذلك اجتهاده ويجعل الجهاد الى الاخرة زاده وعتاده ويصون عن الكفر بلاد الاسلام وعباده الى يوم يلقى معاده فيجازيه الله الحسنى وزياده هذه طريقة الملوك ومن تبعهم في الاقتداء والسلوك واياك أيها الملك العظيم وصاحب الملك الجسيم وأخذ المال من غير حله ووضعه في غير محله ولو كان موضع الخير وقصد به نفع الغير فانه لا يفي ذاك بذا ولا يقوم نفعه بما فيه من أذى فذلك كانشاء المغارس وبنيان المدارس وتنوير المساجد وتعمير المعابد وسد الثغور وعمارة القبور واقامة القناطر والجسور وعمل مصالح الجمهور واطعام الطعام وكفالة الايتام والحج الى بيت الله الحرام واعطاء السائل واغناء الارامل وصرف النفقات واخراج الزكوات والصدقات ومثله الويل كما قيل

بني مسجدا لله من غير حله * فصار بحمد الله غير موفق
كمطعمة الايتام من كد فرجها * لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

قال من لم يخف عليه اخفاؤها لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ثم أخبر بخبر ما يصدر عنكم فقال ولكن يناله التقوى منكم فان طلب من هذا أجر فهو خسران وكفر لانه فى صورة الاستهزاء وهل يطلب بقبيح الحرام حسن الجزاء بل الواجب فى هذا على كل من آذى رد المظالم وخلاص ذمة الظالم ورجع الحقوق الى أهلها وايصالها الى محلها أما رضى ظالم غوى وتحمل الحرام هوى ان يتخلص سواء بسوى وشر الناس ياذا الباس من اتبع قضية اياس فسأل العقاب عن بيان هذا الخطاب فقال كان فى الشام شخص من اللئام تصدى لفصل الاحكام ومشى من الظلم فى ظلام وشرع فى أخذ الاموال على سبيل التعدى والوبال فكان اذا أخذ من أحد ألفا ادخر لنفسه من ذلك نصفا وتصدق بالخمسمائة الاخرى على أولى الضرر والضرا كل واحد درهما وعد ذلك مغنما وقال هذه فائدة علينا بالربح عائده الحسنات خمسمائة والسيئة واحده وواحد يدعو علينا وخمسمائة يتوجهون بالثناء والدعاء الينا ثم قال ذلك الجاحد ولا تجزا الخمسمائة عن الواحد هذا وان كان والعياذ بالله صرف ذلك الحرام فى الفسق والملاه ونيل الاغراض الفاسدة واقامة الجاه فهو أشد فى النكال وأعظم فى الوزر والوبال وهذا المقام يطول فيه الكلام وأقل ما فى الباب ان الحلال حساب والحرام عقاب وقد سمعت يا جليل القدر ما نطق به السيد الصدر الذى أخجل نور طلعته الشمس والبدر سيد الانام ومصباح الظلام وحبيب الملك العلام عليه أفضل الصلاة والسلام يوما لاصحابه السادة الكرام رضى الله عنهم وأرضاهم وجمعنا فى مستقر رحمته واياهم أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال ان المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار وهذا اذا كانت هذه الطاعات من الصلاة والصوم والزكاة واقعة فى محلها ومصاريفها فى حلها فانها لا تفيد الظالم الا فى وفاء المظالم وأما اذا كانت من الحرام ومنشأ غراسها من مياه الآثام فهى وبال على وبال وثبور فوق نكال ووهن على كسر ونقصان فوق خسر وقال أيضا أفاض الله عليه سحائب صلواته فيضا لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء فاستعذ بالله يا مولى الطير ومولى الخير من نار هذا الشرر وان تتفرق طاعتك شذر مذر وأعيذك يا سلطان الصافات وما اكتسبته من الطاعات والخيرات أن ينقل الى ديوان غيرك أو يفوز بخيرك سوى طيرك اللهم الا ان يكون ياذا الوقار والسكون على وجه ما قال من أحسن المقال

ويكتسب الطاعات ذخرا لعلما * يجود بها يوم القيام على العاصى

اوعلى وجه ما قيل وأحسن به من وجه جميل

يجود بما ضنّ الجواد بمثله * من الوفر بل لو أمكنته شمائله
لعاد على المرضى بصحة جسمه * وجاد على الموتى بعمر يطاوله
ومن على النوكى بوافر عقله * وقسم فى الخلق من الرأى كامله

ويثقل ميزان الخف بأجره * لدى الوزن لما أدبر الوزر كاهله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله

ولأجل هذا الخطر العظيم والخطب الجسيم تورع عن الملال الزاهدون وشمر عن التلوث بالدنيا ذيل الرغبة العابدون قال سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والاكرام اللهم ارزق آل محمد قوتا ومع هذا كله فالملك والرعية امانه ومن تقلد ذلك فقد أوجب على نفسه ضمانه فليجتنب خيانته ولا يشن بها أمانته قال صفوة الله تعالى وخيرته من بريته كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته ومصداقه قول رب العالمين وملك الملوك والسلاطين وهو اصدق القائلين انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا فاعلم يا ملكا اعطى الزمان امانه ان هذا الملك الذى بيدك هو من جملة الامانه التى أشفق السموات والارض والجبال وأبين أن يحملنها خوفا من النكال والوبال وخشية ان لا يقمن بحقوق حملها أو يضعنها فى غير محلها فيعاقبن أو بالعتاب يخاطبن فتعففن عن الرغبة فى الثواب خوفا من العتاب والعقاب وعملن بموجب ما قيل

هجرتك لا قلى منى ولكن * رأيت بقاء ودك فى الصدود
كهجر الحائمات الورد لما * رأت أن المنية فى الورود
تفيظ نفوسها ظمأ وتخشى * حماما فهى تنظر من بعيد
تصد بوجه ذى البغضاء عنه * وترمقه بالحاظ الودود

ثم حمل هذه الامانة بنو آدم لما قدره وقضاه العلى الاعظم فى سابق القدم ولما فيها من احكام وحكم وان الصادق المصدوق اخبر فيما روى عنه أبو ذر قال قلت يا رسول الله ألا تستعملنى قال فضرب بيده على منكبى ثم قال يا أبا ذر انك ضعيف وانها امانه وانها يوم القيامة خزى وندامه الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها فمن جملتها الصلاة والصوم والزكاة والوضوء والاغتسال ومراقبة ذى الجلال فى السر والاعلان بقدر الطاقة والامكان وعلى هذا جميع الطاعات وأنواع العبادات هى فى رقاب العباد امانات ومن اعظمها وأهمها وأحكمها الامرة والحكومه والتصدى لفصل الخصومه والسلطنة العليه وامور الملك البهيه والقيام بأمور الرعيه فيجب على السادة الحكام ومالكى ازمة الانام ان يراقبوا الله تعالى فى كيفية ادائها ويطالبوا أنفسهم على ممر الانفاس بالقيام بوفائها ويراعوا أوامر سلطان السلاطين فى امور عبيده المستضعفين خصوصا المظلوم والفقير والضعيف والمسكين فاذا عاملوا عباد الله بالعدل عاملهم الله عز وجل بالفضل قال الله المنان فى محكم القرآن ان الله يأمر بالعدل والاحسان وقال السيد الكامل والسند الفاضل أشرف الاواخر والاوائل صلى الله عليه صلاة تفنى البواكر والاصائل سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل بدأ فى هذا الفصل من ذكر الصفات بالعدل والعدل يا ذا الوجه النير الوسط والوسط هو الخير قال من أمره قهر وسطا وكذلك جعلناكم امة وسطا

لتكونوا شهداء أى للانبياء تشهدون لهم على اممهم اعدائكم فيكم ويكون الرسول عليكم شهيدا أى يزكيكم اى وكما جعلنا نبيكم امام القبلتين حائز الفضيلتين جعلنا كم حائزين خصلتين بالغين مرتبتين وهما كونكم عدولا شهداء على الناس للانبياء مقبولى الشهادة فى الاداء وكون الرسول معدلكم وبتزكيته على الامم مفضلكم وقال صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ونعم وعظم عدل السلطان يوما يعدل عبادة سبعين سنة وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والاكرام والذى نفس محمد بيده انه ليرفع للسلطان العادل الى السماء مثل عمل جملة الرعية وعن ابى هريرة رضى الله عنه انه عليه السلام قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم وروى كثير بن مرة رضى الله عنه قال قال عليه السلام السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر واذا جار كان عليه الاثم وعلى الرعية الصبر وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه لعمل الامام العادل فى رعيته يوما افضل من عبادة العابد فى اهله مائة سنة او خمسين سنة وقال قيس بن سعد ستين سنة واعلم ايها الملك الاعظم واسلم ان العدل ميزان الله تعالى فى الارض به ينتصف بعض الرعية من البعض وبه يؤخذ للضعيف من القوى ويعبد الله على الصراط السوى و يتميز الحق من الباطل والحالى من العاطل وهو من صفات الذات واعظم الصفات بمعنى ان الله تعالى عز وجل جلالا له ان يفعل فى ملكه مايشاء فيؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويحكم مايريد والخلق كلهم له عبيد وجميعهم بعض ملكه نافذ فيهم سهم أمر ملكه فلا اعتراض على فعل المالك ولا فيما يسلك بمملوكه من المسالك ولا مجال لاعتراض عبده على ذلك لاسيما اذا كان مولاه كريما وفى افعاله مدبرا حكيما فمن عرف ان الله عدل وان افعاله جارية بين العدل والفضل يتلقى نقمه بالصبر ويقابل نعمه بالشكر ويطمئن خاطره وتسكن الى مولاه سرائره فلا يستقبح موجودا ولا يستهجن مفقودا ولا يستثقل حكما ولا يرى فى الكون ظلما بل يستقبل الاحكام بالرضا ويستسلم لموارد القضا ويقابل العوارض بما قاله ابن الفارض

وكل اذى فى الحب منك اذا بدا * جعلت له شكرى مكان شكيتى

واعدل المخلوقات وأوسط الكائنات الانبياء عليهم السلام فانهم اعدل الخلق مزاجا وطبيعة وأقوم الناس منهاجا وشريعة وأوسط البشر أفعالا واقسطهم أعمالا واقوالا وانما يعترض على أقوالهم ويتعرض لافعالهم من هو عن الصواب منحرف وعن جادة الحق منصرف ومن عين بصيرته عميا عن مراقبة التحقيق كالاعمى الذى خرج وهو ماش عن سواء الطريق فيعثر فى شوك أو حجر أو يصدمه حيوان أو شجر فيقول محوا هذا عن الطريق فانه يحصل به للمارة تعويق و يعيب على واضعه وانما العيب فى طبائعه والجهل منسوب اليه لعمى قلبه وعينيه كما قال ذو الخويصره لسيد الرسل البرره لما قسم الغنيمه قسمة مستقيمه اعدل فأجابه الكامل المكمل بانه ان لم يعدل فمن يعدل وانه آى ذا الخويصره الذى أعمى الله بصره خاب وخسر ولاقى اليوم العسر ان لم يعدل ذلك المفضل وكيف يقال هذا الكلام لمثله عليه السلام وقد أمره الله تعالى بالعدل ونشر هذا النقل

وأقر عينكم بقوله وأمرت لاعدل بينكم قال الاسد الغالب على بن أبي طالب كرم الله
وجهه وجعل الى رضوانه له أحسن وجهه امام عادل خير من مطر وابل واسد حطوم
خير من سلطان ظلوم وقيل الملك يدوم مع العدل ولو كان الملك كافرا ولا يدوم مع الظلم ولو
كان الملك مسلما وما تعاطى حاكم ذو فضل فصل قضية فى فصل احسن من سلوك طريقة
العدل ولهذا بقى اسم انوشروان مخلدا بالعدل على مر الزمان والى يوم ينصب الميزان مع
انه كان مجوسيا يعبد النيران والسنة التى اخترعها بالسلسلة التى وضعها باقية فى ممالك
الصين معمول بها الى آخر حين وقيل انه كان شديد الوداد للاصطياد وكان يعشق البازى
والزرق والصقر والباشق والبيدق فسأل يوما من البازدار لم كانت هذه الاطيار قصار
الاعمار قال لانها تظلم الطيور والظالم عمره قصير فتنبه بهذه الكلمة واتعظ وكف يده عن
الظلم واحتفظ ثم أسس قواعد العدل فانتشر ذكره الى يوم الفصل ويكفيه من الفضائل
قول السيد الكامل ولدت فى زمن الملك العادل وروى ان بعض الملوك العادلين والحكام
الفاضلين استولى عليه الكبر ووقر فى اذنه وقر وكان قبل الصمم فى العدل والكرم
كما قيل

وأنة مظلوم وغنة سائل * على أذنه أحلى من الشهد فى الفم

فحزن لفقد سمعه وتأسف وتحرق وتلهف وتأرق وبكى وتأوه واشتكى وقال ما اتلهف من
من عدم سماع الحديث الا على فقدى صوت المستغيث ولا كنت أتلذذ من متكلم الا
بالاصغاء الى خطاب المتظلم ثم قال والئن حرمت ذلك من طريق الاخبار فلا توصلن اليه من
طريق الابصار ثم امر باشهار النداء فى الاطراف والارجاء انه من كانت له ظلامه فليظهر له
علامه وهى ان يلبس ثوبا احمر ويقف فوق ذلك التل الاخضر لنعرف علامته ونكشف
ظلامته وقيل ان السلطان السعيد نور الدين الشهيد لما أمر ببناء دار العدل وعزم ان
يقيم فيها المحكومات الفصل ادرك الامير الكبير صاحب الرأى المنير اسد الدين شيركوه
ما يعتمده السلطان ويرجوه وما يحمله على ذلك ويدعوه وعلم ان ذلك الاسد لا يسامح عنده
احد وانه لا يراعى فى الحق اميرا ولا كبيرا ولا صغيرا فانه مع الحق وبالحق قائم لا تأخذه
فى الله لومة لائم فجمع مباشرى ديوانه واكد ما قاله لهم بأيمانه لئن شكا منهم أحد أو بلغه
عن أحد من حاشيته ظلم أو نكد ليذيقنه أشد العذاب ولينزلن به انكى عقاب وقال ما برز
هذا الامر العزيز الغالى ببناء هذا المقعد العام العالى الا لاجلى ولاجل امثالى فما
وسعهم الا طاب الخصوم واسترضاء العادل والمظلوم (وروى) ان احد الصدور غصبه بعض
عمال المنصور واخذ منه كفرا من الكفور فتوجه الى الخليفه وضرب له أمثالا ظريفه
وقال اصلح الله امير المؤمنين وأقام به شعائر الدين ونصر به المظلومين على الظالمين أأذكر
ظلامتى اولا ام اضرب امام حاجتى مثلا فقال دع الجدل واضرب المثل فقال الهمك
الله العدل واقام بك قواعد الفضل ان الطفل اذا نابه ما يكرهه اوقرعه خطب يجبهه فر
الى امه واجهش اليها من همه فأوى الى حضنها واندس تحت بطنها لانه لا يعرف سواها
فيستكشف بها عن نفسه ما دهاها ولا يظن ان غيرها يدفع عن نفسه ضيرها فاذا عرف أباه

بث اليه شكواه واستدفع به ماعراه لانه قدوقر فى وهمه ان اباه اقوى من امه وان غيره من الناس لا يقدر على دفع الباس فيلجأ اليه فيترامى فى دفع شدائده عليه ولا يقبل عذره ان ترك نصره او قصر فى مبتغاه او تهاون فى متمناه ولهذا قال بدر الحى ان النساء والصبيان يظنون ان الرجل يقدر على كل شى فاذا اشتد واستوى وأصابه من أحد جوى تقدم الى الوالى لان مقامه عالى وهو أقوى من أبيه فيستكشف به ماوقع فيه فاذا صار رجلا وأصابه من أحد نكد وبلا استنجد بنائب السلطان فوجده أحسن معوان فاشكاه ورفع بلواه وكفاه اذ دعاه من عداه مادهاه ورعاه عماعراه فانه أقوى من الوالى واقدر على دفع الظلامة من كل منهمك غالى وهو السلطان الحاضر والعامل والناظر على البادى والحاضر فاذا ظلمه الوالى والعامل ونقصه حقه ذو الحكم الكامل تعلق بأذيال عدل السلطان واستكشف بمراحم نصرته مادهاه من عدوان اذ قد تحقق ورأى وصدق انه أقوى من الكل والى مرسومه مرجع الحل والعقل ولا يد فوق يده وانه قد انتهى حديث رفعته لعلو سنده وبلغ فى التسلط ونفوذ الامر الى أقصى امده اذ هو ظل الله فى أرضه وخليفته فى اقامة نفله واحياء فرضه وقابض أزمة المخلوقين ومنصف المظلومين من الظالمين فاذا لم ينصفه السلطان مع القدرة الكاملة والامكان توجه بشكواه الى سلطان السلاطين وطلب رفع ظلامته من رب العالمين لعلمه انه الحكم الذى لا يجور والحكيم الذى بيده مقاليد الامور والحاكم الذى يعلم خائنة الاعين وماتخفى الصدور وانه أقوى من السلطان ولا يحتاج فى الشكوى الى بينة ولا بيان ولا الى دليل ولا برهان وقد نزلت بى حادثه للقلب كارثه وبالفكر عابثه وللسر عائثه وهى ان العامل الفلانى ظلمنى وأخذ مكانى فأنا اشكوه اليك وقد ترامیت عليك وعرضت قصتى بين يديك لانك نعم السند وليس فوقك أحد ولا فى الحكام الامن هو لك بمنزلة الغلام ومابعدك الا الله مولى لا يخيب من رجاه ويجيب المضطر اذا دعاه فان وعيت قصتى وكشفت غصتى والا رفعتها الى الله وقطعت النظر عماسواه وهذا أوان الموسم واعمال النسم وأنا متوجه الى حرمه ومترام على باب احسانه وكرمه فلما وعى المنصور خطابه أرسل من سحاب جفنه عبابه وقال حبا وكرامه ياذا الزعامه بل انصفك وبالفضل اسعفك وأضعف كرامتك وأكشف ظلامتك واوصلك حقك واعطيك مستحقك وامر فكتب الى واليه يضع من معاليه ويأمره برد اراضيه وطلب مراضيه والتحلل من ظلم أياديه واكرام محله وناديه وروى ان موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم فى بعض مناجاته وسؤاله حاجاته سأل الله من فضله ان يريه نكتة من عدله فأمره ان يتوجه الى مكان ويختفى فيه عن العيان فامتثل مابه أمر واختفى فى ذلك المكان على شط نهر فما كان باسرع من قدوم انسان الى ذلك المكان فبمجرد ماوصل اليه نزع من ملبوسه ماعليه وكان معه كيس فيه مال نفيس فاودعه ثيابه ورام فى الماء انسيابه فدخل فى ذلك النهر وغلغل فيه الى ان غاب عن النظر فاقبل فارس فوجد ثيابا بلا حارس فنزل عن الدابه وفتش ثيابه وأخذ كيس الذهب وركب فرسه وذهب وأسرع فى الذهاب الى ان زال شخصه وغاب ثم أقبل شخص ذو شيب وعلى

ظهره حزمة حطب فانتهى الى الما وقد برح به الظما وامضه التعب واخذ منه النصب فطرح عن ظهره الحطب وقصد الراحه وقد ظهر الذى كان فى السباحه فوجد عند ثيابه شخصا من اترابه فاستأنس به وتأوه لمكتسبه وما يقاسيه من نصبه ثم اشتغل ملبوسه وتفقد كيسه فما وجده فعض يده فسأل الحطاب عما كان فى الثياب وطلب منه الكيس بالتعبيس فقال ما رأيته ولا حويته فقال هل كان معك احد فقال لا والواحد الاحد قال فهل كان هنا سواك قال لا والذى سواك قال يا أخى انا وضعت الهميان بيدى فى هذا المكان ولم يطل على ذلك زمان ولا حضر سوى الحيوان ولا طمث عذراء هذا الموضع انس ولا جان فلا أشك انك أخذته ولنفسك اقتلذته فاأقسم بعالم الخفيات وكاشف البليات المطلع على الضمائر والنيات انه ما رأى له هميانا ولا يعرف لذلك مكانا فقال لو شهد لك الكون والمكان ونطق ببراءتك جوامد الزمان وزكاهم الكرام الكاتبون لما شككت انهم كاذبون لان انكار المحسوس مكابره والمثابرة على الباطل للحق مدابره ولكن خذ لك منه يا فقير الثلث والثلث كثير واردد على الثلثين وان أبيت فاجعله بينى وبينك نصفين فما زاد ذلك على اليمين وما شك هذا انه عين فقال اردد على مالى والا قتلتك فلا لك ولا لى فقال ما رأيت مالك فافعل ما بدا لك فشرع فى تفتيشه وبالغ فى فحصه وتنبيشه فلم يهتد الى شى سوى الضلال والغى فأخذه الحنق واشتد به الارق وثارت نفسه الابيه واتقدت سورته الغضبيه فضربه بجمد دفقتله وجدله بالاهلاك فجدله ثم تركه وذهب ولم يحظ من الذهب بغير اللهب كل هذه الاحوال وموسى عليه السلام يشاهد ما فيها من أفعال وأقوال ثم ناجى فقال يا ذا الجلال انت عالم بحقائق الامور وسواء عندك البطون والظهور سألت فضلك ان تريني عدلك فأريتني هذا المغرم وأنت أعلى وأعلم فى ظاهر ما أمرتني وبكرامته غمرتني من الشريعة المطهره ونص التوراة المحرره ان هذا الحكم جور وظلم قاطع على الحقيقه وبين لى سلوك هذه الطريقه فقال الله تعالى وجل جلالا يا موسى المقتول قتل أبا القاتل والقاتل سرق الكيس من أبى الفارس الخاتل فى الحقيقة الفارس النبيه وصل الى ماله المخلف عن أبيه والقاتل انما استوفى قرده ممن قتل والده وهذه الامور انما تتضح يوم النشور يوم تبلى السرائر وتكشف الضمائر وينادى يوم التناد لا ظلم اليوم ان الله قد حكم بين العباد ونظير هذه القصه ما ذكره الله تعالى وقصه فى روض كلامه النضر عن موسى والخضر عليهما السلام والتحية والاكرام اذ ركب السفينة وخرق خرقا موديا الى الغرق وقتل النفس الزاكيه وأقام بغير اجر أركان الجدار الواهيه وبعض ذلك مخالف لظاهر الشريعه تنفر عنه النفس السليمة والطبيعه ولكنه موافق للحكمة الالهية ومقتضيات العقل الحقيه الذى لا يطلع عليه الا عالم الاسرار الخفيه ولهذا قال جل واحدا احدا وتعالى فردا صمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ثم استثنى من هذا المقول الا من ارتضى من رسول وانما الشريعة الزاهره وردت بما تقتضى من الحكم الظاهره فتعبدنا الله فى الشرائع بظاهر ما يثبت فى الوقائع قيل من ايقن بحقيقة أربعة كان من ضيق اربعة فى سعه وامن ودعه من ايقن ان الصانع الضار النافع لم يخطئ

ولم يغلط امن من العيب والشطط ومن ايقن ان الخلاق ومقسم الارزاق لم يحف فى خلقه ولم يمل فى رزقه امن من الحسد واستراح من النكد ومن ايقن بوقوع المقدور وانه لا ينجيه منه محذور امن من الغم ولم يتسلط عليه الهم كما قيل

ما قد قضى يا نفس فاصطبرى له * ولك الامان من الذى لم يقدر

ومن عرف أصله امن من الكبر نصله وكتب فى قضيه الى اعدل خلفاء بنى أميه من عامله بحمص انه هدم الدمص وعدم الغمص وان ربضها ارابض ومرعى رياضها بارض وانها محتاجة الى عمارة وزراعه وحراسة ومناعه فكتب اليه عمر بن عبد العزيز هذا الجواب المفيد الوجيز وهو حصنها بالعدل ونق طرقها من الدخل يثبت البنا وينبت الكلا والسلام وقيل أمير بلا عدل كغيم بلا مطر وعالم بلا ورع كشجر بلا ثمر وشاب بلا توبة كمشكاة بلا مصباح وغنى بلا سخا كقفل بلا مفتاح وفقير بلا أدب كطابخ بلا حطب وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح وقاض جائر كلح على جرح وقيل العالم بستان سياجه الشريعة والشريعة سياجة يحرسها الملك والملك راع يعضده الجيش والجيش أعوان يكفلها المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية احرار يستعبدها العدل والعدل سلك به نظام العالم وليعلم ان الملة الاحمديه والشريعة المحمديه هى أعدل الملل وأقوم النحل مثلا النصارى لا يتحامون الحائض ايام اقرائها ولا فرق بين الحائض وغيرها من نسائها واليهود يجتنبونها فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقربونها رأسا ويعدونها رجسا ورجسا فسلكت الشريعة المحمدية فى ذلك أعدل الطرق وأفضل المسالك فتعاشر كالاطهار وحرم قربان ما تحت الازار وفى بعض الملل على الذى قتل القود والقصاص وليس فى الدية خلاص وفى بعض الدية لاغير وما للقصاص فيها سير ودين الاسلام المرفوع كل فيه مشروع والعدل فى الاعتقاد يا ملك البلاد ترك التخليط وسلوك ما بين الافراط والتفريط والقول بالتقديس والتنزيه واثبات الصفات من غير تعطيل ولا تشبيه واقتباس النور من جمرين وسلوك أمر بين أمرين والعدول عن المذهب البغيض وهو مذهب الجبر والتفويض والعدل فى الفقهيات يا معشوق المخدرات والخداريات الذى قام عليه النص دليلا ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا فمن العدل الوضوء المعتاد ثلاث مرات ومن نقص أو زاد فقد تعدى وظلم كذا قال النبى المكرم صلى الله عليه وسلم أى تعدى ان اسرف وظلم ان اجحف والعدل فى الصلاه ان تكون على مرتضى الشرع ومقتضاه وهى اداؤها فى أفضل الاوقات مؤداة مع الجماعات فى الصف الاول على الوجه الاكمل عن يمين الامام من الافتتاح الى الاختتام مع تعديل الاركان بل التعديل فرض عند بعض الاعيان لا نقرا كنقر الطير ولا تطويلا يضر بالغير والعدل فى الزكاة ان لا يتيمموا الخبيث منه ينفقون ولا يجعلوا لله ما يكرهون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه ولا يكلف جابى المال ان يعطى كرائم الاموال والعدل فى الصوم يا سيد القوم ان لا يتناول فوق الغذاء المعتاد ولا يصل بالوصال الى درجة الاجهاد ويعجل الفطور ويؤخر السحور والعدل فى الحج ان لا يمارى فى الاتفاق ولا يضارر الرفاق بالشقاق كما يفعله ابناء الزمان

فان ذلك خسران والازدياد من ذلك نقصان ولقد بلغنا بأقوى ما قاله عمر لخادمه يرفا وذا لا يخفى كم بلغت نفقتنا مقدارا قال ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين قال ويلك أجحفنا بيت مال المسلمين واياك والاشر وقال اتقه كل شر فقد بلغت قيمة راحلة سيد البشر ليدل ذلك على ترك البطر والاشر ولا يقصر فى نفقته بحيث يصير كلا على رفقته وكذلك فى كل الانفاق يا ملك الآفاق قال من عز كلاما وجل مقالا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما والعدل فى النكاح يا حبيب الصباح لمن عليه يقوى فهو أقرب للتقوى وهو يا أبا احسان واجب عند التوقان سنة عند القدرة عليه مستحب عند استواء طرفيه مكروه عند العجز عنه وهذا بحث قد فرغ منه وقس يا ذا الكرامات على هذا سائر العبادات وجميع العادات وعقود المعاملات ولا تتعد الحدود فى الحدود فان ذلك مردود وعلى قانون العدل وردت الشريعة المطهره وجرت قديما شرائع الانبياء البرره وكذلك مقادير الملة المحمديه عليه أزكى تحيه محررة على القواعد العدليه وفيها من الحكم الالهيه ما يعجز عن ادراكها القوى العقليه قال الله تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وحاصل الامر يا ذا النهى والامر أن العدل هو قوام كل فضيله كما ان الصبر هو اساس كل خصلة جميله وان أردت بسط هذا البيان فدونك القول والتبيان فى تفسير القرآن المنزل على أشرف انسان ان الله يأمر بالعدل والاحسان فقد أشبع التقرير ودقق التحرير فى روضه النضير فارس ميدانه الامام الخطير فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير والعدل يجرى فى الصفات كما يمشى فى الذوات ومرتبته فى العلو ان يكون بين التقصير والغلو كالكرم الذى يكون بين الاسراف والتبذير والشح والتقتير والتواضع الذى بين الضعة والتكبر وبين التصعر والتصغر والشجاعة التى بين التهور والخفه والجبن الطائش الكفه والقناعة التى بين الحرص والطمع والنذالة والهلع وبين العجب والتصلف والاحتشام والتقشف والاخلاص الذى بين الشرك والهوى وبين الاعجاب والريا والعفة التى بين التهافت على المشتبهات والترفع عن تناول المباحات والطيبات والحزم الذى بين سوء الظن والوهم والوسواس وبين اذاعة السر والاستخفاف وعدم المبالاة بالناس والحلم الذى بين الغضب بلا سبب وبين التغاضى عن اللئام عند موجب الانتقام والشفقة ولين الجانب للاقارب والاجانب الذى بين القسوة والاستكبار وبين الرخاوة واللين المستلزم لتضييع حقوق الاهل والجار وحفظ الحقوق الذى بين التكلف والعقوق يراعى فيها الحدود ولا يخرج فيها عن الحد المعهود فالخروج عنها يسمى عنادا وقساوه والتقصير فيها يدعى ركاكة ورخاوه مثلا من يستحق العفو لا يضرب ومن يستاهل الضرب لا يقطع ولا ينكب ومن استوجب القطع لا يقتل ومن وجب عليه حد لا يهمل وتجرى امور الشرع الشريف على ما ورد به الامر المنيف فما ثم احد اكرم من الله ولا أرحم ولا أعلم بامور مخلوقاته ولا احكم قال السميع البصير الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وروى ان الامام المسدد جعفر بن محمد دخل على الرشيد وهو فى أمر شديد

قد استولى عليه الغضب واستخفه الطيش والصخب فقال يا أمير المؤمنين ان كان غضبك لرب العالمين فلا تغضب له اكثر من غضبه لنفسه وقد حد لكل شئ حدا من نعمه وبأسه فلا تتعد حدوده فانه قد ملكك عبيده فتذكر من وقوفهم بين يديك واقتدارك عليهم اذا غضبوا قياما لديك قدومك يوم القيامة عليه ووقوفك خاضعا منفردا بين يديه ومن انتقامك منهم سؤاله اياك عنهم فسكن من غضبه واقتدى بادبه وقال الحكماء للاسكندر عليك بالاعتدال في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز وفي الحديث خير الامور اوسطها ولهذا قيل في الاقاويل ينبغي للانسان الراجح العقل في الميزان ان يحصل من كل علم مقدار ما يحتاج اليه ويعول في مشكلاته عليه مثلا من علم الادب ماينال به عند أربابه الرتب كاللغة والنحو والصرف ولو انه أدنى حرف ليقوم بذلك لسانه ومن علم المعاني مايبدع به بيانه ومن العروض والقوافي المقدار الوافي والمعيار الكافي ومن الطب مايعرف به مزاجه ويصلح به علاجه ويقوم به اعوجاجه ومن علم التفسير والقرآن مايقتدر به على بيان كلام الرحمن ومن علم السنة والحديث مايميز به الطيب من الخبيث ويضبط به أقسامه وصحته وسقامه والانساب والرجال ومالهم من صفات وأحوال ان لم يكن مفصلا فعلى الاجمال ويندرج فيه علم التاريخ العالي الشماريخ ومن علم الكلام مايصحح به دينه ويقيم به اعتقاده ويقينه ومن علم الاصول وما اشتمل عليه من معقول ومنقول مايقدر به على استنباط الاحكام ومعرفة أدلة الحلال والحرام ومن علم الفروع مايحكم به أصناف العبادات وأنواع العادات وطرائق العقود واقامة الحدود ومن علم مكارم الاخلاق مايصيد به قلوب الرفاق ويكتسب به الذكر الجميل والثناء الجليل ومن الحرف مايحصل به القوت الحلال ولا يصير على الناس كلا ذا املال وقد قيل خالطوا الناس مخالطة ان غبتم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم ومن علم الركوب والرمي والسباحة والخط ولعب الرمح والسماحة وعلم الفرائض والحساب وطرائق المبايعات والكتاب مايقدر به على الدخول اليه اذا تكلموا فيه بين يديه بحيث يكون له فيه مشاركة والمام ولا يكون بين الخواص كالعوام وكل ماذكر فسلوكه عدل والتلبس به كمال وفضل ورأس مال الجميع التقوى فان الانسان الضعيف بالتقوى يقوى قال الله تعالى لكن يناله التقوى منكم وبالجملة فالعاقل العادل بل الكامل الفاضل لا يستنكف عن نوع من العلوم ولا تبرد همته عن اقتباس منطوق ومفهوم قال معلم الخير ومحذر الشر تعلموا حتى السحر وقال

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لم يعرف الخير * من الشر يقع فيه

وكل صافي السريرة وذي بصيرة منيرة يتوجه الى التعلم والاستفادة ويجعل مراده مراده أي علم كان خصوصا اذا كان من الشرف بمكان قال بعض الوزراء لابنه يابني تعلم العلم والادب ولا تسأم فيهما من الطلب فلولا العلم والادب لكان أبوك في السوق حمالا وللنوق جمالا فبالعلم والادب ركبنا اعناق الملوك وأحوج الناس باذا الافضال الى اكتساب الفضل والعلم والكمال السلاطين والملوك ومن تبعهم في السلوك فانهم بين خلق الله تعالى

هم المرموقون والسابقون بجلائل النعم لا المسبوقون ويحفظ بلاده وعباده المستوثقون وبالسؤال عنهم موثوقون فهم المتحملون لاعباء العدل المكلفون بالمحاسبة عنه والفضل قال من يقول للشئ كن فيكون قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهم اقدر على التحصيل من غيرهم والزمان والمكان تابعان اسيرهم والخاص والعام تبع قربهم ويسلك في التوصل الى جنابهم دربهم ويبذل في ذلك ما وصلت اليه يداه ويجعل تحصيل مارومونه غاية متمناه فيبذل جهده في ايصالهم اليه ويكد قلبه وقالبه في اطلاعهم عليه قال الشاعر

ولم ار في عيوب الناس نقصا * كنقص القادرين على التمام

وقال بعض الملوك لاولاده يابنى اكتسبوا العلم والفضل وادخروا الحلم والعدل فان احتجتم الى ذلك كان مالا وان استغنيتم عنه كان جمالا وقال بعض الحكماء العلم ملك ذو اعضاء رأسه التواضع ودماغه المعرفة ولسانه الصدق وقلبه حسن النية ويداه الرحمة ورجلاه مثابرة العلماء وسلطانه العدل ومملكته القناعة وسيفه الرضا وقوسه المسالمة وسهمه المحبة وجيوشه مشاورة الادباء وزينته النجدة وحكمه الورع وكنزه البر وماله العمل الصالح ووزيره اصطناع المعروف ومستقره جودة الرأى وماواه الموادعة ورفيقه مودة الاخيار وذخيرته اجتناب الذنوب والحاصل يا ملك الطير ويا مالك عنان الخير ان قوام العالم ونظام بنى آدم سيف الملوك والسلاطين وقلم العلماء الاساطين فمهما حدث من شر محاه سيف الملوك ومهما وجد من خير أثبته قلم علماء الارشاد والسلوك وفي الحقيقة يا شيخ الطريقة العالم عبارة عن هؤلاء وبصلاحهم تصلح الاشياء وبفسادهم والعياذ بالله تفسد الدنيا اذهم ازوال الفساد وطهارة العباد وعمارة البلاد بمنزلة الصابون للاوضار والاستغفار للاوزار فاذا فسد هؤلاء فالفساد هم دواء كما قيل

الذنب صابون الاستغفار يغسله * كالثوب ينظف بالصابون ان وسخا

فالذى يغسل الصابون من دنس * اذا رأيناه صار الذنب والوسخا

وناهيك يا ملك العقبان ما فسد من الزمان وجرى من الدماء من طوفان وانمحى من أمهات البلدان عند استيلاء الكافر جنكزخان فسأل العقاب عن كيفية هذا المصاب والعقاب ومن هو جنكزخان الذى أفسد وخان وما اصله وفصله وكيف كان قطعه ووصله حتى نفذ في كبد العالم بالفساد نصله فقال هذا رجل من بقايا التتار الساكنين من بلاد الشرق في قفار وهم من بقايا يأجوج ومأجوج عن الاسلام منصرفون وعن الايمان عوج سموا بالترك لانهم تركوا عن دخول السد بالخروج فكانوا قبل جنكزخان مبددين في صحارى لا يتفق منهم اثنان مسيرة أماكنهم ومدى مساكنهم شرقا وغربا نحو من ثمانية أشهر وشمالا وجنوبا لا ينقص عن هذا المدى ولا يقصر حدها من الشرق حدود ممالك الخطا واقصاها خان بالق وهى مدينة عظمى ووراءها شرقا يامن يرقى ينتهى الحد بعد السير الجد الى بلاد عظيمه ولايات جسيمه تدعى خيبار وأهلها كفار وهى مبدأ مملكة الصين باذا الجد الرصين ومن الشمال نواحى قرقير وسلنكاى ومن الجنوب بلاد تدعى تنكيت وتبت وتيت

هذه باذا النسك هي التي يتولد من غزالها المسك ومن الغرب وهي جهة قبلة تلك البلاد اذا
صلى المسلمون منهم والعباد حدود بلاد أويغور وما والى تلك الكفور من بلاد تركستان
باذا الاحسان ويسير المجد منها اذا انفصل عنها كذا وكذا شهر حتى يصل من جهة غربها
الى ماوراء النهر ثم هؤلاء التتار كانوا فى تلك القفار بين هذه الحدود الاربعه فى مضيعة
وأى مضيعه يتوالدون فى ذلك البر ويتهارجون فى ذلك السهل والوعر كالحيوانات السائبة
فى البر والبحر لا حاكم يردعهم ولا دين واعتقاد يجمعهم وهم فيما بينهم قبائل وشعوب
واصناف وضروب وخلائق وأمم لا يعرفون الاسلام والسلم بل كل أمة تلعن أختها وتنهب
تحتها وتأكل ورختها وكل طائفة تعد غارتها وتقصد جارتها وكل من قوى على غيره كسره
اما قتله واما أسره لم تزل المكافحة بينهم قائمه والمناطحة بين ثيرانهم وكباشهم دائمه وعيون
الرشد والاهتداء عنهم نائمه وضوارى الظلم والاعتداء فى مسارح سوارح اسلامهم سائمه
يعدون النهب غنيمه والفسق والفجور والنميمه أجل صنعة وأكمل شيمه يأكلون الكلاب
والفار وما وجدوه من صيد القفار والميتة والدم والهوام لا يعرفون الحلال منها والحرام
ويلبسون جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها كما كان مشركوا العرب فى الجاهليه
قبل اشراق شمس الملة المحمديه لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوع من الشجر يشبه شجر الخلاف
هو ثمرهم فى الشتاء والاصطياف اسمه قسوق وهم على ماهم عليه من الفسوق يعبدون
الاوثان والاصنام ويسجدون للشمس اذا بزغت من الظلام ويعظمون النجوم ويعبدونها
وتخاطبهم الجن ويرصدونها وفيهم كهنة يعتقدونها وسحرة ومكره وسواجع وزجره
يجى خواجهم الى ملك الخطا وهم على أشد كفر وخطا قد تركب الكفر فى احشائهم
وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وأعلى من فيهم من أكابرهم وذويهم علامة رياسته
وانفراده بسياسته وانه فيهم ذو بأس شديد ورأى سديد ومال مديد كون ركابه من حديد
وباقى اعيانهم وذوى مكانتهم وامكانهم ان كانوا ذوى جد فركابهم قضيب ملوى أو قد
وعندهم أفخر ملبوس جلود الكلاب والفوس والذئاب والتيوس وقس على هذا جميع
تجملاتهم ومفاخر آلاتهم فهم من قديم الزمان وبعد الحدثان من حين بلغ ذو القرنين
بين السدين وساوى على يأجوج ومأجوج بين الصدفين الى آخر وقت كانوا فى قلة ومقت
وضيق حال وسوء بال لا دنيا رخيه ولا آخرة رضيه حتى نبغ منهم هذا اللعين الطاغية
تموجين الذى تسمى بجنكزخان وساعده قضاء الديان فأمده الزمان واعطاه المكان لامر
يريده الرحمن وقضاء قدره على عبيده فى سالف الازمان فطم العالم بالفساد فأهلك العباد
والبلاد وأخلى الديار والدار وعم غالب بلاد الاسلام بالشنار والبوار فصلى الله على سيد
بنى عدنان بل أشرف جنس الانسان الذى قال يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير
العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق
كانهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها فاتبعه منهم النساء والرجال
اتباع اليهود والكفرة المسيح الدجال أمم لا يحصرها حساب ولا يحصيها ديوان ولا كتاب
ومايعلم جنود ربك الا هو فارشدوا الى طرق الضلال بعدما تاهوا وصار كل من اولئك

الطغام الكفرة الفجرة الاوغاد اللئام وكل كلاب غادم كلاب الصيود يجرى سيفه السكال الكدود من اشراف الملوك وملوك الاشراف وفى اعضاد الاسود وفى رقاب الفحول والفهود وكل ماضغ شيح وقيصوم وعلج من أولئك العلوج وعلجوم يتفكه فى أنواع المستلذات من المشروب والمطعوم وكل صعلوك مملوك من ترك متروك أو خدام مملوك يتحكم فى رقاب أكابر الملوك ويستعبدون احرار أولادهم ويستفرشون زوجاتهم وبناتهم فى بلادهم

على رأس عبد تاج عز يزينه * وفى رجل حر قيد ذل يشينه

ومن لا يعرف البطائن المرويه ولم يسمع بالرقاع الكرباسيه يستوطئ الاستبرق والديباج ويتقلب على تخوت الصندل والساج ويترقى السرر الابنوس والعاج ويعامل التجار والمغاربين فى البر والبحار بالوف الالوف من الدرهم والدينار فيجبى اليهم نفائس المضارب من المشارق والمغارب ومكامن المعادن وذخائر الخزائن كل ذلك بواسطة ذلك الطاغيه واستيلاء الفئة الباغيه وكان من أمر هذا المصاب الذى بدل حلاوة العيش بمرارة الصاب وخلد فى الدهر قواعد البلايا والاوصاب ان الله القاهر فوق عباده الذى لا يسأل عما يفعل من مراده بل له المراد فى عباده وبلاده المتصرف فى ملكه تصرف المالك فى ملكه لما أراد ابتذال الصون وعموم الفساد فى عالم الكون واستئصال غالب أهل الارض واذاقة بعض عباده بأس بعض واظهار آثار غضبه على صفحات الشهود وابراز اسرار قهره على وجنات الوجود ولمس سطور صدور رعلماء العالم على لوح الورود بلسان نار السخط ذات الوقود ونقص أرض العلم من اطرافها واخلاء ربوع المحاسن من آلافها اينع هذا القساح من افواج أمواج هذه البحار ونبع هذا التنين المبين من أوعار تلك القفار واغوار أوغادها تيسك التتار فكان ممتازا على أقرانه بوفور عقله وحسن بيانه ذا فكر مصيب ورأى صائب وحزم عجيب وعزم ثاقب وهمة تبارى الافلاك وثبات يجارى السماك كسر بصدماته الاكاسره وقص بسطواته القياصره وقرع بعزماته على قمم الفراعنة والجبابره وقهر بحملاته قهارمة خواقين القياصره وكان اميا لا يقرأ ولا يكتب أعجميا عجريا لا يحسب ولا ينسب لا طالع الاخبار ولا اقتفى فى سياسة الممالك الآثار بل فرع ما فرعه من القواعد من صحيفة تفكيره واخترع ما ابتدعه من تدبير الملك من مطالعة هواجس ضميره فأسس قواعد لو أدركه اسكندر ودارا لما وسعهما الا اقتفاء أثره وشيد مبانى لو بلغت عمر ودوشداد البنيا قصور قصورهما وقصارهما على أركان خيره وخبره ورتب تجهيز السرايا والجنود وربط عقود الجيوش والبنود بطرائق يعجز عنها مهندس الحكمه ويتقاعد عن حل رموزها معزم الفطنه وغالب ما يتعاناه ويستعمله ويتعاطاه جيوش الاتراك فى بسيط الارض من ابرام طرائق عساكرهم والنقض انما هو من قوانين ما رتبه وافانين ما هذبه وركبه وله فى ترتيب حراب الحروب وما فى فن الضرب والضراب من ضروب وطرائق الاصطياد مخترعات دقائق لم يسبق اليها من لدن كيخسرو وكيقباد أحكم بها الموافق ونصر المصادق وكبت المعادى وكسر الاعادى واستطال مع كثرة مخالفيه عليهم وأنفذ سهم تحكمه وتحكيمه فيهم واليهم

وصال

وصال فيهم حسبما أراد وبال واتسع له في التضييق على الاسلام والمسلمين المجال فنكل من عامله بالمجامله وتلقاه بالعبودية وحسن المعامله أبقى على نفسه وأهله وماله وحصنهم من أليم خيله ورجاله ومن قابله بالمقاتله وقاتله بالمقابله وتلا في صفقته له سورة المجادله محاسطوركونه من لوح الوجود وأوطأ سنابك خيله منه الجباه والخدود فخرب ديارهم ومسح آثارهم مع شبركه واسلائهم وتبدد عساكره ونظامهم ومع أن أكثر الملوك والسلاطين وحكام الممالك الاسلامية من الامراء والاساطين لعدم اكترائهم بالاتراك والتتر وشدة ماهم فيه من النخوة والبطر ولاعتمادهم على حصونهم الحصينه وتعويلهم على معاقلهم المكينه ولكثرة العدد والعدد ومساعدة المدد والمدد ولوفور العمائر ببلادهم وخراب بلاده وبسطة استعدادهم وضيق استعداده لم يعاملوه الا بالمكافحه ولا ردوا جواب خطاباته الا بالطعن والمكالحه والسب والمقابحه ولا قابلوه الا بالمراجحه والمراوسة والمناطحه فقتلهم وأبادهم واستصفى طارفهم وتلادهم وتوطن ديارهم وبلادهم وأبادهم عن آخرهم واطفأ قبائل عشائرهم فدلا كابرهم اسمطة الرزايا ووضع في افواه أصاغرهم اثدية المنايا واضافهم في ولائم الدمار واطافهم على نجائب الانكسار في ملابس البوار فاستأصل شأفتهم بالكليه وحكم فيهم صوائل المنيه فلم يبق من مائة ألف انسان مثلا مائة انسان وذلك أيضا اما على سبيل التغافل أو على سبيل النسيان وسيذكر على سبيل الاجمال مايدل على تفصيل ماله من أحوال وشواهد مافرعه من أهوال واستمر ذلك في ذريته وان كانوا رجعوا عن ملته وأصل هذه الاصله التي أضحت بخلقان اللعن أكسى من يصله قبيلة من تلك التتار الساكنين في تلك القفار تسمى قنات ظلمقعتات غير أمناء ولا ثقات منها آباؤه واجداده وفيها أقاربه واحفاده واخوته وأولاده فنشأ كما ذكر بطلا باسلا وشجاعا كاملا سهام افكاره في عره مصيبه ورهام آرائه في مكره خصيبه ثم اتصل بعدما اختفى وخان بملك الخطا يسمى باونك خان وأظهر من أنواع الفراسه والفروسة والكياسه مافاق به اناسه وفات من العقل قياسه فقربه الملك وأدناه ولمهماته اصطفاه ولازال يترقى عنده الى ان ملك جنده وصار عضده وزنده ودستور ممالكه ومسلك مسالكه وحاكم أمرائه وناظم أمور وزرائه وناظر جمهور كبرائه وعين أعوانه وعون اعيانه وأعز من اخوته وأولاده وأبر من حفدته وتلاده وكثفت حواشيه وعظمت غواشيه وملأت السهل والوعر فواشيه ومواشيه فثقل على الوزراء وصعب على الامراء اذ صار الملك صار عليه ومرجع الامير والمأمور اليه فحسده أولاد الخان واخوته واجناده واسرته واعملوا له المكائد ونصبوا له المصائد وتعاطوا افساد صورته وتواطؤا على افساد سيرته فصاروا يتناوبون على ذلك في غيبته ويمزقون أديم عرضه عند الخان ويشقون ستر عصمته بمخاليب البهتان ويراقبون للكلام أوقات القبول ويواظبون في السعاية عليه بدلائل المعقول حتى أوغروا صدر الملك عليه وأخذ يفكر في كيفية ايصال الاساءة اليه ولم يقدر على مواجهته لوفور جماعته وكثرة حاشيته فان أوتاده كانت ثابته وغراس هيبته كالارزة نابته وفروع دوحة عصباته قد أحاطت بالملك

من كل جهاته حتى قيل ان ذلك الثقيل كان له من القرابات وذوى الارحام والعصبات
والاولاد والاحفاد ما جاوز فى التعداد عشرة آلاف نسمه كل له حرمة وكلمة فأضمر
له السلطان البيات وانتخب لذلك من عسكره أولى الثبات والاثبات الثقات ولم يختلف
عليه فى ذلك اثنان لانه كان قد استحكم فيهم منه الشنآن وعلموا انهم مكرهم نفذ
وحسام فكرهم فى قطعه فاذ ورأوا من الرأى ارصنه ان يراقبوا الحقه مكمنه فتواعدوا
على ليلة معينه يدهمون فيها مأمنه وكان عند الخان صبيان محرمان لا يؤبه اليهما
ولا يعول فى الامور عليهما يدعى أحدهما كالك والآخر باده فانسلا من بين أولئك القاده
وسلكا طريقا غير العاده واتيا تموجين الطاغية اللعين فى خفيه ونبهاه عليه وأخبراه
وبصراه وأنذراه وحذراه بما غال الأ عليه الملك مع عسكره المتهمك وقالا أيها العفريت
قد ظنك لك قدر التبييت فتنبه من النوم وارقب فى الليلة الثلاثية هجوم القوم فانه قد
مرج مارج الفتنة فأمرج وعن وهاد غفلتك أعرج ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج
وباعاه من السر ما جرى بخير المشترى وقصا عليه القصص فخلصا طير حياته من القفص
وظبى نجاته من القنص فشكراهما فضلهما واستكتمهما قولهما ثم تثبت فى أمره
واخفاء عن زيده وعمره وجمع تلك الليلة رجله وخيله ولم يبد تلك الحال لاحد من الرجال
بل أخلى بيوته ولازم سكوته وقصد احد الجوانب بجماعته من راجل وراكب وأقام
فى كمين ينظر أيصدق الواشى أم يمين فما مضى هزيع من الليل الا وقد هبطت الخيل
فوجدوا البيوت خاليه والاطلال خاويه فتحقق صدق الناقل وانه ناصح عاقل فعمل
مصلحته وأخذ حذره وأسلحته وتتر وقوع النكد فتقدم امامهم واستعد فقصدوه
وبالاذى رصدوه ولا زالوا يتبعونه حتى التقوا بمكان يسمى بيالجونه وهو عين ماء فى حدود
بلاد الخطا فاشتعلت بين الفريقين نار الحرب وقصد كل منهم الآخر بالطعن والضرب
فاعاده الله ونصره فكسر الخان وعسكره وفر عن معه من فئته وذلك فى سنة تسع وتسعين
وخمسمائه وغنم تموجين من الاموال والمواشى والاثقال وذخائر الخزائن ونفائس
البحار والمعادن ما فات الحد والحصر خارجا عن سعادة النصر وهرب الخان وتهدمت
منه الاركان فجمع جنكزخان عسكره وضبط أسماء من حضره ومن كان شاهدا القتال
ومواقف الحرب والجدال من النساء والصبيان والرجال ومن خادم ومخدوم وخاصم
ومخصوم ومامور وامير وكبير وصغير حتى السائس والجمال والطباخ والبغال والطفل
والرضيع والنذل والوضيع ومن شهد تلك الغاره أو كان فى تلك الداره ولو حاضرا
للتفرج مع النظاره واستبشر بوجودهم وتيمن بورودهم فأثبتهم فى الديوان باسماء آبائهم
وجدودهم وفرق عليهم ذلك الفىء ولم يرفع الى خزائنه منه شئ بل وزع ذلك المغنم الوافر
العظيم المتكاثر على الحاضرين معه من العساكر وضبط اسماءهم فى الدفاتر وفرق ذلك
العرض العريض الطويل على قدر الحقير منهم والجليل ووعدهم بكل جميل وأما
الغلامان اللذان أخبراه وعلى ما كان أضمره الخان أظهراه وكانا سبب حياته وخلاصه
من الموت ونجاته فانه جعلهما ترخان فصارا اسمهم مقاصده كانهما شرخان والترخان

عبارة عن المعافى المطلق يستوفي حقوقه ولا يقوم بما عليه من حق لا يؤاخذ بقصاص ان قتل وقس على هذا ما أوجبه القول والعمل مقضي المآرب موصول المطالب لا يكلف بخدمة ومباشرة ولا بحضور ومعاشرة مهما طلب أعطي ويعد صبيا ولو تخطى وأعلى مراتبه في مراعاة جانبه انه يدخل على السلطان من غير استئذان وهو نائم مع سراريه ونسائه وجواريه فيذكر ماله من مآرب فتقضى ومن شفاعة فتقبل وتمضى ويعطي بذلك مناشير وتواقيع وتقارير تبلغ التاسع من أولاد . وتشمل أحكامها جميع اسباطه واحفاده ولما انتصر وحصل آمنه واستقر وتعاظم أمره واشتهر وعظم صيته وانتشر قرر كل من حضر تلك الوقعه فيما يليق به من منصب ورفعه فأقبلت القبائل اليه وانهالت الرؤس والوجوه عليه ورجع الخان واستعد وأعد ما وصلت اليه يده من عدد واستعان عليه بالمدد والعدد ثم تلاقيا كرتين وتصاولا مرتين انكسر الخان في الاولى وقبض عليه بعد الكسرة في الاخرى فقتله وأباده واستملك بلاده واستولى على عساكره واستحوذ على ذخائره وعشائره وهربت أولاد الخان ولجأت الى أطراف تركستان ثم راسل سلطان الخطا والصين بكلام رصين يدل على عقل حصين واسم ذلك السلطان التون خان وطلب المهادنة والموافقه والمصافاة والمصادقه فلم يلتفت الى كلامه فضلا عن اعزازه واكرامه اتكالا على حسبه واستنادا الى نشبه ونسبه واعتمادا على سعة ممالكه وكثرة ملوكه ومناعة حصونه وعمارة بلاده ووفرة مملوكه فان ممالك جنكزخان بالنسبة الى ولايات الخاقان لاش واقل من لاش وعساكره وقبائله بالنظر الى أهل الصين أوشاب أوباش فرجع قصاد جنكزخان بالخيبه وذكروا ما رأوا الملك الصين من عظمة وهيبه فلم يلتفت اليه ثم قصد التوجه عليه بعدد كالرمال ومدد كالجبال وواقعه فكسره وناقفه فقصره وقبض عليه واباده واستصفى ولايته وبلاده وكانت هذه الكسرة والنصره في سنة احدى وستمائة من الهجره فاستقل من غير منازع ولا ممانع ولا مدافع فلما خلصت له الممالك وانقادت له الملوك والمالك أخذ في ترتيب الامور وتهذيب الجمهور وطير أجنحة مراسيمه الى اطراف ممالكه واكناف أقاليمه فرفع جميع ما هم عليه من النهب والغارات والتعزيات وطلب الثارات فهدم قواعد الظلم والتعدي في ممالكه فلم ير أين من ولايته ولا آمن من مسالكه وهي ممالك المغل والخطا والى الصين شرقا وولايات المغل والجتا وبلاد الترك والى حدود أترار ما وراء النهر غربا فجرى بعد النهب والاسار في ممالك المغل والتتار والبغي والعدوان العدل والامان والسلامة والاطمئنان وبعد السرقة والخيانه الوفاء والامانه وأمر بوضع البرد والمنارات والعلائم والاشارات وعمرت المفاوز والمناهل وسكنت الصحارى والمذاهل وعرفت طرق المهامه والمجاهل وائتلفت تلك الطوائف والامم وانتشر صيت عدلها في العرب والعجم واخترع كما ذكر أنواع سياسات وقرر للمملكة قواعد بنيان واساسات ألف بها بين تلك الطوائف فلم ير بينهم مخالف ولا غير موالف على سعة ممالكهم واختلاف مسالكهم وتعدد دياناتهم وتفاوت كيل اخلاقهم وميزانهم فانهم كانوا ما بين مسلمين ومشركين ومجوس وارباب ناقوس ويهود ومن لا يدين لمعبود

وصباه وغواه وعباد الشمس والنجوم ومن يسجد لها أوان الرجوم وكل منهم يتعصب لمذهبه ويبغض من مذهب صاحبه فلم يتعرض لاحد في دينه ولا وقف له في طريق اعتقاده ويقينه واما هو فلم يتقيد بدين لا كافر مع الكافرين ولا ملحد مع الملحدين ولا يتعصب على ملة من الملل ولا يميل الى نحلة من النحل بل يعظم علماء كل طائفة ويحترم زهاد كل ملة على دينها عاكفة ويعد ذلك انه وسيلة قربه حيث يعظم كل دين وحزبه وكل من اختار من أولاده واسباطه واحفاده وأمرائه ورعيته وأجناده دينا من الاديان لا يعترض عليه أي دين كان فبعضهم كان مسلما حنفيا وبعض كان يهوديا وبعض نصرانيا وبعض مجوسيا الى غير ذلك من الالحاد والزندقة وعدم الاعتقاد وحيث لم يتعرضوا الى دنياه ولا نازعوه ملكه الذي تولاه لم يشاققهم في دينهم ولم يوافقهم في يقينهم واخترع هو لنفسه في الملك قواعد حمل عليها الاقارب والاباعد ثم لما لم يكن له كتاب ولا خط ولا لاولئك الحروف فلم يعرفوا به قط أمر اذ كيا قبيلته وعقلاء مملكته أن يضعوا له خطا وقلما يكون لهم علما وعلما فوضعوا له قلم المغل واشتغلوا به أهم شغل ونسبوه الى قبيلته ليدلوا به على فضيلته فقالوا قوتاتقو يعني قلم قتات وهي قبيلة ذلك القتات فوضعوا مفرداته ورتبوها ثم حلوها وركبوها وهي اربعة عشر حرفا ظاهرة بينهم لا تخفى وهذه صورة مفرداتها

....

فأمر أولاده واحفاده وجماعته واجناده ومهرة الرجال والاذكياء والاطفال أن يتعلموا هذا الخط وينشروه ويتداولوه ويشهروه فانتشر بينهم حتى ملأ رأسهم وعينهم فرسموا به المراسيم والمناشير ورصعوا بجواهره جباه المساطير ووضعوا الرسومات الديوانيه والتوقيعات السلطانيه وابتدع لهم تواريخ وحساب كل ذلك بهذا الكتاب ثم لما تقرر أمره وانتشر في الآفاق ذكره مهد قواعد اسسها ونصب في دوحة ملكه أصول خلاف غرسها ووضع على ما اقتضاه رأيه التعيس وفكره الخسيس طرقا وقوانين ودرب في امور الحكومات اساليب وقوانين فجعل لكل حكومة حكما وفوق لكل حادثة سهما وفرع لكل حسنة مثوبه ولكل سيئة عقوبه وقرر لكل معصية حدا ولكل بنيان مخالفة هدا ولكل فرع أصلا ولكل سهم من الوقائع نصلا وبين كيفية الصيد والحرب وسلك في كل ذلك الطريق والدرب والقى درر وصى ذلك على أولاده وحفدته وجيوشه ورعيته بحيث انهم حفظوها ووعوها وفي سبر سيرهم هرجاوهرجاوعوها عن أحكامها المظلمه وفروعها المعتمه صلب السارق وخنق الزاني وان شم دبذلك واحد فلا يحتاج الى ثاني ثم فصل حد السارق بهذيان فارق فقال في السرقة من جركاه أو بيت شعر واهو وجوب الصلب وبقطع البدان كان بالنقب ثم كلا السارقين يؤخذ ما لهما من مال وعين ويسترق مالهما من اولاد ويقتل الى السلطنة مالهما من طريف وتلاد ومنها حقية دعوى من سبق سواء كذب أو صدق ومنها استعباد الاحرار وتوارث القلاح والاكار ومنها توريث نكاح الزوجة لاقارب الزوج وتداولهم اياها فوجا بعد فوج فان تزوجها أحد منهم كان أحق بها ولا تخرج عنهم والا زوجوها بمن شاؤا وأخذوا مهرها وباؤا ومنها عدم العده

وعدم انحصار الزوجات فى عدد ومنها الاخذ بقول الجوارى والصبيان ورعاية قوله على الرجال العبيد والنسوان ومنها امتثال امر السلطان على الفور من غير توان ومنها الزوم مالا يلزم من العطايا وايجاب ماتبرع به الانسان من الصلات والهدايا حتى لو اعطى شخص شخصا من ماله هدية او شيئا فان ذلك يلزمه وفى كل عام يغرمه ومنها الجثو بين يدى الحاكم على الركب وقت التحاكم ومنها مطالبة الجار بالجار ومعاقبة البرىء بجريرة مرتكب الاوزار وذلك لادنى مناسبه من معرفة اومصاحبه فضلا عن اكبر اصحابه اوشديد قرابه ومنها ان لا يتقدم الوضيع على الشريف ولو كان ذا مال عريض وجاه كثيف ومنها العمل بما يقتضيه العقل والكف عما لايدركه ولو ورد به النقل ومنها منع عفو الحاكم وان عفا المظلوم عن الظالم ونحو هذه الخرافات الباطله والهذيانات العاطله ومن احقها واوضحها واخفها انه لو اخذ ـ دابة عن قواعدهم ذوغفله من ثوب احدهم قله فان دفعها الى صاحبها خلص من تبعة عواقبها وغرامة مطالبها فان شاء قصعها وان اراد وضعها وربما اختار عودها الى مكانها فرجعها وان قتلها او رماها والى صاحبها ما اداها فان صاحبها يخاصمه والى حاكم التتار يحاكمه ويدعى عليه بين يديه بان هذا الانسان عمد الى حيوان ربيته بين صدرى ونحرى وغذيته بدم صدرى وظهرى فقتله قصدا واضاعه عمدا من غير سبب تقدم اليه ولا ايذاء اجترأ به عليه فينسبه الى الاجترام ويأخذ ديتها منه بالاغترام وقس على هذا اليسير انواعا من الكثير ومن ثم هذه البعرة على خرافة البعير ومن هذه القواعد امر الاقارب والاباعد بما يستصوبه العقل ويستحسنه النقل من سلوك طريق الفتوه ومعاملة الخلق بالمروه والكرم والاحسان والمداراة مع كل انسان والكف عن الظلم والغارات اللهم الا فى طلب الثارات ثم وضع طرق المكاتبات والمراسلات والمشافهات والمخاطبات فكان فى المكاتبات طريقته رسمه ان لا يزيد على وضع اسمه مثل ان يقول فى اول الكتاب وبراعة استهلال الخطاب عند ابتداء المقال بعد عدة اوصال جنكزخان كلامى ثم يكتب تحته من نصف السطر الثانى الى فلان افعل كذا ولا يتعال بان واذا ثم يذكر غرض المقصود بطريق معهود بين العبارات من غير مجازات واستعارات ويجتنب ذكر الزمان واسم المنزل والمكان واذا استدعى احدا الى الطاعه وسلوك السنة اسوة الجماعه فانه يجتنب التهويل والتهديد ويتحاشى عن التشديد والتشديد ويرغب بالوعد ويترك الوعيد ثم يقول ان سمعتم واطعتم فزتم وغنمتم وان ابيتم وتماديتم فليس امر ذلك الينا ولا درك علمه علينا يرى فيكم الخالق القديم رايه فان فى تقديره وتدبيره كفايه فهذه القاعدة باقيه فى تلك الفئة الباغيه مستقرة على الدوام والى هذه الايام جارية على هذا النمط يكتبون اسم الخان والخاقان فقط وكذلك الامراء والوزراء والمباشرون والكبراء يكتبون فى اول الكتاب فلان لا كنية ولا جناب وهكذا الى الاكابر من الادانى يذكرون اسم الكبير ووظيفته فلان لا الفلانى ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونه وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونه وقرر عليها الامور الديوانيه والاحكام السلطانيه امر بها فكتبت وبهذا الخط رتبت ورسمت فى طوامير ولفت فى

شقق الحرير وزمكت بالذهب ورصعت بالجواهر كأعمل مانى النقاش الكافر واضع مذهب
الجوس ومصورة على صفحات الطروس ومبرز المعقول بطريق المحسوس ليكون اقرب
الى تفهيم النفوس فى كتابه المسمى برندوا مقا ثم أمر باحترامها وتوقيرها والمحافظة على
ضبطها وتحريرها والعمل بها والاقتداء بمافيها وتعلق اهل ملته بقواعدها وخوافيها ثم
رفعت الى خزائنه وهى عندهم أعز من الكبريت الاحمر فى معادنه واسمها بالقلى التوره
وتفسيرها الملة المأثوره فاذا جلس منهم سلطان على سرير وذلك بما للرؤساء من اتفاق وتدبير
وعادتهم فى ذلك انهم اذا رفعوا عليهم سلطانا وأرادوا ان يتبوأ الدار المملكة مكانا اجتمع
الامراء من الاطراف واستدعوا اركان الثغور والاكناف واشتوروا فيما بينهم مدة ايام
واستمروا فى ذلك ما بين نقض وابرام وربما أقاموا فى ذلك الجمع العام حولا كاملا او ضعف
عام ويسمون تلك الجمعية قوريلتاى وهى مستمرة الحكم فى المغل والجغتاى وسبب ذلك
تدافع الامراء والفرار من ثقل السلطنة الحلوة المره كما كان الصحابة الكرام يتدافعون
الفتاوى خوف الآثام فاذا وقع الاتفاق بين الرفاق وامراء الجند ورؤساء الآفاق على
واحد من أولاد الخان وأن يكون عليهم الملك والسلطان وتصوب الرأى عليه وتسدد
وضعوه على لبد أسود ثم رفعه من الارض الى السرير أربعة انفس كل أمير كبير كل حامل
بطرف رافع فى زعمه راية الشرف والخان يصيح بلسان فصيح يا رؤساء ويا امراء
ويا ملوك ويا زعماء انا ما اقدر أن اتسلطن عليكم ولا طاقة لى ان احكم لديكم ولا قوة لى
بهذا الحمل الثقيل والدخول تحت هذا الامر العريض الطويل فيقولون بلى يا مولانا الخان
تقدر ان تقوم وتحمل أعباء هذا الشان فيتكرر الخطاب ويتعدد الجواب حتى يجلسوه على
السرير ويبتهج بذلك الكبير والصغير والمأمور والامير ثم يأتون بالتورة الجنكزخانيه
الملعونة الشيطانيه مجلة معظمة محترمة مكرمه فينهضون اعظاما لها ويتبركون بمس
اذيالها فينشرونها ويشهرونها ثم ينصتون فيقرؤنها ثم يبايعون الخان على اقامتها وان
يراعى احكامها حق رعايتها ويبايعهم على امتثال احكامها واجراء نقضها وابرامها
فيجيب كل منهم الامر على ذلك وان يقيم شعائرها الملوك والمالك ثم يضربون له الجنوك
ثلاث مرار ثم يتوجهون الى الشمس فى وجه النهار ويضربون لها الجنوك ويسجدلها
من فيهم من مالك ومملوك ولا يفعلون هذا الفعل الشنيع الا فى ايام الربيع فاذا تعاقدوا
وتبايعوا وتعاهدوا وتتابعوا رفعوا تلك الكفريات واحضروا الآلات الخمريات فادار
الخان عليهم الكاسات واستعملوا الاقداح والطاسات وفتح الخزائن واظهر المكامن
ونثر النثار من الدرهم والدينار وخلع الخلع والتشاريف واعاد فى دروس النفائس
ابحاث التصريف واستمروا على ذلك اياما والانعامات تدر عليهم خاصا وعاما ثم يأذن لهم
فيتفرقون ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون وهذه الطريقة مستعمله والى
آخر وقت غير مهملة فى جميع ممالك الشرق من الخطا والدشت والصين والمغل والجتا وفى
ولايات الجغتاى والروم قد اعتادوا غالب هذه القواعد والرسوم فقدموها على القواعد
الاسلاميه والشرائع الاحمدية المحمديه اللهم ألهمنا الصواب ولا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا

وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وسبب تحركه الى ممالك الاسلام وتوجه عنان عزمه الى طلب الانتقام هو أنه لما استقر أمره وانتشر بعد الجور بالعدل ذكره وطابت بلاده وامنت وخمدت حركات الظلم وسكنت توجه من بلاد ما وراء النهر رفقة في سنة ثلاث عشرة وستمائه فيهم ثلاثة انفار من اعيان التجار أحدهم يدعى احمد الخجندى والآخر عبد الله ابن الامير حسن الجندى والثالث أحمد بلجيخ ومعهم من أنواع المتاجر ونفائس الاقمشة والذخائر ما يصلح للملوك أولى المفاخر فوصلوا الى بلاده الجارى فيها مياه كفره وعناده وانتهوا الى قوقات والمسيل وهما محل سريره الذليل فاكرم نزلهم ورفع محلهم وانزلهم فى قباب بيض وافاض عليهم الكرم العريض وكان شعار المسلمين فى تلك البلد ان ينزلوهم فى قباب بيض من لبد وكانوا يقربون المسلمين ويحترمونهم دون الناس أجمعين ثم ان جنكزخان دعا أحد اولئك الاعيان واستعرض قماشه وساومه بعدما قربه واكرمه فطلب منه اضعاف ثمنه وسامه ما يقضى بغبنه وغبنه فارد جوابه ولا اعتبر خطابه ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ثم ساومهما الثمن فقالا ايا ملك الزمن ان صلح هذا القماش نخدمناك به بلاش فليكن ثمنه رضاك وهدية فى مقابلة ملتقاك وتقدمة منا اليك بل خدمة لنا دم ادخلنا عليك فاعجبه هذا الحوار وقال بل أنتم تجار انما جئتم لتربحوا وتكسبوا علينا وتنصحوا وأنتم ضيوفنا فالاولى ان يشملكم معروفنا ولكن انا اقول قولا وادفع اليكم نولا فان رأيتم فيه فائده وعاد عليكم منه عائده فباتموه والا فالرأى فيما رأيتموه ثم ذكر لهما مبلغا ارضاهما وبلغ به منتهى مناهما بحيث ربح درهمهما ثلاثة وأربعة وتضاعفت لهما مع قرب المسافة المنفعه فقالا رضينا بما رسمت وانعمت به وقسمت فقال لرفيقهما الاول ان رضيت بمثل ما رضى به صاحباك فتحول والا فخذ متاعك وتحول وشأنك وقماشك وتحسن مع ذلك رياشك فقال رضيت بما رضيا به وتلطف فى خطابه وجوابه فأمر فى الحال واحضر المال ووزن الثمن وزاد ومن والبسهم الخلع وافضل فى المصطنع وأمر ببضائعهم فرفعت وفى خزائنه وضعت ثم أمر خواص بطانته ان يدخلوا هؤلاء التجار الى خزائنه فلما دخلوا اليها ووقع نظرهم عليها رأوا من نفائس الاموال والذخائر وأصناف الاقمشة والحرائر وأنواع الجواهر الملوكيه وأجناس الامتعة الكسرويه واعلاق ملوك الصين ومتحفات الملوك والسلاطين ما ابهت نواظرهم وادهش ابصارهم وبصائرهم فتنزهوا فى محاسنها ابصارهم واودعوا احاسن مخيلاتها افكارهم ثم أتوا بهم اليه وادخلوهم عليه فقال ماذا رأيتم فى الخزائن من نفائس البحار والمعادن فقالوا ما لا يصلح الا فى خزائنك ولا ينتثر على فرق ملوك المشارق والمغارب الا من مكامن معادنك فقال ما بايعنا كم فارغبنا كم ولا اكرمنا كم اذ جهلنا كم بناء على أنا عادمون ولا انا بقيمة الاشياء وقدرها جاهلون وانما عملنا ذلك الاحسان وجبرنا منكم النقصان لعدة معان أحدها انكم اضيافنا وقد شملكم كرمنا وانصافنا ثانيها ان فضلنا الفضل يقتضى اكرام النزيل ثالثها انكم مسلمون والمسلمون عندنا مكرمون رابعها اردنا اشتهار اسمنا وان تذكر فى الاقطار طريقة رسمنا خامسها انه اذا سمع بمعاملتنا التجار يقصدون بلادنا من الامصار

وسائر الآفاق والاقطار فتعمر المسالك والدروب ويربح الطالب والمطلوب سيما
وهواء علاها واحسنها وأقواها أنكم املقونا وافدين وانا الاخصب رجاء القاصدين ثم
سرحهم شاكرين ولما عوا ورأوا ذاكرين ثم اقتضت الآراء فامر الامراء واكابر
بلاده ورؤساء اجناده ان يجهز كل منهم الى الجهات الغربيه والولايات الاسلاميه من
جهته احدا من المسلمين ببضائع من امتعة الخطا والصين في صفة التجار ليتعاملوا في هذه
الديار وتنفتح المسالك على السالك وتنقل اليهم بضائع هذه الممالك وتكثر المعاملات
وتتصل الممالك والولايات فامتثلوا مراسيمه وعدوها غنيمه وجهز كل منهم من جهته من
وثق بامانته واعتمد على كفايته وأعطاه من النقود والاجناس مايصير به من رؤساء
الناس واجتمعوا قافله وركبوا السابله نحو أربعمائة وخمسين نفرا كلهم مسلمون كبرا
وكتب لهم مراسيم وجائزات باكرام نزلهم في الدروب والمجازات ومعاملتهم بالكرامات
وان تهيأ لهم ولدوابهم الاقامات ذهابا وايابا حضورا وغيابا ثم ارسل معهم الى السلطان
قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن ارسلان بن محمد بن انوشتكين وانوشتكين هذا
هو اتابك الملوك السلجوقية والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك الذريه رسالة عاطره
تستميل خاطره وتسيل من سحائب كرمه مواطره وحسن الجوار ومراعاة جانب الجار وسلوك
ماتنتظم به الامور وتطمئن به الصدور ويحصل به الامن للصادر والوارد والرفاهية للقائم
والقاعد وتنعقد به أسباب المحبة من الطرفين واطناب المودة بين الجانبين وفتح باب
المراسلات وكشف حجاب المعاملات وان كانت الاديان مختلفه فلتكن القلوب مؤتلفه
وشمول نظر الصدقات السلطانيه وعواطف مراحمها الملوكيه على القصاد الوافدين على
أبواب مكارمها المستمطرين سحائب صدقاتها وديمها بحيث تتسنى مطالبهم وتتهيى مآربهم
اوكما قال وصدر منه السؤال هذا وأما اخبار السلطان قطب الدين فانه كان من أكبر
الملوك والسلاطين تملك عراق العرب والعجم ومافي ممالك خراسان من أمم واستولى على
غالب الممالك بالقهر والى اقصى ولايات ماوراء النهر وجعل جرجانية خوارزم مأواه وتلقب
لذلك خوارزمشاه ورفع مابين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التتار المسمين بقراجقتاى
وعباد الاوثان واسترقهم قهرا وقسرا واستصحبهم جبرا وكسرا واستولد من تلك الطائفة
المعتدين ولده السلطان جلال الدين فبواسطة انه صار لهم منهم ولد صاروا اقرب
عساكره اليه وعليهم المعتمد فكانوا شعوبا وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مقاتل ومنهم أيضا
كانت امه واخواله وخيله ورجاله الى ان خانوه وبدلوه وماصانوه واستدفع بهم طارق
البلاء فكانوه غريبه نادرة عجيبه كان هؤلاء التتار متاخمين بلاد انزار وهي حد ممالك
السلطان وهي سد عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان فغزاهم السلطان وأبادهم واستعبد كما
ذكر اجنادهم فارتفع السد من البين وانهدم الفاصل بين الجانبين واتصلت المملكتان
كالحبين اعنى مملكة السلطان ومملكة جنكزخان فسرت السرائر وابتهجت الضمائر
ودقت في ممالك السلطان قطب الدين البشائر وزينت الولايات بأنواع الذخائر وكان
في نيسابور من اكابر الصدور شخصان من اجلاء فاجتمعا واقاما العزاء فسئلا عن موجب

هذا

هذا البكاء وانما الناس فى فتوح وهناء فقالا انتم تعدون هذا الثلم فتحا وتتصورون هذا الفساد صلحا وانما هو مبدأ الخروج وتسلط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين وستعلمن نبأه بعد حين وانشدا فارشدا

وعلمت ان فراقكم لابد ان * يجرى له دمعى دما وكذا جرى

وكان السلطان قد دانت له البلاد واستولى على أهل البقاع والوهاد واباد ملوك العجم وتفرد بسياسة تلك الامم وتحت ملكه مملكة خوارزم وقد صمم العزم بحزم وحمل الناس على نزع الخلافة من آل عباس ووضعها فى آل على وقد توجه الى العراق بهذا القصد الجلى فوصل الى حدود العراق وهو مجد على هذا الاتفاق فوصل أوائل التجار الى اترار من صوب جنكزخان وبها من جهة السلطان نائب يدعى قايرخان فلما وصلوا الى البلد اخبر بهم النائب الرصد فحبسهم عنده فى مكان وأرسل يستأمر فيهم السلطان وبشع العبارة وشنع السفارة وذكر انهم جواسيس تستروا بالتجارة وان معهم من الاموال ما يوازى الرمال ويوازن الجبال مصراع

* وما آفة الاخبار الا رواتها *

فأمره بقتلهم وأخذ ما معهم وسلبهم ففى الحال ابادهم وسلبهم طارفهم وتلادهم وأرسل المال الى السلطان وأوصله حسب ارسمه الى الديوان فطرحوه على تجار بخارا وسمرقند كما يطرح على مساكين دمشق القند واستخلصوا ثمنه بالظلم وزادوا عليهم فيه الغرم وكان سبب ذلك أن تاجرا عند قايرخان اراد ان لايكون عند السلطان تاجر سواه فتبعه قايرخان لما اغواه فتعقدت الاسباب وانفتح للشر أبواب وقالوا شر أهرذا ناب فلم يفلت منهم سوى رجل واحد انجاه الله من العدو والحاسد فاختفى واتصل الى بلاده وأخبرهم بوقوع الامر وفساده فغضب جنكزخان وتحرك منه باعث العدوان ثم تثبت فى أمره وتلبث فى فكره وأرسل الى السلطان رسالة فيها تهديد وبسالة وكان السلطان خوارزمشاه لما ابدى هذا الخطأ وانهاه طير مراسيمه الى اطراف الممالك يأمرهم بالمحافظة على دربندات المسالك ويحرض ولاة الامور وأصحاب الادراك فى المضايق والثغور والطلائع والارصاد على منع القصاد وكف من يخرج من تركستان الى صوب ممالك جنكزخان ثم أرسل عن جهته جواسيس يختبر أحوال ذلك الابليس ويتطلع اموره وأوضاعه ومقدار عسكره وأمرهم فى الطاعة وما قصده أن يفعل ليستعد له بحسب ما يعلم منه ويعمل فتوجهت جواسيس السلطان وطال فى غيبتهم الزمان وقطعوا الجبال والقفار وسلكوا المفاوز والاوعار حتى وصلوا الى بلاده وفحصوا عن امره واستعداده وخبروا أمر جنده وعتاده واوضاع عسكره وتعداده فرجعوا بعد مدة مديدة وزمان واخبروا بما حقق السلطان وان عددهما كر يفوت الاحصاء ويخرج عن دائرة الاستقصاء وانهم اطوع البرية للملك واثبت جنانا من الاسد المنهمك واصبر جندا على القتال كان امر الهزيمة عندهم محال وانهم اذا واثبوا أو حاربوا اوسالبوا او لاسبوا او رابضوا او ضاربوا خابطوا ام خاطبوا

بقوله

ونحن اناس لاتوسط بيننا * لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وانهم لايحتاجون فى الاسفار ولا عند مقاحمة الاخطار الى كثير مؤنه ولا كبير معونه بل كل منهم ينهض باحتياجه واحتياج مركوبه الى ابلاغه واسراجه ويستقل بحمل سلاحه وجميع ما يستعين به سفرا وحضرا فى صلحه وصلاحه ونطاحه وكفاحه وكذلك ملبوسه وزاده وسائر اهبته وعتاده فندم خوارزمشاه على ما قدمت يداه من قتل أصحابه وفتح سد الثغر وبابه وانى يجدى الندم وقد زلت القدم وتبدل الوجود بالعدم وغرق فى بحر الهموم وهمى عليه غمام الغموم فشاور لذلك الشهاب الخيوقى وهو فقيه فاضل ونبيه كامل عالم أجل كبير المحل له عنده محل خطير لايخالفه فيما يشير فان رأيه سديد وقوله وفعله رشيد فقال له يا امام قد تحرك على الاسلام عدو الداخصام بعساكر كالرمال ذوى صدمات كالجبال فماترى فيما طرا فقال فى عساكرك كثره وأنت ذو قوة ووفره وزفرا قدامك له زفره فكاتب الاطراف واجمع عساكر الاكناف وادع أهل بيضة الاسلام الى هذا النفير فانه عام فاذا وفدوا عليك وعنّوا بين يديك توجه بهم الى نهر سيحون واجعل ساحله من تلك الجنود مشحون واملأ بهم تلك المهامه والقفار وحصن ممالكك الى حدود اترار فان اقبل العدو المخذول لم يصل الا وهو من الكلال محلول فانه يأتى من بلاد بعيده بجنود عديده وقد أثر فيه النصب وأخذ منه التعب والوصب فتلاقيه على سيحون وهم كالون ونحن مستريحون فجمع بعد ذلك امراءه ووزراءه وزعماءه وعرض عليهم ما جاءهم وطلب منهم آراءهم فلم يرتضوا رأى الشهاب لامر يريده مسبب الاسباب وقالوا بل نتركهم حتى يقطعوا الاوعار والمضايق ويتورطوا فى بلادنا بالعوائق فتزداد دهشتهم وتطول فى السير شقتهم لاسيما وهم بارضنا جاهلون وعن مداخلها ومخارجها ذاهلون فاذا حصلوا فى قبضتنا كان امكن لنهضتنا فنضيق عليهم واسع رحابها وأهل مكة اخبر بشعابها وذهل أولئك الجمع عما رآه الفقيه وهو ان الدفع أولى من الرفع وبينماهم فى المشاورة والمراودة ورد قاصد جنكزخان برسالة المتأكده وفيها من التشنيع والتقريع والتهديد والتبشيع العجب العجاب ومايشيب الغراب فمن جملة تشنيعاته ومضمون تهويلاته مامعناه فى فحواه كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم اوجاز فى اعتقادكم ويقينكم ان تريقوا دم الابرياء اوتستحلوا أموال الاتقياء وتعادوا من لاعاداكم وتكدر واعيش من صادقكم وصافاكم لتحركوا الفتن النائمة او تنهضوا الشرور الجاثمه اوما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم اوما اخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم اتركوا الترك ما تركوكم وكيف تؤذون الجار وتسيؤن الجوار ونبيكم قد أوصى به مع انكم ما ذقتم طعم شهده أوصابه ولا بلوتم شدائد اوصافه واوصابه الا وان الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف واستدركوا ماسلف قبل ان ينهض داعى الانتقام ويتحرك من الفتن حامى الاضطرام ويقوم سوق الفتن ويظهر

من

من الشر مابطن ويموج بحر البلاء ويروج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولابد ان الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر أسرار ربوبيته وآثار عدله فى بريته فان به الحول والقوه ومنه النصرة مرجوه فلترون من جزاء افعالكم العجب ولينساب عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب وكان اللعين جنكزخان قدمشى على تركستان وأخذ منها عنوة كاشغر وبلاساغون وصارتا فى حوز ذلك الملعون وكانتا فى يد كوجلك خان بن اونك خان المار ذكره فى اول القصه لما قتله جنكزخان وقصده هرب ولده كوجلك خان المغبون واستقر فى كاشغر وبلاساغون الى ان مشت العساكر عليه وأخذت تلك الاماكن من يديه فلما وصل هذا الخطاب الى ذلك الاسد الوثاب أمر بمقدم القصاد ورئيس اولئك الوراد فضربت رقبته وبرق حلقت لحيته وسخمت بالسواد حليته ثم رد الجواب بأبشع خطاب ومن فحواه وبارد ما حواه انى سائر اليك وهاجم عليك بجنود الاسلام واسود الآكام وكل بطل ضرغام ولو بلغت مطلع الشمس فعلك فى قعر الرمس وجاءلك كذاهب امس فتيقن ذلك واعلم انك لا محالة هالك ورد قصاده على عقبهم وقصد التوجه فى ذنبهم فتجهز وسار بعسكر جرار الى صوب التتار واوصل السير وسابق الطير وأراد ان يسبق الخبر ويكبس التتر ويريهم عين العلم قبل الاثر فالوى من العراق وسار وساق فقطع ممالك خراسان وولايات ماوراء النهر وتركستان وهجم بذلك البحر الزخار فى تلك المهامه والقفار فوصل الى حشم فى بيوت وهم آمنون فى سكون وسكوت ليس فيهم غير نساء وصبيان ومواش وبعران رجالهم غائبه وأمورهم بواسطة الامن سائبه وكانت رجالهم توجهت لاخذ الثار من بعض التتار بواسطة عدوان وقع بينهم وبين كوجلك خان فقاتلوهم وكسروهم ونهبوا أموالهم وهصروهم ففى غيبتهم وصل السلطان الى بيوتهم وفى امنهم وسكوتهم وليس فيهم الا الحريم والاطفال والمواشى والاثقال لايؤبه اليهم ولا يعول عليهم فاستولى عليهم ونهبهم وسلبهم عيشهم وسلبهم وأمر العساكر فنهبوهم واسروهم وفرقوهم وكسروهم وهم الجم الغفير والعدد الكثير والمال الغزير ورجع السلطان من فوره وابتدا فى حوره وبعد كوره وتصور انه اعفى وانكى وانه اضحك وليا وعدوا ابكى فما هو الاوضع على القرح كيه وداس ذنب الحيه ثم رجع التتار ورأوا ما حل باهلهم من بوار وانهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم ونكبوا فى طريفهم وتلادهم وان نساءهم اسرت وصفقتهم خسرت فما وفت نصرتهم بكسرتهم ولا قامت فرحتهم بحسرتهم التهبوا واضطربوا واصطلوا واصطدموا وأخذتهم الحميه وعصبتهم العصبيه وتنادوا بالغارات وطلب الثارات وتناخى منهم حماة الحقائق وكماة المضايق وتبعوا فى الحال آثار الرجال من غير اهمال ولا امهال وسلكوا الاثار لاخذ الثار وأكبوا كالبرق الخاطف وزعقوا كالرعد القاصف واندفعوا كالريح العاصف واندفقوا كالسهم الناقف ودهموا كالليل المدرك وهجموا كالسيل المهلك فادركوا عساكره بشرور ثائره وصراجل صدور بالضغائن فائره فلم يشعروا الا والعدو المضرم غشيهم كالقضاء المبرم فالوت عساكره وقابلت واستعدت وقاتلت والتقت الرجال

بالرجال وضاقت ميادين المجال واستقرت ضروب الحرب بينهم سجال وتطاولت سهام الموت لقصر الآجال وتهللت ثنايا المنايا لبكاء السيوف وتبسمت ثغور الرزايا لفتوح الحتوف واستقرت ديم السهام من غمام القتام على رياض الصدور تهمى ولوامع بروق السيوف على رقم تلك الصفوف بعد الوابل الوسمى بالصواعق ترمى ثم انتقلوا من معاشقة المراشقه الى مراشفة المعانقه ومن مكالمة المضاربه الى ملاكمة الملاببه ومن مخادعة المقارعه الى مسارعة المصارعه واستدت بهم الحال فى هذا القتال والجدال ثلاثة أيام مع الليال لا يسأمون الطعن والضرب ولا يملون مباشرة الحراب والحرب الى ان جرى من الدماء طوفان وكاد يظهر سر كل من عليها فان كل ذلك وكاتب البيض والسمر يستوفى من اقلام الخط فى صحائف الصفائح مستوردات العمر ولم يسمع بمثل هذا القتال ولا بنظير هذا الضراب والنضال فى سالف الازمنة والاعصر الخوال وما امكن تولى احدى الطائفتين ولا نكوص جهة من الجهتين اما طائفة المسلمين فلحمية الدين ولو ولوا الادبار لما ابقت التتار لبعد الديار وصعوبة القفار منهم نافخ نار وأما الكفار فللغيرة على ذوات الاستار واستخلاص الاطفال والصغار من قيد الذل والصغار ورق الاسار فصارت الخضراء غبراء والغبراء حمراء والصحرا بحرا والقتلى تلا والجرحى طرحى ولم يثبطهم عن استيفاء القتال غير انحلال الاعضاء والكلال فانفصلوا وما انفصلوا وانقطعوا بعدما اتصلوا وحلوا بعدما كانوا وتراجع كل عن صاحبه بعد ذوبان قلبه وقالبه واستفراغ جهده بما وصلت اليه غاية كده ثم استوفى ناظر القضاء ما أورده عامل الفناء من سهم المنون الى ديوان برزخ الى يوم يبعثون من أرواح الشهداء الابرار وأنفس الاشقياء الكفار الوارد من تلك المعركه السا كن من حركات هاتيك التهلكه فكان من المسلمين عشرون ألفا ومن الكفار كذا وكذا ضعفا غير انه لم يكن حصرهم ولم يعرف قدرهم فلما كانت الليلة الرابعه وهى الليلة الفارقة القاطعه أوقد كل من الفريقين فى منزله النار وأكثر من القبائل فى المنازل والآثار وتركها وسار فوصل السلطان من بلاد تركستان وقطع سيحون نهر خجند ووصل الى بخارا وسمرقند وشرع فى تحصين البلاد والقلاع والاحتفاظ بمدن الممالك عن الضياع وقد سكن الهم فؤاده ونهب القلق والارق رقاده وعلم المسلمون انه خار وانه لا طاقة لهم بالتتار فخافوا حلول البوار ونزول الدمار وتيقنوا خراب الديار لان السلطان عاجز ولا بد من قدوم بلاء ناجز وقالوا اذا كان هذا الحور من شرذمة قليلة من التتر فى طرف من أطراف بلاده لا فيهم أحد معتبر من أجناده ولا رئيس يشار اليه من أولاده ولا ذرى ولا علم بما جرى فكيف اذا دهم بطامته الكبرى واحتشاد جيوشه العظمى فترك خوارزمشاه ببخارا عشرين الف مقاتل وفى سمرقند خمسين ألف مناضل وقرر معهم انه سيجمع الجنود ويستجيش ابطال المسلمين ويعود وتوجه بثبات عزم واضاعة حزم الى سرير ملكه خوارزم ثم انتقل الى خراسان وخيم بنواحى بلخ فى مكان وأقام رخى البال كان الشئ ما كان ثم لا زال يضمحل ويذوب ويحل به ما يحله من نوائب الخطوب حتى انتقل الى جوار الرحمن فى اطراف طبرستان فى سنة سبع عشرة وستمائه وكانت ولايته فى العشرين من شوال سنة

ست وتسعين وخمسمائه وكان ملكا عظيما وسلطانا جسيما ذا صولة قاهره ودولة باهره وجولة أرقدت الملوك بالساهره فاضلا فقيها عالما نبيها اضمحل بادنى حركة ملكه وغرق في بحر الفناء بعد الطغيان فلكه وركن الى الخطاء فوقع فيه وخانته عساكره وخالوه وود الخلل منه وفيه وكان في خزائنه عشرة آلاف ألف دينار ومن أجناس الاقمشة والامتعة والاسلحه مالا يحصيه الا الواحد القهار وكان فيها ألف حمل من القماش الاطلس واضعاف ذلك من نفيس النفائس وانفس ومن الخيل المسومة عشرون ألف جنيب ومن المماليك الملوك عشرة آلاف كل له في دار الملك ربع خصيب وأوفر حظ ونصيب فما أفاد ذلك ذرة بل نبشوا بعد موته قبره وقطعوا رأسه وجعلوا به ناسه فسبحان من لا يزول سلطانه وعز وعلا من لا يذل شانه

فما كف ذو كف له رائد الردى * ولا مال بالاموال عنه حمامه

ولا ملك كلا ولا ملك حمى * حمى ملكه لما عراه انهدامه

وبسط المقول فيه شرح يطول وأما أمر الطاغيه صاحب الفئة الباغيه جنكزخان لما وصل قصاده من عند السلطان بعد الفناء والشده لحاهم محلوقة ووجوههم مسوده وقد قتل رئيسهم وخلا من نقد مرادهم كيسهم ذهب حفاظه والتهب شواظه وطمت بحار كفره وتلاطمت وتزعزعت أطواد شركه وتصادمت وبينما هو يرغي ويزبد ويقوم من غضبه ويقعد اذ جاءه الخبر الثالث وهو شر الحوادث اذ فيه خبر من قتل من الكفار وانتقل من دار الخسار الى دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار فاحل في قلبه نصله وكان أولا قد زاد على قرحه قرح مثله ثم كان خبر هذا القرح طامة مذرورا على جرح فقامت قيامته وتموجت بالحزن قامته وود لو أحرق الكون بانفاسه وهدم أساس المكان بفاس باسه ثم تروى وافتكر وتهوى من نحو هذا الشرر ثم قصد مذهب الاعتزال وانزوى عن جماعته في مكان خال ودخل الى مكان خراب وعفر وجهه في التراب وتضرع الى الله الحليم وقال يا خالق يا قديم انا أردت ان أعمر بلادك وانعش عبادك فظلمهم يا الله عبدك خوارزمشاه وتعدى علي وكرر الاساءة الي فانتصر لي منه وانتقم فانك جبر من كسر وعون من ظلم واستقر على هذه الحال ثلاثة ايام وليال لا يأكل ولا يشرب ولا يفتر عن التضرع والطلب يمرغ رأسه ووجهه في الثرى ويقصد فيما يرومه رب الورى وقد قيل

تضرع جنكزخان لله ساعة * وأخلص فيما رامه وهو مشرك

فما خاب فيما رامه من فساده * ومازال يعثو في الانام ويسفك

فما بال من لله طول حياته * يوحد بالاخلاص هل هو يهلك

ثم نهض نهضة أنام فيها الانام وقام قومة أقام بها ساعات القيام فتوجه من مشركي التتار وعساكر الكفار بالبحار الطامية والامطار الهامية وجبال النيران الحامية في شهور سنة خمس عشرة وستمائة ومشوا على ممالك الاسلام وساروا على بسيط العالم سير الغمام وأرادوا اطفاء نور الايمان من اشراكهم بظلام فوصلوا الى البلاد وهي بهجة المرتاد آمنة مطمئنة ساكنة مستكنة وليس لها مانع ولا ممانع ولا لاهلهم عنها دافع

ولا مدافع ولا بها حام ولا محام ولا سام ولا مسام فأخنوا على جندوقراها وولاياتها وما والاها رابع صفر عام ستة عشر وأظهروا فيها علامات الحشر فادهشوا وهلها وسبكوا أهلها ودكوا جبلها وملؤا بجبال القتلى سهلها فقتلوا الخاص والعام ومدوا الى ذخائرها النهب العام فاراح بها رجله وخيله وأحاط بها ثبوره وويله واستمروا في نهبها ست عشرة ليلة ثم تنقلوا عن جند الى ولايات اندكان وفنا كث وخجند فاخذوها وقتلوا وفعلوا كما كانوا فعلوا ثم الى بلدة مرغينان وكانت دار ملك ايلك خان ثم الى اطراف تركستان ومنها سيرام وتاشكند وباقي البلدان ثم الى نسف وأنزار وسغناق وما من أمهات البلاد في تلك الآفاق

غشوا على سهل البلاد ووعرها * مشي الجراد على القصيل الاخضر
فكانهم موسى على شعر مشت * أو منصل فوق الحصيد الاصفر
او شعلة نار الهوا فتعلقت * فوق الصعيد على الهشيم الاغبر

فكل من أطاعهم وقصد اتباعهم صار من جملتهم ودخل في عدتهم ومن عصى او توقف او خالف او تخلف سقوه كاس الدمار واحلوه وقومه دار البوار واسروا حريمه واولاده ونهبوا طارفه وتلاده ثم ان تلك الدواهي المصيبه في يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وصلوا الى بخارا بلدة فضلها الايمان قبة الاسلام وكرسي ملوك بني سامان مجمع العلماء والعباد والصلحاء والزهاد ومنبع المحققين من الفقهاء الامجاد والمدققين من النبهاء الانجاد وفيها من الاكابر والاشراف واوساط الاماثل والاطراف الجم الغفير والطم الكثير فلما رأى العساكر السلطانيه والجيوش الخوارزمشاهيه الذين كان أرصدهم السلطان لحفظ البلدة من طوارق الحدثان وهم عشرون ألفا ان البلاء زحف اليهم زحفا وان كسرتهم منهم لا تخفى وان سيل الويل حطم وموج بحر الدواهي التطم ومن لم يدرك من الغرق نفسه ارتطم شمروا الذيل وخرجوا تحت الليل وقصدوا اجتياز العبور الى خراسان ومقدمهم من امراء السلطان كورخان وسونج خان وحميد النوري وكوجلي خان فبيناهم على نهر جيحون قاصدين العبور صادفتهم طلائع جنكزخان الكفور فوضعوا السلاح فيهم ومحوهم عن بكرة ابيهم فما ابقوا منهم عينا ولا اثرا ولا سمع لهم أحد خبرا فوهي امر البلد اذ لم يبق لهسم مدد فطلبوا الامان وأرسلوا لذلك القاضي بدر الدين ابن قاضيخان فاجابهم الى ذلك واناب فاطمأنوا وفتحوا الابواب فدخلوا المدينة يرفلون وهم من كل حدب ينسلون فعصى بقية العسكر في القلعه وتصوروا ان يكون لهم منه منعه ففي الحال أمر الرجال بطم الخندق بكل ما وجدوا جل أودق فالقوا به نفائس الاقمشه والذخائر المدهشه والكتب والربعات والمصاحف الشريفة والختمات وطرحوها في الخندق ومشى العسكر عليها وتسلق ونقبوا النقوب وانفذوا الثقوب وكان قد نادى بالامان للقاصي والدان فعجزت القلعه وذهب ما بها من منعه وكان فيها فئه نحو من أربعمائه فباشروا الحرب دوما نحو اثني عشر يوما فاخذوا عنوة بالانقاب وفتح لهم من كل جهة باب فقتلوا من بها عن اخرهم واستولوا على باطنهم وظاهرهم ثم مدوا أيديهم الى المخدرات وبجروا ظاهرا بالمسترات وجعل الناس ينظرون ويبكون وهم مقتكون وينكون

لا يستطيعون دفعا ولا يملكون ضرا ولا نفعا فاجتمع من ائمة الدين ومن أعلام العلماء المهتدين ومن لم يرض بعمل المفسدين جماعة غاروا وثاروا وفاروا وانضموا الى العلامة القاضي صدر الدين قاضيخان وأولاده السادة القادة الاعيان والحاكم الشهيد الامام العالم السعيد والامام ركن الدين امام زاده واختاروا الموت على الشهاده فحملوا على الفئة الطاغيه والطائفة الكافرة الباغيه وقاتلوا حتى قتلوا والى جوار الله مقبلين انتقلوا فاستشهدوا عن آخرهم ولحق اصاغرهم باكابرهم ودخل جنكزخان الى المدينه وطاف بها على هيئة وسكينه حتى انتهى الى باب الجامع مكان نزه وموضع رائع ومحل شريف ومعبد واسع ولم يكن لذلك البلد الكبير والجم الغفير والجمع الكثير والمصر الواسع من الجوامع سوى جامع واحد يجمع الصادر والوارد ويسع ماشاء الله من الامم وهذا على مذهب الامام الاعظم وهكذا كل امصار الحنفيه في الممالك الشرقيه والممالك الهنديه وغالب البلاد التركيه فقال جنكزخان هذا بيت السلطان فقالوا بل بيت الرحمن ومأوى عبادة العباد والعلماء والزهاد وذوي الطاعة والاجتهاد فقال ان أولى ما أقمنا افراحنا في بيت من خلق أرواحنا ورزق اشباحنا ثم ألوى اليه وأقبل عليه ونزل عن دابته ودخل الجامع مع جماعته ثم دعا بامرائه وكبراء جنده وزعمائه واستدعى الخمور والطبول والزمور وهش الى الكفار وعظمهم وبش فرحا واحترمهم فسجد له منهم الملوك وضربوا له الملوك وعرفوا حقه ورعوا ورفعوا بالثناء صوتهم ودعوا فأذن لهم بالجلوس وان تدار عليهم الكؤس فجلس كل في مكانه بين اضرابه واخوانه وقام بعض في مقامه في موقف حده واحتشامه فتصدر في مجالس العلم والاذكار ومحاريب الصلاة الكفرة الفجار ورؤس المشركين من المغل والتتار واستبدلت محافل العلم والتدريس بمحافل الشرك والتنجيس ثم أحضروا العلماء والاشراف والكبراء وسادات الانام ورؤساء الخواص والعوام وأنزلوا بهم الثبور والويل واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيل وصارت الناس حيارى سكارى وماهم بسكارى وأخذتهم بهته اذ أتاهم العذاب بغتة ولم يكن بين رحيل السلطان وبين هجوم هذا الطوفان غير خمسة أشهر وأيام ساروا فيها سير الغمام وهجموا على العالم هجوم الظلام وكان الناس كانوا نياما ورأوا في منامهم أحلاما فلم يوقظهم من هذا الرقاد سوى ابراق البلايا بالارعاد فانسد عليهم طريق الخلاص وضاق بهم المدد في شدة الاقتناص وتنادوا ولات حين مناص اذ فارقهم العسكر وهم في حال المضطر وكان من جملة أولئك الاعيان شخص ولي يدعى السيد الشريف جلال الدين علي بن حسن الزيدي وهو المقدم والمقتدى والمسلك الى طريق الهدى وأعلى سادات ما وراء النهر ودوحة ساداتها بمنزلة الثمر والزهر قد قبض عليه وربطوا الى عنقه يديه ثم استنظروه مراكبهم وانشبوا فيه مخاليبهم وهو واقف بباب الجامع في هيئة الذليل الخاضع فرأى الامام الهمام البحر الطام علم العلماء الاعلام أفضل علماء عصره وانبل فقهاء دهره الشيخ ركن الدين ابن الامام بوأهما الله تعالى دار السلام وهو في مثل حاله متسربل بسربال نكاله فقال ايها الامام المفضال ماهذه الاحوال ثم انشد معنى هذا المقال

اري حالة يذت لسانى فليس لى * طريق الى انى افوه بلفظة
اعض لها كفى واعمل مقلتى * افى النوم هذا ام اراه بيقظة

فاجاب الامام ما هذا محل الكلام كن عبد الاراده واتبع ما اراده واستمروا يشربون الخمور على اصوات الزمور ويضربون الطبول ويتراقصون رقص التتار والمغول ثم صعد المنبر ابن جنكزخان الاكبر واسمه توشى خان وتكلم بكفر وكفران ثم غنى ورقص ودعا لابيه ونكص ثم صعد بعده ابوه وتكلم بكلام سمعوه ودعا بالخمر وشرب ثم غنى وطرب ثم قال ايها الرجال ان خيلنا هى رأس المال وقد رعيتم الوهد واليفاع وحلقتم شعور الكلا من قمم البقاع وقد شبعتم فلا تنسوا الجياع الافاشبعوا خيلكم ولا تحرموها بلكم وحيث رعيتم الخضيم فابغوا لها القضيم وامتثلوا امر سلطانكم تحظوا منه بما فاتكم فنهضوا قياما وامتثلوا امر سومه مراما وتهاربوا كالحمير وابتدروا طلب القمح والشعير ثم طغى وتكبر وبغى وتجبر ونزل عن المنبر فلم يكن باسرع من اتيانهم بالحبوب والقضيم المطلوب وادخلوا الخيل الى الجامع وطلبوا لها مرابط ومواضع ثم أفرغوا خزائن المصاحف والختمات وظروف الكتب واوعية الربعات وصبوا فيها الشعير واطعموا فيها الخيل والبغال والحمير فتبددت الكتب المنيفه والمصاحف الشريفه والربعات المعظمه والختمات المكرمه تحت السنابك والحوافر ومواطئ أقدام كل كافر وصارت أجمر القاذورات والخمور على تلك النفائس والذخائر غور ثم انه خرج من البلد وأمر ان لا يترك فى البلد أحد بل يخرجون الى المصلى وولى حفظهم من كفر وتولى ومن تأخر قتلوه ويتكوه بتلوه فخرجوا كالجراد وانتشروا على الوهاد واجتمعوا فى المصلى ثم على المنبر تعلى وخطب خطبة تركيه كافريه مشركيه منها انكم ركبتم عظائم وأتيتم مآثم وجرائم فتقدم ربكم اليكم أن سلطنى عليكم وهذه الاوزار انما جناها منكم الكبار فلاجل هذا عم البلاء وذهب بجريرة الكبراء الاصاغر والضعفاء ثم ضبط أسماء التجار واستخلص ما عندهم من درهم ودينار وقال هذا ثمن مالى من نقد واعيان الذى كان مضكموه السلطان فلما استخلص الاموال أمر بقتل الرجال وأسر النساء والاطفال والنهب العام لسائر الاغنام ومن أخذ شيأ فهوله لا يقطع أحد سبيله ثم أمر بهدم البلد والاحراق واعدام عينها على الاطلاق فهما قال فعلوه وكل ما رسم به امتثلوه فساووا بالبلد الارض واستوفوا أعمار أهلها بالفرض والقرض فلم يبق منهم ديار ولم ينج من تلك النار العظيمة نافخ نار وقيل انه نجا من هذه الواقعه رجل باقعه فوصل الى خراسان فسألوه عن هذا الشان كيف كان فقال لهم بذلك اللسان ما صورته

آمدند وكندند وسوختند * وكشتند وبردند ورفتند

يعنى هجموا وهدموا واحرقوا وارهقوا ونهبوا وذهبوا فقيل لم يوجد فى الفارسى فى هذا المعنى احسن من هذه الالفاظ ولا اوجز ولا امتن ثم امر الجند بالتوجه الى سمرقند فتوجهوا بالاثقال من الاموال والاسرى من النساء والاطفال مشاة حفاة اذلاء عراه فلم يتوقف كل اعتى اعتف وكل اقرا غلف فى ضرب رقبة من اعيا او توقف فوصلوا

اليها واخذوا عليها وفيها من العساكر الا كفا مائة الف وعشرون الفا سبعون من اهل البلد وخمسون من المرصدين للمدد فتجهز عسكر البلد للقتا وخرجوا من البلد للملتقى فكمن لهم التتار من اليمين واليسار في رواب وتلال تسمى بالاحصار فناوشهم من عساكر الكفار شرذمه ثم ولت أمامهم منهزمه فركب البلديون اعقابهم وداسوا اذنابهم الى ان ابعدوا عن البلد وانقطع عن البلديين المدد خرج الكمين من خلفهم لقطع رجل مددهم وكفهم ورجع عليهم الفارون واحاط بهم الغادرون وتلاحق بهم عساكر لا أول لهم ولا آخر فلم يفلت منهم واحد ولا صدر عن حياض تلك الملحمة وارد فلما شاهد العساكر الخوارزمشاهيه ما نزل بالجنود البلدية من داهية ورزيه لم يسعهم الا التراحي عليهم والانحياز اليهم فداروا ودار واوا اللبيب من دارا فوقوا بذلك انفسهم واهليهم نارا فلم يركنوا اليهم ولا اعتمدوا عليهم فرأوا مصلحتهم في سلبهم اسلحتهم فطلبوا منهم عدتهم ثم فرقوا عدتهم كما فعل تيمور الغدار في بلاد الروم بالتتار عند كسر ذلك الخوان في سنة خمس وثمانمائة بايزيد بن عثمان فلم يبق لاهال البلدمعين ولا مدد فاستسلموا للقضا وجروا طوعا وكرها في ميادين الرضا فأحل بهم بوارا وانزل دمارا ففعل بسمرقند واهلها ما فعل ببخارا ودور وأسوارها بدلالة آثارها من الفراسخ اثناعشر لا يمترى في ذلك اثنان من البشر فقس ما في ذلك من الخلائق والامم فالكل براهم سيف القلم كما يبرى السيف القلم ثم قوى العزم وسدد الحزم وجهز طائفة من العساكر الى خوارزم مع ولديه احدهما المدعو بجغتاى والمسمى الآخر باوكتاى وهي تحت خوارزمشاه وفيها من الامم ما لا يعلمه الا الله معدن الافاضل ومقطن الاماثل محط رحال أهل التحقيق ومقصد رجال الفحول ذوي التدقيق ولو نور ما بها من الروس لم ينفرد بها رياسة رئيس ولكثرة ما بها من الناس لم يتعين لسياستهم راس فاتفق اكابرها الضبط امور المسلمين على تقديم شخص يدعى حمار تكين فبعد حروب يطول شرحها ويهول برحها ويجب قرحها ويستصعب طرحها أخذوها عنوه بعد ما قاسوا جهده فاستصفوا أرباب الحرف ومن تعلق من صنعة بطرف فكانوا نحوا من مائة ألف بيت أو يزيدون ان عددتهم وعديت ثم ميزوا النساء والاطفال وكانوا كعدد الحصا والرمال ففرقوهم على ذلك العسكر الثقيل فكفى الحقير منهم والجليل ثم فصلوا بالحسام القصال مذاوع ذوات ما بقي من الرجال ثم أرادوا حصرمن قتل واقامة عدد من بتك وبتل فكان حصة كل فتال قتال على ان عددهم أكثر من القطر والرمال اربعة وعشرين مقتولا ثم فعلوا بالبلد كعادتهم الاولى فهدموا أسوارها ومحوا آثارها وأجروا من بحار الدماء انهارها فانمحى العلم والعلماء واندحى الفضل والفضلاء واستشهد الرؤساء والكبراء وناهيك بالقطب الولي الشيخ نجم الدين العكبري وتوجه جنكزخان من سمرقند قاصد السلطان وحرمن أطوار عسكره بكل أخشب حتى أناخ على ترمذ ونخشب فاستنزعنا عليه ولمناعتها لم تلتفتا اليه وكانتا كثيرتي العدد والعدد غزيرتي المدد من مدد وهما من امهات البلاد مملواتان من آلات الجهاد ومقاتلة الاجناد فاهلك ناسهما وسقاهما من خمر التشريب كاسهما فلم يبق لهما فيا ولم تغن العدد والعدد عنهما من الله شيأ ومن

غريب ما وقع من البدع انه امر باهل ترمذ ان يقتلوا عن آخرهم مع اهلهم وعشائرهم ولا يبقى فيها على احد وارصد على ذلك الرصد فاتفق ان امرأة من المخدرات تخجل الشموس النيرات قبضوا عليها وتقدموا باراقة دمها اليها فتشفعت فما افاد وتضرعت فما زاد الا العناد فلما أسلت وتلوها للجبين وعلمت أنه جاءها الحق المبين قالت لا ولئك الكفار لا تقتلوني باحضار وانا افتدي نفسي منكم بعقود من اللؤلؤ كبار فانهوا القضية اليه وعرضوا ما قالته عليه فقال اتركوها ثم عما قالت طالبوها لننظر اصدقت أم اختلفت فأطلقوها وبتقاضي اللؤلؤ أقلقوها فقالت لم افه بزور ولا دليتكم بغرور وانما اللؤلؤ كان عندي وحين استخلصتم مالي كان في يدي خفت منكم فابتلعته وتبا لفعل صنعته فأمهلوني حتى ابرز ويخرج مني ذلك الحرز فأنهوا كلامها اليه وعرضوا امرها عليه فقال ابقروا بطنها وانظروا باطنها فان وجدتم شيأ فهو لكم وان كانت كاذبة فقد استحقت فعل كم فشقوا بطنها البطين واستخرجوا منه الدر الثمين فلما رأوا واصدقها وحققوا نطقها امرهم بشق بطون جميع القتلى وتفتيش ما طرحوه من جبال الاشلا فلم تنج رؤس الروس من المثلة بعد القتل ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل اثر البتل ثم أمر بهدم الحصون بعد ابتذال المال والعرض المصون فحيت الديار ولم يبق فيها ديار ثم عبر من جيحون الى خراسان وجعل نصب عينيه ممالك السلطان وتوجه الى بلخ وهي احدى معاقل الاسلام وفيها من امم الانام ما لا يدرك ضبطه سابق الاقلام بل يخرج عن حصر الاوهام ولا يحصيه الا الملك العلام وكان السلطان قد انشمر عنها كما ذكر الى نواحي طبرستان فوصل بتلك البحار الطاميه في ثماني عشرة وستمائه فخرج اليه الاعيان وطلبوا منه الامان فاجاب سؤالهم بما يصلح حالهم ثم اختشى من السلطان جلال الدين ابن المرحوم قطب الدين فلم يركن اليهم ولا عوّل عليهم فامر باراقة الدماء وهدم البناء واحاطهم بدائرة الفناء فافنوهم عن آخرهم وساروا بالحضيض بقاع عمائرهم ثم أرسل ولده تولى خان الى محاصرة طالقان فعصت عليه ولم تسلم قيادها اليه فاستمرت في الحصار مده واذاقها الباس الباس والشده الى ان أخذوها وأبادوا خلقها ودكوها ثم ان جنكزخان الكافر اخوان معدن الكفر والطغيان لما استوبل هواء خراسان فأوى الى بلاده وترك تولى خان من أولاده وولاه خراسان وهو محاصر طالقان وأقام في ممالك ايران من كفار امرائه أميران أحدهما يدعى سنتاى وهو من قبيلة الجغتاى والآخر يدعى يما وهو من الكفار اللؤما وترك معهما من الكفار الاراذل والتتار الاسافل ثلاثين ألف مقاتل فوصلا الى رواه ووضعا السيف في الائمة الهداه وابتدآ في القتل والنهب والفتك والسلب والقهر والاسر والقسر والكسر ثم أخذا في الائتلاف طريق الاتلاف وذهب كل منهما للاختلاف في الفساد على خلاف فصالا وجالا واوسعا في الدمار والبوار مجالا وخاضا في دماء المسلمين واجتهدا في اهلاك الاسلام والدين وخلا لهما الجو فباضا وصفرا وكان السلطان قطب الدين قد أخلى الدنيا من الملوك والكبرا فلم يثبت لهما مقابل فضلا عن مقاتل أو مقاتل فاهلكا الدين وابادا وتصرفا في نصرة الشرك على الاسلام كيفما أرادا

فاستخاصا بجوين وطوس واعدماما بهما من نفائس ونفوس وحام وخبوشان واسفراين ومازندران وآمل وقومس وتلك البلدان فمحوا من كتب كتابها اسطارها واطفؤا منارها واظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها واجروا من الفتن كالدماء بحارها واضرموا من الشرور نارها كل ذلك قتلا ونهبا وسبيا وسلبا وهدما واحراقا وصدما وازهاقا وردما واغراقا ثم بلغهم ان حريم السلطان جلال الدين فى قلاع آمل آمنين فقصدوها وحاصروها ورصدوها فقل ناصروها فاستولوا عليها ووصلوا كما أرادوا اليها فبقروا وفتكوا وبزوا وبتكوا وسبوا وسبكوا وسفوا وسفكوا وسكوا وشووا وغووا ولووا وعووا ومالرعووا ثم انهم صادفوا العكس الزمان وانقلاب الدهر على السلطان وسوء التدبير وشؤم الحظ المبير وهم فى بعض المسير من غير مخبر ولا معلم فى سدفة ليل مظلم حريم السلطان خوارزمشاه لامور قدرها الله مع والدته وجواريه وبناته وسراريه وكان اشد ما نابهم من الزمان قد ضاق عليهم المكان وتغير بل تنكر لهم الكون وقل عنهم النصير وقل العون وخافوا الابتذال بعد الصون فتركوا ما هم فيه من مكان وقصدوا البعد عن خراسان فتوجهوا الى اطراف اصفهان ومعهم من نفائس الاموال والجواهر وأنواع المفاخر والذخائر ومصونات الخزائن ومكنونات المعادن مالا يعلمه الا الله ومن الكنوز ما ينوء بالعصبة مفاتحه ومالم يجمع لسلطان قط ولا ضبطها قلم ديوان ولا خط فتباغتوا مواجهة وتواجهوا مباغتة وتباهتوا مشافهة وتشافهوا مباهتة فوقعن فى شبكة الصيد وأحاطت بهن دائرة الكيد وتورطن فيما فررن منه وتربطن باوهاق ما نفرن عنه وناداهن لسان الحظ وهاتف الطالع الفظ

وإذا أراد الله انفاذ القضا * وظهور قهر للبصائر باتلا
جعل الدواء لذاك داء ممرضا * وفوائد الترياق سما قاتلا
والكون خصما والمكان مناقضا * والعيش موتا والصديق مقاتلا

فلم يشعرن الا وقد وقعن من نيران الفتن فى تنور وتورطن من بحار المحن فى دردور وتبسمت الى بكائهن ثنايا البلايا وتكالمت على جباه مصابهن عقود الرزايا فظفرت حامية الكفر بذلك المغنم البارد ولم يصدر من حلقة صيده شارد ولا وارد فحازوا تلك المسترات ونزل الى حضيض قنصهم من سماء المناعة الشموس النيرات فهتكوا استارهن وخربوا ديارهن وضبطوا شعارهن ودثارهن وأحرزوا ما معهن من كنوز المعادن ونفائس المكامن وذخائر الخزائن ثم أضافوهن الى زبانية غلاظ واحتفظوا بهن اشد احتفاظ وساقوهن الى بلاد التتار مهتكات الاستار عاريات حافيات حاسرات ماشيات وامروهن ان يجمعن كل ليلة عندما ينشر الظلام ذيله فى كل منزلة وصباح كل مرحلة ويقمن على انفسهن العزا وينحن بما تقدم ويبكين بما جرى ويعددن على خوارزمشاه ويذكرن ما قدره الله عليه وقضاه وينعين ما كن فيه من النعم وما صرن اليه من الهوان والنقم وليدمن على هذه الطريقة حتى يقطعن من سفرهن طريقه ويصلن بجنكزخان على ذلك الامتهان والذل والهوان فيرى فيهن رايه من نكال ونكايه ورحمة وعنايه فامتثلن ما أمروهن به

فكن ينبهن النيام ويبكين المتنبه واستمررن على هذه الحال في الخزي والاذلال والمشقة والابتذال بعد ذلك الصون والدلال يصدعن بنحيبهن الجبال ويتقطرن بالنظر اليهن أكباد الصخور والتلال ثم ان تولى لما أخذ طالقان واهلك أهلها بسيف الطغيان ولم يدع فيها من يتنفس وهدم الى الارض بنيانها المؤسس توجه الى جانب من بلاد العجم واهلك ما شاء الله من خلائق وأمم فصار في أحدا بلوا تب بعث وكل من سناى الخبيث وعبا الكافر الخبيث في جانب بيد المسلمين ولا مغيث فدكوا قزوين وهمدان ومكوا اران وبيلقان واغاروا على ممالك اذربيجان وبلغهم ان السلطان جلال الدين له في سماس جماعة مجتمعين مقدمهم السلاحدار يكتمكين وفيهم من الاعيان كوجبوغا خان فتوجه اليهم بما قبد شمل أولئك الزعما وابادهم وفرقهم وشتتهم ومزقهم ثم أغاروا على غالب عراق العجم فأوسقوا القفار بالضرم وأوسعوا البحار بامطار الدم وملؤا الوجود بالعدم ثم قصدوا اردبيل وجعلوا أهلها ما بين أسير وقتيل وكانوا في أول المرور قد صالحوا أهل نيسابور وانتقلوا الى مرو منها وراودوا أهلها عنها فاغلقوا أبوابهم وأقلقوا جوابهم فخطموا عليها ودخلوا اليها وحكموا في أهلها السيوف وكان شهر الصيام ففطروهم على كاسات الحتوف ونقل الى جوار الله تعالى منهم المئين والالوف فضبطوا من امكن ضبطه من القتلى واستسعد بنيل الشهادة من الشهدا فكان ألف ألف تسعه وثلاثمائة ألف وثلاثين الفا مكرمه وكل هذه الفتنة والفتره في سنة ثمان عشره عامت الدنيا في الدماء عوما وكانت مدة نحو تسعين يوما ثم توجهوا الى شروان وافاضوا من بحار الدماء الطوفان ودخلوا من الباب الحديد واتصلوا من الدست بذلك الشيطان المريد فتيقظ الناس من الفكره وافاقوا عما كانوا فيه من السكره وتصوروا انها سحابة صيف انقضت او نسمة ازمنة هبت بارقة أو مضت ولكن احتاطوا واستعدوا وتحفظوا واستمدوا وحصنوا الحصون والمعاقل وجمعوا الجنود والجحافل فلم يكن باسرع من ايابهم وتعاطي ما كانوا عليه من دابهم والشروع في اعمال حرابهم بحرابهم وأخذهم في ضروب ضربهم وضرابهم واستقر تولي في ممالك العجم وهو أبو هلاكو الكافر الاغتم فوصلوا الى شيراز وقد استعدت للحصار واستمدت للمناوشة والنقار فاخذوها عنوة وزحفا وقتلوا منها ما امكن ضبطه سبعين ألفا ثم توجهوا الى طوس فازهقوا بها من نفوس ثم الى سائر القلاع بالحضيض واليفاع فاستولوا على الكل قهرا وأخذوه عنوة وقسرا وسعوا في احلال البوس وازهاق النفوس ثم الى موقان ولم يبقوا بها أحدا كائنا من كان وعم القتل المبير كل صغير وكبير ثم حل أولئك اليهود ببلدة نيسابور فكافحت بعدما كانت صالحت وتحصنت بعد ان اذعنت واعتمدت على عددها واستندت الى عددها وبرجالها استعانت بعد أن كانت قد دانت ولانت واستكانت وكان فيها من آلات الحرب ورجال الطعن والضرب ما لا يحصى ولا يبلغه الاستقصا فكان فيها من المجانق المرسلات الصواعق على اسوار الحصار ثلثمائة منجنيق أصغرها كالغضبان في المقدار خارجا عن المكاحل والمدافع المهلكات بالصواعق الصواقع ومن رماة القوس القصير المنفذ حكمه قاضي التقدير ثلاثة آلاف بطل كل ارمى من بني ثعل واما عدد

الضارب

الضارب والنابل والقاتل والمقاتل والرامح والناطح والصارع والقارع والحاذف والجارف والخاطف والقاطف والناهب والسالب ما الضابطون فيه تاهوا وما يعلم جنود ربك الا هو فوجه التتار الهمة اليها واخذوا كالقضاء المبرم عليها وحمى الوطيس وناطر بنفسه كل خسيس وبذل مهجته من الغزاة كل نفيس فقتل من أهل العدوان طغاجار خان زوج ابنة جنكزخان وكان من عتاة الكفار المعتبرين بين التتار فخنق العدو لذلك وسددوا المسالك وسمع بذلك تولى الكافر الموغولى وكان فى بعض الجوانب مشغولا بالدواهى والمصائب فقار دم قلبه وتاججت نيران كربه وتأسف لفقد ختنه وثار غبار احنه فتوجه من فوره بحنقه وجوره ونزل على نيسابور وحل بالبوار على أولئك البور وزحف بالعساكر وتقدم بالطعن والضرب كل كافر فلم تمض غلوه حتى أخذوها عنوه ودخلها من كفر من التتر يوم السبت خامس عشر صفر سنة تسع عشره وستمائة من الهجره واعطى تولى لاخته ذلك عوضا عن زوجها الهالك وقال لها تسلى عن ذلك المفقود بهذا الموجود وتحكمى فى أهل البلد بما ترتضيه من سرور ونكد وتصرفى فى الاموال والارواح فهما تريه فهو لك مباح فامرت ان لا يبقى على ذى روح وان تجرى السيول من الدم المسفوح فاطلقوا فى ميادين الحتوف اعنة صوارم السيوف فجدت جياد الجياد وبادت بجود الجد على اجياد الأجواد وصارت كألسن الشعراء النقاد تهيم من النظم والنثر فى كل واد فمحوا عن لوح الوجود بلسان شواظ السيف ذات الوقود سطور ذوات ذلك السواد الاعظم وكتاب كتائب تلك الخلائق والامم وزادوا فى الاشتطاط حتى قتلوا الكلاب والقطاط ثم أمرت ان تجمع رؤس أولئك الجمهور ويميز رؤس الاناث من الذكور فميزوا رؤس الرجال عن قم ربات الحجال وطرحوا كل كاشيه فى ناحيه فصارت الرؤس كروابى الجبال وتلك الدور والقصور كالاعصر الخوال ولم يخلص من قطع الارؤس سوى أربعة انفس كانوا من ذوى الحرف فجذبتهم المهارة من سفح بحر الفناء الى الطرف ثم ركبت تلك البسوس ووقفت على تلال الرؤس فلم تنطفئ نارها ولا برد أوارها وزعمت أنها لم تستوف ثارها وأن دود ترابها من علق تلك الامم ما تكفت وغيظة غيظها بزوائر السيوف ما تشفت واستغاثت بالرجال وصاحت بلسان الحال وانشدت

وهب ان النساء سللن سيفا * فصلن وجلن كالفحل الغيور
فزلزلن الجبال فطرن خوفا * يضاهين السحاب على الطيور
وصار لسفكهن البر بحرا * أيغنيهن ذلك عن الايور

فامرت بهدم البلد واحراق ما فيها من آلات وعدد فدكوها دكا وأعدموها سبكا وسفكا وتصرفت أيدى النوائب فيها فتكا وبتكا ثم ان تولى لوى العنان وقصد هراة من خراسان فاخذها بالامان ولم ينج من ذلك الطوفان سوى تلك الكوره واستقرت تحت أوامرهم مقهوره وامهات بلاد خراسان ومقر سرير السلطان كانت أربعة امصار كل ذات اعتبار جليلة المقدار نيسابور وقد صارت بور وبلخ قد كسيت من البوار ثوب سلخ ومرو الرود وقد انمحت من الوجود ولم يفز بالنجاه الا بلدة هراه وسائر الامصار شملها البوار ولبست من

خلع الذنور الدثار وكل منها مصر جامع وبرها بحر واسع وبحرها كصدر البرمداه شاسع
وأما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات فاكثر من ان تحصر أو تضبط بحساب دفتر
فابيد ذلك كله وابير فالحكم لله العلى الكبير كل ذلك فى ادنى مده واوهى رقده وماذكر
ذرة من طور وقطرة من بحور فسبحان من لا يسئل عما يفعل ثم ان جنكزخان الهامة
الهاميه والفتنة الطامة الطاميه لما علق به المرض وحصل له فى خراسان العرض رجع
الى بلاده واستمر مرضه فى ازدياده ولم يزل على ذلك حتى اورد سبيل المهالك وتسلم روحه
الخبيثة مالك وحين ايس من الحياه وقنط من رحمة الله جمع المعتمد عليه من أولاده المشاركين
له فى عتوه وفساده وهم جغتاى واوكتاى واوليغ نوين وجرجاى وكاكان واورجان
واوصاهم بوصايا وطرائق فى سياسة الرعايا حافظوا عليها وتناهضوا اليها فثبت لهم من
ملكهم اساس لم ينهدم واقام بنيانا الى يومنا لم ينخرم وعروش قواعد اركانها لم تنثلم مع كثرة
عددهم ووفرة مددهم وشكاستهم وشراستهم وشماستهم وتعاستهم وغلاظتهم وفظاظتهم
واختلاف اديانهم واتساع بلدانهم وهلك الطاغية جنكزخان وانتقل الى الدرك الاسفل
من النيران واستقر فى لعنة الله وعقابه واليم زجره وعذابه فى رابع شهر رمضان الشامل
بالفضل والاحسان والبركة النامية الهاميه سنة اربع وعشرين وستمايه فى سرة مملكه
المشوم واعظم امصاره ايميل وقوتان وقراقروم واستمرت بعده الفتن والشرور والمحن تغير
على ممالك الاسلام وتبير شعائر شرائع خير الانام وتثير غبار الافساد والمفسدين فى
وجوه سنة سيد المرسلين وتحصر جنود الاسلام وتقص جيوش العلماء الاعلام وتنقص
اطراف الارض وتنقض اركان الدين بعضها على بعض وناهيك يا مولانا السلطان بفتن
هلاكو بن تولى بن جنكزخان وبعده ابغا ابن هلاكو الذى تجبر وطغى وتكبر وبغا وبعده ابنه
ارغون وبعده ابنه قازان المفتون واستمرت بحار الفتن منهم تموج عليهم ومن جهاتهم الى
أن نبغ الاعرج تيمور فاهلك الحرث والنسل واختلط المباح بالبسل وحل بالعالم الباس
وفسدت أحوال الناس وانما ذلك كله بفساد الراس ومن جملة فتنهم وطعنهم فى ظعنهم
جالوا فى معركه وصالوا فى دست بركه فقتلوا فى مثل حرب البسوس وقطعوا فى ناحية من الروس
جملة اراد واضبط عددها بعد ان ابانوها عن جسدها فلم يقدروا ان يحصروها فرسم
لتلك البغاة سلطانها أن يقطع من الرؤس آذانها يقطعون من كل راس اذنا ولتكن الاذان
اليمنى فجدعوا آذان بعض الرؤس وشكوها وفى خيوط سلكوها ثم فى قلائد ربطوها وبعد
ذلك ضبطوها فكانت نحو مائتى ألف أذن مجدوده وسبعين ألف أذن معدوده وانما ذكرت
يا ملك الطير امثال ما جرى من الشر والخير وجلوت عن مرآة ضميرك المنير صورة ما صرف
الزمان المبير وما فعله من ملكه زمام الاقتدار وامهله سلطان السلاطين الذى يخلق ما يشاء
ويختار وصرفه فى بلاده وعباده وبين له طريق صلاحه وفساده واخبركم أيها الملوك
والحكام بامور كم فى دنياكم وجلا صور أحوالكم على أعين ابصاركم وبين مزاياكم فى
مراياكم فقال وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم
فيما آتاكم فانظر ما فى هذه السير من الحكم والعبر لتعلم ان الدنيا محل الغير ومحك العقول

والفكر

والفكر والحال بها هدف لسهام القضاء والقدر مبتلى بكل خير وشر ونفع وضر غافل عن مواقع الحذر آمن وهو على شرف الخطر مقيم وقد جدّ به السفر مناقش بما مضى من انفاسه محاسب على ذرّات ما اكتسبه مطالب بالقتيل والقطمير مما ارتكبه فلما وصل الجمل فى الكلام الى هذا المقام قبل العقاب بين عينيه وزاد قربه لديه وأفاض خلع الانعام عليه وقال صدق عليه أفضل الصلاة والتسليم حيث قال كلمة الحكمة ضالة كل حكيم ونطق بالحق من قال لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال فاهل التحقيق وذوو النظر الدقيق واقبوا المعانى ولم ينظروا الى القوالب والمبانى فان سليمان عليه السلام وهو ملك الجن والانام والوحش والطير والهوام والهوام ونبى مرسل وملك ذو فضل وسلطان الفصل بالعدل استفاد النصائح من نمله وجمع هدهد مع ملكة سبا شمله ويوجد فى الاسقاط مالا يوجد فى الاسقاط ولقد ينطق بالفوائد من هو كافر وجاحد فيؤخذ من أقواله ولا يقتدى بافعاله وقد قيل ان الحسن البصرى رحمة الله عليه دخل صبى مسجده وصلى بين يديه فرآه لا يتم سجوده ولا يرضى بصلاته معبوده فدعاه وخاطبه وانكر عليه وعاتبه وقال له تم سجودك ترض معبودك فقال يا شيخ المتقين هذه سجدات شخص من المؤمنين لو سجد احداها ابليس لآدم لما كان من الملعونين ولو سجدها فرعون مرة لكان من المسلمين ولم يصر من أهل العناد المطرودين ورأى يوما صبيا ومعه سراج وهو سالك فى منهاج فسأله عن ناره وما فيها من أنواره من أين اخذها وكيف اقتلذها فلم يجاوبه الا باطفاء السراج وسؤاله أين ذهب ذلك النور الوهاج قل لى أين ذهبت تلك الانوار اقل لك من أين جاءت تلك النار ثم ان العقاب ولى الجمل ما تحت يده من رقاب وقدمه على سائر الخدم وصنوف الطير وأجناسه من الامم وجعله الدستور الاعظم والوزير المقدم المكرم وفى هذا المقام امسك الحكيم حسيب عن الكلام وختم ما افتتحه من الحكم والاحكام بالدعاء والثناء والصلاة والسلام قال الشيخ أبو المحاسن المخجل بباديه امرأ القيس وابا فراس فلما انتهى الحكيم فى مقترحه وما قصده من بيان محاسنه وملحه الى هذا المحل وفصل من فضله ما أجمل من جمل نهض الوزير وقبل قدميه واعترف له بالفضل المنعم به عليه وانه مالك ازمة الانشاء وملك الكلام يصرفه كيف شاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وكما انه شيخ المنقول واستاذ المقول فمن أنوار الفاظه تستنير العقول ومن كنوز عباراته تستخرج جواهر المعقول واما اخوه الملك فطار بسروره به عن سريره واتخذه فى مهام أموره مقام أميره ثم أدت آراء فكرته ان يستعمل اخاه لكشف كربته ويمشى فى السعى بينه وبين اخوته لرتق ما انفتق وسد ما خرقه سيل الحسد فانبثق فامتثل أمره العالى ونهض بامر الله المتعالى وأنفق من جواهر افكاره فى سوق المناصحة الرخيص والغالى ورصع ما استخرجه من يواقيت تلك من عباراته بما يستعبد عقود اللآلى وتعاطى أسباب الاصلاح وساعده حسن النية وخلوص الطوية السعد والنجاح

وهذب فى الفضل مارتبه * ورتب بالفضل ما هذبه

واعجب ذا اللب ما شاده * فاثنى عليه بما اعجبه

واغرب فى السبق اشراقه * فلله ذا السعد ما اغربه
فما شذ بالصدق عن نصحه * ولا شذ خل لما شذبه

فاستمال الخواطر النافره واطفأ بزلال ألفاظه العذبة شواظ تلك النائره وسكن بنسيم الاطفائه قتام الاخلاق الثائره فاطمأنت القلوب وطهرت من غش الشحناء الجيوب وانصل بالمحب المحبوب وحصل الامن والامان ومساعدة الزمان ومعاضدة الاخوان ومصافاة الخلان وطيب العيش والمكان وأفضل من هذا جميعه شفقة السلطان والاستقامة على الاسلام والايمان ونسأل الله تعالى اتمام نعمه واسبال ذيل احسانه وكرمه واللطف فى القضا والعفو عما مضى والمعاملة باحسانه الجزيل وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الاطهار وصحابته الابرار من الاختان والاصهار والمهاجرين والانصار وسلم تسليما يطيب الاعطار ويمسك باذيال عرفه خياشيم الازهار فى الاسحار مادامت الاعصار ودارت الادوار وترادف الليل والنهار وحشرنا فى زمرتهم مع المصطفين الاخيار انه كريم ستار حليم غفار

(قال مؤلفه رحمه الله تعالى)

نمقه مؤلفه ولفقه مصنفه فقير عفو الله تعالى من غير تردد ولا تفكر ولا تعمق فى تدبر مع توزع البال أحمد بن محمد بن عربشاه الحنفى سامحه الله تعالى وعامله بما يرتضيه تفصيلا واجمالا لا بما يقتضيه عدلا وجلالا فى أواخر شهر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثمانمائة أحسن الله خاتمتها وعاقبتها وجعل آخرها خيرا من أولها بمنه وكرمه آمين

بعد حمد الله على آلائه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه يقول المتوسل الى مولاه بالجاه الفاروقى ابراهيم عبد الغفار الدسوقى خادم تصحيح كتب العلوم والفنون بدار الطباعه أعانه الله على مشاق هذه الصناعه

تم بعون مبدى الاشياء من حيز الخفاء طبع فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء للاديب الشهير الماهر النحرير من هو برعاية قوانين الحكمة وفى الفاضل احمد بن محمد الحنفى المكنى بابن عربشاه رضى الله تعالى عنه وارضاه وجعل الفردوس متقلبه ومثواه على ذمة الكامل الامثل والعمدة المحترم المبجل رب الاخلاق التى عن وضح الحسن تنبى السيد عبد القادر العقبى لازال قرير العين منتعش الروح والعين وكان طبع هذا الكتاب الظريف وتسهيل اقتنائه لكل دنى وشريف طبعة أخرى بالمطبعة الكبرى المتوفرة دواعى تجددها المشرقة كواكب سعدها فى ظل من تعطرت بطيب الثناء عليه الاندية وتضوعت بعاطر مدائحه الافنية رب المآثر التى لا تحصى والمحاسن التى لا تستقصى سلالة السراة الصناديد وارث الملوك الصيد الراقى بهممه الى كل مقام مشيد خديو مصر اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لازالت الايام بطلعة وجوده منيره وعيون الانام بكرمه وجوده قريره ولا برح ممتعا بانجاله الكرام واشباله الفخام لاسيما المشير الشهير الوزير الخطير رب المعارف المشهوره والعوارف المشكوره من هو باحسن الثناء حقيق سعادة محمد باشا توفيق رئيس المجلس المخصوصى ومن له بولاية العهد أوصى ثم سعادة لوز يرصنو الكمال ومظهر الجلال والجمال

مشير المعالى بدر الليالى جوهرى الفطنة والرويه سعادة حسين باشا ناظر الجهاديه ثم حضرة ناظر الاشغال من له فى ميدان الفضل افسح مجال حسن الصفات والاسم الحائز من حسن الصيت أوفر قسم ومن انتعش به البهاء انتعاشا دولتلو حسن باشا وكان طبعه الموثق وتمثيله المرونق مشمولا بادارة من أجابته المعالى بإيالة الداعى حضرة حسين بك حسنى ونظارة وكيله السالك جادة سبيله من عليه أحاسن اخلاقه تثنى حضرة محمد أفندى حسنى وملاحظة ذى الرأى المسدد أبى العينين أفندى أحمد وكان تمام تمثيله وكمال تصويره وتشكيله فى ذى القعدة ثالث الاشهر الحرم المباهين من سنة ألف ومائتين وتسعين من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف وكان كما يرى من الامام يرى من الخلف صلى الله وسلم عليه وعلى آله وكل منتسب اليه ما غردت القمارى واضاء البدر للسارى آمين

م

